

نفسية

سورة الأعراف

دراسة تحليلية - موضوعية

الدكتور أحمد نوفل



تفسير سورة الإسراء

دراسة تحليلية موضوعية

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/٥/١٥٥٢)

٢١٢ . ٦٨

نوفل. أحمد اسماعيل

تفسير سورة الإسراء: دراسة تحليلية موضوعية / أحمد إسماعيل نوفل
عمان: جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠١٣.
(٤٨٨ ص).

ر.ب.: ٢٠١٣/٥/١٥٥٢.

الواصفات: / الآيات القرآنية // تفسير القرآن // القرآن الكريم
الرقم المعياري الدولي: (ردمك) 3 - 28 - 571 - 9957 - ISBN 978

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن
رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية

من منشورات

جمعية المحافظة على القرآن الكريم

هاتف: ٤٦٢٨٣٣٤ ٦ ٩٦٢٢ - فاكس: ٤٦٢٨٣٣٦ ٦ ٩٦٢٢ +

ص.ب: ٩٢٥٨٩٤ - الرمز البريدي: ١١١٩٠

حسابنا لدى البنك الإسلامي الأردني / فرع الحسين (١٧٦٧١)

حسابنا لدى البنك العربي الإسلامي الدولي / فرع الحسين (١٠٢٠٠)

حسابنا لدى بنك الأردن دبي الإسلامي / فرع الشميساني (١٠٥٥٩٧)

عمان - الأردن

www.hoffaz.org

E-mail: hoffaz@hoffaz.org

المطابع المركزية
عمان - الأردن

تفسير
سورة الإسراء
دراسة تحليلية موضوعية

د. أحمد نوفل

الإهداء

إلى صاحب ذكرى الإسراء ومعجزة المعراج الذي أكرمه ربّه بالكرامة الكبرى.. النبوة.. ثم الرحلة العظمى، فطوى له الزمان والمكان، فبلغ أعلى مرتبة من القرب والمنزلة، فهو بعد هذا القرآن روح هذه الأمة ونبع حياتها وعزتها ونهوضها من كل عثرة وكبوة، فهو الذي أنهى الإفساد الأول لعدو الأمة الأول من حول المسجد الأول، والكتاب في ذكرى إسرائه أقدمه على استحياء. ثم إلى أصحابه الغرر أولي الشرف والقدر الذين كانوا معه في صنع معجزة التحول العربي والإنساني..

ثم إلى أحبائه الذين ينهون الإفساد الثاني.. وهذا وقت الإعداد لهذا الواجب.. حيث أن لمسرى النبي المسجد الأقصى أن يحزّر بأيديهم ودمائهم.

ثم من بعد إلى ثلاثة من النجوم نحسبهم عند الله:

أستاذي وشيخي الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس.

وأستاذي وشيخي الأستاذ الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني.

وواسطة عقد الأصدقاء أبو كمال فائق زهران، رحمهم الله..

ثم إلى خمسة هم زينة الأصدقاء، حفظهم الله من كل بلاء:

أبو يزن محمد زهران.

وأبو خالد وليد سيف.

وأبو عدنان أحمد سالم.

وأبو صلاح بهاء الدين الشنابلة.

وأبو أشرف عبد الكريم الحلواني.

شكر

أشكر جمعية المحافظة على القرآن الكريم لحرصها على إصدار هذا الكتاب، وحفزي بإلحاحها على هذا الإصدار في موعد ذكرى الإسراء: فواصلت الليل بالنهار تحت هذا الإصرار، ليكون هذا الإصدار، وقد كان بفضل الله.

ثم شكر لأمين عام الجمعية الأخ الدكتور سليمان الدقور على الاهتمام والرعاية والمتابعة والعناية.

ولفريق العمل والتدقيق والتصميم والمراجعة والطباعة، وأذكر منهم:

مجاهد أحمد نوفل.

إبراهيم محمد سليمان القاضي.

إسماعيل محمد سليمان حسين.

محمد إسحق البدارين.

تقديم

الحياة حلم، بكل ما تعني الكلمة.. وحلم حياتي أن أكمل تفسير كتاب الله، وقد كنت كتبت تفسير بعض السور على تباعد شديد في إخراج الكتب، وكتبت بعض الكتب في تفسير بعض الآيات.

وكتبت تفسير الأجزاء الستة الأخيرة للتعليم المدرسي، ثم بدأت بالمشروع الذي هو حلم الحياة، واستعنت الله وبدأت أكتب التفسير، وقطعت شوطاً لا بأس به في الكتابة الأولية، ثم اتصلت بي «جمعية المحافظة على القرآن» تستحثني على كتابة تفسير سورة الإسراء ليتزامن إخراجه مع المعجزة الكبرى رحلة الإسراء والمعراج، فتهيب وترددت لجسامة الأمر وضيق الوقت، ثم عزممت وتوكلت ومضيت، وأعان الله، فكان هذا الكتاب الذي تقرأه عزيزي القارئ.

وتزامن الذكرى.. ذكرى الإسراء هذه السنة والهجمة على المسرى أشد ما تكون، ومخططاتهم في تهويد الأقصى وتهديده غدت معلنة، والأمة في أضعف حال، والعالم الغربي المتشدد بحقوق الإنسان وحرية العبادة وحرية الأديان يرى حريتنا في العبادة في أقصانا تصادر ويمنع الأذان ولا تعليق من هؤلاء المجرمين، والحق لا يوخذ إلا غلاباً على كل حال! ويأتي متزامناً مع ذكرى النكبة ٥/١٥ بل النكبتين أعني ونكبة ٥ حزيران!

وقد بدأت الكتابة من المصحف مباشرة إلى الورق لا ألوي على شيء، بل أكتب ما يجيش به الصدر والفكر والخاطر، ويفتح به المولى، وبعد أن انتهيت منه على هذا النهج رجعت إلى بعض التفاسير في عدد من الآيات، ولم أمرّ على التفاسير وأعرج على ينابيع العلم مما أبدعته القرائح ذات المواهب في جميع الآيات حتى لا أطيل على القارئ وأثقل في زمان السرعة وطلب المعنى من أقصر الطرق.

وأعتقد أن لسورة الإسراء أولوية اقتضت أن أوقف لشهور جهدي في مسيرة التفسير لأتفرغ لمعاني هذه السورة، وقد قلت وكررت إن سورة الإسراء

كل آية فيها بل كل كلمة إعجاز ومعجزة واستشراف للمستقبل، وهي تقطع بكل كلمة فيها أن هذا القرآن كلام الله.. معجزة بيانية في التعبير.. وتحققاً في الواقع تراه العقول والعيون.

وعلم الله أنني منذ أربعين سنة ونيف، وهي السنوات التي تعايطت فيها التفسير، وأنا أردد ما أعتقد الحق في مفهوم الإفسادتين، ولست أسبق الناس إلى هذا، لكن بفضل الله من السابقين إلى هذا المعنى الذي هو عندي علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. إن شاء الله.

وقلت في تفسير هذه السورة إنها منهج واحد ووحدة موضوعية واحدة ألخصها في كلمتين مختصرتين: هذه السورة هي دستور النصر لأمة الإسراء على عدوها الأول أمة إسرائيل، ويشمل هذا الدستور التربية العقدية أو المنهج العقدي والعبادي والأخلاقي والاجتماعي والتوجيه المالي، والمنهج السياسي والتعبوي لهذه الأمة.

هذا هو الناظم الذي ينتظم آيات السورة، وأرجو أن تقرأها لا على أنها آيات متفرقة كل آية في اتجاه، معاذ الله، وإنما هي عقد نضيد وعنقود من المعاني، متشابك مترابط متداخل، على منهج القرآن الفريد الذي هو نسيج وحده، وسترى أن السورة ابتدأت بذكر موسى وإيتائه الكتاب، وختمت بذكر موسى وإيتائه الآيات، كما أن آخر كلمة في المسبّحات هي ذكر موسى كما في سورة الأعلى، خاتمة المسبّحات: ﴿صُحُفٌ إِزْهِيْمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى: ١٩)، فتأمل التناسق لا في سورة الإسراء وحسب، ولكن في المسبّحات بعامه، وستجد أنني خصصت عدداً من الصفحات لجهد في بحث «شبكة علاقات» سورة الإسراء بكل المسبّحات أولاً، وهي منظومة من سبع سور، ثم بعدد من السور وبُزِرت لماذا البحث في علاقة الإسراء بكل من هذه السور.

وعندي من هذه المقدمات، سوى العلاقات، ما يزيد على مئة صفحة، احتفظت بها، حتى لا أطيل وأثقل.

وقد يظن القارئ أنني أطلت، وفي الحقيقة فإني اختصرت جداً، وكنت أضع في ختام كل آية عدداً من الدروس كعينات لا أنها كل الدروس المستفادة.

وحرصت في كل آية أن أبدأ بتناسقها مع السياق والسباق، أي مع جو
السورة عموماً، ومع الآية السابقة لها على وجه التخصيص، وكنت أذكر
أحياناً وجهاً وأكتفي به لا لأنه كل شيء، ولكن طلباً دائماً للاختصار.

وبعد؛ فقارئ العزيز، فإن القرآن يجب أن لا يتوقف تفسيره.. بل على
العكس، يجب أن يتواصل عطاء التفسير، وأن يكون التفسير مرآة العصر
وقضايا العصر، ولذا فإذا كان التفسير لا يعكس قضايا الواقع، أفنظل ندور
في حلقة النحوق على جلالة قدر هذا العلم.. من هنا فإن كنوز القرآن تتكشف
أنأ بعد أن وزماناً بعد زمان، والحمد لله الذي أوجدنا في هذا الزمان،
صحيح أنه مليء بالثغرات والعثرات والخيبات، لكنه من جهة أخرى مليء
بتحقيقات آيات القرآن في الواقع، وأيلولة آياته كما قال القرآن ذاته: ﴿هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقد جاءنا الآن تأويله، فما حار
فيه الأقدمون علمناه لا لأننا أعلم منهم، ولكن لأننا شهدنا تحقق القرآن في
الواقع، فرأينا ما لم يروا.

فابن جرير وابن كثير وغيرهما إن فسّروا الإفسادتين بما فسّروهما
به من قول بأن الإفساد الأول أنها نبوخذ نصر أو بختنصر أو ما لا أدري،
والثاني أنها هديان أو تيطس والرومان، فهذا لا يتناسب مع ما تجلّى من
معاني القرآن.

أقول: معذور من الأقدمين من قال مثل هذا، وليس معذوراً ممن شهد
التجلي، تجلي المعنى في الواقع، إن استمر في النقل بلا تعقل لما يجري ويدور،
ألم يقل المولى العظيم سبحانه: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ
يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقد قلت -بفضل ربي وتوفيقه- إن كل نص قرآني عظيم، وضع ضمانته
حسن فهمه في ثاباه وفي داخله، وفي سورتنا هذه وقضيتنا المحددة:
الإفسادتين، فإن من أهم ضمانات الفهم والكلمة المفتاح هي كلمة: ﴿مَرَّتَيْنِ﴾؛
فإفساد بني إسرائيل لا يحصى ولا يحصر ولا يعد ولا يحسب ولا يعد،
فما دام القرآن حصره في مرتين فهما مرتان متعلقتان بهذه الأمة، بل أزيد

الأمر تحديداً، وهذا -بفضل الله- لم أقرأه في كتاب: هما مسجدان، ولبنى إسرائيل إفسادتان؛ فالإفساد الأولى من حول المسجد الأول، وأنهاها الرائد الأول والمؤمن الأول في هذه الأمة صاحب رحلة الإسراء، وإلا فما وجه أن ينتقل الحديث في السورة من الإسراء في آية الافتتاح إلى بني إسرائيل؟ أتتصور أنه بلا رابط؟ معاذ الله..

وأما الإفساد الأول فكونهم أول كافر بالقرآن والرسول ﷺ، وهم الذين حرّضوا على الإسلام ولقّنوا العملاء العرب ما يقولونه في وجه النبي ﷺ من الشبهات والأسئلة والادعاءات..

هذا الإفساد الأول والعلو الأول، ونهايته قلعهم من جزيرة العرب. والإفساد الثاني من حول المسجد الثاني، وهذا هو العلو الكبير الأعلى لهم، وأرجو أن يكونوا وصلوا النقطة التي منها يبدأ الانحدار والتدهور، وأمّتنا أن تكون وصلت آخر مطاف الهبوط إلى القاع الذي منه تبدأ رحلة الارتفاع، واني لأظنّ رحلة الربيع العربي هي الخطوة الأولى في طريق الألف ميل.. ولا يهولنكم الرقم، فالأهم «تحرق» المراحل، فما يطوى في عشرين سنة يطوى بالعزم في سنتين، أما رأيت كيف أن الرسول ﷺ غزا الدولة الرومانية في بضعة سنين من إقامته في المدينة؟ هل كان يخطر بالبال أو الخيال أو يخطر في الأحلام؟ لقد حصل وتحقّق.

وما أطلت الوقوف عند الإعجاز العددي، ولكني كنت أكتفي بالملاحظات والإشارات.

وقبل أن أغادر ما كنت فيه من موضوع الإفسادتين ألفت النظر إلى التدقيق في كل كلمة وبخاصة، ضمير المخاطب، مراداً به بني إسرائيل، ثم وقفة مهمة بها أحسم الأمر إن شاء الله أن الكثرة لم تُردّد لأحد إلا على أمة محمد ﷺ، فالكلام إذا متعلق بالأمة.

ونقطة حسّاسة أخرى بم يبيّشّرنا القرآن عندما قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّهِ هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩]. أَيْبَشِّرُنَا بشيء منبّت عن السياق؟ بالطبع لا، أَيْبَشِّرُنَا ببختصر؟ بالطبع لا، ولكنه يُبَشِّرُنَا بنصرنا على هؤلاء

المفسدين.

وأما الدخول الأول فهو الفتح الإسلامي في العهد العمري، وأما الإسراء ففتح روجي، وأما الفتح العمري فعسكري وسياسي.

ووقفت عند معجزة: ﴿وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ الإسراء: ٦ فقد تفوق اليهود على الجيوش العربية مجتمعة في كل المواجهات (كما تبدو لنا).

ووقفت ملياً عند ﴿أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وعند منهجية وترتيب خطوات الفتح القادم: ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾ ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ ﴿وَلِيُتَرَوُا مَا عَلَوْا تَبِيرًا﴾.

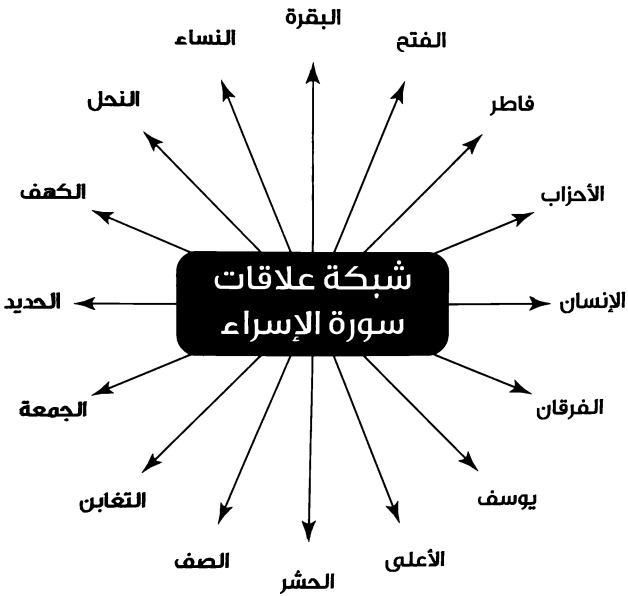
وكنيت أود أن أقف عند الرسم القرآني في كل كلمة، فهو وجه آخر من الإعجاز، لكنني اختصرت وألمحت فقط إلى رسم (الأقصا) بالألف الواقعة لا المقصورة، لعل الأقصى بإذن الله يظل واقفاً كألفه الواقعة، ومآذنه شامخة، وصوت أذانه مجلجلاً حتى تنقش غمة هذا الاحتلال وزوال الاختلال العربي. ومما استوقفني في السورة: قوله تعالى: ﴿لِنُفْسِدَنَّ﴾ ﴿وَلَنَعْلَنَّ﴾ فهم اتخذوا الإفساد سبيلاً العلو، وهذا مهم جداً للفهم، وأما فرعون فالعلو سبب الفساد، وهو أكثر منطقية منهم، وهم شر منه، وعجائب القرآن لا تنتهي: فضحية فرعون غدوا «أفرعن» من فرعون، وضحايا هتلر أضحوا أسوأ من هتلر!

وبعد، فأرجو ألا أكون أطلت في هذه المقدمة، وأرجو أن أكون بينت منهجي في هذا التفسير لهذه السورة الذي أرجو أن يكون جاء في وقته ليشعل شمعة في ليل اليأس وشعور الهزيمة.. فنحن منتصرون بهذا المنهج، وعدونا يوقن مثلما نحن موقتون أنهم مندحرون، وأنا منتصرون..

﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نِبَاهُهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص: ٨٨

د. أحمد نوفل

٢٠١٣/٥/٥م



أولاً: العلاقات ما بين سورة الإسراء وباقى السور المسبّحات

١ . الإسراء والحديد

٢ . الإسراء والحشر

٣ . الإسراء والصف

٤ . الإسراء والجمعة

٥ . الإسراء والتغابن

٦ . الإسراء والأعلى

مدخل

من البديهي والطبيعي أن نبحث العلاقة بين سور المسبّحات. فهي تجمعها فاتحة واحدة. مثلما أنه من الطبيعي بحث العلاقة بين سور الحمد. وكذلك سور (الر) وسور (حم) وهكذا.

فكل مجموعة من السور تنتظمها فاتحة معينة لا يمكن إلا أن يكون بينها علاقات. فهل تتوقع أن منظومة (ألم) خالية من العلاقات أو (الطواسين)؟

بالقطع لا. والبرهان بين يديك من خلال بحث علاقات السور المسبّحات!

السور المستباحات

ونعني بها السور السبع التي تبتدئ بالتسبيح. وهي سورة الإسراء والحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى. ولم تأت سورتان منها متتالية إلا الصف والجمعة، والباقي جاء متفرقاً. وتعليل ذلك أن الصف والجمعة تفيد الاجتماع، فكيف تتفرق سورتان وهما تتحدثان عن الاجتماع؟ وهذا بيان تفصيلي عن السور المستباحات:

٢	اسم السورة	رقم السورة	عدد آياتها	رقم الجزء	المجموع	ملاحظات
١	الإسراء	١٧	١١١	١٥	١٤٣	كل الأرقام فردية
٢	الحديد	٥٧	٢٩	٢٧	١١٠	نصف فردي ونصف زوجي
٣	الحشر	٥٩	٢٤	٢٨	١١١	الأرقام مناصفة
٤	الصف	٦١	١٤	٢٨	١٠٣	نصف فردي ونصف زوجي
٥	الجمعة	٦٢	١١	٢٨	١٠١	الأرقام مناصفة
٦	التغابن	٦٤	١٨	٢٨	١١٠	كل الأرقام زوجية
٧	الأعلى	٨٧	١٩	٣٠	١٣٦	نمط متفرد

المسبّحات وما بينها من علاقات

١- الإسراء والحديد:

أول المسبّحات سورة الإسراء وثانيها سورة الحديد . فماذا بين السورتين من وشائج وعلاقات؟

وهذا القرآن معجز في نصه وبيانه، وهذا أمر قد فرغ منه وحسم كما في سورة الإسراء نفسها: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ الإسراء: ٨٨، وهو معجز في نسقه واتساقه، إن في السورة وإن بين سورة وسورة، ومعجز في ترتيبه ومعجز في رسمه ومعجز في كل وجه، ودائماً نكرر: أعظم أوجه الإعجاز ألا تنتهي أوجه الإعجاز. وهذا حديث عن الإعجاز في النسق والترتيب: والآن لننظر إلى ما بين سورة الإسراء وثانيها وثانيها في المسبّحات: سورة الحديد . وأول قضية: القضية المحورية: محور سورة الإسراء ووحدتها الموضوعية وموضوعها الرئيس: الصراع، صراع أمة الإسراء مع أمة إسرائيل في أرض الإسراء، ومنهج النصر لأمة الإسراء على أمة إسرائيل، وتحرير المسرى وأرض الإسراء. هذا - فيما أرى - هو موضوع سورة الإسراء المحوري. فما علاقة هذا بسورة الحديد؟

أعتقد أن العلاقة واضحة بمجرد النظر في عنوان السورة، فكأن النسق ناطق بأفصح بيان يقول: إن منهج النصر وطريق التحرير هو طريق الحديد لا طريق الحرير، طريق الطاولات والمفاوضات والاتفاقيات ومعهادات السلام. هذا هو الطريق الخاطئ المخطئ بنص القرآن: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَزَ أَعْمَالَكُمْ﴾ محمد: ٢٥، وإشارات القرآن البليغة: الحديد بعد الإسراء. وثبت ذلك ببرهان التجربة والواقع. ومن لم تعلمه التجارب ففعله ذاهب وبيته خارب!

وملاحظة أخرى على النسق بين سورة الإسراء وسورة الحديد: أن سورة

الإسراء قلب المصحف من حيث التجزيء والأجزاء، فهي في بداية الجزء الخامس عشر أي بداية النصف الثاني من القرآن. وسورة الحديد في قلب المصحف من حيث عدد السور فهي السورة رقم ٥٧ فهي بداية النصف الثاني من المصحف من هذه الناحية. فسورة التسبيح الأولى في منتصف القرآن، وسورة التسبيح الثانية في منتصف القرآن. فكأن هذه المجموعة استأثرت بالقلب من وجهتين. أما الإسراء فقد حدث في منتصف مدة البعثة النبوية وهذا نسق آخر.

فهذه تصنيفات وتوسطات عديدة في الإسراء والحديد، فتأمل هذا الوجه! وملاحظة ثالثة: أن سورة الإسراء مفتتحة بالمصدر «سبحان» وسورة الحديد مفتتحة بالفعل الماضي «سَبَّحَ لَهُ»، وختام سورة الواقعة قبلها: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]. وستختتم المجموعة كلها بـ ﴿سَبِّحْ أَسْمَاءَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]. لكن لننظر الآن في الإسراء «والمصدر» والحديد واقتطعها بالفعل الماضي. والأصل هو المصدر والماضي يتبعه والمضارع ثم الأمر المفيد التنفيذ في المستقبل. هذا هو نسق المسبَّحات بالضبط: المصدر فالماضي فالمضارع فالأمر (سَبِّح). فتأمل!

وسورة الإسراء هي المصدر، فهي في عدد آياتها بمقدار جميع المسبَّحات الأخرى، وهي أولها وقائدها، فكأنها المصدر فتناسب، أن تفتتح بالمصدر فتأمل أيضاً!

وملاحظة رابعة: أن سورة الإسراء في فاتحتها ذكر نوح ﷺ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]. وفي خاتمة سورة الحديد ذكر نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، ولاحظ أيضاً أن الآية التي فيها ذكر نوح في الحديد بعدها ٣ آيات أيضاً. فتأمل!

وملاحظة خامسة: أن أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل بشكل أولي والنصارى - من أسف - تبع لهم في هذه النسبة وفي الواقع كذلك، وحتى في الكتاب المقدس كما يسمونه. فالعهد القديم وهو التوراة المحرفة سابقة للعهد الجديد

وهو الإنجيل. أقول: أهل الكتاب ذكروا في أول الإسراء وفي ختام سورة الحديد ﴿وَمَا تَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ الإسراء: ٢. وهي الآية الأولى بعد آية الإسراء.

وآية الختام في سورة الحديد: ﴿لَتَلْبَعْلَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ الْآفِيدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الحديد: ٢٩. وملاحظة أخرى ان الضمير العائد على ذي الجلال «هو» مذكور في الآية الأولى من كل من السورتين الإسراء والحديد: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإسراء: ١. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحديد: ١.

وملاحظة أخرى: أن سورة الإسراء فيها ذكر الأموال والبنين. وسورة الحديد فيها الأموال والأولاد، وهذه هي النصوص: ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ الإسراء: ٦. ﴿وَتَكَثَّرَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ الحديد: ٢٠.

وأيضاً، في سورة الإسراء والحديد ذكر فضل الله. واليك النص: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٢٩. ﴿لَتَلْبَعْلَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ الْآفِيدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الحديد: ٢٩.

وأيضاً في الإسراء والحديد ذكر القلوب وما عليها من أكنة وما يصيبها من قسوة، وهذا النص: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ الإسراء: ١٦. ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الحديد: ١٦.

في سورة الإسراء وسورة الحديد وبينهما من الروابط الشيء الكثير، ما عليك إلا أن تجيل النظر وتمعنه، وتدقق وترکز الفكر. وتأمل هذه النقطة: السورة التالية للإسراء هي سورة الكهف وفيها: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ الكهف: ٥٦. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف: ٥٤، وهي وأختها في مركز السورة أعني منتصفها، والسورة التالية لسورة: الحديد سورة «المجادلة»: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ المجادلة: ١.

وهل لاحظت أن ختام الآية الأولى يشبه ختام الآية الأولى في الإسراء، بل

إنه لم ترد «سميع بصير» في فاتحة سورة إلا فيهما. وأيضاً. فمن المشتركات بين سورتي الإسراء والحديد: «الأرض»، في أول السورة في كل، وكلمة «الحسنى» في السورتين، و «الحق» ظاهر في السورتين، والرحمة مذكورة في السورتين. وتركت لفطنتكم وتأملكم نقاطاً أخرى.

آخر مرات ورود كلمة «الحديد» في القرآن حسب ترتيب المصحف وكما هي في المعجم المفهرس هي في سورة الحديد. ويعقبها كلمة «حديداً» ولم ترد إلا مرة واحدة في سورة الإسراء فتكون في المعجم المفهرس متتابعة في مرات ورودها بين الحديد والإسراء. فإذا تجاوزنا المعجم المفهرس وترتيب الكلمات حديد، حديداً، فإن أول مرة تواجهنا فيها كلمة الحديد هي في سورة الإسراء وآخر مرة تواجهنا فيها هي في سورة الحديد، فكأن السورتين أحاطتا بالكلمة «الحديد» من أي وجهة نظرنا فيهما، فتأمل!

وورد في سورة الإسراء ﴿وَالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الإسراء: ١٠٥، وفي الحديد ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ الحديد: ١٦.

ومن أوجه التشابه بين الإسراء والحديد إضافة لما سبق:

١. ورد لفظ الجلالة في سورة الحديد (٢١) مرة وهي ثاني المسبحات، ووردت مشتقات لفظ (الرب) في سورة الإسراء (٢١) مرة وهي أولى المسبحات، وفي السورتين (الميزان والقسط)، وفيهما ذكر نوح ﷺ.
٢. سورة الإسراء تشير إلى الإسراء والمعراج، وفي سورة الحديد ذكر ﴿السَّمَاءَ وَمَا يَرُجُّ فِيهَا﴾ الحديد: ٤، والليل والنهار في كل، وفيهما: ﴿وَعَزَّكُم بِاللهِ الْعَزُورُ﴾ الحديد: ١٤، ﴿وَمَا يَعْذُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الإسراء: ٦٤.

٢- العلاقة بين الإسراء والحشر:

هذه هي السورة الثالثة من المسبّحات بعد الإسراء والحديد. وأرى أنها تفسر وتقتل الإفساد الأول والجزء الأول على هذا الإفساد الأول.. أو الحشر الأول بمعنى الإخراج عقاباً على الإفساد، والقرآن سماه أول الحشر في قوله في الآية الثانية من سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ الحشر: ٢، فالذين ذهبوا في الإفساد الأول مذاهب شتى، لا مجال لما ذهبوا إليه، فأحسن تفسير للقرآن ما كان من القرآن نفسه. فها هي سورة الحشر تفسر سورة الإسراء تفسيراً لا معدى ولا محيد عنه ولا مفر منه.

فأول الحشر أو الحشر الأول أو الإخراج الأول هو جزاء الإفساد الأول. وما كان مجرد رأي يحتمل، يصبح بتفسير القرآن مقطوعاً به، أو قريباً من ذلك. إذ يظل مجال أنه اجتهد في الفهم ولا حرج من عدّه كذلك. وقد تكلمت سورة الحشر عن حصون اليهود في أول السورة وفي وسطها: ﴿وَوَظَرُوا أَنْهَم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ الحشر: ٢. ﴿لَا يَقْدِرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ الحشر: ١٤. وهذا مرتبط ومبين وشارح للعلو الكبير الذي أشارت إليه الإسراء: ﴿وَلَنَعْلَنَ عَلَوًا كَبِيرًا﴾ الإسراء: ٤. فكيف يكون العلو دون تمكن اقتصادي وعسكري: وقد أشارت لذلك الإسراء: ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ الإسراء: ٦.

وذكرت ذلك الحشر، وقد ذكرنا البعد العسكري في الحصون، أما البعد الاقتصادي ففي قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾ الحشر: ٥. وقد ذكرت السورة ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ﴾ الحشر: ٦. هذا الذي فصلته السورة في صفحة كاملة أي ما يعادل ثلث السورة. فالسورتان مترابطتان.

وقد ذكرت الإسراء القرآن وفضله وإعجازه في مواطن ذكرت في هذه الصفحات من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء: ٨٨، وقوله

في ختام الحشر في ذات الموضوع: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر: ٢١.

وقد عقب على آية الإسراء بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ الإسراء: ٨٩، وقال معقباً في الحشر: ﴿وَيَذَلِكِ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر: ٢١، وفي ختام الإسراء عن القرآن ذكر السياق خشوع ﴿الَّذِينَ أَوْفُوا أَلْعَلَمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ الإسراء: ١٠٧ الذين ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ الإسراء: ١٠٩، وفي ختام الحشر خشوع الجبل من خشية الله: ﴿لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر: ٢١.

وتأمل هذا الوجه من التماسق بين السورتين: الإسراء والحشر: فقد ذكرت السورتان في ختامهما أسماء الله الحسنى، وأقرأ: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الإسراء: ١١٠. ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الحشر: ٢٢، ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحشر: ٢٤، وفي آخر الإسراء ﴿سُبْحَنَ﴾ الإسراء: ١٠٨، وفي آخر الحشر ﴿سُبْحَنَ﴾ الحشر: ٢٣، وفي آخر الإسراء ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ﴾ الإسراء: ١١١ و ﴿بَشْرِكُوتٍ﴾ الحشر: ٢٣، وذكر ﴿الْمَلِكُ﴾ في آخر الإسراء واسم ﴿الْمَلِكُ﴾ في آخر الحشر، وذكرت «القدس» ضمناً بذكر المسجد الأقصى في أول الإسراء، وذكر اسم الله «القدوس» في آخر الحشر.

ومن أوجه الاعتلاق بين السورتين كذلك: أن سورة الإسراء أمرت بإيتاء المال لأصحابه: ﴿وَمَا تَذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ الإسراء: ٢٦، وفي سورة الحشر ذات الأمر: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ الحشر: ٧. وكذا ذكرت السورتان تخريب بيوت المفتصبين المحتلين المعتدين من أهل الكتاب في بداية السورتين ﴿وَلِيَسْتَبْرَأْ مَا عَلَوْا تَتَبَرَأَ﴾ الإسراء: ٧. ﴿يُخْرِجُونَ يَوْمَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ الحشر: ٢. وحذرت السورتان الإسراء والحشر من الشيطان وأتباعه فقالت الإسراء: ﴿وَعَذَّبْنَاهُمْ مَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الإسراء: ٦٤. اقرأ الآية ٦١ - ٦٥.

وقالت الحشر: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ﴾ الحشر: ١٦، وحذرت

سورة الحشر من المنافقين الذين يوالون اليهود ويعاونونهم ويتحالفون معهم إلى حد القتال والنصرة ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ الحشر: ١١، والإسراء ذكرت معركتنا الفاصلة القادمة مع بني إسرائيل، ولأن السورة مكية فلم تذكر المنافقين، فكأن تحذير سورة الحشر منسحب على الموقفين والإفسادين وأن دور المنافقين سيكون محورياً في الحالتين أي الإفسادتين. ومن تأمل دور المنافقين في العصر الأول، وتأمل دورهم في مرة الإفساد الثانية التي نحيها. أدرك سر تركيز سورة الحشر على دور هؤلاء المنافقين المتماهين مع المحتلين المعتدين الغادرين الكافرين. ولقد عشنا ورأينا من صور ذلك الكثير.

٣- العلاقة بين سورة الإسراء والصف:

هذه السورة أي الصف هي الرابعة بين المسبّحات والثالثة والأخيرة من بين السور المفتحة بـ «سبح» بالفعل الماضي. وهي الثانية من حيث قصرها، فالجمعة هي الأقصر ١١ آية لحكمة واضحة أظنها الإشارة إلى قصر الخطبة. والصف ١٤ آية. وهي كما هو معلوم في القلب من السور المسبّحات يسبقها ٣ سور ويتلوها ٣ سور وهي مركزها ومحورها وقلبها جميعاً. وما كان لها هذا الموقع المتوسط، كواسطة العقد إلا للمحظ حكيم. وهو أن وحدة الصف بعد الإيمان أهم مقومات وركائز النصر.

ولاحظ أن المسبّحات حتى الآن أرقامها فردية ١٧، ٥٧، ٥٩، ٦١، والأخيرة هي الأعلى ٨٧، والباقيتان: الجمعة والتغابن أرقامهما زوجي: ٦٢، ٦٤. ولاحظ أن ثلاث سور: الأولى والثانية والسابعة تبتدىء بالرقم ٧ أعني أرقامها.

نعود إلى العلاقة بين الإسراء والصف:

فأولاً: سورة الإسراء هي سورة قتال دون ذكر كلمة «القتال» بل هي سورة النزال الأخطر، وسورة المواجهة الكبرى والمنازلة العظمى مع أخطر وأدهى أعداء الأمة: اليهود أو بني إسرائيل.

هذا هو جو سورة الإسراء وسورة الصف، سورة القتال، بل إن اسم الصف مأخوذ من جو القتال، فتناسبت السورتان. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُومٍ﴾ (الصف: ٤)، ﴿وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الصف: ١١)، ﴿نَضْرِبُ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (الصف: ١٣)، ولئن كانت قوة اليهود من معداتهم وحصونهم وقوتهم المادية والجدر (المادية والمعنوية) التي يقاثلون من ورائها أو من «ورائهم»، مع أن «قلوبهم شتى». فإن قوة المسلمين والمؤمنين الأولى بعد مدد الله لهم هي وحدة صفهم، بل إن معية الله تبتعد عنهم إن تفرق صفهم. فصار السبيل إلى معونة الله ومعية الله وحدة الصف لأن يد الله مع الجماعة. ولأنه ﴿وَلَا تَتَزَعَوْا فَنَفْسُكُمُ اللَّهُ وَتَذْهَبَ رِجَالُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦).

هذا أمر يضاف إليه أن الإسراء في أولها ذكر موسى والصف في أولها ذكر موسى. وكذلك فإن السورتين الإسراء والصف تضمنتا تبشير المؤمنين: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٩، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الصف: ١٣. وفي أول الإسراء ذكر بني إسرائيل وفي ختامها كذلك وفي الصف الأمر ذاته ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الصف: ٥، ﴿طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الصف: ١٤.

في سورة الإسراء رقي النبي ﷺ وارتفاعة إلى السموات العلى في الرحلة المعروفة وفي سورة الصف التبشير به ﷺ على لسان أخيه عيسى الذي رفعه الله إلى السموات، وهي آخر سورة يذكر فيها اسم النبي باسم «أحمد».

وأيضاً وردت «نصيراً» في الإسراء مرتين ووردت «أنصار» في الصف مرتين. وانتصار الحق وظهوره في السورتين: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء: ٨١، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ الصف: ٩. والظالمون ذكرتهم السورتان.

وغير هذا يمكن استخراجُه بالتأمل، فتأمل!

٤- علاقة الإسراء بالجمعة:

سورة الجمعة كما سلف هي السورة الوحيدة التي جاءت تلوها لأختها من المسبّحات، وما تبقى من المسبّحات جاء مفزّلاً. فبين الإسراء والحديد أربعون سورة، ثم ما بين مسبّحة وأختها سورة من خارج النسق، فبين الحديد والحشر المجادلة، وبين الحشر والصف الممتحنة، ولا شيء بين الصف والجمعة فهما نسق.

وبين الجمعة والتغابن سورة المنافقون وما بين التغابن والأعلى ٢٣ سورة^(١) فالفاصل الكبير إذاً بين الأولى والثانية وبين السادسة والأخيرة كما بينا، وما بين الأولى والأخيرة سبعون سورة. والآن نعود إلى العلاقة بين سورة الإسراء وهي الأطول ١١١ آية، وبين الجمعة وهي الأقصر ١١ آية. ولئن كانت الإسراء أول المسبّحات بإطلاق فالجمعة أول المسبّحات المفتحة بالمضارع وبعدها التغابن. ومن وراء افتتاح الجمعة بالمضارع ملحظ لعنا نوقف في إصابته، وأرى أنه تجدد الجمعة إلى يوم الجمع، فهي أي الجمعة لما كانت متجددة جاءت فاتحتها بالمضارع «يسبح».

والجمعة هي السورة الثانية والأخيرة في القرآن - بعد الحشر - التي تذكر اسم القدوس. وهذا هو وجه الربط الأول بين السورتين. وبين الإسراء والجمعة، فالإسراء افتتحت بذكر المسجد الأقصى الذي يرتبط بالقدس. وهذه السورة الجمعة فاتحتها اسم القدوس. فكأن الله تعالى اشتق لاسم القدس من اسمه القدوس، كما اشتق الرحم من اسمه الرحمن، كما ورد في الحديث. ولاحظ ارتباط الجمعة بكل ما سبقها من المسبّحات، فقد بينا الوجه الأول من ربطها مع الإسراء وربطها مع الحشر وافتتاحها باسم «العزیز الحكيم» تلتقي فيه مع الحديد والحشر والصف. وقوله تعالى فيها: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَنَأْتِلَحِقُوهَا بِهِمْ﴾ الجمعة: ٢. يرنو إلى قوله تعالى في الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ الحشر: ١٠. وأما علاقتها بالصف فقوله تعالى فيها أي في الجمعة:

(١) أظن أن دلالة الأرقام ٤٠، ٢٣ واضحة!

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ الجمعة: ٢ كأنه تحقيق للبشارة التي نقلتها سورة الصف عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَخَذَ﴾ الصف: ٦. وأما علاقة سورة الجمعة بالحديد. ففي ختام الحديد: ﴿لَتَلَقَّ يَوْمَ الْكُتُبِ الَّذِينَ لَا يُقِيمُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الحديد: ٢٩، وفي خواتيم سورة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الجمعة: ١٠. وأما علاقة الإسراء بالجمعة، فإن سورة الإسراء ذكرت موسى في فواتحها وإيتاءه الكتاب وتحمله لبني إسرائيل وجعله هداية لهم: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الإسراء: ٢، وسورة الجمعة تبين ما كان موقف بني إسرائيل من هذا الكتاب، وهل حملوه أم لا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ الجمعة: ٥، ثم إن سورة الإسراء هي سورة المواجهة مع بني إسرائيل، وسورة الجمعة تدلنا على أضعف نقطة ضعف في الشخصية الإسرائيلية إنها خوف الموت، فهم من خوف الموت في موت، وهي ذاتها أقوى نقطة قوة عندنا بعد إيماننا بالله وقدره ورسوله وكتابه واليوم الآخر، ومن هنا كان خالد سيف الله يقول للأعداء روماً وفسساً: جئكم بقوم يقوم بالموت كما تحبون الحياة. من هنا قالت سورة الجمعة متحدية لهم: ﴿قُلْ يَتَايَأُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦) وَلَا يَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧)﴾ الجمعة: ٦ - ٧. ثم إن الصراع مع بني إسرائيل طويل ويحتاج إلى إدامة التعبئة والتحشيد، وصلاة الجمعة التي شرعتها سورة الجمعة وخطبة الجمعة، هي أداة هذه التعبئة ووسيلة هذا التحشيد.

وأيضاً فإن سورة الإسراء ذكرت الصلوات مبتدئة بصلاة الظهر فقالت: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ أَشْمَسِ﴾ الإسراء: ٧٨. وصلاة الجمعة هي بديل صلاة الظهر: ﴿إِذَا نَادَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الجمعة: ٩ وفي السورتين الإسراء والجمعة: المثل. وفي ختام الإسراء: ﴿أَسْكِنُوا الْأَرْضَ﴾ الإسراء: ١٠٤، وفي ختام الجمعة: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الجمعة: ١٠. وفي الجمعة إلماح وإجمال

عن الآخرة، لقصر السورة، وفي الإسراء تفصيل للآخرة لطول السورة من ناحية ولشديد اهتمامها بالآخرة فهي عدة في الصراع مع هؤلاء المفتصبين المحتلين المدججين! وكلمة ﴿زَعَمْتُمْ﴾ وردت في الإسراء والجمعة.

٥- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة التغابن

١. السورتان مفتحتان بالتسبيح، وهذا ظاهر.
٢. ذكر الأرض في أوائل كل منهما.
٣. حدثنا فاتحة الإسراء عن أمة إسرائيل التي خلست من قبلنا، وقالت فاتحة التغابن: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَهُمْ عَنْ بَأْسِ أَلِيمٍ﴾ التغابن: ٥.
٤. فاصلة الآية الأولى في الإسراء حرف الراء، وفاصلة الآيات (١-٤) من التغابن حرف الراء وكذا الآية (٧-٨)، ١٠.
٥. في فاتحة سورة الإسراء اسم البصير (آية ١) وفي الآية ٢ من التغابن اسم البصير.
٦. في الإسراء تكرر زعم الكافرين إن لم يبعثوا واستغرابهم من ذلك، ففي الآية (٤٩) و(٩٨): ﴿إِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وفي التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ التغابن: ٧.
٧. في السورتين الاعتراض على بشرية الرسول ففي الإسراء ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ الإسراء: ٤٧، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ الإسراء: ٩٣، ﴿قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ الإسراء: ٩٤.
- وفي التغابن: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ التغابن: ٦.
٨. وفي السورتين التركيز على إنكار الكافرين ليوم البعث واستغرابهم من ذلك، ففي الإسراء: ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الإسراء: ٤٩، ٩٨، وفي التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ التغابن: ٧.
٩. وفي الإسراء: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ﴾ الإسراء: ٥٢، ﴿وَيَخْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الإسراء: ٩٧، وفي التغابن: ﴿يَوْمَ تَجْمَعُ كُلُّ لُؤْمٍ الْجَمْعِ﴾ التغابن: ٩.
١٠. في الإسراء: ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ الإسراء: ٩، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ التغابن: ٩.

١١. التوكل في السورتين: ﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ الإسراء: ٢، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ التغابن: ١٣.
١٢. التحذير من العدو بكل صور العداوة موجود في السورتين، وكلمة ﴿عَدُوًّا﴾ في الإسراء ٥٣، والتغابن ١٤ .
١٣. الأموال والبنون في السورتين: ﴿وَأَمْدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ الإسراء: ٦، ﴿الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ الإسراء: ٦٤، ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ التغابن: ١٥.
١٤. ﴿شُكُورٌ﴾ التغابن: ١٧، ﴿شُكُورًا﴾ الإسراء: ٣.
١٥. ﴿فِتْنَةٌ﴾ في الإسراء ٦، والتغابن ١٥ .

٦ - علاقة سورة الإسراء بالأعلى:

بدأت المسبّحات بالإسراء واختتمت بالأعلى، هكذا في ترتيب المصحف، وترتيب النزول أمر آخر. والملاحظ أن السورتين الوحيدتين اللتين فاصلتهما الألف هما الإسراء والأعلى، فالبدء والختام على هذا نسق من حيث الفاصلة وما يترتب عليها من جرس، وهما السورتان الوحيدتان المكيّتان. فابتدأت المسبّحات بالمكية واختتمت بالمكية وهذا وجه تتاسق آخر. وهما السورتان الوحيدتان المشتركتان في أن رقم السورة فردي وعدد آياتها كذلك: ١١١/١٧ - ١٩/٨٧. فهذا وجه آخر من التتاسق. وفي ختام الإسراء ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الإسراء: ١١٠، وفي ختام الأعلى ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ الأعلى: ١٥، وفي الأعلى ﴿قَدَرَ فَهَدَى﴾ الأعلى: ٣، وفي الإسراء ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى﴾ الإسراء: ٢، وفي الإسراء ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ الإسراء: ٩٤، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الإسراء: ٩٧، وفي الأعلى ﴿قَدَرَ﴾ الأعلى: ٣، وفي الإسراء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الإسراء: ٣٠، وفي الأعلى ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ الأعلى: ١٥، وفي الإسراء ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ﴾ الإسراء: ٤٦، وفي الأعلى ﴿وَيُسِرُّكَ لِلْيُسْرَى﴾ الأعلى: ٨، وفي الإسراء ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ الإسراء: ٢٨.

- الإسراء هي الأولى في المسبّحات والأعلى هي الأخيرة فيها ولكنها الأولى في النزول.
- في بداية سورة الإسراء ذكر موسى وآخر كلمة من سورة الأعلى موسى، فكان السورتين فاتحة كتاب بذكر موسى وختامة في الأعلى بذكر موسى. فتأمل.
- فاصلة الألف في السورتين ومكية السورتين.
- الآخرة والاهتمام بها في السورتين.
- سورة الأعلى ذكرت الصلاة وسورة الإسراء فصلت: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ الإسراء: ٧٨.
- في الإسراء: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ الإسراء: ١٨، وفي الأعلى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الأعلى: ١٦.

- في الإسراء: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الإسراء: ١٠، وفي الأعلى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ الأعلى: ١٧.
- ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ﴾ الإسراء: ١٤، ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) ﴿الأعلى: ١٨ - ١٩، ﴿سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنسَى﴾ الأعلى: ٦.
- في الإسراء: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ الإسراء: ٢٥، وفي الأعلى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ الأعلى: ٧.

ثانياً: علاقات سورة الإسراء ببعض السور القرآنية

- ١ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة البقرة
- ٢ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النساء
- ٣ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الأنعام
- ٤ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة يوسف
- ٥ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النحل
- ٦ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الكهف
- ٧ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الفرقان
- ٨ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النمل
- ٩ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الأحزاب
- ١٠ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة فاطر
- ١١ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الفتح
- ١٢ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النجم
- ١٣ . العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الإنسان

١- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة البقرة

مدخل:

ما كنت أتوقع أن أكتب هذه الكلمات، ولا أبحث في وجه الربط والاتساق بين سورة الإسراء وسورة البقرة، لولا أن « الأساس في التفسير » لشيخنا الشيخ سعيد حوى رحمه الله قد عرض لهذا، بل إنه ربط سورة البقرة بكل سور القرآن، فأحببت إحياءً لعاطر ذكراه، وانتهاجاً لنهج الذي رآه، أن أنقل عنه ما كتب من وجه علاقة بينهما، وأن أزيد بعض الأواصر والروابط، وأبدأ بما قال شيخنا:

قال تحت عنوان: كلمة في سورة الإسراء ومحورها: « بعد قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ﴾ البقرة: ٢١٠ يأتي قوله عز وجل: ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ﴾ البقرة: ٢١١ وكلتا الآيتين جاءت بعد قوله عز وجل: ﴿ يَأْتِيَهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٠٩) ﴾ البقرة: ٢٠٨ - ٢٠٩.

تأتي سورة الإسراء لتفصل آية: ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ﴾ البقرة: ٢١١.. فيما يخدم موضوع الدخول في الإسلام كله، وترك اتباع خطوات الشيطان - ومن ثم نلاحظ أن السورة تسمى سورة بني إسرائيل، وهذا يصل بسبب لقوله عز وجل: ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ﴾ البقرة: ٢١١، ونجد في آخر السورة قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ ﴾ الإسراء: ١٠١، وهو يصل بسبب إلى قوله عز وجل: ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ ﴾ البقرة: ٢١١، ونجد قوله عز وجل: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ﴾ الإسراء: ٥،

وهو يصل بسبب إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُدِلْ رِجْلَهُ إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ البقرة: ٢١١، ونجد في السورة قوله عز وجل: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتَنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِلْفِتْنِ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تُحَذِّرُكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَنا لَفَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) إِذَا لَا دَفْعَ لَكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ﴾ الإسراء: ٧٣ - ٧٥، وهو يصل بسبب إلى قوله: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ البقرة: ٢٠٨، وإلى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُدِلْ رِجْلَهُ إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ البقرة: ٢١١، ونجد في السورة: ﴿لَا حَتَمَ لَكَ ذَرْيَتُهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٦٣، وهو يصل بسبب إلى قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ البقرة: ٢٠٨. ثم ذكر الشيخ حديث البخاري في تسمية السورة « بني إسرائيل »^(١). والآن نزيد على ما أوجز شيخنا أكرمه الله، ونفصل:

١. في البقرة ثلث السورة عن بني إسرائيل، وأما الإسراء فاسمها وأولها وآخرها في بني إسرائيل.
٢. في سورة الإسراء ذكر داود عليه السلام، وفي سورة البقرة كذلك.
٣. في سورة الإسراء ذكر موسى عليه السلام، وفي سورة البقرة كذلك.
٤. في سورة البقرة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ البقرة: ١١٤، وقبلها بآية ذكر اليهود.. وفي سورة الإسراء يتركز الصراع حول المساجد وبالذات الأقصى الذي يسعى المجرمون في خرابه.
٥. التركيز على القيامة في السورتين.. فبينما ذكرت سورة البقرة ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ البقرة: ٤، ذكرت كل أركان الإيمان بصيغة: «يؤمنون».. اهتماماً بالآخرة، وكذا تجد في الإسراء.
٦. ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ البقرة: ٨٧. الإسراء: ٢.
٧. في أول سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ البقرة: ١١ - ١٢، وفي أول الإسراء: ﴿لَتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الإسراء:

(١) الأساس في التفسير للشيخ الأستاذ سعيد حوى. ج٦/ص ٢٠٢٤-٢٠٢٧. ط٦ دار السلام. القاهرة ١٤٢٤/٢٠٠٣ هـ.

٨. ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ١٩، ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ الإسراء.
٩. في البقرة: ﴿وَسَيُؤْمِنُ فِي طَعْنِهِمْ﴾ البقرة: ١٥، وفي الإسراء: ﴿وَأَمَدَدْتَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ الإسراء: ٦، ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ الإسراء: ٢٠.
١٠. في البقرة: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَى﴾ البقرة: ١٨، وفي الإسراء: ﴿عُمَيَّا وَبَكْمًا وَصُمًّا﴾ الإسراء: ٩٧، وسر العكس أن سورة البقرة تتكلم عنهم في الدنيا والإسراء في الآخرة، فانقلبت الصورة.
١١. في البقرة ذكر فرعون، وفي الإسراء كذلك.
١٢. ﴿شَهِيدًا﴾ وردت في السورتين، ولم ترد إلا في ١٢ سورة أخرى.
١٣. ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في السورتين.
١٤. ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ و ﴿الْكِتَابِ﴾ في السورتين.
١٥. ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ البقرة: ١٧٦، ﴿وَيُلَقِّقُ أَنْزَلَتْهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الإسراء: ١٠٥.
١٦. ﴿وَيُبَيِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ البقرة: ٢٥، ﴿وَيُبَيِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ الإسراء: ٩.
١٧. في البقرة: ﴿وَأَخْتَلَفَ الْأَيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ البقرة: ١٦٤، وفي الإسراء: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الْأَيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ الإسراء: ١٢.
١٨. في البقرة: ﴿وَالْفُلُوكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَافِعُ النَّاسِ﴾ البقرة: ١٦٤، وفي الإسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ الإسراء: ٦٧، ﴿وَحَمَلْتُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الإسراء: ٧٠.
١٩. في الإسراء: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ الإسراء: ٧١، وفي البقرة: ﴿وَإِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ البقرة: ١٢٤.
٢٠. في البقرة: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ البقرة: ١٢٤، وفي الإسراء: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ الإسراء: ٣.
٢١. في كلتا السورتين الكلام عن الرسل وتفضيل بعضهم: ﴿بَلَاكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى﴾ البقرة: ٢٥٣، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ الَّذِينَ نَدْنُو عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ الإسراء: ٥٥^(١).

(١) لا أريد أن ألفت النظر إلى الأرقام وأن مجموعها ١٠ في الموضوعين، أعني أرقام الآيتين.

٢٢. ذُكِرَتْ ﴿الْمَلَكَةِ﴾ في سورة البقرة ٧ مرات، وذكرت الملائكة في سورة الإسراء ٤ مرات.

٢٣. في البقرة: ﴿وَأَنَّىٰ أَمَالٌ عَلَىٰ حِيَةٍ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّىٰ السَّبِيلِ﴾ البقرة: ١٧٧، وفي الإسراء: ﴿وَأَنَّىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّىٰ السَّبِيلِ﴾ الإسراء: ٢٦.

٢٤. في البقرة التحدي أن يأتوا بسورة من مثل القرآن: ﴿فَأَنذَرْتُ مِن مِّثْلِهِ﴾ البقرة: ٢٣، وفي الإسراء حسم التحدي: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ الإسراء: ٨٨.

٢٥. في البقرة هذا النص: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ حَتَّىٰ﴾ البقرة: ٥٥، وفي الإسراء مثله: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ حَتَّىٰ﴾ الإسراء: ٩٠.

٢٦. قصة آدم عليه السلام وأمر الملائكة بالسجود، وإباء إبليس كل ذلك في السورتين.

٢٧. في ختام البقرة: ﴿فَأَنصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٢٨٦، وفي الإسراء النصر عليهم وهم أكفر وأخطر الأعداء.

٢٨. في السورتين البقرة والإسراء تفصيل لصور إفساد بني إسرائيل.

٢٩. في سورة الإسراء عن بني إسرائيل: ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾ الإسراء: ٧، وفي البقرة تفاصيل تحقق إساءة الوجه وكشف الحقيقة وفضح التاريخ الأسود.

٣٠. في السورتين أحكام القتل، أما في الإسراء فجاءت مجملة، وفصلت في البقرة على النحو التالي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ الإسراء: ٢٣، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ البقرة: ١٧٨ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ البقرة: ١٧٩.

٢- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النساء

مدخل:

ما الدافع والداعي لبحث علاقة سورة الإسراء والنساء؟ هل هو التشابه في الجُرس والأسماء: الإسراء والنساء؟ والجواب: لا. ولكن تجمعهما قضايا كثيرة، من أوائلها فاصلة الألف. وأن تتفرد السورتان بمسائل عديدة لم ترد إلا فيهما، فعبرة: ﴿وَعَايَيْنَا دَاوُدَ رَبُّورًا﴾ انفردت بها السورتان. وليس هذا كل ما في الأمر، إنما في الكلمات التالية بعض تفصيل:

١. أول سورة ذكرت «الإنسان» -حسب ترتيب المصحف- في القرآن سورة النساء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ النساء: ٢٨، وأكثر سورة ذكرت «الإنسان» في القرآن سورة الإسراء، فتأمل!
٢. قوله تعالى: ﴿وَعَايَيْنَا دَاوُدَ رَبُّورًا﴾ لم يرد في القرآن إلا في السورتين.
٣. السورتان فاصلتهما الألف.
٤. في سورة النساء النهي عن القتل ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ النساء: ١٠، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ النساء: ٩٣، وفي سورة الإسراء النهي عن القتل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ الإسراء: ٣١، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ الإسراء: ٣٣.
٥. وفي سورة النساء النهي عن أكل أموال اليتامى وكذا في سورة الإسراء: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ النساء: ٢، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ النساء: ١٠، وفي الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الإسراء: ٣٤، وفي النساء بلوغ الرشد ﴿فَإِنْ أَدْرَسْتُمْ وَأَنْتُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ النساء: ٦، وفي الإسراء بلوغ الأشد: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ الإسراء: ٣٤.
٦. في سورة النساء النهي عن فاحشة الزنا وكذا في الإسراء: ففي سورة النساء: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ النساء: ١٥، ﴿وَالَّذَانِ

- يَأْتِيَنَهَا مِنْكُمْ ﴿النساء: ١٦﴾ ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ ﴿النساء: ٢٤﴾
﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفُوحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ ﴿النساء: ٢٥﴾ ﴿فَإِنْ أَتَىكَ
يَفْجَشَرٌ﴾ ﴿النساء: ٢٥﴾ وفي الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى﴾ ﴿الإسراء: ٣٢﴾
٧. في سورة النساء عبارة: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾
﴿النساء: ٣٢﴾ وفي الإسراء: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿الإسراء: ٣٢﴾
٨. في سورة النساء قوله تعالى ممتناً على النبي ﷺ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ ﴿النساء: ١١٣﴾ وفي
الإسراء: ﴿وَلِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيََا إِلَيْكَ﴾ ﴿الإسراء: ٧٢﴾
﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَتَكَ لَفَدَكْتُ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ﴿الإسراء: ٧٤﴾
٩. في سورة النساء ذكر مواقيت الصلاة وفي الإسراء كذلك: ﴿فَإِذَا
قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ
فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ ﴿النساء: ١٠٣﴾
وفي الإسراء: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ عَسَىٰ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ
قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ﴿الإسراء: ٧٨﴾
١٠. «الكتاب والحكمة» تكررا في سورة النساء وفي الإسراء: في النساء:
﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ﴿النساء: ١١٣﴾ وفي الإسراء: ﴿ذَلِكَ
مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ ﴿الإسراء: ٣٩﴾
١١. ورد في السورتين الأمر بعبادة الله ثم الإحسان إلى الوالدين: ﴿وَاعْبُدُوا
اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ ﴿النساء: ٣٦﴾ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا
تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ ﴿الإسراء: ٢٣﴾ ويكاد النصان يكونان صورة
متطابقة فهما ثمان كلمات في كل، وحتى عدد الحروف يكاد يكون
واحداً. وأهم من هذا أنهما على نهج واحد عبادة الله ثم الإحسان
بالوالدين واليهما.
١٢. في سورة النساء الوصاة بذى القربى وكذا في الإسراء، وبعد ذلك
المسكين وابن السبيل. ﴿وَبِذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْبُجْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ﴿النساء: ٣٦﴾

﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الإسراء: ٢٦.

١٣. في سورة الإسراء ورد ذكر نوح وموسى وداود. وورد ذكرهم في سورة النساء.

١٤. في سورة النساء القتال دفاعاً عن المستضعفين ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ النساء: ٧٥ وكأنها صورة عن أهل فلسطين الواقعين تحت احتلال بني يهود في مرة إفسادهم الثانية في الأرض، حيث سيبعث الله عليهم بإذنه بتقدير الله وأمره ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ الإسراء: ينصرون هؤلاء المستضعفين وينهون المفسدين من أرض الطهر والبركة والقداسة، ويحررون المسرى الشريف.

١٥. في سورة النساء عن بني إسرائيل: ﴿أَمْ لَمْ نَصِيبْ مِنَ الْمَلِكِ إِذَا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ النساء: ٥٢، وهذا يقطع الأمل في سياسة المفاوضات التي تتناقض مع وعد الله للمؤمنين بقتال يهود، فكانت السورة أي النساء تكشف طبائع يهود ليحدد المؤمنون مسارهم كما في سورة الإسراء.

١٦. في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ النساء: ٣٦. والصورة ذاتها في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ الإسراء: ٢٧.

١٧. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ نص مشترك بين السورتين: في النساء آية ١٢٠ والإسراء ٦٤، بل لم يرد إلا في هاتين السورتين. وسياسة الشيطان وسياسة إسرائيل واحدة وهي وعد الغرور!

١٨. وردت ﴿وَكَيْلًا﴾ فاصلة في (٣) آيات في سورة النساء، ووردت فاصلة في الإسراء (٤) مرات.

١٩. وردت ﴿سَكِينًا﴾ فاصلة (٨) مرات في النساء، ووردت فاصلة في الإسراء (٤) مرات.

٢٠. ورد في السورتين ذكر المال وكيفية إنفاقه وترشيد هذا الإنفاق بلا إسراف ولا تقتير: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ النساء: ٢٧. ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ

النَّاسِ ﴿النساء: ٣٨﴾ ﴿وَمَا تَوْأَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿النساء: ٢﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ ﴿النساء: ٦﴾ ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ ﴿النساء: ٥﴾ ﴿وَفِي الْإِسْرَاءِ﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ﴿الإسراء: ٢٩﴾ وفيها: ﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا﴾ ﴿٣١﴾ ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿الإسراء: ٢٦ - ٢٧﴾.

٢١. وردت ﴿نَصِيرًا﴾ فاصلة (٧) مرات في النساء، ووردت كذلك فاصلة في الإسراء (٢) مرتين.

٢٢. وردت ﴿عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ فاصلة في الإسراء آية (٤) وآية (٤٣) ووردت ﴿عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ فاصلة في النساء آية ٣٤.

٢٣. وهل تعلم أن صيغة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾ لم ترد إلا في النساء والإسراء. في النساء الآية ٤٩، ٧٧ وفي الإسراء ٧١. (وردت تظلمون مرة ويظلمون مرة في النساء).

٢٤. ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ ﴿النساء: ١٠٤﴾ وهي استراتيجية في التعامل مع بني إسرائيل، ومن الوهن مسالمتهم، فلا سلم معهم.

٢٥. وكذا ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ ﴿النساء: ٧١﴾ في النساء، فهذا عدونا في فلسطين الإسراء ينبغي التعامل معه بحذر.

٢٦. ﴿أَسْلِحْكُمْ﴾ ﴿النساء: ١٠٢﴾ لم تذكر إلا في النساء، وما أحوجنا إليها في الإسراء لتحرير أرض الإسراء.

٢٧. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ ﴿النساء: ١٣٤﴾ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ ﴿الإسراء: ١٨﴾.

٢٨. تكرر ذكر الكتاب في السورتين.

٢٩. ختمت الإسراء بنفي الشرك وركزت النساء أن الشرك هو الذنب الذي لا يغفر.

٣٠. ﴿جَمِيعًا﴾ فاصلة في النساء ١٢٩، والإسراء ١٠٣.

٣١. ﴿تَنْبِيئًا﴾ ﴿النساء: ٦٦﴾ ﴿تَنْبِيئًا﴾ ﴿الإسراء: ٧٤﴾.

٣٢. ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ في النساء ٥٩، والإسراء ٣٥.

٣٣. ذكرت سورة النساء كلمة ﴿فَضْلِهِ﴾ (٤) مرات، وذكرتها الإسراء مرتين.

٣٤. وردت كلمة ﴿أَحْسَنُ﴾ في الإسراء والنساء ٣ مرات في كل.
٣٥. ورد في الإسراء ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ الإسراء: ٧ وورد في النساء ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ النساء: ١٢٨.
٣٦. وردت كلمة ﴿الْحَقُّ﴾ في النساء ٤ مرات وفي الإسراء كذلك.
٣٧. ﴿سَبِيلًا﴾ أكثر ما وردت في النساء والإسراء في القرآن كله.
٣٨. كلمة ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ وردت في النساء والإسراء ثانياً.
٣٩. كلمة ﴿سَعِيرًا﴾ وردت في الإسراء والنساء.
٤٠. كلمة ﴿كِتَابًا﴾ لم ترد إلا في النساء والإسراء.
٤١. كلمة ﴿عُرُورًا﴾ وردت في السورتين.
٤٢. كلمة ﴿الْقَيْمَةِ﴾ وردت (٤) مرات في كل من النساء والإسراء.
٤٣. كلمة ﴿عَفُورًا﴾ وردت في النساء والإسراء.

٣- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الأنعام

مدخل:

ما لفتنا إلى العلاقة بين الأنعام والإسراء هو وجود الوصايا العشر مشتركة بين السورتين، صحيح أن الإسراء زادت عليها، لكن تلك الوصايا ظلت مشتركة وبالتفصيل تظهر أوجه علاقة أخرى، إليك موجزها:

١. الإسراء والأنعام مكيّتان موضوعهما الرئيس التوحيد والنبوة والكتاب والمعاد، يعني جملة أركان العقيدة.

٢. السورتان عدد آياتهما فردي.

٣. الإسراء مفتوحة بالتسبيح ومختمة بالتحميد والأنعام مفتوحة بالتحميد.

٤. ذكرت السورتان كلا من الأنبياء: نوح وموسى وداود.

٥. ذكرت ﴿الصَّلَاةُ﴾ في كل.

٦. ﴿نُصِرْتُ الْآيَاتِ﴾ الأنعام: ١٠٥، ﴿صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الإسراء: ٤١.

٧. ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ الأنعام: ١٢٢، ﴿وَلِأَخِرَةٍ أَكْبَرُ دَرَجَةٍ﴾

الإسراء:

٨. نفي إنزال الآيات المادية في السورتين: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ

أَسْطَقَتْ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ الأنعام: ٢٥،

وفي الإسراء ٥٩: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾

الإسراء: ٥٩.

٩. الليل والنهار في السورتين.

١٠. الاستماع للقرآن من قبل المشركين: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ الأنعام: ٢٥، وفي الإسراء: ﴿وَإِذَا

فَرَأَتِ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (١٥)

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ الإسراء: ٤٥ - ٤٦.

١١. عدد حروف اسم السورة ٧ في كل.

١٢. ادعاء البنات لله في كل من السورتين: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأنعام: ١٠٠، ﴿أَفَأَصْفَكَ رُتُوبَكُمْ بِالْبَنِينَ وَالنَّحْدِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّا﴾ الإسراء: ٤٠.

١٣. الوصايا العشر مشتركة بين السورتين.

١٤. ﴿أَلَا تَتُوبُونَ إِلَهُ شَيْئًا وَيَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ الأنعام: ١٥١، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ الإسراء: ٢٣.

١٥. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ أَمْلَيْتُمْ تَحْنُ نَزْفُكُمْ وَإِنَّكُمْ﴾ الأنعام: ١٥١، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَزْفُكُمْ وَإِنَّاكُمْ﴾ الإسراء: ٣١.

١٦. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ الأنعام: ١٥١، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ الإسراء: ٣٢.

١٧. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ نص مشترك: الأنعام ١٥١، والإسراء ٣٣.

١٨. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ نص مشترك: الأنعام ١٥٢، والإسراء ٣٤.

١٩. ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ في السورتين، الأنعام ١٠٠، والإسراء ٤٣.

٢٠. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظِلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَحْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الأنعام: ٦٣، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الإسراء: ٦٧.

٢١. ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ نص مشترك، في السورتين.

٢٢. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ الأنعام: ٥٠، ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ الإسراء: ١٠٠.

٢٣. الآية الأخيرة في السورتين ٢١ كلمة.

٢٤. ﴿أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الأنعام: ٩٨، إشارة إلى قصة آدم، وفي الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الإسراء: ٦١.

٤- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة يوسف

مدخل:

ربما يكون مبرر بحث العلاقة بين سورة يوسف وسورة الإسراء قريب المنال واضح المثال، فسورة يوسف تعرض قصة تكوين ونشأة أمة إسرائيل «بنو إسرائيل»، وسورة الإسراء تعرض طغيانهم كطغيان الذين سبقوهم وجريان سنة إدالة سلطانهم كما جرت على من قبلهم.. فسورة الإسراء تعرض نهاية بني إسرائيل. أضف إليه تشابه السورتين في عدد الآيات، وقد وجدت أنه لا تتشابه سورتان في عدد الآيات إلا وكان بينهما أو بينها علاقات. فإلى بيان وجه العلاقة:

١. السورتان مكيّتان نزلتا متقاربتين في أواخر العهد المكي.
٢. السورتان كلتاها ١١١ آية، تتحدث الأولى «يوسف» عن نشوء أمة إسرائيل، وتتحدث الثانية عن علوّ وعتوّ أمة إسرائيل ونهايتها.
٣. في سورة يوسف قال العزيز عن يوسف: ﴿أَوْ نَخِيذْهُ وَلَدًا﴾ يوسف: ٢١، وفي الإسراء نفي أن يتخذ الله ولداً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا﴾ الإسراء: ١١١.
٤. أول موارد كلمة ﴿سُبْحَنَ﴾ في القرآن في سورة يوسف آية ١٠٨، وفاتحة وأول سورة الإسراء ﴿سُبْحَنَ﴾ وآخر مرة وردت فيها ﴿سُبْحَنَ﴾ في سورة الإسراء كانت في الآية ١٠٨.
٥. وردت ﴿الْأَرْضُ﴾ ١١ مرة في الإسراء، ووردت ٨ مرات في يوسف.
٦. ذكر ﴿الْكِتَابُ﴾ في أول سورة يوسف وأول سورة الإسراء.
٧. في سورة الإسراء قوله عز وجل: ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾ الإسراء: ٧ أي يكشفوا حقيقتكم، وسورة يوسف كشف حقيقة بني إسرائيل وطبيعتهم وأخلاقهم من خلال حسدهم لأخيههم وكيدهم له ونيبتهم قتله.
٨. ﴿وَنَحْنُ غَضَبَةٌ﴾ يوسف: ٨، كأنها تذكرنا بما في أول سورة يوسف: ﴿أَوَّلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ الإسراء: ٥٠، ﴿أَكْثَرُ نَفِيرًا﴾ الإسراء: ٦.

٩. قوله عز وجل في سورة يوسف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ يوسف: ١٠٩، يذكّرنا بقوله عز وجل في الإسراء: ﴿هَذَا كُنْتُ إِلَّا بُشْرًا رَسُولًا﴾ الإسراء: ٩٣، وقوله على لسان الكافرين يسألون: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بُشْرًا رَسُولًا﴾ الإسراء: ٩٤.
١٠. قوله عز وجل في سورة يوسف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ يوسف: يذكّرنا بقوله عز وجل عن الإنسان إذا مسه الشر ﴿كَانَ يُوَسِّسُ﴾ الإسراء: ١١.
١١. قوله عز وجل في سورة يوسف ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ يوسف: يذكّرنا بقوله عز وجل عن صلاة المغرب والعشاء: ﴿إِلَىٰ عَسَىٰ أَيْلٌ﴾ الإسراء: ٧٨.
١٢. قوله عز وجل في سورة يوسف: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يوسف: ٥، مطابق لقوله عز وجل في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ الإسراء: ٥٣.
١٣. في سورة يوسف عهد وميثاق قطعه الإخوة على أنفسهم بحفظ يوسف وإسعاده، وذكروا بعضهم به: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ يوسف: ٨٠، وفي سورة الإسراء تذكير بالوفاء بالعهد: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء: ٣٤.
١٤. صحيح أن سورة يوسف لم تتحدث عن فرعون، لأنها حصلت في مصر في غير زمن الفراعنة، ولكن سورة الإسراء ذكرت فرعون مرتين، فهي تشترك مع سورة يوسف في كونهما أشارتا إلى مصر.
١٥. ﴿جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ يوسف: ٩٦، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٩.
١٦. في سورة يوسف عد مرات إشارة إلى مجيء بني إسرائيل، أي إخوة يوسف: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ يوسف: ٥٨، ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ يوسف: ١٠٠، ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ يوسف: ٦٧، ولعل في الإسراء ما يلتقي مع هذا المجيء في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ الإسراء: ١٠٤.

١٧. في فاتحة سورة يوسف حديث عن إنزال القرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يوسف: ٢، وفي ختام سورة الإسراء حديث عن إنزال القرآن: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الإسراء: ١٠٥.
١٨. قوله عز وجل: ﴿لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ الإسراء: ٤، مذكّر بقول إخوة يوسف وهم بنو إسرائيل: ﴿مَا جِئْنَا لِنُقْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ يوسف: ٧٣.
١٩. كلمتا سورة يوسف عن الغيب الماضي: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يوسف: ١٠٢، بينما حدثتا سورة الإسراء عن الغيب المستقبلي، وهو ما سيقع من فساد بني إسرائيل.
٢٠. ﴿تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ﴾ يوسف: ٦ واحد من محاور سورة يوسف، وتأويل الإفسادين محور فهم سورة الإسراء.
٢١. كلمة ﴿خَزَائِنِ﴾ وردت في السورتين، وجاءت في المعجم المفهرس تباعاً أي أنه لم يفصل بينهما بسورة.
٢٢. كلمة ﴿الْفَرِّ﴾ وردت في يوسف والإسراء.
٢٣. كلمة ﴿الْكَيْلِ﴾ لم ترد في القرآن إلا في يوسف والإسراء والشعراء.

٥- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النحل

مدخل:

من الطبيعي والبديهي أن نبحت علاقة سورة الإسراء بالنحل فهي جارتها السابقة عليها، ونظرتي -بفضل الله- بحسب تعبيرتي في «التوأمة بين السور» أن كل سورتين جارتين تشكلان نسقاً واحداً، وشبكة علاقات واضحة لا تخطئها العين.

ولعل من أوضح أوجه الشبه القائم على التضاد الذي به تتمايز وتُعرف الأشياء هذا الوجه التالي: سورة النحل تتحدث عن مملكة الخير والفضرة والجمال والتسخير والتعاون، وتنتج ما فيه الشفاء للناس كل الناس. وسورة الإسراء أو سورة بني إسرائيل كما في البخاري وغيره، تقوم على محور الصراع بين مملكة السماء في الأرض أعني الأمة الإسلامية، من ناحية، ومملكة الشيطان والفساد والإفساد والشر والرديلة والعدوان والبغي والظلم والتعاون على الإثم والعدوان التي تنتج الشقاء للناس. وإلى التفصيل الآن:

١. ختمت النحل بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وافتتحت الإسراء بحادث الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]. وإنما كانت رحلة الإسراء مواساة لهذا الرسول العظيم والعبد الذي أحسن الدعوة إلى الله فكان الله معه، وكانت رحلة الإسراء.

٢. في خواتيم سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، وفي فاتحة الإسراء قصة موسى حفيد إبراهيم مع بني إسرائيل، وكيف تشكلت الأمة به ومن خلاله، فكانه أيضاً كان أمة: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

٣. الشكر في خواتيم النحل والشكر في فاتحة الإسراء: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَحْبَبْنَاهُ﴾ [النحل: ١٢١]، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

٤. ختام النحل حديث عن «أصحاب السبت» (١٢٤)، وفي فاتحة الإسراء

- حديث عنهم ﴿وَفَضَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الإسراء: ٤.
٥. في ختام النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ النحل: ١٢٦، وفي فاتحة الإسراء رد الكثرة وهي نوع من المعاقبة وتعاقب الأدوار: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الإسراء: ٦ ومعاقبنا لهم بأمر الله على الإفسادين.
٦. الإحسان في خواتيم النحل وفواتح الإسراء. ﴿وَجَدِلْتُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل: ١٢٥، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ النحل: ١٢٨، ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ الإسراء: ٧.
٧. في أول آية في النحل: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ النحل: ١، وفي أول آية في الإسراء: ﴿سُبْحَنَ﴾ الإسراء: ١.
٨. النهي عن العجلة ﴿فَلَا تَسْعَوْهُ﴾ النحل: ١ في أول آية في سورة النحل، وفي أوائل الإسراء: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ الإسراء: ١١.
٩. في النحل: ﴿السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ النحل: ٧٨، وفي الإسراء: ﴿السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ الإسراء: ٣٦.
١٠. في النحل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ النحل: ٩١، وفي الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء: ٣٤.
١١. في النحل: ﴿وَإِنِّي ذِي الْفُرْقَانِ﴾ النحل: ٩٠، وفي الإسراء: ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْنَيْنِ﴾ الإسراء: ٣٦.
١٢. في النحل: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ النحل: ٧١، وفي الإسراء: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الإسراء: ٢١.
١٣. في النحل القرية التي أذاقها الله لباس الجوع والخوف.. ١١٢، وفي الإسراء القرية التي دمرها الله.. ١٦، وفيها كذلك: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرَبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الإسراء: ٥٨.
١٤. ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ وردت مرتين في كل من السورتين.
١٥. وردت ﴿الْفَيْصَةِ﴾ ٤ مرات في كل من السورتين.
١٦. وردت ﴿قَالُوا﴾ ٤ مرات في كل من السورتين.

١٧. ﴿أَقْرَبُ﴾ وردت مرة في كل من السورتين. و ﴿الْقُرْنِ﴾ مرة كذلك.
١٨. كلمة ﴿الْعَهْدِ﴾ وردت مرتين في كل من السورتين.
١٩. في النحل والإسراء «البشرى»: ﴿وَيُبْرِئُ لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل: ٨٩. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٩٠.
٢٠. ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ﴾ الإسراء: ٤٥، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ﴾ النحل: ٩٨، بل إن مادة «إذا قرأت» لم ترد إلا في السورتين.
٢١. «الروح» وردت في السورتين، النحل آية ٢، ١٠٢، والإسراء ٨٥.
٢٢. تحدثت سورة النحل عن «الإنسان» وأنه ﴿حَصِيرٌ مُّيِّنٌ﴾ النحل: ١٠٠. وتحدثت الإسراء عن «الإنسان» وذكرت عجلته وتقصيره، وذكرت أيضاً مواقف عديدة لجدل الإنسان.
٢٣. في النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ النحل: ٩٨، وفي الإسراء: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ الإسراء: ٤٥.
٢٤. في النحل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّجْدِلَةٌ عَنْ نَفْسٍهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ النحل: ١١١، وفي الإسراء: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الإسراء: ١٤.
٢٥. في النحل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ النحل: ٧٤، وفي الإسراء: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ الإسراء: ٤٨.
٢٦. في النحل ذكر الوعد الحق: ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ النحل: ٢٨، وفي الإسراء: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ الإسراء: ١٠٨.
٢٧. البحر والفلك في كل من السورتين.
٢٨. ﴿وَسَرَّيْلٌ تَقِيكُمْ بِأَسَاكِمُ﴾ النحل: ٨١، ومضمون سورة الإسراء الصراع الذي يحتاج هذه السراويل، وفيها البأس على كل حال ﴿أُولَىٰ بِأَسْسٍ شَدِيدٍ﴾ الإسراء: ٥.
٢٩. وردت كلمة ﴿أَحْسَنُ﴾ في النحل والإسراء ٣ مرات في كل.

٦ - العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الكهف

مدخل:

تبرير البحث هين، وتبيين الدافع لكتابة هذا المدخل بين يدي أوجه الشبه قريب مقنع بإذن الله. فالسورتان توأمان جارتان مفتحتان بالتسبيح والتحميد، ثم ذُكر العبد الذي أنعم الله عليه بالإسراء إذ صعد هو إلى السماء، وبنزال القرآن كما في سورة الكهف نازلاً إليه من السماء.

وهل ننسى أن أول نزول القرآن كان على النبي ﷺ في الكهف أي في غار حراء، فتأمل المناسبات رعاك الله.

١. السورتان مكيتان. الأولى رقمها ١٧ وآياتها ١١١، والثانية رقمها ١٨

وآياتها ١١٠. ومجموع الأرقام في الحالتين ١٢٨.

٢. آخر آية في الإسراء: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي﴾ الإسراء: ١١١، وأول آية في الكهف هي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي﴾ الكهف: ١.

٣. أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء: ١، وأول سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ الكهف: ١.

٤. رقم «٩» تكرر في السورتين: ﴿تِسْعَ آيَاتٍ﴾ الإسراء: ١٠١، وفي الكهف قوله عز وجل: ﴿ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ الكهف: ٢٥.

٥. في السورتين ذكر موسى ﷺ.

٦. في السورتين ذكر البحر.

٧. السورتان فاصلتهما الألف.

٨. كلمة ﴿قُلْ﴾ هي أول الآية الأخيرة في كلا السورتين.

٩. الآية الأخيرة في السورتين تضمنت التوحيد ونفي الشرك: ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ الإسراء: ١١١، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الكهف: ١١٠.

١٠. الآية قبل الأخيرة أولها «قل»: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ﴾ الإسراء: ١١٠، ﴿قُلِ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾ الكهف: ١٠٩.

١١. في ختام الإسراء إنزال القرآن، وكذا في أول الكهف: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الإسراء: ١٠٥، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ الإسراء: ١٠٦، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ الكهف: ١.
١٢. في الآية الخامسة من ختام سورة الإسراء ذكر العلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الإسراء: ١٠٧، وفي الآية الخامسة من أول الكهف ذكر العلم: ﴿مَّا لَمْ يَهْتَدِ مِنْ غَيْرِ﴾ الكهف: ٥٥.
١٣. كلمة ﴿الْأَرْضِ﴾ تكررت في الإسراء ١١ مرة، وفي الكهف ٨ مرات.. لاحظ أن عدد آيات الإسراء ١١١ ورقم الكهف ١٨.
١٤. البأس الشديد ذكر في السورتين في أولهما: ﴿عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ﴾ الإسراء: ٥٠، ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَدُنْهُ﴾ الكهف: ٢.
١٥. ﴿الشَّمْسِ﴾ مذكورة في السورتين.
١٦. في سورة الإسراء تكرر استغراب المشركين من البعث: ﴿أَوَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الإسراء: ٤٩، وفي سورة الكهف ساق الله الدليل على قدرته على البعث.
١٧. في الإسراء طلب المشركون أن يكون للنبي جنة: ﴿مِنْ تَحْتِلِ وَعَنْبٍ﴾ الإسراء: ٩١، وفي الكهف ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفَتْ بِهَا نَجِيلٌ﴾ الكهف: ٣٢.
١٨. في الإسراء: ﴿فَنَفْجِرُ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ الإسراء: ٩١، وفي الكهف: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ الكهف: ٣٣.
١٩. في السورتين ذكر آدم وإبليس، وتبتدئ السورتان قصة آدم من حلقة السجود.
٢٠. كلمة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ في السورتين.
٢١. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ الإسراء: ٥٢، وفي الكهف: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾ الكهف: ٥٢.
٢٢. في الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الإسراء: ٤١، وفيها: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ الإسراء: ٨٩، وفي الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ الكهف: ٥٤.

٢٣. بشرية الرسول في السورتين: ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾ الإسراء: ٩٤، ٩٣، ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾ الكهف: ١١٠.
٢٤. الوعد الحق في السورتين: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ الإسراء: ١٠٨، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ الكهف: ٩٨.
٢٥. «الحديد» مذكور في السورتين: ﴿حِجَابَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ الإسراء: ٥٠، ﴿ءَاتَوْنِي زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾ الكهف: ٩٦.. ولم يرد الحديد إلا في ٤ سور أخرى.
٢٦. ﴿أَحَاطَ﴾ موجودة في السورتين: الإسراء ٦٠، والكهف ٢٩.. ولم ترد الكلمة إلا في ٣ سور أخرى.
٢٧. عدم الإيمان بالآخرة موقف الكافرين في السورتين: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ الكهف: ٣٦، ﴿وَقَالُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الإسراء: ٤٩، ٩٨.
٢٨. سنة الله في إهلاك الأمم مذكورة في السورتين: ﴿وَلَنْ يَنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْهُنَّ أَهْلٌ مِّنْكُمْ وَلَا يُنذِرُ لَكُمْ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ الإسراء: ٥٨، وفي الكهف: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ الكهف: ٥٩.
٢٩. جهنم جزاء الكافرين في السورتين: ﴿فَاتَّ جَهَنَّمَ جَزَأً وَّكُزَّ جَزَأً مَّوْفُورًا﴾ الإسراء: ٦٣، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَمْكُرُوا﴾ الكهف: ١٠٦.
٣٠. الهدى والضلال حديثه في السورتين: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ الإسراء: ١٥، ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ الكهف: ١٧.
٣١. ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ نص مشترك بين السورتين: الإسراء ٩٤، والكهف ٥٥، ولم ترد هذه العبارة إلا في السورتين.. ووردت ﴿مَنْعَ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ البقرة: ١١٤ في البقرة فقط.
٣٢. كلمة ﴿ذُرِّيَّةً﴾ وردت في السورتين: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ﴾ الإسراء: ٣، ﴿أَفَنَتَّخِذُ دُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ الكهف: ٥٠.
٣٣. كلمة ﴿مِنْ دُونِي﴾ لم ترد إلا في السورتين.

٣٤. كلمة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وردت ٥ مرات في كل.
٣٥. كلمة ﴿الْمُهْتَدِ﴾ لم ترد إلا في الإسراء والكهف.
٣٦. كلمة ﴿يُضِلِّل﴾ وردت في السورتين.
٣٧. ﴿زَعَمْتُمْ﴾ وردت في الإسراء والكهف والجمعة فقط.
٣٨. ﴿أَعْدَدْنَا﴾ مشتركة في السورتين.
٣٩. كلمة ﴿عِبَادِي﴾ في السورتين.

٧- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الفرقان

مدخل:

لماذا تخصيص سورة الفرقان ببحث علاقتها مع سورة الإسراء؟ قلت: هو ليس تخصيصاً بالضبط، وتخصيص من وجه، أما أنه ليس تخصيصاً فقد بحثت علاقة الإسراء بقراءة سبع عشرة سورة. وأما أنه تخصيص فإن باقي السور تكاد تقترب من المئة فلم لم تبحثوها أيضاً؟

والجواب أنه لا بد من دافع لهذا البحث، وذلك أنهما تشتركان في فاصلة الألف. ولا تلتقي سورتان في هذه الخاصية دون روابط، واليك الدليل:

١. فاتحة الإسراء: ﴿سُبْحَنَ﴾ وفاتحة الفرقان ﴿تَبَارَكَ﴾، والتزيه والثناء متلازمان.

٢. فاصلة السورتين واحدة: «فِعِلاً، مَفْعُولاً، فُعُولاً، فَعُولاً».

٣. في الآية الأولى ذُكِرَ رسول الله ﷺ بوصف العبودية: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء: ١، ﴿نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ الفرقان: ١.

٤. في ختام الإسراء ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَكُمُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ الإسراء: ١١١ والنص نفسه في فاتحة الفرقان.

٥. في ختام الإسراء ﴿لَمْ يَخْذَلْنَا﴾ الإسراء: ١١١ وفي فاتحة الفرقان النص نفسه بزيادة الواو: ﴿وَلَمْ﴾.

٦. تكررت ﴿سُبْحَنَ﴾ في الإسراء ٣ مرات^(١) وتكررت ﴿تَبَارَكَ﴾ في الفرقان ٣ مرات.

٧. ﴿بَشَرًا رَسُولًا﴾ الإسراء: ٩٣ في الإسراء، وفي الفرقان: ﴿أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ الفرقان: ٤١، ﴿مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ الفرقان: ٧.

٨. ﴿وَلْيَسْتَبْرُوا مَا عَلَوْا تَبِيرًا﴾ الإسراء: ٧، ﴿تَبَرُّنَا تَنْبِيرًا﴾ الفرقان: ٣٩.

(١) لم نحسب (سبحانه) فهي صيغة مختلفة.

٩. ﴿وَزَادَهُمْ ثُغُورًا﴾ الفرقان: ٦٠، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا ثُغُورًا﴾ الإسراء: ٤١.
١٠. السجدة، في السورتين.
١١. ﴿شُكُورًا﴾ فاصلة آية رقم ٣ في الإسراء، ﴿شُكُورًا﴾ فاصلة آية ٦٢ في الفرقان.
١٢. ﴿سَبِيلًا﴾ فاصلة آية ٦ مرات في الإسراء، ٦ مرات في الفرقان.
١٣. ﴿فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء: ١٦، ﴿فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ الفرقان: ٣٦، بينها مرة السبيل.
١٤. ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ الإسراء: ٣٥، ﴿وَأَحْسَنُ تَفْسِيرًا﴾ الفرقان: ٣٣.
١٥. ﴿مَسْحُورًا﴾ فاصلة آية في كل من السورتين ٤٧، ١٠١ الإسراء، ٨ الفرقان.
١٦. ﴿تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ﴾ الإسراء: ٩١، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ الفرقان: ٨.
١٧. ﴿وَعَدًا مَسْثُورًا﴾ الفرقان: ١٦، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْثُورًا﴾ الإسراء: ٣٤.
١٨. ﴿وَكَاثَ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ الفرقان: ٢٩، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الإسراء: ٦٤.
١٩. ﴿وَكَيْلًا﴾ فاصلة آية في السورتين: الإسراء ٢، ٥٤، ٦٥، ٦٨، ٨٦، والفرقان ٤٣.
٢٠. ﴿أَتَيْلَ وَالنَّهَارِ﴾ في السورتين.
٢١. ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الإسراء: ٨٩، ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ الفرقان: ٥٠.
٢٢. ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ الإسراء: ٤١، الفرقان: ٥٠. بل إن صيغة ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ لم ترد إلا فيهما.
٢٣. ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ الإسراء: ٩٩، ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ الفرقان: ٥٠.
٢٤. جاءت آية واحدة في الإسراء فاصلة بغير الألف، وكذا في سورة الفرقان، والعجيب أنها جاءت الآية ١٧ (وهو رقم سورة الإسراء).
٢٥. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ الفرقان: ٣، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ الإسراء: ٤٢.

٢٦. اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ موجود في السورتين.
٢٧. ﴿كَبِيرًا﴾ فاصلة آية في السورتين، الإسراء ٩، والفرقان ٥٢.
٢٨. ﴿يَدْعُونَ﴾ كلمة موجودة في السورتين، الإسراء ٥٧، والفرقان ٦٨.
٢٩. ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ نص مشترك في السورتين، الإسراء ١١٠، والفرقان ٦٧.
٣٠. في سورة الفرقان: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَ﴾ الفرقان: ٦٣، وفي سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ الإسراء: ٣٧.
٣١. في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ الإسراء: ٢٩، وفي سورة الفرقان ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ الفرقان: ٦٧.
٣٢. في الإسراء قوله تعالى ﴿عُمَيَّا وَبَكْمَا وَصَمًا﴾ الإسراء: ٩٧، وفي الفرقان قوله ﴿صَمًا وَعُمَيَّا نَا﴾ الفرقان: ٧٣.
٣٣. في السورتين الإسراء والفرقان مضاعفة العذاب: ﴿يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ﴾ الفرقان: ٦٩، ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفُ الْحَيَاةِ وَضِعْفُ الْمَمَاتِ﴾ الإسراء: ٦٩.
٣٤. ﴿وَلَنْ مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الإسراء: ٥٨، وفي الفرقان: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا﴾ الفرقان: ٥٠.
٣٥. ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فاصلة آية في الإسراء ١٠، والفرقان ٢٧.
٣٦. ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ لفظ مشترك أو نص مشترك بين السورتين: الإسراء ٩، والفرقان ٣٠.
٣٧. ﴿بَصِيرًا﴾ فاصلة مشتركة بين السورتين: الإسراء ١٧، ٣٠، ٩٦، والفرقان ٢٠.
٣٨. ﴿نَصِيرًا﴾ فاصلة مشتركة الإسراء ٧٥، ٨٠، والفرقان ﴿وَنَصِيرًا﴾ الفرقان: ٣١.
٣٩. في آخر سورة الإسراء الدعاء: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾ الإسراء: ١١٠، وفي آخر الفرقان: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ الفرقان: ٧٧.

٤٠ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْعَانِهِمْ﴾ الإسراء: ١١ ﴿وَجَعَلْنَا الْفُتُوحَ إِمَامًا﴾

الفرقان: ٧٤.

٤١ ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ نص مشترك بين السورتين: الإسراء: ٢.

الفرقان: ٣٥.

٤٢ ﴿ثُمَّ نُودِيَ﴾ في السورتين.

٤٣ ﴿خَلِيلًا﴾ فاصلة آية في السورتين: الإسراء: ٧٣، الفرقان: ٢٨.

٤٤ في الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ﴾ الإسراء: ٣٢، وفي الفرقان: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾

الفرقان: ٦٨.

٤٥ في الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الإسراء: ٣٣، وفي

الفرقان: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الفرقان: ٦٨.

٤٦ في الإسراء: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الإسراء: ٤٤، وفي الفرقان:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ الفرقان: ٥٨.

٤٧ في الإسراء: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ الإسراء: ١٧، وفي الفرقان:

﴿وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ الفرقان: ٥٨.

٤٨ ﴿مُنْجُورًا﴾ الإسراء: ١٠٢، ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ مُبْجُورًا وَجَدًا وَادْعُوا مُبْجُورًا كَثِيرًا﴾

الفرقان: ١٤، علماً بأن هذه المادة لم ترد إلا في سورة أخرى هي الانشقاق:

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ الانشقاق: ١١.

٤٩ نص مشترك لم يرد في القرآن إلا فيهما: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾

الإسراء: ٤٧ و الفرقان: ٨.

٥٠ ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ الإسراء: ١٢، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

خِلْفَةً﴾ الفرقان: ٦٢، ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾

الفرقان: ٤٧.

٥١ ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ الإسراء: ٩٤، ﴿أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾

الفرقان: ٤١.

٥٢ ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ الإسراء: ٥٣، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ

لِلْإِنْسَانِ حَدُولًا﴾ الفرقان: ٢٩.

٥٣. كلمة ﴿قَرَنَ﴾ وردت مرتين في كل من السورتين.
٥٤. كلمة ﴿قَالَ﴾ وردت ٥ مرات في كل من السورتين.
٥٥. في الإسراء: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الإسراء: ٢٢، وفي الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الفرقان: ٦٨.
٥٦. قبل سورة الإسراء سورة النحل وهي ١٢٨ آية، وقبل سورة الفرقان سورة النور وهي ٦٤ آية (نصف سورة النحل). وكما ترى فإن عدد حروف النور والنحل واحد، وعدد حروف الإسراء والفرقان واحد.
٥٧. ﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الإسراء: ٤٤، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ الفرقان: ٥٨. ولم ترد هذه الصيغة إلا مرة أخرى في الرعد ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ الرعد: ١٣.
٥٨. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ الإسراء: ٤١، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ الفرقان: ٥٠، بل إن صيغة ليذكروا لم ترد إلا فيهما.
٥٩. كلمة ﴿يُنُوبُ﴾ وردت في السورتين ولم ترد في القرآن إلا في سورتين أخريين.
٦٠. في الإسراء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الإسراء: ١٠٥، وفي الفرقان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الفرقان: ٥٦.
٦١. وردت ﴿أَرَادَ﴾ مرتين في كل من السورتين.
٦٢. ﴿ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ لم ترد إلا فيهما.
٦٣. ﴿السَّمَاءِ﴾ في الإسراء (٣) مرات وفي الفرقان (٣) مرات.
٦٤. كلمة ﴿سَعِيرًا﴾ وردت في السورتين.
٦٥. كلمة ﴿أَعْتَدْنَا﴾ مشتركة.

٨- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النمل

مدخل:

لماذا نبحت في العلاقة بين الإسراء والنمل؟ وما الداعي لهذا التخصيص؟ وهل نبحت علاقة سورة الإسراء بكل سور القرآن؟ والجواب على السؤال الأخير: لا بالطبع. وما حملنا على هذا إلا ملحظ محدد، هذا الملحظ فتح الباب ثم انهالت التشابهات والمقاربات.

والذي كان مفتاح القضية أن ﴿تَسْعَ آيَاتٍ﴾ لم ترد إلا في السورتين، فقلت فلأبحث إذاً عن العلاقة بين السورتين ونقاط التشابه، فكان هذا الحديث.

أضف إليه أن سورة النمل تتكلم عن مملكتين بل ثلاث ممالك خيرة طيبة صالحة متعاونة تقوم على العدل والخير. وهذه الممالك هي مملكة النمل ومملكة سليمان ومملكة سبأ بعد إسلام ملكتها، وسورة الإسراء تشير إلى نهاية مملكة الشيطان والشر والإفساد أعني زوال دولة إسرائيل، فتأمل.

١. السورتان مكيتان متضمنتان قصة موسى ﷺ وملكتهما تبتدئ بالرقم ٧، فالإسراء ١٧، والنمل ٢٧^(١)، وملكتهما فردية عدد الآيات ١١١، ٩٣. ٢. كلتا السورتين تضمنت ﴿تَسْعَ آيَاتٍ﴾ التي زُوِّد بها موسى ولم ترد في قصة أخرى.

٣. ختام سورة الإسراء والنمل واحد، واسمع واقرأ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الإسراء: ١١١، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ النمل: ٩٣.

٤. في سورة الإسراء ذكر داود، وفي سورة النمل مزيد تفصيل في قصة داود ﷺ.

٥. سورة الإسراء أكثر سورة ذكرت القرآن، وسورة النمل في أول آية من آياتها ذكر القرآن.. بل هي السورة التالية للإسراء في عدد مرات ذكر القرآن فيها. فتأمل!

(١) لو أردنا أن نتوسع في موضوع الأرقام لقلنا مجموع آيات سورة النمل ٩٣ = ٩ + ٢ = ١٢، وآيات سورة الإسراء إحدى عشرة ومئة آية: ١١١ + ١٢ = ١٢٣، ولكننا لا نريد التوسع.

٦. وتأمل هذا القاسم بين السورتين: ﴿وَأَيْنَا نُمُودَ الْنَاقَةِ مُبْصِرَةً﴾ الإسراء: ٥٩، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ الإسراء: ١٢، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَيْنُنَا مُبْصِرَةً﴾ النمل: ١٣، وهل تعلم أن كلمة «مبصرة» لم ترد إلا فيما قرأت أعلاه؟
٧. قالت سورة الإسراء عن نوح: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾ الإسراء: ٣، وقالت سورة النمل عن سليمان: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ النمل: ١٩، وتكرر الشكر مرات.
٨. البحر مذكور في السورتين، علماً بأنه مذكور في عشرين سورة أخرى فقط.
٩. في سورة النمل: ﴿وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ النمل: ٢٤، وفي سورة الإسراء وسائل هذا الشيطان في هذا التزيين بشيء من التفصيل في الآيتين ٦٢، ٦٤.
١٠. في سورة الإسراء: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَابٍ شَدِيدٍ﴾ الإسراء: ٥٠، وفي سورة النمل: ﴿مَنْ أُولُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَابٍ شَدِيدٍ﴾ النمل: ٣٣.
١١. في الإسراء: ﴿تُهِلِكَ قَرْيَةً﴾ الإسراء: ١٦، ﴿وَلِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ الإسراء: ٥٨، وفي النمل: ﴿إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ النمل: ٢٤.
١٢. في الإسراء: ﴿أَقِرْ الصَّلَاةَ﴾ الإسراء: ٧٨، وفي النمل: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ النمل: ٣.
١٣. في الإسراء: ﴿وَيُشِرُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٩، وفي النمل: ﴿وَيُشِرُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ النمل: ٢.
١٤. ﴿أَلَمْ تَرَ طَيْرَهُ﴾ الإسراء: ١٣، ﴿مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ النمل: ١٦، ﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ﴾ النمل: ٢٠، ﴿أَطْرَبْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَيْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ النمل: ٤٧.
١٥. في الإسراء: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ الإسراء: ١١، وفي النمل: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ النمل: ٤٦.
١٦. ﴿فَدَمَرْنَاهَا﴾ الإسراء: ١٦، ﴿دَمَرْنَاهُمْ﴾ النمل: ٥١.
١٧. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ نص مشترك بين السورتين في الإسراء ٩، والنمل ٧٦، ولم يرد في غيرهما! فتأمل!

١٨. « الليل والنهار » في السورتين: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ ١٣٠. ١١
وأما في النمل فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: ﴿جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾
النمل: ٨٦.

١٩. ﴿الْجِبَالِ﴾ في السورتين، الإسراء: ٣٧، والنمل: ٨٨.
٢٠. استغراب الكافرين من البعث في الآخرة مشترك في السورتين: ﴿أَأَءَاذًا
كُنَّا تَرَابًا وَأَبَاؤُنَا إِنَّا لِلْمُخْرَجُونَ﴾ النمل: ٦٧، وفي الإسراء: ﴿أَوَءَا كُنَّا عِظْمًا
وَرَفْنَا إِيَّانَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الإسراء: ٤٩، ٩٨.
٢١. ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ الإسراء: ٧٢، ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا
عُمُونَ﴾ النمل: ٦٦، ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعَمَى﴾ النمل: ٨١، ﴿عُمِيًّا وَبُكْمًا﴾ الإسراء: ٧٢.
٢٢. في الإسراء: ﴿وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ الإسراء: ٤٦، وفي النمل: ﴿إِذَا وَلَوْ أَدْبَارِينَ﴾
النمل: ٨٠.

٢٣. في السورتين ذكر ﴿بَنَىٰ إِسْرَءِيلَ﴾.
٢٤. ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ الإسراء: ٩٧، ﴿فَكَفَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي
النَّارِ﴾ النمل: ٩٠.

٢٥. ﴿الضَّمِّ﴾ في السورتين، الإسراء: ٩٧، والنمل: ٨٠.
٢٦. ﴿الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ في السورتين، الإسراء: ٨٨، والنمل: ١٧ ﴿الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ﴾.

٢٧. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ الإسراء: ١٦، ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ النمل: ٨٥.
٢٨. ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الإسراء: ٧٦،
﴿فَقَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ النمل: ٥٦.
٢٩. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ الإسراء: ٦٧، ﴿أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ﴾ النمل: ٦٣.

٣٠. كلمة ﴿رَبِّ﴾ وردت مرتين في كل من الإسراء والنمل. والمرة الأولى
في كل منهما مقترنة ﴿وَيَا لَوْلَايَينِ﴾ وبرهما أمراً من الله أو دعاء إلى
الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ الإسراء: ٢٤، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ النمل: ١٩. والثاني في كل منهما

- دعاء: ﴿رَبِّ ادْخُلْنِي﴾ الإسراء: ٨٠، ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ النمل: ٤٤.
٣١. وردت كلمة ﴿عَذَابٌ﴾ مرة في كل منهما، الإسراء ٥٧، النمل ٥.
٣٢. وردت ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ مرة في كل منهما، الإسراء ٥٨، النمل ٢١.
٣٣. ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ مشترك في السورتين، في الإسراء ٧٠، والنمل ٦٣.
٣٤. ورد ذكر موسى في الإسراء ٣ مرات، وفي النمل مثلها بالضبط، ومرة «يا موسى» في الإسراء، وجاء مرتين في النمل.

٩- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الأحزاب

مدخل:

ولماذا نبحت في العلاقة بين هاتين السورتين؟ وهل نبحت العلاقة بين سورة الإسراء وكل سور القرآن؟ الجواب: لا بالطبع. كما كررنا في مفتح ومدخل عدد من السور وعلاقتها بالإسراء ولكن ما حملنا على اختيار سورة الأحزاب خاصة مع أنه يبدو أنه لا وجه للمقارنة، اشتراكهما في فاصلة واحدة هي صيغة «فُعُولاً، فَعِيلًا، فَعُولًا، مفعولًا، تفعيلاً». وإنا عارضون أوجه العلاقة، بلا تكلف، إن شاء الله:

١. فاتحة الإسراء ذكر النبي باسم العبودية، وفاتحة الأحزاب باسم النبوة.
٢. جاءت آية واحدة فقط في السورتين فاصلتها بغير الألف، الراء في الإسراء واللام في الأحزاب.
٣. ورد ﴿الْكَتَبُ﴾ في كل من السورتين ٢ مرات.
٤. وردت ﴿كَبِيرًا﴾ فاصلة آية ٢ مرات في الإسراء، ومرتين في الأحزاب.
٥. بنسبة ٢٧٪ في الإسراء، و٢٨٪ في الأحزاب (أي بالنسبة لعدد الآيات).
٦. وردت ﴿خَبِيرًا﴾ فاصلة آية ٢ مرات في الإسراء، ومرتين في الأحزاب.
٧. وردت ﴿بَصِيرًا﴾ فاصلة آية ٢ مرات في الإسراء، ومرة في الأحزاب.
٨. وردت ﴿مُبَشِّرًا﴾ مرة في كل من السورتين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الإسراء: ١٠٥، ﴿أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا﴾ الأحزاب: ٤٥، ولم ترد إلا في ٣ سور أخرى.
٩. سورة الأحزاب تتحدث عن أخطر غزوة في حياة النبي ﷺ، وسورة الإسراء تتحدث عن أخطر معركة في تاريخ الأمة وتاريخ الإنسانية، فتأمل!
١٠. وردت ﴿وَكَيْلًا﴾ فاصلة آية ٥ مرات في الإسراء، ومرتين في الأحزاب.
١١. وردت ﴿نَصِيرًا﴾ فاصلة آية مرتين في كل من السورتين.

١٢. ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ فاصلة مشتركة أو نص مشترك بين السورتين آية ٥٨ في الإسراء، وآية ٦ في الأحزاب... بل لم ترد ﴿مَسْطُورًا﴾ إلا في السورتين.
١٣. ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء: ٣٦، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء: ٣٤، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ الأحزاب: ١٥، ولم ترد ﴿مَسْئُولًا﴾ إلا في سورة أخرى هي الفرقان، فحسب.
١٤. وردت ﴿قَلِيلًا﴾ فاصلة آية ٥ مرات في الإسراء، و٤ مرات في الأحزاب.
١٥. ﴿شَهِيدًا﴾ في كل من السورتين: ﴿كَفَى بِلِلَّهِ شَهِيدًا﴾ الإسراء: ٩٦، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ الأحزاب: ٥٥.
١٦. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَنُ﴾ الإسراء: ١١، ٦٧، ١٠٠، ﴿الْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ﴾ الأحزاب: ٧٢.
١٧. ﴿عُرُورًا﴾ فاصلة آية في كل من السورتين، الإسراء: ٦٤، والأحزاب: ١٢.
١٨. ﴿أَوَّلَى بَأْسٍ﴾ الإسراء: ٥٥، ﴿الْبَأْسَ﴾ الأحزاب: ١٨.
١٩. ﴿فَجَاسُوا خَلَلِ الدِّيَارِ﴾ الإسراء: ٥٥، ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾ الأحزاب: ٢٧.
٢٠. الإسراء تتحدث عن قتال مع بني إسرائيل سيكون لنا النصر فيه، والأحزاب تكلمت عن موقعة مع بني إسرائيل كان لنا النصر فيها، هي غزوة قريظة.
٢١. ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُولِكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقِرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ الإسراء: ٧٨، تشبه قوله ﷺ في الأحزاب ﴿وَسَيُجْزَى بَكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الأحزاب: ٤٢.
٢٢. ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ الإسراء: ٧٧، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب: ٦٢.
٢٣. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ في كل من السورتين مقترنة بالوحي، في سورة الإسراء آية ٣٩، ومقترنة بالآيات في سورة الأحزاب آية ٣٤.
٢٤. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ الإسراء: ٩٧، ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ الأحزاب: ٦٦.
٢٥. ﴿أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الإسراء: ٩٨، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ الأحزاب: ٦٣.
٢٦. في السورتين ذكر مضاعفة العذاب، الإسراء: ٧٥، والأحزاب: ٣٠، ٦٨.

٢٧. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ الإسراء: ٦٦، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ الأحزاب.
٢٨. ﴿سَيِّلًا﴾ فاصلة آية في الإسراء ٣٢، ٤٢، ٤٨، ٧٢، ٨٤، ١١٠.
- ﴿السَّيِّلًا﴾ فاصلة آية في الأحزاب ٦٧.
٢٩. ﴿رَسُولًا﴾ فاصلة آية في الإسراء ١٥، ٩٣، ٩٤، ﴿الرَّسُولًا﴾ فاصلة آية في الأحزاب ٦٦.
٣٠. ﴿سَعِيرًا﴾ فاصلة آية في كل من الإسراء ٩٧، والأحزاب ٦٤.
٣١. نوح وموسى مذكوران في السورتين.
٣٢. في سورة الإسراء إمداد بني إسرائيل بالأموال: ﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ﴾ الإسراء: ٦، وفي سورة الأحزاب أورثنا هذه الأموال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الأحزاب: ٢٧.
٣٣. كلمة ﴿حَلِيمًا﴾ لم ترد إلا في الإسراء والأحزاب وفاطر.
٣٤. كلمة ﴿وَنَذِيرًا﴾ مشتركة بينهما: في الإسراء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الإسراء: ١٠٥، وفي الأحزاب: ﴿يَكَايُهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الأحزاب: ٤٥.
٣٥. كلمة ﴿وَتَطَنُّونَ﴾ لم ترد في القرآن إلا في الإسراء والأحزاب.
٣٦. كلمة ﴿أَعْتَدْنَا﴾ موجودة في السورتين.

١- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة فاطر

١. كلمة ﴿حَلِيمًا﴾ لم ترد إلا في الإسراء والأحزاب وفاطر، وصيغة ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لم ترد إلا في الإسراء وفاطر فقط..
٢. كلمة ﴿تَحْوِيلًا﴾ لم ترد إلا في الإسراء وفاطر.
٣. في الإسراء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الإسراء: ١٠٥، وفي فاطر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فاطر: ٢٤.
٤. كلمة ﴿تَقُورًا﴾ لم ترد إلا في الإسراء وفاطر والفرقان فقط.
٥. كلمة ﴿يَزِيدُهُمْ﴾ وردت في الإسراء وفاطر.
٦. كلمة ﴿عُرُورًا﴾ وردت في السورتين.

II- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الفتح

مدخل:

هل يمكن أن نبحث علاقة سورة الإسراء بكل سور القرآن؟ والجواب على السؤال الأخير: بالطبع لا. ونحن لسنا نبحث العلاقات بصورة عشوائية وبلا مبرر ولا داع ولا رابط. ولكن انظر أولاً فإن فاصلة السورتين واحدة. وهذا بحسب ما جريت ووجدت يقتضي أن تكون ثم رابطة، وإني مبينها بين يديك. فمقتنع أنت أو غير مقتنع، هذا مرده إليك. والنقطة الثانية أن الرسول ﷺ في مفتتح السورتين ﷻ. وثالثة أضمتها إلى سابقتها أني أعد الإسراء نوعاً أو صورة من الفتح الروحي لبيت المقدس. وبعد. فلن أطيل في المبررات فأليك التفصيلات:

١. في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَجْدُلْ سِنَتَنَا خَوِيلاً﴾ الإسراء: ٧٧، وفي سورة الفتح: ﴿وَلَنْ تَجْدُلْ سِنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ الفتح: ٢٣.
٢. في الإسراء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ الإسراء: ١٠٥، وفي الفتح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ الفتح: ٨.
٣. ﴿سَعيراً﴾ فاصلة آية في الإسراء ٩٧، وفي الفتح ١٣.
٤. ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ فاصلة آية في الإسراء ١٠، وفي الفتح ١٦، ١٧، ٢٥.
٥. ﴿بَصِيراً﴾ فاصلة آية في الإسراء ١٧، ٣٠، ٩٦، وفي الفتح ٢٤.
٦. ﴿نَصِيراً﴾ فاصلة آية في الإسراء ٧٥، وفي الفتح ٢٢.
٧. ﴿أَوَّلَىٰ بِأُسِّ شَدِيدٍ﴾ نص مشترك في الإسراء ٥، والفتح ١٦.
٨. ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في الإسراء ١، والفتح ٢٥، ٢٧.. علماً بأنه ورد في ٤ سور أخرى فقط.
٩. ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ الإسراء: ٧، ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ﴾ الفتح: ٢٧.
١٠. كلمة ﴿الشَّجَرَةِ﴾ موجودة في السورتين: الإسراء ٦٠، والفتح ١٨.
١١. ﴿الرَّءْيَا الَّذِي أَرَيْتَكَ﴾ الإسراء: ٦٠، ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا﴾ الفتح: ٢٧.
١٢. ﴿قِيلًا﴾ فاصلة في السورتين: الإسراء ٥٢، ٦٢، ٧٤، ٧٦، ٨٥، والفتح ١٥.

١٣. ﴿شَهِيدًا﴾ موجودة في السورتين: الإسراء ٩٦، والفتح ٢٨.
١٤. ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وردت ٣ مرات في كل من السورتين. « وردت السماوات السبع والأرض مرة في الإسراء ».
١٥. سورة الإسراء وعد بفتح المسجد الأقصى وسورة الفتح وعد بفتح المسجد الحرام.
١٦. ذكر النبي بصفته أو ضميره في مفتتح السورتين.
١٧. ﴿الْحَقِّ﴾ في الإسراء والفتح.
١٨. وردت ﴿أَرَادَ﴾ مرتين في كل من السورتين.
١٩. كلمة ﴿فَضَّلَا﴾ وردت في السورتين.
٢٠. كلمة ﴿أَعَدَدْنَا﴾ موجودة في السورتين.

١٢- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النجم

مدخل:

لا بد من كلمة قصيرة بين يدي أوجه الشبه بين السورتين الكريمتين والتاسق والمعنى الناظم بينهما . هذه الكلمة هي حول مبرر بحثنا هذا الأمر . وأرى التبرير سهلاً واضحاً . فالإسراء تتحدث عن طرف الرحلة الأولى أو عن الرحلة الأولى ذات المرحلتين والمحطتين، والنجم تتحدث عن الطرف الثاني أو المحطة الثانية والرحلة الثانية، وتلكم رحلة المعراج فكانت المتحدثة عنها سورة النجم المشيرة إلى الارتفاع والعلو فتأمل .

- ١ . السورتان فاصلتهما الألف .
- ٢ . الإسراء تتحدث عن رحلة الإسراء، وهي سورة الإسراء، والنجم تحدثت عن رحلة المعراج، فهي سورة المعراج .
- ٣ . السورتان في ختامهما سجدة .
- ٤ . السورتان مختتمتان بذكر الصلاة والعبادة: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَوَانِكَ﴾ الإسراء: ١١٠ ، ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ النجم: ٦٢ .
- ٥ . نوح في فاتحة الإسراء، ونوح في خاتمة النجم .
- ٦ . في السورتين ذكر موسى عليه السلام .
- ٧ . في فاتحة الإسراء: ﴿لِزُرِّيهِ مِنْ أَيْنِئْتَا﴾ الإسراء: ١ ، وفي فاتحة النجم: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ النجم: ١٨ . لقد أنجز الهدف الذي كانت الرحلة تهدف إليه .
- ٨ . ﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَكَةِ ابْنًا﴾ الإسراء: ٤٠ ، ﴿الْكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ النجم: ٢١ ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَكَةَ سَمِيَةَ الْأُنْثَى﴾ النجم: ٢٧ .
- ٩ . ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ النجم: ٢٧ ، وهذا موقف الكافرين كررته سورة الإسراء مرات: ﴿أَوَدَّا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنًا﴾ الإسراء: ٤٩ .
- ١٠ . ثمود في السورتين .

١١. سورة الإسراء في منتصف المصحف وفي القلب منه، لأن حادث الإسراء في قلب مدة البعثة النبوية وفي منتصفها، وسورة النجم في الجزء السابع والعشرين، لأن حادث الإسراء في ليلة السابع والعشرين من رجب، فكان الأولى تشير إلى السنة، والثانية إلى الليلة.
١٢. كلمة ﴿أَوْحَى﴾ في السورتين: الإسراء ٢٩، والنجم ١٠.
١٣. ذكر الملائكة في السورتين.
١٤. ﴿أَسْرَىٰ بِعَبِيدٍ﴾ في أول الإسراء، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ النجم: ١٠ في فواتح النجم.
١٥. ﴿وَلَيْنَ مِن قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ الإسراء: ٥٨ على العموم في سورة الإسراء، وفي النجم بعض تفصيل: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۖ وَثَمُودَ آثَا ۖ أَبْقَىٰ ۖ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُم أَظْلَمُ ۖ وَأَطْلَغَىٰ ۖ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَىٰ ۖ فَغَشَّاهَا عَنَّىٰ ۖ﴾ النجم: ٥٠ - ٥٤.
١٦. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ النجم: ٢٩، هي القاعدة التي ذكرتها سورة الإسراء بالفاظ أخرى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الإسراء: ١٥.
١٧. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ الإسراء: ١٨، هي المقابل لقوله ﷺ في سورة النجم: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ النجم: ٢٩.
١٨. الحديث عن القرآن في الإسراء هو الحديث الذي في سورة النجم ﴿أَمِنَ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ﴾ النجم: ٥٩.

١٣- العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الإنسان

١. كلمة ﴿تَفْجِيرًا﴾ لم ترد إلا في الإسراء والإنسان.
٢. كلمة ﴿أَعْتَدْنَا﴾ في السورتين.
٣. كلمة «الإسراء» و «الإنسان» متوازنة جرساً وعدد حروف.
٤. الفاصلة في السورتين الألف وهما مكيتان.
٥. أكثر ما وردت كلمة الإنسان في سورة الإسراء، فكأنما سورة الإسراء سورة الإنسان.

مقدمات عامة عن سورة الإسراء

بعض موضوعات السورة

- التوحيد كما تعرضه سورة الإسراء
- حديث سورة الإسراء عن القرآن الكريم
- اليوم الآخر في سورة الإسراء
- قصة موسى وفرعون في سورة الإسراء
- قصة آدم في سورة الإسراء
- الأرض المقدسة في القرآن الكريم وسورة الإسراء
- التوجيهات الأخلاقية في سورة الإسراء
- حديث سورة الإسراء عن الإنسان
- كلمة (الأرض) في سورة الإسراء
- تفردات سورة الإسراء

التوحيد كما تعرضه سورة الإسراء

التوحيد قضية القضايا في الكتاب المجيد

محور الدين التوحيد، وملخص دعوة الأنبياء كلمة واحدة: كلمة التوحيد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٢] ومنشأ كل مشكلات الإنسان والوجود: إحلال الشرك محل التوحيد، من هنا تتخلق كل المشكلات، ولذلك فإن الله تعالى جعل الشرك الذنب الأعظم، كما أن التوحيد قطب الدين الأعظم ومحوره الأهم، والشرك الذنب الذي لا يفتقر ولا يصح معه عمل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، على أن القرآن له منهجه أيضاً في عرضه للتوحيد. ولا ينفك المنهج عن الحقيقة في هذا الدين العظيم^(١).

وسورة الإسراء وهي قلب هذا الكتاب الكريم العظيم منهجها منهجه على الجملة والعموم. لكن لكل سورة شخصيتها (كما يقول بحق صاحب الظلال)، وبالتالي فإن عرضها لقضاياها تتأثر بموضوعها المحوري، فسورة تركز على الخلق، وسورة تبرز من صفاته تعالى العلم، وسورة تبرز القوة... وهكذا.

والتوحيد ليس آيات في السورة فحسب، إنه القضية المبتوثة في كل تضاعيف السورة وكل أجزائها، فهو ليس موضوعاً مستقلاً متفرداً معزولاً، لا، وإنما يتخلل التوحيد كل جزئية في السورة من أولها: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] إلى قوله في ختامها: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] وما بين ذلك. وموضوع التوحيد هو الموضوع، وقضيته هي القضية، فهو المؤثر والفاعل في كل قضية في الوجود، سبحانه وتعالى، فهو الذي أسرى عبده ليريه من آياته: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]. وهو الذي أتى موسى الكتاب، وهو الذي جعله هدى لقومه

(١) كلمة صاحب الظلال في هذا المعنى تساوي الكثير حين قال: «المنهج في هذا الدين يساوي الحقيقة».

بني إسرائيل، وأمرهم فيه ألا يتكولوا إلا عليه سبحانه، فتكولوا على كل شيء إلا عليه سبحانه، وذلك لعنادهم وغلظ رقابهم وعتوهم.

وهو الذي نجى نوحاً، لأنه كان عبداً شكوراً، وهو الذي قضى في كتابه أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض وسيعاقبهم على فسادهم وإفسادهم بإرسال من يؤدبهم ويدمر علوهم، ثم فتح باب العودة لمن شاء، في وسط الحديث عن عقابه، وهو الذي جعل جهنم جزاء من يعاند ويكابِر: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ الإسراء: ٨.

ثم انتقل إلى الحديث عن كتابه العظيم: القرآن، وركز على وظيفته، وهنا اقتصر على أعظم وظيفتين تتسجمان مع جو السورة وقضيتها: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٩. وهذا الإله العظيم هو الذي أعد جهنم لمن لا يؤمنون بالآخرة ولا بالقرآن. ثم بين طبيعة هذا الإنسان الذي استخلفه الإله العظيم سبحانه في هذه الأرض ليوحده ويعبده، ذكر بعض صفات هذا الإنسان التي كان عليه أن يضبطها ويهذبها، وركز هنا على صفة «الاستعجال»، وهذا الاستعجال هو الذي يجعله يدعو بالشر دعاء بالخير. والإله العظيم هو الذي جعل الليل والنهار (وهذا مناسب لجو الزمن والاستعجال) جعلهما آيتين متعاقبتين، وفي كر الزمن تبدل الأحوال فلا داعي للاستعجال. وعبرت الآية الزمن كله لتتقلنا إلى ساحة الآخرة حيث كل إنسان يلقي جزاء ما عمله ويرى كتاب عمله. وهو يحاسب نفسه. ثم بين أن من اهتدى فإنما هداه لنفسه، وبالعكس من ضل فضلاله عليها. ولا تتحمل نفس ما يفعله الآخرون، وهذا من عدل الله سبحانه. وأن من سنته تعالى ألا يوقع عذاباً إلا بعد إرسال رسول وإنذار نذير. وأن من سنته بعد الإنذار أنه إن أراد أن يهلك قرية استحقت العقاب جعل مترفيها أو مكن لهم أو تركهم يفسقون، فلا يمنعهم، لأنه اقتضى أمره وحكمه ومشيتته أن يعطي الناس إرادة ويحاسبهم بعد ذلك على اختيارهم، فإذا وقع منهم الفسق حق القول الفصل بعذابهم وتدميرهم. وأنه سبحانه أهلك عدداً من الأقوام من بعد قوم نوح والله خير بذنوب عباده بصير بما يعملون.

فكما ترى فإن التوحيد لا يغيب عن آية، بل هو أي التوحيد حاضر عتيدي في كل آية، كما هو حاضر في كل آية في الكون أيضاً:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ثم بين السياق قانون الله في مريد العاجلة ومريد الآخرة وأن الله يمد هؤلاء ويمد هؤلاء، وإذا كان التفضيل في الدنيا واسعاً وهي لا شيء. فكيف التفضيل في الآخرة؟ ثم جاءت آية مباشرة في التوحيد صريحاً جلياً مباشراً ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا﴾ (الإسراء: ٢٢)، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣).

ثم بين علم الله بما في النفوس ونهى عن تبذير المال، أو إمساكه والشح فيه، وبين السياق أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء. لأنه سبحانه بعباده خير بصير. وتكرر الاسمان الكريمان «خيراً بصيراً» في الآية ١٧، والآية ٣٠، ثم وصى السياق الكريم عدة وصايا في مكارم الأخلاق. وبين عقبها أن هذه الوصايا هي مما أوحى الله إلى نبيه من الحكمة ثم أعاد التوحيد صريحاً في الآية ذاتها: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (الإسراء: ٣٩) ثم ناقش ادعاء المشركين اتخاذ الله بنات من الملائكة، فهل أصفاكم سبحانه بالبنين واتخذ البنات اللاتي تكرهونهن، كيف تحكمون؟ ثم حسم أمر الشرك بأنه ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٢).

قال ابن كثير في معناها: «يقول تعالى: قل ما محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى، لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليهم، وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون وساطة بينكم وبينه، فإنه لا يجب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقدها فقال: ﴿سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤٣)، أي هؤلاء المشركون المعتدون

الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى. «علواً كبيراً» أي تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(١).

ثم بين في الآيات ٤٦-٤٨ موقف المشركين من القرآن، ثم انتقلوا إلى السؤال عن البعث، فهل سيعثون إذا كانوا رفاتاً، ويرد القرآن عليهم بأن الله سيردهم لو كانوا حجارة أو حديداً. أليس هو الذي خلقهم أول مرة؟ وأنه سبحانه سيدعوهم فيستجيبون. ثم أمر العباد بقول التي هي أحسن، لأن الشيطان ينزغ بينهم ويثير العداوة. لأنه عدو للإنسان. ثم بين السياق علم الله تعالى، وطلاقة مشيئته في رحمة الناس أو تعذيبهم، ثم انتقل إلى علمه بمن في السموات والأرض وأنه سبحانه فضل بعض الأنبياء على بعض وخص داود بأن الله آتاه زوراً. ثم انتقل إلى تنفيد الشرك، وتحداهم بأن يدعو من يزعمونه شركاء فقال: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ الإسراء: ٥٦.

قال ابن كثير في معناها: «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ادعوا الذين زعمتم من دونه من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم بالكلية ولا تحويلاً أي بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى: أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر. ثم ذكر عن ابن عباس قوله: كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون يعني الملائكة والمسيح وعزيراً»^{(٢)(٣)}.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ الإسراء: ٥٧ قال ابن كثير في معناها: «روى البخاري قال: ناس من الجن كانوا يعبدون^(٤) فأسلموا، وفي رواية قال:

(١) المصباح المنير، ص ٦١٢.

(٢) قلت: قوله: (ولا تحويلاً بأن يحولوه إلى غيركم) أعم منه أن تقول: يحولوه عنكم سواء لا إلى أحد أم إلى غيركم. وقوله: يدعون الملائكة والمسيح وعزيراً، يعني العرب المشركين والنصارى واليهود. وسيقول في معنى الآية التالية ما يختلف عن هذا سيقول: ناس من الجن يعبدون ناساً من الجن. والآيتان متصلتان فقضيتهما واحدة. واعتقد أن قوله في الآية ٥٦ أقرب من قوله في الآية ٥٧.

(٣) المصباح المنير، ص ٦١٦.

(٤) هكذا في الأصل، فإن كانت بضم الياء فهي واضحة. وإن كانت بفتحها فهي ناقصة «غير الله، أو نحو ذلك».

كان ناس من الإنسن يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم. وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ الإسراء: ٥٧ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ الإسراء: ٥٧ أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله، عياداً بالله منه^(١).

ثم بين سبحانه أنه ما من قرية - مطلقاً - إلا هو مهلكها، قبل يوم القيامة، أو معذبها بذنوبها عذاباً شديداً، وأن ذلك الأمر كان مقيداً مسطوراً في الكتاب المحفوظ. ثم بين أنه سبحانه ما زود محمداً ﷺ بالآيات المادية لأن الأولين كذبوا بها فاستحقوا العذاب، والله يريد محمداً رحمة لا سبباً للعذاب فجعل معجزته معنوية وهي أعظم من المعجزة المادية وأدوم.

ثم ضرب مثلاً على الآيات والأقوام يقوم صالح وآيتهم النافعة، وأنه سبحانه يرسل بالآيات لتخويف الناس ليعودوا إلى ربهم وتوحيده، ثم تكلم عن رؤيا أراها للنبي ﷺ وبيننا معناها في التفسير وهي مشكلة في الظاهر. محكمة بالتدبر.

ثم انتقل إلى قصة آدم وإبليس وإباء إبليس السجود ثم تهديده بالتزام ذرية آدم بالوسوسة وجواب الله له بأن جهنم جزاؤهم وأن عباد الله ليس لإبليس عليهم سلطان. ثم انتقل السياق إلى آيات الكون وظاهرة السفن في البحر وأنها بتسخير الله وفق قوانينه في الكون، وهو سبحانه بهذا التسخير رحيم بعباده، ثم ذكر لجوء البشر إلى الله في الشدائد وخاصة في البحر فما زلنا في الجو نفسه، ثم هدد البشر الذين تحولوا عن دعائهم له وتوحيده سبحانه في الخطر، ونسيانهم لذلك في حال نجاتهم إلى البر فسألهم: هل أمنتكم أن يخسف الله بكم البر؟ أو أمنتكم أن يعيدكم إلى البحر مرة أخرى فلا ينجيكم في هذه المرة؟ إنه يخاطب الفطرة والعقل من خلال آيات الكون والتجارب التي يمر بها البشر في حياتهم. ثم بين كرامة هذا المخلوق الإنساني ومن أوجه كرامته حمله في البر والبحر ورزق الله إياه من الطيبات. وذكرت

(١) المصباح المنير، ص ٦١٦. وخرج حديث البخاري من الفتح ج ٨، ص ٢٤٩، ص ٢٥٠.

الآية نفسها أن الله فضل هذا النوع الإنساني ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٧٠، ومن هذا انتقل إلى ساحة الآخرة مرة أخرى ودعوة كل أناس وراء إمامهم إما بمعنى رسولهم أو كتابهم والأمر سواء. وأن البشر لا يُظلمون في الآخرة، فإنما يُجزون أعمالهم.

ثم امتن على النبي ﷺ بتبتيته في وجه محاولات الزحزحة من قبل الكافرين ﴿وَلَوْلَا أَنْ بُشِّنَاكَ لَقَدَكُتَ تَرَكْنَا إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٧٤، ولاحظ نون العظمة المستعملة في المنن العظيمة. وننبه إلى ضرورة فهم الآية فهماً يليق بجلال قدر النبي ﷺ وهدده إن ركن إليهم بمضاعفة العذاب، وحاشاه من ذلك كله، ولكن لينبه إلى مقام العبودية الذي لا يعدوه النبي ولا غيره، ولينبه إلى أنه لا أحد فوق القانون الإلهي. وأن الله إن عذبك فمن ينصرك؟ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ الإسراء: ٧٥ ثم ذكر محاولات الكافرين إخراج النبي ﷺ من بلده وأن سنة الله أن يهلكهم لو أخرجوه، لكن الله أراد له الخروج. ثم أمر النبي ﷺ بإقامة الصلاة لعبادة الله في الأوقات التي حددها الله، وخص صلاة الفجر ووصاه بالقيام ورتب على ذلك ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ الإسراء: ٧٩. ثم علمه أن يدعو الله بحسن المدخل وحسن المخرج في كل أمر من الأمور ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيرًا﴾ الإسراء: ٨٠. وأعقب هذا كله من أمر بالعبادة وتهديدهم لو أخرجوا نبيهم، أعقبه بإحقاق الحق وإزهاق الباطل لأن سنة الله أن الباطل زهوق سريع الزوال والاضمحلال. ثم بين عظمة القرآن وأنه شفاء ورحمة للمؤمنين.

فهو كما ترى يعرض قضية التوحيد في كل ثايات السورة وكل موضوعاتها. ثم تكلم عن الإنسان وأن عمله صورة عن داخله وعقب ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ الإسراء: ٨٤، ثم تكلم عن الروح، ومنها انتقل إلى الوحي وهو روح تحيا به الروح إن كان البدن يحيا بالروح، فالروح تحتاج إلى روح هو الوحي، وأن بقاءه - أي الوحي - مرهون بإرادة الله، فإن شاء أذهبه عنك، وهو كلام عن طلاقة المشيئة لا عن احتمال رفع الوحي. وأن بقاء الوحي برحمة الله

﴿إِنْ فَضَّلَهُ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ الإسراء: ٨٨، ثم ذكر أن القرآن معجز لا يستطيعه
 الإنس والجن ولو اجتمعوا، وأن الله صرّف فيه المعاني تصرفاً ونوعاً تنويعاً
 ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ الإسراء: ٨٩، ولكن موقف الكافرين
 لا يتبدل. ثم ذكر مقترحاتهم من أو على الرسول من تقجير الينابيع وامتلاك
 المزارع والدور. ثم بين النص تغنتهم ورفضهم الإيمان بدعوى بشرية الرسول
 ﷺ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾
 الإسراء: ٩٤، ثم بين أن إرسال الرسل سنة حتى لو أن الأرض أسكنها الله الملائكة
 الذين لا يخطئون لأرسل الله لهم ملكاً رسولاً أي من جنسهم. وعقب: ﴿قُلْ
 كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ الإسراء: ٩٦، ثم
 بين أن الهدى هداه ومن يضلّه فلا أولياء له، وسيأتي الضال يوم القيامة في
 أبأس صورة ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكماً وَصُمّاً مَا أَوْفَاهُمْ جَهَنَّمَ
 كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ الإسراء: ٩٧، وذلك جزاء جحدهم البعث، وردّ عليهم
 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ
 أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِذَا كُفِرُوا﴾ الإسراء: ٩٩، ثم بين طبع البشر وأنهم لو
 ملكوا خزائن الله وخزائن رحمته لأمسكوا. ثم ذكر إيتاءه موسى تسع آيات
 وذكر فرعون نموذجاً على الكفر العاتي العنيد. ثم عاد السياق إلى الحديث
 عن بني إسرائيل الذي ابتدأت به السورة ليختم الحديث به ﴿فَإِذَا جَاءَهُ وَعَدُ
 الْآخِرَةِ جُنَابِكُمْ لَفِيقًا﴾ الإسراء: ١٠٤، ثم أتى على القرآن وأنه من معدن الحق، ثم
 هدد من لا يؤمن، وأتى على من آمن. ثم اختتم السورة بآيتين جامعتين في
 التوحيد ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ الإسراء: ١١٠
 ثم أمره بالتوسط في الجهر والمخافتة في الصلاة. ثم ختام نهائي للسورة
 بالحمد لله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
 وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ الإسراء: ١١١.

ولعلها من أجمع وأجمل آيات التوحيد وكلها جميل جامع بالطبع، فالثناء
 على الله بحمده لأنه لم يتخذ ولداً، لأن اتخاذ الولد نقص واحتياج ونفي
 للتوحيد وحاشا لجلال الله أن يتصف بما ينقض روح الدين، وهو وحدانيته

سبحانه، والولد نفي للوحدانية، فلا بد أن يكون منفياً بالضرورة ويا لحماقة من ينسبونه لله، فهم يذمون من حيث يحسبون أنهم يحمدون أو يمتدحون! ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ الإسراء: ١١١ لا شريك لله في ملكه لأنه لم يخلق معه أحد حتى يكون شريكاً له في ملكه. ولا يحتاج مولانا من ينصره بل هو الناصر لكل مؤمن، فكل الخلق محتاج إليه دليل بين يديه، وهو العزيز، وكبره تكبيراً، فالله أكبر.

هذا موجز سريع لقضية هي أعظم قضايا سورة الإسراء... التوحيد.

حديث سورة الإسراء عن القرآن الكريم

حديث القرآن عن القرآن أعذب حديث وأجمله وأكمله . وكيف لا والمتحدث القرآن الكريم ومنزله سبحانه، والمتحدث عنه القرآن ببيانه وإحكامه وإعجازه وتفصيله وتصريف معانيه، وأمثاله وأحكامه .

ومن ضمن أجمل ما قال القرآن عن القرآن يبين عظمته: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ عَلَى الْقُرْآنِ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَضْبًا مَّتَّصِدًا غَايِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر: ٢١ . وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سُرَّتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ الرعد: ٢١ .

أي أنه لو كان من شأن القرآن أو من شأن كتاب أن يقرأ على الجبال فتزول من أماكنها أو على الأرض فتقطع بساتين أو على الموتى فينهضون من أجداثهم وقبورهم لكان أولى شيء بهذا الأمر هذا القرآن الكريم، لكن سنة الله وحكمة الله لم تكن على هذا النمط .. ولله تعالى الأمر جميعاً . والآيات كثيرة لا نقدر على استعراضها في هذه العجالة .

على أن لسورة الإسراء خصوصية إذ هي السورة المتميزة بأنها أوفى سورة حديثاً عن القرآن .

فإلى تفصيل هذا الأمر: ورد لفظ «القرآن» في القرآن «٥٨» مرة .

ووردت كلمة «قرآنًا» في القرآن ١٠ مرات .

ووردت كلمة «قرآنه» في القرآن مرتين .

فمجموع موارد هذه الكلمة ٧٠ مرة .

لكن تركيزنا على كلمة «القرآن» الاسم الأعظم لهذا الكتاب العظيم .

وتركيزنا كذلك على سورة الإسراء في بعد واحد هو حديثها عن القرآن، بهذا الاسم الصريح والواضح، وسنشير إلى مواضع ورود ضميره، أي الضمير العائد إلى القرآن وعليه، والمعبر عنه .

وقد وردت كلمة «القرآن» في سورة الإسراء «١٠» مرات ولم تدانها في

هذا سورة أخرى، وأقرب سورة بعد الإسراء، إلى الإسراء في عدد مرات الورد، هي سورة النمل ورد فيها هذا الاسم الشريف ٤ مرات، والقمر ٤ مرات، ثم يونس ٣ مرات وسورة الحجر ٣ مرات، ثم مرتين في كل من: طه، الفرقان، يس، ق، المزمل، ثم مرة في كل من: البقرة، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، التوبة، يوسف، النحل، الكهف، القصص، الروم، سبأ، ص، الزمر، فصلت، الزخرف، الأحقاف، محمد، الرحمن، الواقعة، الحشر، الإنسان، الانشقاق، البروج.

ونلخص ما ذكر: تحدث عن القرآن قبل سورة الإسراء ١٠ سور، والإسراء هي صاحبة قصب السبق بشكل لافت فقد ورد فيها ١٠ مرات. ثم النمل ٤ مرات والقمر ٤ مرات ثم سورتان في كل منها ٣ مرات وهي: يونس، الحجر، ثم ٥ سور في كل منها مرتين ثم ٢٤ سورة في كل منها مرة واحدة، فمجموع السور ٣٤ وعدد مرات الورد ٥٨

فنسبة ما ورد في سورة الإسراء من حديث عن القرآن في القرآن إلى باقي ما ورد تبلغ: ١٧٪

ولا تنس أن سورة الإسراء رقمها في القرآن ١٧ .

أما سر استئثار سورة الإسراء بهذه النسبة العالية فهو أي القرآن -فيما أرى- دستور النصر لأمة الإسراء على أمة إسرائيل. فبغير هذا القرآن لا نصر لهذه الأمة على تلك الأمة، والسورة بجملتها -فيما أرى- أيضاً موضوعها أو وحدتها الموضوعية تتمثل في «دستور النصر لأمة الإسراء على أمة إسرائيل». فالتقت السورة، مع القرآن في هذا الأمر أيضاً.

وسورة الإسراء، استطراداً أقول أكثر سورة حدثتنا عن الإنسان في القرآن ولأنه أي الإنسان هو عدة هذا النصر، إن كان القرآن (وهو كذلك) هو دستور هذا النصر، فالإنسان هو العدة والعتاد والذخيرة.

وأول مرة وردت فيها كلمة «القرآن» في سورة الإسراء في الآية ٩ من هذه السورة، وبهذا يبقى من هذه الكلمة -أي القرآن- في السورة ٩ مرات. وأول مهمة أو وظيفة ذكرت في هذه الآية للقرآن هي الهداية: «يهدي للتي هي

أقوم»، وهي أول غايات القرآن على الإطلاق، بالقطع. وهي الوظيفة الأولى التي ذكرتها فاتحة سورة البقرة بعد فاتحة الكتاب، إذ قالت: ﴿ذَلِكَ أَنْ كَتَبَ لَآدَمَ فِيهِ هُدًى لِّلضَّالِّينَ﴾ البقرة: ٢.

أما ثاني مهمات الكتاب التي ذكرتها سورة الإسراء فهي البشرى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٩. وما أعظم القرآن، فالْيَأْسُ كفر ومدخل للكفر ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يوسف: ٨٧.

(وتأمل دائماً الربط بين سورة يوسف وسورة الإسراء! إذ هما بداية بني إسرائيل، كما في يوسف، ونهاية بني إسرائيل كما هي الإسراء).
والبشرى مهمة جداً بالطبع، إذ اليأس يقود إلى الكفر والإحباط وحبوط العمل، وإلى العمالة للعدو، ويقود إلى العجلة التي دائماً تقود إلى الندامة والوبار.

وما استسلم قومنا للسلام الذي هو عين الاستسلام إلا من هذا الباب: اليأس والاستعجال اللذان أديا إلى هذا الانهيار، ولذلك حذرت السورة من العجلة: ﴿وَيَبِغْ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ الإسراء: ١١.

أما الموضوع الثاني الذي وردت فيه كلمة «القرآن» في سورة الإسراء فهو في الآية ٤١ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الإسراء: ٤١. وأما الحديث عن التصريف فهو يعني التفنن في عرض القضايا والموضوعات والتنويع، تماماً كما في «تصريف الرياح» أي هبوبها من اتجاهات متعددة في أوقات مختلفة وبسرعات مختلفة، فكذا تصرف الآيات، ولله وآياته المثل الأعلى. هذا التنويع مجلبة لنشاط العقل والفكر، ودخول الفكرة إلى العقل والفكر والقلب من كل مدخل، وحتى لا يعتاد العقل على نمط من الحجة والبرهان والبيان، من هنا كان «التصريف». وهل تعلم أن كلمة «صرفنا» في القرآن لم ترد قبل هذه المرة، ووردت في الإسراء مرة أخرى في الآية ٨٩ أما ورودها في القرآن فقد وردت ٥ مرات، ثلاث سوى ما في الإسراء، وذلك في كل من: الكهف (توأم سورة الإسراء) وطه والأحقاف.

قال في الظلال: «جاء القرآن بالتوحيد، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة

وإيضاحها طرقاً شتى، وأساليب (متنوعة) متعددة ليذكروا، فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والرجوع إلى الفطرة، ومنطقها، وإلى الآيات الكونية ودلالاتها، ولكنهم يزيدون نفوراً كلما سمعوا هذا القرآن^(١).

أما ثالث مرات ورود كلمة القرآن في سورة الإسراء فهو قوله تعالى في الآية ٤٥ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ الإسراء: ٤٥.

ثم المرة الرابعة في الآية التالية: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ الإسراء:

فمنذ المرة الثانية لورود القرآن في سورة الإسراء وحتى الآية ٤٦ وحتى الآية ٦٠ فإن حديث الآيات إنما هو عن موقف الكافرين من القرآن الكريم. ولاحظ أن الآية ٤١ ختمت بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الإسراء: ٤١ وختمت الآية ٤٦ بـ ﴿وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ الإسراء: ٤٦. وختمت الآية ٤٥ بالحجاب الذي يحجبهم عن القرآن: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ الإسراء: ٤٥، وختمت الآية ٦٠ بأن ما يرد في القرآن ما يزيدهم ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ الإسراء: ٦٠.

ولاحظ المنهجية الرائعة للقرآن الكريم، فبعد أن تكلم في ثلاث آيات عن موقف الكافرين جاءت تباعاً، سيتكلم في ثلاث آيات عن موقف المؤمنين وسيدهم من القرآن وجاءت تباعاً. اقرأ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكَ السَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الإسراء: ٧٨. ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ الإسراء: ٨٢.

قال في الظلال في معنى الآية «ونزل من القرآن...» قال: «وفي القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت وتفتحت لتلقي ما في القرآن من رُوح، وطمأنينة وأمان. في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن، ويرضى فيستروح الرضا من الله، والرضا عن الحياة، والقلق

(١) الظلال، ج ٤، ص ٢٢٣.

مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء. ومن ثم فهو رحمة للمؤمنين.
وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان.
ومن ثم فهو رحمة للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة في الشعور والتفكير. فهو
يعصم العقل من الشطط، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط، ومن ثم فهو رحمة
للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات
وتذهب بسلامتها وأمنها، ومن ثم فهو رحمة للمؤمنين^(١). أ هـ. بإيجاز.

قال ابن عاشور: «والشفاء حقيقته زوال الداء، ويستعمل مجازاً في زوال
ما هو نقص وضلال وعائق عن النفع، من العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة
والأخلاق الذميمة تشبيهاً له ببرء السقم، والقرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين».
قال في تفسير الميزان: «للإنسان صحة واستقامة روحية معنوية كما أن
له صحة واستقامة جسمية، وله أمراض وأدواء روحية باختلال أمر الصحة
الروحية، كما أن له أمراضاً وأدواء جسمية، باختلال أمر الصحة الجسمية
ولكل داء دواء ولكل مرض شفاء.

والقرآن الكريم يزيل بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة أنواع الشكوك
والشبهات المعترضة ويدفع بمواعظه الشافية آفات الأفتدة، فالقرآن شفاء
للمؤمنين» أ هـ.

ثم دعا ليتحدث عن القرآن في ذاته وكونه معجزاً ليس في طاقة البشر
أن يضاهئوه: ﴿قُلْ لِّیْ اِجْتَمَعَتْ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلٰی اَنْ یَّاتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْاٰنِ لَا
یَأْتُوْنَ بِمِثْلِهٖ وَلَوْ کَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیْرًا﴾ الإسراء: ٨٨ فالتحدي مفتوح والإعجاز
مطلق.

قال في تفسير الميزان: «وفي الآية تحد ظاهر. وهي ظاهرة في أن
التحدي بجميع ما للقرآن من صفات الكمال الراجعة إلى لفظه ومعناه، لا
بفصاحته وبلاغته وحدها، فإن انضمام غير أهل اللسان إليهم لا ينفع في

(١) الظلال، ج ٤، ص ٢٢٤.

على أن الآية ظاهرة في دوام التحدي، وقد انقضت العرب العرياء
أعلام الفصاحة والبلاغة والقرآن باقٍ على إعجازه متحد بنفسه كما كان
أهـ.

ولئن كانت تحدثت السورة في بدايات حديثها عن القرآن عن تصريف الأمثال في القرآن، فإنها عادت في الآية الخاتمة من بين الآيات التي تحدثت عن القرآن لتطرح القضية ذاتها: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

قال في تفسير الميزان: «وتصرف الأمثال ردها وتكرارها وتحويلها من بيان إلى بيان ومن أسلوب إلى أسلوب، والمثل هو وصف المقصود بما يمثله ويقريه من ذهن السامع، والمراد من كل مثل يوضح لهم سبيل الحق ويمهد لهم طريق الإيمان» أ.هـ.

ورد في السورة ذكر القرآن والآيات بغير الصورة المباشرة للفظ، وذلك في مثل قوله تعالى بعد وصايا السورة بحرف النهي: «ولا» الذي تكرر منذ ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَآ أَفِي وَلَا تَنهَرُهُمَا﴾ الإسراء: ٢٣، ومروراً بـ ﴿وَلَا تُبْذِرْ بَٰزِيْرًا﴾ الإسراء: ٢٦ و ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوْلَةً﴾ الإسراء: ٢٩ ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ الإسراء: ٢٩ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ الإسراء: ٣١ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾ الإسراء: ٣٢ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ الإسراء: ٣٣ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيْمِ﴾ الإسراء: ٣٤ ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ الإسراء: ٣٦ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ الإسراء: ٣٧ فهذه ١١ مرة بالتمام، عقب عليها القرآن بقوله: ﴿ذٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ الإسراء: ٣٩ فهذا حديث عن القرآن باسم الإيحاء وباسم الحكمة وإن لم يذكر لفظ القرآن.

ومن المواطن التي ذكر فيها الضمير العائد على القرآن قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ الإسراء: ٤٦. وما يحتمل أنه أريد به القرآن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ الإسراء: ١١. فالإمام هنا إما الإمام القائد وإما الكتاب القائد الذي يتبعه الناس كما يتبعون إمامهم. وفي حالتنا نحن أمة القرآن فإن الكتاب الإمام هو القرآن.

وقوله تعالى في الآية ٧٣ لا يحتمل إلا القرآن. واقرأ: ﴿ وَلَئِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ الإسراء: ٧٣.

فالذي أوحى إلى النبي ﷺ هو القرآن، والضمير في «غيره» لا يحتمل إلا القرآن.

وقوله تعالى في الآية ٧٩ لا يحتمل إلا القرآن: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ فَتَحَ جَذْرَهُ. نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ الإسراء: ٧٩.

وكذا الآية ٨٦ لا تحتمل إلا القرآن: ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لِكَيْدِهِ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ الإسراء: ٨٦.

وكذا في الآية ١٠٥ ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ الإسراء: ١٠٥.

وفي الآية ١٠٦ جاء القرآن بلفظ «وقرآنًا» في قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ الإسراء: ١٠٦.

وفي الآية ١٠٧ والآية ١٠٩ وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ الإسراء: ١٠٧. ﴿ وَلِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَزَيْدُهُمْ هُجَسُوعًا ﴾ الإسراء: ١٠٩.

فهذه عشرة مواطن أخرى عبّر فيها عن القرآن بالضمير. فهذا المجموع عشراً وعشراً أي عشرين مرة، فتأمل التوافق والانسجام!

اليوم الآخر في سورة الإسراء

موقع الإيمان باليوم الآخر في بنية العقيدة الإسلامية

ثاني أعظم أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، بل هو الوجه الثاني لقضية الإيمان بالله، بل إن الإيمان بالله يفرغ من كل مضامينه إذا لم يكن معه إيمان باليوم الآخر. والعرب الجاهليون الذين أنزل فيهم القرآن لأجل تغييرهم، كانوا لا يكابرون في مبدأ الإيمان بالله، وقد سجل القرآن ذلك مراراً: ولئن سألتهم «ليقولن الله».

فإن سألتهم من خلقهم فالجواب: الله. وإن سألتهم من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم فالجواب الله. ولئن سألتهم من هذا القبيل عدداً من الأسئلة لن يتغير الجواب. لكن، إن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت تقوم قيامتهم وتضج أصواتهم. ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ المومنون: ٨٢ وأسألتهم هنا تتكاثر وإنكارهم يشتد. فجديرة الإيمان بالله إنما هي متمثلة في الإيمان ببلقائه.

والديانتان السماويتان السابقتان ليس فيهما عن الآخرة أدنى تصور، سوى تهويمات غير محددة بلا مضمون محدد ولا معنى واضح. فالحمد لله على ما أكرمنا من دين وكتاب مبين، للآخرة فيه حظ وافر ونصيب واضح، فكثيراً ما قرن القرآن بين الركنين الأعظمين: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ آل عمران: ١١٤.

وكثيراً ما أفرد الإيمان باليوم الآخر، فكانه الركن الذي يستدعي بقية الأركان ﴿قَالَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَتُطْغَوْنَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ﴾ البقرة: ٢٤٩. ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ النحل: ٦٠. ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَةُ نَجْهًا مِّنْهُمْ مَّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل: ٢٢.

وفي أول سورة البقرة تحدث السياق عن كل أركان الإيمان بصيغة «يؤمنون» فلما جاء إلى الإيمان بالآخرة أفردته وميزه بصيغة يوقنون، فقال:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ البقرة: ٣، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ البقرة: ٤.

أما اقتران الإيمان بالله واليوم الآخر فتكرر كثيراً ومنه في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ البقرة: ٨.

وباختصار، فإن الحياة من غير إيمان باليوم الآخر غابة والناس فيها وحوش وكواسر وجوارح، والقوي يأكل الضعيف. ولو لم يكن في الدين إيمان باليوم الآخر لوجب أن يعتقد الناس لتستقيم حياتهم، والحمد لله أن أعفانا من أن نتفلسف ونخترع ونبتدع، فأمرنا أن نجعل أعظم اعتقاداتنا بعد توحيده. في لقائه سبحانه في دار الجزاء حيث ينال كل إنسان جزاء عمله.

موارد «الآخرة» في القرآن

أقصد من هذا العنوان مرات ورود لفظ الآخرة، فقد وردت كلمة «الآخرة» (١١٥) مرة، في البقرة (١٠) مرات وفي آل عمران (٩) مرات، يلي ذلك النحل والإسراء ٧ مرات لكل، و٤ مرات في كل من: الأنعام، والأعراف، والتوبة، وهود، ويوسف، والنمل (٢٤ مرة المجموع).

و٣ مرات في كل من: النساء، والمائدة، والنور، والقصص، والعنكبوت، وسبأ، والزمر، وفصلت (٢٤ مرة المجموع).

ومرتين في كل من: الرعد، إبراهيم، الحج، المؤمنون، الروم، الأحزاب، غافر، الشورى، النجم (١٨ مرة مجموع).

ومرة في ١٦ سورة هي: الأنفال، يونس، طه، لقمان، ص، الزخرف، الحديد، الحشر، الممتحنة، القلم، المدثر، القيامة، النازعات، الأعلى، الليل، الضحى.

ملاحظات على موارد الآخرة في القرآن

١. ورد «اليوم الآخر» في ٢٧ مرة في (١٣) سورة. البقرة وحدها ٧ مرات، النساء ٥ مرات، التوبة ٦ مرات، وما تبقى مرة واحدة في كل من: آل عمران، المائدة، يونس، النور، العنكبوت، الأحزاب، المجادلة، الممتحنة، الطلاق، فهذه ٢٧ مرة.
٢. لم يرد «اليوم الآخر» في سورة الإسراء.
٣. وردت «الآخرة» (١١٥) مرة، فإذا استثنينا (٣) مرات أشرنا إليها، فيكون الناتج (١١٢) مرة في الآخرة بمعنى القيامة.
٤. مجموع ما ورد في سورتي البقرة وآل عمران ١٩ مرة.
٥. مجموع ما ورد في النحل والإسراء ١٤ مرة.
٦. مجموع ما ورد في السور التي ذكر فيها الآخرة ٤ مرات لكل = ٢٤ مرة.
٧. مجموع ما ورد في السور التي ذكر فيها الآخرة ٣ مرات لكل = ٢٤ مرة.
٨. مجموع ما ورد في السور التي ذكر فيها الآخرة مرتين لكل سورة = ١٨ مرة.
٩. مجموع ما ورد في السور التي ذكر فيها الآخرة مرة واحدة = ١٦ مرة في ١٦ سورة.

«القيامة» كما وردت في القرآن

ورد لفظ «القيامة» في القرآن ٧٠ مرة. والمجلى في موارد هذا الاسم من أسماء اليوم الآخر أو الآخرة وهو القيامة، هو سورة: آل عمران ٦ مرات والزمزم ٦ مرات، ثم القصص ٥ مرات.

وورد ٤ مرات في كل من: البقرة، النساء، النحل، الإسراء، فهذه ١٦ مرة.

وورد ٣ مرات في كل من: المائدة، الأعراف، هود، طه، الحج، فهذه ١٥

مرة.

وورد مرتين في كل من: يونس، العنكبوت، الجاثية، القيامة. فهذه ٨

مرات.

وورد مرة في كل من: الأنعام، الكهف، مريم، الأنبياء، المؤمنون. الفرقان.

السجدة، فاطر، فصلت، الشورى، الأحقاف، المجادلة، المتحنة. القلم. فهذه

١٤ مرة.

فيصبح المجموع: $70 = 14 + 8 + 10 + 16 + 0 + 6 + 6$

السَّاعَة

من أسماء «الآخرة» أو «القيامة»: «الساعة».

وقد وردت في ٤٨ مرة، والسورة المجلية في مورد الساعة هي سورة

«الروم» (٤) مرات ولم يناظرها سورة أخرى.

وورد ٣ مرات في كل من: الحج، الزخرف، الجاثية، القمر، ومجموع ما

ورد فيها هو: ١٢ مرة.

وورد مرتين في كل من: الأنعام، الأعراف، يونس، النحل، الكهف، الفرقان،

الأحزاب، سبأ، غافر، فصلت، الشورى، فهذه: ٢٢ مرة.

وورد مرة في كل من: التوبة، يوسف، الحجر، مريم، طه، الأنبياء، لقمان،

الأحقاف، محمد، النازعات، فهذه: ١٠ مرات.

ولم يرد اسم «الساعة» في سورة الإسراء.

ورد في سورة الإسراء لفظ «الآخرة» ٧ مرات، والقيامة ٤ مرات فالمجموع

١١ مرة.

وورد اسم «جهنم» في القرآن (٧٧) مرة.

وورد في سورة الإسراء ذكرها في (٥) مواضع. أي بنسبة تقرب من ٧٪

وأكثر سورة ذكرت جهنم: التوبة ٨ مرات ثم النساء ٧ مرات، فالإسراء هي

ثالث سورة وتليها الزمر ٤ مرات.

وهذه هي مواردھا في سورة الإسراء:

- ١- ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ الإسراء: ٨.
- ٢- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ الإسراء: ١٨.
- ٣- ﴿فَنَلَقْنَاهُمْ فِي جَهَنَّمَ مُلُومًا مَدْحُورًا﴾ الإسراء: ٣٩.
- ٤- ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ أَكْثَرِ جَزَاءٍ مَوْفُورًا﴾ الإسراء: ٦٣.
- ٥- ﴿مَا أُولَئِهِمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ الإسراء: ٩٧.

موقف المشركين من الإيمان باليوم الآخر كما وضحته سورة الإسراء

لعل أوضح موضع يبين موقف المشركين في استهجان الآخرة أو إنكارها

بدأ منذ الآية ٤٩: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الإسراء: ٤٩ ويرد عليهم القرآن سؤالهم بجواب قاطع مسكت: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُ لِأَيْدِيكُمْ يُدْخِلُ أُولَٰئِكَ الْمَكْنَئِزَ يَخْرُجُونَ فِيهَا ذُكُونًا لِّأُولَٰئِكَ مِمَّا فِيكُمْ فَهُنَاكَ كَلِمَةٌ كَثِيرَةٌ مِّمَّا يَنْذَرُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإسراء: ٥٠ - ٥٢.

وقد أعادت سورة الإسراء نص الآية ٤٩ جزءاً من الآية ٩٨ ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الإسراء: ٩٨ وكررها بالألفاظ ذاتها ليدلّل لا أقول على ثباتهم بل على جمودهم وتحجرهم عند قولهم. ورد عليهم بمعنى ما رد عليهم أول مرة لا بالألفاظ، فهناك قال لهم ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ الإسراء: ٥٠. وهنا سألهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ الإسراء: ٩٩.

الحديث عن الآخرة بغير الألفاظ المباشرة في سورة الإسراء

كثر ذكر الآخرة إذا بألفاظها المباشرة: الآخرة، القيامة، جهنم... إلخ. ولم نذكر الجنة، والأمر سهل.

وكثر ذكرها بغير هذه الألفاظ المباشرة. فمثلاً، ذكر الجزاء والحساب:

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ. وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا ١٣﴾

أقرأ كُتِبَكَ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴿١٤﴾ الإسراء: ١٣ - ١٤.

صحيح أن الآية الأولى ذكرت القيامة لكن المسألة ليست متوقفة عند اللفظة ففي الآيتين تفصيل الجزاء وكتب الأعمال، وهذا ما يجري في الآخرة ويوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَرْجُوَنَّ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ الإسراء: وعذاب ربك تحتمل عذابه في الدنيا أو في الآخرة أو في الدنيا والآخرة أو في الآخرة إذا أردنا أفراد المعنى وتخصيصه بالوجه الأهم.

وتفهم القيامة وما فيها من عذاب ونار وجزاء من مثل قوله تعالى:

﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفُرْقَانِ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ الإسراء: ٦٠ فهي بالقطع شجرة الزقوم التي قال القرآن عنها في موضع آخر في سورة الصافات:

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ١٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ١٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ١٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ١٥﴾ الصافات: ٦٢ - ٦٥.

﴿فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ﴾ الإسراء: ٦٠ وكذا الصافات: ﴿فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ الصافات: ٦٢. فالكلام عنها إذا وإن لم يسمها ولم يحدد أنها في الآخرة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِمِيسْرَةٍ فَأُولَئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فِتْيَلًا ٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ٧٢﴾ الإسراء: ٧١ - ٧٢.

وإن فسرنا إمامهم بكتابتهم، فما بعدها تفصيل وتفسير، وتكون مثلاً كمثل أوائل السورة: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ. وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ الإسراء: ١٣.

وإن فسرناها بأن معنى الإمام: الإمام، أي القائد والزعيم والرسول، فلتتقي مع الآية السابقة في بعض الأوجه لا في كلها. وأعتقد أن المعنى يحتمل الوجهين والصورتين.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَحْدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ الإسراء: ٧٥.

ومع أن ابن عاشور لا يرى معناه (أي النص) في الآخرة وذلك في تفسيرها: «فليس المراد من ضعف الممات عذاب الآخرة لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو ركن إليهم شيئاً قليلاً لكان ذلك عن اجتهاد واجتلاباً لمصلحة الدين في نظره، فلا يكون على الاجتهاد عقاب في الآخرة، إذا العقاب الأخروي لا يكون إلا على مخالفة في التكليف، وقد سوغ الله لنبيه الاجتهاد. وجعل للمخطئ في اجتهاده أجراً».

أقول: مع قوله هذا فليس قوله نهاية المطاف، فغيره يرى غير ما يرى: قال في الظلال: «امتّن الله على رسوله أن ثبته على ما أوحى الله، وعصمه من فتنة المشركين له، ووقاه الركون إليهم، ولو قليلاً، ورحمه من عاقبة هذا الركون. وهي عذاب الدنيا والآخرة مضاعفاً، وفقدان المعين والنصير».

ومن هذا هذه الإشارة: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ الإسراء: ٧٩.

قال ابن عاشور في معنى المقام المحمود: «أي يحمد أثره فيه، وذلك لغناؤه عن أصحاب ذلك المقام، ولذلك فسر المقام المحمود بالشفاعة العظمى».

وذكر حديث البخاري أن الناس يصيرون يوم القيامة جماعات كل أمة تتبع نبيها، وذكر حديث الشفاعة، فيرجع إليه.

قصة موسى وفرعون في سورة الإسراء

لم يذكر «تسع آيات» في قصة موسى وفرعون إلا في سورة الإسراء. ثم سورة النمل، وهل تعلم أن بين السورتين تسع سور هي: الكهف، مريم، طه، الأنبياء، الحج، المؤمنون، النور، الفرقان، الشعراء. ولاحظ أن بعد الإسراء ذكر موسى في ثلاث سور: الكهف ومريم وطه. ثم ينقطع ذكره في أربع سور. ليعود قبل سورة النمل في سورة الشعراء، ثم يتصل ذكره ﷺ في القصص بعد النمل، والعنكبوت فهذه ثلاث سور، هذا لنقف على طرف من منهجية القرآن في عرض قصصه. وهل تعلم أن الآية التي تضمنت حقيقة مجيء موسى بتسع آيات جاءت في (٩X٢) من الكلمات أي ١٨ كلمة، والآية مقسومة إلى قسمين تامين كل منهما في تسع كلمات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَثَّلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ الإسراء: ١٠١، والآية ١٠٣: ﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ الإسراء: ١٠٣ جاءت في تسع كلمات أيضاً.. وهي الآية التي شهدت ختام فرعون، والأولى أي الآية ١٠١ شهدت بدايته، فتأمل حتى الأرقام ١١ والآية التي جاءت تعقيباً على القصة وهي الآية ١٠٥ جاءت ٩ كلمات.

مناسبة قصة موسى وفرعون لسياق سورة الإسراء

ذكر في أول سورة الإسراء علو بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض: ﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَاتِبًا وَلَنُعَلِّعَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الإسراء: ٤، وذكر في خواتيم سورة الإسراء قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل، وكأن بني إسرائيل يعيدون إنتاج علو فرعون وفساده الذي كلمتنا سورة القصص عن مثله مما وقع من فرعون

(١) «يموسى» بالرسم القرآني هكذا جاءت كلمة واحدة، وأما في النمل فإن عدد الكلمات حتى جملة «في تسع آيات» هو ٩ كلمات، وعدد حروف «في تسع آيات» هو ٩ حروف، وإذا جعلنا «في» منصفة للآية وعددنا بعدها حتى آخر الآية فهو ٩ كلمات، وسورة النمل رقم ٢٧ (٩X٢).

إذ قالت فاتحة سورة القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُلِيحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: ٤، ولاحظ أن رقم الآيات واحد هو رقم ٤، ولاحظ ثانياً أن بني إسرائيل جعلوا الفساد سبيلهم إلى العلو، بينما فرعون جعله علوه في الأرض فاسداً مفسداً. وأزعم أن بني إسرائيل أخطر من فرعون. فالعبرة هنا أن سورة الإسراء ابتدأت بضحية فرعون العاليي المفسد كيف تحولوا هم إلى المفسدين في الأرض عالين فيها، على أسوأ مما كان فرعون. لقد تحولت الضحية إلى جلاذ بشكل أفضع وأبشع. وفي ذات السورة يكون الختام بقصة فرعون لنفهم أن جرثومة الفساد والعلو قابضة في دهاليز كل نفس متى وجدت المناخ المواتي هاجت ونبتت نابتها.. واستحلت وتفاعلت وتفاقت.

ولكن لماذا ابتدأت سورة الإسراء بقصة بني إسرائيل وأخرت قصة فرعون مع أننا تعودنا أن قصة فرعون تُبتدأ بها السور؟ لأن سياق الإسراء عن إفساد بني إسرائيل وعلوهم الذي يتشبه ويشبه بعلو فرعون، فقدمهم وأخر فرعون. وما أسوأ أن يتحول الضحية إلى جلاذ ألعن من الجلاد! وعات أشد ممن عذبه! ليعذب هو من لا ذنب له. ولاحظ منهجية السورة في عرض القصة كيف جاءت منسجمة مع بداية السورة، تقول الآيات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ الإسراء: ١٠١، وهو النص الذي جاء في أول السورة: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى﴾ الإسراء: ٢^(١).

وبينما ركز في أول السورة النظر على الكتاب، ركز السياق في آخر السورة النظر إلى الآيات: لأنه في الأولى يتحدث عن بني إسرائيل الذين جاءهم الكتاب لينشئ أمة، بينما بعث موسى بالآيات ليهدي أصم هو فرعون، وقوماً صماً، في آخر السورة. وذكر في أول السورة «بني إسرائيل» وذكر في آخرها «بني إسرائيل» كل في موضعه. ولاحظ أن النص قال في الموضع الذي في آخر السورة: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَثَلٌ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ الإسراء: ١٠١. فكأن التسع آيات تفيد

(١) لو أردنا أن ننبه إلى موضوع الأرقام لقلنا أن مجموع الأرقام في الموضعين واحد: الأول آية ٢، والثاني ١٠١ (١+١٠١=٢) .. فتأمل!

الطرفين وإن كان المقصود بها أولاً وبالذات إنما هو فرعون، ثم قومه، وتبعاً بنو إسرائيل. ولاحظ صيغة «فاسأل» فما زال بنو إسرائيل حاضرين في السورة والصورة، من بدئها إلى منتهاها.. وجاء فرعون بالتبع.. فتأمل!

فماذا يكون رد موسى ﷺ؟ إنه يقول: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ الإسراء: ١٠٢، وأيقنت في قرارة نفسك أنه ما أنزل هذه الآيات إلا رب السماوات والأرض. «بصائر»، ولاحظ تناسق «بصائر» مع «مبصرة» التي وردت في الإسراء مرتين. ويردف موسى ﷺ، وأغلب ظني وراجح هذا الظن، وما أراك يا فرعون إلا «مثيراً» أي هالكاً، وهو أيضاً متناسق مع لفظ ﴿وَلَيُتَرِّوْا مَاعْلَوْا تَتَبَرَّأَ﴾ الإسراء: وفي الآية الأخيرة من قصة فرعون (١٠٣) قال: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ الإسراء: ١٠٢. ولاحظ التناسق، فلم ترد كلمة «فرز» ومشتقات الاستفزاز إلا في سورة الإسراء، في قصة الشيطان أولاً، ثم في محاولات قريش لاستفزاز النبي ﷺ لإخراجه وتهجيده من مكة، ثم في قصة فرعون مع بني إسرائيل. وهذا الأمر منسجم تماماً مع إفساد بني إسرائيل وعلوهم، وإن النص وإن لم يصرح باستفزازهم لأهل الأرض وأصحابها، إلا أنه من المعلوم من الواقع والممارسة أن أعتى خططهم يقوم على الاستفزاز بحرق الزروع والزيتون والثمار ليضيقوا المعاش، ثم بمئات الحواجز، ثم بالترويع والصدمات والسجن الذي مر قرابة نصف مليون فلسطيني بتجربته من المواليد إلى السبعينيين!

ولاحظ انسجام القصة مع جو السورة أيضاً في «فأغرقناه» فقد بدأت السورة بقصة «نوح» أقصد بذكر اسمه في الآية (٣)، وذكرت بنجاته من الفرق من خلال اللمحة العابرة الخاطفة في كلمة ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ الإسراء: ٣ وهي توحى بفرق الكافرين ونجاة المؤمنين. ففي أول السورة غرق الكافرين، وفي آخرها غرق فرعون وقوم الفراعين، وفي ثايلها إغراق بني إسرائيل المنطقة والعالم بالفساد والدمار والفتن والأزمات والحروب والإرهاب، فتأمل! ولا نعاود اللفت إلى أرقام الآيات ٣، ١٠٣، فلا داعي للتكرار.

وأما الآية الرابعة والأخيرة فجاءت لبني إسرائيل بعد زوال فرعون

فهي خاصة بهم وإن كانت في سياق قصته . فهل لاحظت كيف جاء السياق مختلطاً بقصتي بني إسرائيل وفرعون، وهذا الاشتباك والتشابك مطلوب؛ لأن بني إسرائيل - كما أسلفنا - سيعيدون إنتاج تجربة فرعون! ولاحظ النص: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ﴾ الإسراء: ١٠٤، واستحضر الآية الرابعة: ﴿وَفَضَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الإسراء: ٤٠. نحن لا نتكلف بفضل الله، فالأمور أجلى من أن تحتاج إلى تكلف! إنه النسق حتى في الأرقام، فهل أغمض عيني حتى لا يقال متكلف؟!

بنو إسرائيل والأرض في الآية ٤ والآية ١٠٤، ووعد الآخرة في البدء والختام.. هذا هو القرآن وأنساقه وإبداعه وروائعه! والأرض هنا عامة (العموم النسبي، المهم أنها أعم من أول السورة وإن كان اللفظ واحداً) فإذا جاء وعد الآخرة التي هي مدار التركيز ﴿جَنَابِكُمْ لَفِيحًا﴾ الإسراء: ١٠٤. والآخرة هي مرة الإفساد الثانية بلا ريب.. ليتعانق مطلع السورة مع ختامها، وليأتي هؤلاء لنهايتهم من حيث يظنون أن تجمعهم بداية قوتهم وعولة دولتهم، وما دروا أن هذه بداية نهايتهم.

ولا يفوتنا أن نلفت إلى المعاملة بالمثل في قصة موسى وفرعون لتكون درساً لمن يعتبر في أنه لا بد من المعاملة بالمثل! والكلام واضح.

ففرعون يقول: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ الإسراء: ١٠١،

وموسى يقول: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَجْبُورًا﴾ الإسراء: ١٠٢.

قصة آدم في سورة الإسراء

قصة آدم في القرآن

وردت قصة آدم في السور التالية: «البقرة» وفيها: ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠ ينسجم مع جو سورة البقرة من الاستخلاف فهي أول سورة نزلت بعد الهجرة والتمكين والسورة ملأى بإيتاء الملك والإمامة.. الخ. آل عمران (اصطفى آدم) وهي سورة الاصطفاء الخاص والعالم. المائدة (قصة ابني آدم)، الأعراف (سورة قصصية تسير مع التاريخ الإنساني من أوله فجاءت أكثر السور تفصيلاً لقصة آدم لأن قصته قصة البشرية، وحجر الزاوية في تاريخ البشرية).

ثم سورتنا الإسراء، سورة بني إسرائيل شياطين الأرض وأعداء بني آدم وفطرتهم، ويزعمون أنهم أبناء سام ابن نوح فهم يتميزون عن البشر، وحتى نسبتهم لآدم يزعمون أنهم الوحيدون لآدم والبقية أبناء إبليس، قاتلهم الله أنى يؤفكون. ثم الكهف (السجود لآدم)، ثم مريم (ذرية آدم) وهي قصة الذريات عموماً، فسورة طه (العهد إلى آدم والنسيان منسجم مع جو السورة، ثم السجود لآدم...)، سورة يس (يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان).. وسورة الحجر لم يذكر فيها اسم آدم، وكذا سورة ص،، وإن بيننا قصة الإنسان مع الشيطان. أحببت أن أذكر هذه المقدمة المستعجلة العامة قبل الدخول في قصة آدم في سورة الإسراء محل الدراسة.

سياق قصة آدم في سورة الإسراء

ورد قبل قصة آدم في سورة الإسراء، بسبع آيات، ورد ذكر الإنسان والشيطان، كأنه تمهيد لقصة آدم مع الشيطان أو إبليس كما ورد اسمه في

القصة.. ليجمع له السياق بين الشيطنة والأبلسة، يعني البعد عن رحمة الله واليأس منها.

جاء في الآية ٥٣ قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ الإسراء: ٥٣، وجاء في ختام قصة آدم في الآية ٦٤ منها قوله عز وجل: ﴿وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الإسراء: ٦٤. إشارة إلى أمضى أسلحة الشيطان، وهي أتفها في ذات الوقت، لو كان الناس لا يثقون بالشيطان وبوعوده. كذلك جاء قبل قصة آدم بآية واحدة قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَاءَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (٦٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴿ الإسراء: ٦٠ - ٦١. ولم تُر «إذ» في السورة في مفتتح آية إلا في هاتين الآيتين. وهي الأداة المفضلة في افتتاح القصص في كثير من المواضع في القرآن، ثم الإشارة إلى الفتنة في الآية السابقة وما من رب أن أعظم فتنة في الوجود؛ وجود الشيطان. والشجرة الملعونة، كاللعنة التي وقعت على إبليس الملعون، وهي عقاب للذين يتبعونه.. فتأمل!

ولا تنس أن الأكل من الشجرة، كما في قصة آدم، كان سبب الخروج من الجنة، وقصتنا على هذه الأرض.

آدم في سورة الإسراء

قصّت سورة الإسراء قصة آدم في خمس آيات، بدأت بالأمر بالسجود لآدم، وليس من حلقة خلقه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الإسراء: ٦١، ولم ترد صيغة «أسجد» بهذا الاستفهام إلا في سورة الإسراء. وقد تكرر في السورة سؤال الكافرين: ﴿أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفًّا إِنْآ لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الإسراء: ٤٩، ٩٨. وجاء سؤالهم

كذلك: ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ الإسراء: ٩٤، وفيها سؤال إبليس: ﴿أَرَأَيْتَ بَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الإسراء: ٦٢، وجاء سؤال الله لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ الإسراء: ٩٩، والملاحظ أن الاستفهام في المواطن كلها بالألف.

فالاستفهام، وبالألف، منسجم متسق مع جو الاستفهام في سورة الإسراء، فهذه سبعة مواطن استفهام في نسق واحد وكلها بالألف، سوى «أأسجد» فتكون ثمانية.. أما الفعل «أَسْجُدْ» فلم يرد إلا مرة أخرى في الحجر السورة ١٥ الآية ٢٣، وذلك قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ﴾ الحجر: ٢٣.. أما صيغة ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ف جاءت في البقرة ٢٤، والأعراف ١١، والكهف ٥٠، وطه ١١٦.

وأما الآية الثانية في سياق قصة آدم في سياق سورة الإسراء فهي: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٦٢ فأولاً «كَرَّمْتَ» لم ترد في قصة آدم بل في القرآن كله إلا في هذا المواطن، وهي متناسقة تماماً مع السياق، فقد جاء في الصفحة التالية بعد سبع آيات قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٧٠، وعلى ذكر الإكرام والتفضيل فقد جاء في سياق السورة قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٢١، وفيها أيضاً: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ الإسراء: ٥٥، فجو السورة من هذه الناحية أيضاً نسق متسق، وكلمة «لأحتنكَنَّ» لم ترد إلا في هذا المواطن في هذه السورة. ومعنى القسم «لأحتنكَنَّ» كناية عن شدة الملازمة فهو كأنه ممسك بهم من الحنك مثل الطاقية العسكرية التي تربط عند أسفل الذقن فلا تنفلت، والفكاك منه ليس بالأمر الهين، والشياطين الذين يحتلون الأرض الآن، الفكاك منهم كذلك ليس بالهين!

الآية الثالثة في قصة آدم في الإسراء: ﴿وَأَسْفَرْنَا مِنْ أَصْطَفَىٰ مِنْهُمْ بِصَوْرِكَ وَأَجَلْبَ عَلَيْهِمْ بَحْيِكَ وَرَجِلَاكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الإسراء: ٦٤. وصيغة «وأسفَرْنَا» لم ترد في قصة

آدم إلا في هذا الموطن من الإسراء، بل لم ترد هذه المادة كلها في القرآن كله إلا في سورة الإسراء. وتأمل النسق القرآني، فقد ورد بعد هذه الآية بإحدى عشرة آية موضع آخر لهذه المادة في الآية ٧٦: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الإسراء: ٧٦، ثم الموطن الثالث في هذه السورة وفي القرآن كله في الآية ١٠٢ من الإسراء: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْرِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الإسراء: ١٠٢. أما كلمة «صوتك» فلم ترد بهذه الصيغة لا في قصة آدم ولا في القرآن كله إلا هنا، وأما صيغة «وأجلب» فلم ترد في القرآن كله إلا هنا، ولولا كلمة «جلايبهن» لقلت إن المادة كلها لم ترد في القرآن كله إلا هنا. وكلمة «خيلك ورجلك» لم ترد في قصة آدم ولا في القرآن كذلك إلا هنا، كما لم ترد «وشاركهم في الأموال والأولاد» إلا هنا كذلك. وأما صيغة «وعدهم» فلم ترد في قصة آدم ولا في القرآن إلا هنا.

وعبارة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ النساء: ١٢٠ والإسراء: ٦٤، فهذه مشتركة بين سورة النساء والإسراء، مثلما مر معنا في قصة داود. والآن نتكلم عن النسق بين هذه الآية من قصة آدم وسياق سورة الإسراء، فنقول: مر بنا في أول سورة الإسراء: ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ الإسراء: ٦٠. ألا ترى أن هذا منسجم مع ﴿وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ خَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾ الإسراء: ٦٤، إنه النفير أيضاً. وأمر آخر أن قصة آدم وإبليس في القرآن كله لا تكاد تتفصل عن السياقات التي فيها ذكر بني إسرائيل، فهذا نسق ثانٍ. وأما ﴿وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الإسراء: ٦٤ فهو متسق مع جو سورة الإسراء الذي كله وعد من أول السورة إلى آخرها، واقرأ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ الإسراء: ٥، ﴿وَكَاثَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ الإسراء: ٥٠، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ الإسراء: ٧، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ الإسراء: ١٠٤. فإذا أضفنا إليها ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء: ٣٤ اكتمل عقد نسق آخر تكرر فيه الوعد فوق سبع مرات.

والآن مع الآية الخامسة والأخيرة من قصة آدم في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ الإسراء: ٦٥، والشق الأول من الآية ورد في سورة الإسراء ٦٥، والحجر ٤٢. واختلف ختام الآية فجاء في

الحجر: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْقَاوِينَ﴾ الحجر: ٤٢، وفي الإسراء: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ الإسراء: ٦٥. وأما اكتشاف النسق بين هذه الآية من قصة آدم وسياق سورة الإسراء، فيسير، بإذن الله.

فأولاً جو العبودية والعباد ماضٍ معنا من أول آية: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء: ١، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ الإسراء: ٥٠. وأما الوكيل، سبحانه، فقد ورد ختام آية في كل من الآيات: ٢، ٥٤، ٦٥، ٨٦، فالآية متسقة مع جو السورة تمام الاتساق.

وألفت النظر أخيراً إلى أن قصة آدم مع الشيطان استغرقت خمس آيات، وقصتها مع إفساد بني إسرائيل استغرقت العدد ذاته أي خمس آيات، فتأمل! وإبليس رسالته فساد وإفساد وهم كذلك.

وإبليس سلاحه الوعود وهم كذلك.

وإبليس يعتمد الكذب والتقلب والنقض وهم كذلك.

وإبليس يتخلى عن أوليائه وعدونا يتخلى عن عملائه.

وإبليس تقوم سياسته على الاستفزاز وتقوم سياسة بني إسرائيل (بني إبليس) على الاستفزاز.

هذا غيض من فيض من المشابه بين القصتين!

الأرض المقدسة في القرآن الكريم

الأرض المقدسة

أطلق القرآن على هذه الأرض المباركة، أرض الإسراء، وصف الأرض المقدسة^(١). وهذا الجذر كما عند ابن فارس وصاحب اللسان يعني الطهارة. والقدس أو بيت المقدس أو البيت المقدس هي أقدس ما في الأرض المقدسة. فهي مركز الدائرة وقطب الرchy ومحور هذه الأرض وواسطة العقد ودرة القلادة.

ولئن كانت حياطتنا لفلسطين درجة ينبغي أن تكون حياطتنا للقدس وأقصاها مئة درجة، ومن أسف أن تسقط دون أن يراق فيها سيل من الدماء! ما كان ينبغي أن تقع في الأيدي الدنسة القذرة المجرمة المملوكة. هؤلاء المجرمون الإرهابيون الذين دنسوا الأقصى أول دخولهم له، فشريو في ساحاته الخمر ورقصوا ومارسوا فجورهم.

ثم بدأوا فوراً بتغيير معالم المسجد المقدس، فأزالوا أولاً حي المغاربة. وهم قوم من المغرب جاؤوا البيت وربطوا فيه لحياطته وحراسته، وكانوا بهذا رمزاً لكون هذا المسجد مهوى أفئدة المسلمين من أقصى العالم الإسلامي إلى أقصاه، وإزالة الحي إزالة لهذه الرمزية. ثم بدأت الحفريات تحت الأقصى. وقد نيّفت وزادت أي الحفريات على الأربعين سنة ونزلت إلى أعماق قد تصل إلى أربعين متراً، بدعوى البحث عن آثار للهيكل المزعوم، وما من هيكل، وحتى لو فرضنا وجود آثار للهيكل، وهو غير وارد بالقطع، أقول حتى لو كان، أفنزله كيانه موجوداً تابعاً لدين عظيم وأمة عظيمة عديدها ألف وخمسمائة مليون من أجل دين زائف كاذب باطل بشري مصطنع مفتعل، وأمة خسيصة؟ صحيح أنها تحكم العالم، لكنها تحكمه من خلال الفساد وتركيع الزعماء،

(١) في القاموس المحيط: «القدس: بالضم وبضمين: الطهر. اسم ومصدر. والبيت المقدس. وروح القدس. والقدس المنيع الضخم من الشرف.... أه. وفي المعجم الوسيط: «القدس: المبارك. والبيت المقدس بيت المقدس. والمقدسة: الأرض المقدسة: المباركة أرض فلسطين. المقدس: بيت المقدس حرم القدس» أه.

مثلما صنعت مع زعماء أمريكا «كلنتون نموذجاً»!
فحكمها للعالم، استعمار، يجب التخلص منه، لا الاستسلام له والرضوخ
لأمره، ونحن طليعة البشرية في تحرير البشرية من هذا الاستعمار الحديث
الخبث، ومن هذا السرطان المميت!

الأرض المباركة

وردت مادة «البركة» في القرآن الكريم في ٩ صيغ و ٣٢ مرة. تفصيلها:

١. ﴿وَبَرَكْنَا فِيهَا﴾ فصلت: ١٠.
٢. «باركنا» وردت ٦ مرات ٥ منها في حق الأرض المباركة، والسادسة في حق إبراهيم وإسحق:

- ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا
الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ الأعراف: ١٣٧.
- ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ الإسراء: ١.
- ﴿وَنَجِّنَا لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ٧١.
- ﴿نَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ الأنبياء: ٨١.
- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَلَهْرَ﴾ سبأ: ١٨.
- ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾

الصافات: ١١٣.

٣. بورك: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنِ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ النمل: ٨.
٤. «تبارك» ٩ مرات: الأعراف ٥٤، المؤمنون ١٤، الفرقان ١، ١٠، ٦١، غافر ٦٤، الزخرف ٨٥، الرحمن ٧٨، الملك ١.
٥. بركات: وردت مرتين:
 - مرة: ﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الأعراف: ٩٦.
 - ومرة في قصة نوح في سورة هود ٤٨

٦. «بركاته» مرة واحدة في تحية امرأة إبراهيم: ﴿وَبَرَكْنَهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾

هود: ٧٣.

٧. «مبارك» ٤ مرات كلها في وصف الكتاب الكريم:

- ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ الأنعام: ٩٢، ١٥٥.
- ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ الأنبياء: ٥٠.
- ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ ص: ٢٩.

٨. «مباركا» ٤ مرات: مرة في وصف البيت الحرام، ومرة في وصف عيسى عليه السلام، ومرة في قصة نوح «منزلاً مباركا»، ومرة في وصف الماء النازل من السماء:

- ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ آل عمران: ٩٦.
- ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ مريم: ٣١.
- ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا﴾ المؤمنون: ٢٩.
- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ ق: ٩.

٩. «مباركة» ٤ مرات، مرة في وصف الشجرة، ومرة في وصف التحية، ومرة في وصف البقعة، ومرة في وصف الليلة.

- ﴿شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ النور: ٣٥.
- ﴿نَجِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً﴾ النور: ٦١.
- ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ القصص: ٣٠.
- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدخان: ٣.

لاحظ أولاً أن كلمة «مبارك»، «مباركا»، «مباركة» وردت ٤ مرات لكل.

ولاحظ ثانياً أن مادة «البركة» ٩ صيغ ومادة «مقدس» ٥ صيغ، والفرق

بينهما «٤» صيغ.

البركة جاءت جملة فعلية: باركنا فيها والقدسية جاءت اسمية: الأرض المقدسة.

وكل تعبير في القرآن ينبغي أن يكون وراءه مغزى ومقصد. فما يترتب

على هذه الظاهرة؟

أولاً: الملاحظة أن «وبارك فيها» جاءت وصفاً لكل الأرض. ومعلوم أن

الأرض تتفاوت عطاء من سنة إلى سنة، ومن منطقة إلى منطقة، وحتى الأنهار تفيض وتفيض.

والأمطار تزيد وتنقص، فالبركة موجودة قطعاً، ولكنها كل موسم ترتبط بجملة متغيرات ومؤثرات، وكذا البركة في فلسطين المباركة. ولذلك جاءت في جميع مواضعها، وهي أربعة، جاءت بالصيغة الفعلية ﴿بَرَكْنَا فِيهَا﴾ والخامسة ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾.

ثانياً: البركة في المسجد الحرام جاءت بالصيغة الاسمية: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَكَتْهُ مَبَارَكًا﴾. ووصف القرآن بالبركة جاء بالجملة الاسمية: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾.

ثالثاً: القدسية وصف ثابت، بمعنى يجب المحافظة عليها بصورة دائمة أن تكون مطهرة مقدسة، وهذا يقتضي وعياً وحذراً وتأهباً دائماً ويقتضي لنا فعالية ودوراً مهماً نشطاً.

دورنا في تطهير الأرض المقدسة

قد يصيب هذه الأرض الطهور المباركة المقدسة الغير، وقد يعتدي عليها مستعمر قذر، أو مفاخر غر، أو متغطرس مغتر، فما موقفنا وما واجبنا إذا وقع عليها مثل هذا القدر؟ قدرنا وواجبنا وفريضتنا أن نزيل عن وجهها كل كدر، وأن لا نبقي فيها أدنى قذراً

ولئن كان غزو الاستعمار قذراً من الأقدار، فإن مجابهة قوى الاستكبار قدر أيضاً من الأقدار، ونحن ندافع الأقدار بالأقدار لا خدر، تحت دعاوى أن قد وقع القدر. هذه الأرض قدسها الله وطهرها وباركها، وعلينا نحن واجب قَدْرِي أن نحرس هذا التطهير الإلهي والقدسية والبركة.

ولقد وقع المسجد الحرام في قبضة المشركين، وامتألت الكعبة بالأصنام، قرابة ثلاثمائة صنم، وأحيطت بالأصنام، فأين حراسة الله؟ الله يريد أن يدفع البشر ظلم البشر، لا أن يُعتمد كلياً على تدبير القدر دون تحرك البشر،

فليتحرك البشر ويعاون تدبير القدر، فتلتقي الأمور على أمر قد قدرا
وجاء اليوم الذي حطم فيه محطم الأصنام ﷺ، حطم أصنام مكة وهو
يردد: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء: ٨١.
وسيأتي يوم، وهو قريب، نعيد فيه القدسية لهذه الأرض ونزيع عنها
ما عراها من هؤلاء، ونردد آية الإسراء مع صاحب كرامة الإسراء، الذي ردد
عند تطهير الكعبة، ردد صاحب الإسراء قول من نزل «الإسراء» ونزل في
سورة الإسراء ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ونردد كما
في الإسراء: ﴿وَلِيَسْبِرُوا مَا عَلُوا نَسِيرًا﴾ الإسراء: ٧٠.

قدس) في القرآن

وردت هذه المادة عشر مرات بالتمام والكمال، ٣ منها في سورة البقرة.

١. ﴿وَقُدْسٌ لَكَ﴾ البقرة: ٣٠، ﴿وَأَيَّدَنَّهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ البقرة: ٨٧، ٢٥٢.
٢. ﴿إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ المائدة: ١١٠، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ النحل: ١٠٢، إذا «روح القدس» وردت ٤ مرات، ٣ منها بحق عيسى، والرابعة والأخيرة بحق إنزال الكتاب الخاتم.

٣. «القدوس» ورد مرتين في المسبحتين: الحشر والجمعة. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ الحشر: ٢٣، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ الجمعة: ١.

٤. «المقدس» وردت مرتين في قصة موسى كلتاها: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ طه: ١٢، ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ النازعات: ١٦.
٥. «الأرض المقدسة» هي الكلمة الخاتمة والعاشرة والأخيرة في هذه المنظومة: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ المائدة: ٢١.

لاحظ أن «القدوس» وردت مرتين في كل مرة مقترنة باسم «الملك».

وأن «المقدس» ورد مرتين في كل مرة مقترناً بكلمة أو وصف أو اسم «طوى».

وأن «الأرض المقدسة» واحدة، من المرات.

تفنيد دعوى الوعد الإلهي !

- ١ . الله تعالى لا يعطي شعباً بعينه، (مهما صنع أو تقلب)، لا يعطيه وعداً بتمليكك أرضاً معينة، وإلا كان هذا مدعاة لعدم الالتزام بدينه. طالما أنك موعود بالسيادة والقوة والهيمنة مهما بدر منك، وهذه هي العنصرية بعينها والله يرفضها ويأبأها. ونحن أمة خير نبي. وخير أمة. ومع هذا إذا عصينا تخلت عنا المعية والمعونة، وفقدنا الأرض. فلا تأمين شاملاً يعطى لأحد!
- ٢ . في كتابهم الذي ألفوه أو لفقوه يقول هؤلاء إن الرب أعطاهم أرض فلسطين، أو أعطى إبراهيم هذه الأرض لنسله من إسحق. فلماذا يحرم الله نسل إبراهيم من إسماعيل؟ يجيبون بأنه: لأنه ابن الجارية! أفعد الله ابن الحرة وابن الجارية؟ وهل هذه مقاييس الدين؟ أو ليس هذا هو التمييز العنصري الذي أجمعت البشرية على رفضه والتخلص منه؟
- ٣ . في كتابهم الذي ألفوه أن إبراهيم أراد أن يشتري أرضاً ليدفن فيها سارة عندما توفيت، فتبرع له الشعب الفلسطيني بأرض ليدفنها فيها. فأبى إلا أن يدفع الثمن، أفيشترى الإنسان ما يملك؟
- ٤ . لماذا استصدر اليهود وعد بلفور إذا كانوا يعتمدون على الوعد الإلهي؟ أوليس هرتزل علمانياً حتى الأعماق، ولكنه كذب ووظف النص الديني الملق ليخدم مخططه الصهيوني. وهل الذي أقام إسرائيل، الوعد الإلهي، أم وعد بلفور والدعم الاستعماري؟ وهل لو كنا أقوياء وليس عندنا تواطؤ ولا خيانة، هل كان تحقق ما يزعمونه من أنه الوعد الإلهي؟ وكيف انطلى هذا الكلام على العالم مع أن بدء حركتهم كان في فترة سادت فيها العلمانية الشرسة والازورار عن الدين؟ المسألة كلها تلفيق.
- ٥ . وإذا كان الوعد الإلهي لهم على مر الزمان فلماذا خرجوا من الأرض أضعاف ما سكنوها؟ أليس قد فارقوها ثلاثة آلاف سنة وسكنوها سبعين سنة، فهل الوعد هو الذي تحقق، أم أن الوعد أخلف أو تخلف؟

- والله لا يخلف الميعاد فلا وعد إذا لأن الله لا يخلف الميعاد .
- ٦ . وإذا كانت المسألة تدافع وعود، فنحن أيضاً عندنا وعد لا يخلف لأنه في الكتاب الحق الذي لم تمسه يد بشر ولا يأتيه الباطل، عندنا وعد بدخول المسجد الأقصى، كما دخلناه أول مرة . ودلالة أنه كلام الله أنه بين لنا أننا نغادر، لظروفنا، ثم نعود لتحسن أحوالنا، هذا كلام الله وهذا وعده الذي سيُنجز، ويراه العالم حقيقة واقعة «ولتعلمن نبأه بعد حين» والحين هذا حينه إن شاء الله رب العالمين!
- ٧ . وإذا كان عندكم وعد إلهي، وأنتم معتقدون مصدقون ومؤمنون بهذا الوعد، فلماذا ناقشتم بدائل عن فلسطين، في الأرجنتين، وفي أفريقيا، وفي أمكنة أخرى؟ أليس هذا دليلاً على أنه ما ثمة وعد ولا يعدون، ولكنها المؤامرة الصهيونية الاستعمارية الدون؟!
- ٨ . وإذا كان عندكم مثل هذا الوعد، فلماذا هناك طوائف منكم تنذركم بخراب إسرائيل، لأن الرب توعد إسرائيل بالخراب إن أقامت دولة في أملاك الغير، وأنتم فعلتم هذا والخراب بانتظاركم، ولماذا سمّيت الكنيس الذي أقمتموه في القدس: كنيس الخراب؟ أو ليس هذا موقف حركة «ناطوري كارتا» وحاخاماتها؟ وما تطرق إليه الاحتمال -في قواعد الاستدلال والمنطق- بطل به الاستدلال!

كلمات عن القدس والأقصى

لقد كان تاريخ مدينة القدس أكثر تعقيداً وتشابكاً من غيرها من المدن، فقد تقلّبت على المدينة دول وحضارات وعقائد مختلفة، كما أنها رأت عبر تاريخها أنماطاً مختلفة من السكان، والأعراق واللغات والثقافات، واجتمع للقدس من أوضاع متشابكة خاصة بها ما لم يجتمع لأي مدينة من مدن الإسلام، فهي مقدّسة لثلاث ديانات، وعلى الرغم من أنه اشترط عدم

بقاء اليهود فيها عندما تُسلمَ للمسلمين كما جاء في العهدة العمرية. فقد تسرب هؤلاء بعد الفتح العمري للعيش في القدس. بسبب تسامح المسلمين^(١). فالديانات الثلاث هي الإسلام والمسيحية واليهودية. فكتاب الله تعالى صرح ببركتها (أي القدس)، وأما النصارى فهم يعتقدون أن «فيها صلب المسيح. وقرب الذبيح وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت وقام الصليب»^(٢). ولليهود أيضاً مزامع كثيرة (وبالطبع فإنه لا تأله الناسوت ولا تأنسن اللاهوت، تعالى الله عما يقول الضالون علواً كبيراً، ولا صُلب المسيح بالطبع، والله أصدق قيلاً).

«اليبوسيون بناء القدس الأولون الذين استوطنوها، وأغلب الظن أن هذا حدث حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م، ومن ملوكهم (ملكي صادق)^(٣)، وهو أول من اختطها وبنائها، وكان قبل ذلك يسكن وقومه في الكهوف، وعُرف بالتقوى وكان محباً للسلام حتى أطلق عليه (ملك السلام) ومن هنا جاء اسم المدينة (سالم) أو (شالم). وكانت ذات أهمية تجارية، فهي واقعة على أهم طريقين تجاريين، الأول يربط البحر بالصحراء، والثاني يربط حبرون ببית إيل»^(٤)، حيث إن «كثيراً من الحقائق التاريخية والأثرية من زمن المستوطنة اليبوسية ليست حقائق صحيحة، بل هي إعادة لبناء أحداث تستند إلى نصوص أسية فهمها لأنها غير واضحة أو غير كاملة..»^(٥). «وزاد بنيان القدس الملك (سالم اليبوسي)، وشيّد برجاً بقصد الدفاع عن المدينة، وعرفت بعدئذ باسمها الكنعاني (أوروسالم) أي مدينة السلام... ولما تفرقت كلمة اليبوسيين، استغلّ

(١) إبراهيم، محمود، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص٧٦-٧٧، باختصار.

(٢) سويد، ياسين، حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، دار الملتقى للطباعة والنشر، ١٩٩٧. بيروت، لبنان. ص٩٦.

(٣) يقول عصام سخيني صاحب كتاب القدس تاريخ مختطف وأثار مرورة: إن قصة ملكي صادق قصة خرافية وأحد الرموز الكبرى التي بنت عليها الأيديولوجية الكتابية ادعاءاتها بقدم الصلة التاريخية بين أورشليم والشعب اليهودي، من خلال ما يُنسج من حكاية ملكي صادق التي تؤكد أنه كان ملكاً في تلك الفترة وصلته بالنبي إبراهيم عليه السلام، ويشكك في وجود هذه الشخصية لعدم وجود أي أثر تاريخي دال عليها. وينسب هذه الأسطورة إلى ما ورد في سفر إخنوخ (Echnoch)، والمعتبر جزءاً من الكتاب المقدس، انظر الكتاب من منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمان، ط١، ٢٠٠٩م، ص٧٩-٨٠.

(٤) عز الدين، فاروق محمد، القدس تاريخاً وجغرافياً، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١م، ص١٦-١٧، بتصرف.

(٥) العسلي، كامل جميل، القدس في التاريخ، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص١٩.

العبرانيون الفرصة، فراحوا يغزونهم، وكادوا يقتحمونها...، وعُرف عن هؤلاء أنهم كلما احتلوا مدينة أعملوا السيف والنار فيها وفي سكانها، فاستمدَّ حاكمها (عبد حيبا) العون من فرعون مصر الذي اشتهر عنه أنه لا يتعرض للسكان ويكتفي بأخذ الجزية»^(١).

«ودمّر الرومان القدس مرتين ومحو اسمها تحقيقاً لنبوءة المسيح، وانقطعت صلة الإسرائيليين بالمدينة ١٨ قرناً، وبعدها حلّ التشرد والاضطهاد منذ الحروب الصليبية في القرن الثاني الميلادي إلى النازية في أواسط القرن العشرين... حيث كانوا ينتقلون من بلد إلى آخر»^(٢).

«أسريَ بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى زمن هرقل (٦١٠-٦٤١ م)»، وبنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة المشرفة ما بين (٦٨٥-٦٩١ م)، أما المسجد الأقصى فقد شرع في بنائه عبد الملك بن مروان، وأتمَّ بناءه الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٨ هـ... وكانت أبوابه زمن الأمويين مصفحة بالذهب والفضة، ولكن أبا جعفر المنصور في العهد العباسي والذي عُرف بشدة إعجابه بمسجد قبة الصخرة أمر بخلعها وصرفها دنائير تتفق على المسجد^(٣)، وسنة (٤٠٧ هـ/١٠١٦ م) أعيد بناء قبة الصخرة، وأيضاً بإعادة بناء المسجد الأقصى (٤٢٦ هـ/١٠٣٥ م) لتأثرهما بما أحدثه زلزال كبير أصاب المنطقة، وبتحديد الواجهة الشمالية للمسجد الأقصى سنة (٤٥٨ هـ/١٠٦٥ م)^(٤).

ولما احتل الصليبيون بيت المقدس ١٠٩٩ م، جعلوا قسماً منه كنيسة، واتخذوا القسم الآخر مسكناً لفرسان الهيكل ومستودعاً لذخائرهم، ولكن صلاح الدين عندما استردَّ القدس الشريف منهم أمر بإصلاح المسجد، وجدد محرابه، وكسا قبهته بالنسيفساء^(٥)، «وأتى من حلب بمنبر صنعه نور الدين الزنكي للمسجد الأقصى، مرصع بالعاج والابنوس هدية له، إلا أنه لم يُطل

(١) شعث، أحمد كامل، القدس الجريح محور الصراع الأبدي، مكتبة مدبولي، ط١، ص١٩٩٦ م، ص١٥، بتصرف.
(٢) انظر: يركو، عيد بن محمد، المسجد الأقصى المبارك والهيكل المزعوم، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٤٢١ هـ/٢٠١٠ م، ص٢٤-٢٥.

(٣) نجم، رائف يوسف وآخرون، كنوز القدس، ط١، سنة ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م، ص٣٠، و ص٢٧-٢٨، و ص٧٥-٧٦.
(٤) العسلي، كامل، مكانة القدس في تاريخ العرب والمسلمين، سلسلة التثقيف الشبابي تصدرها وزارة الثقافة والشباب في المملكة الأردنية الهاشمية، ١٩٨٨ م، ص٢٧، بتصرف.

(٥) نجم، رائف يوسف وآخرون، كنوز القدس، ط١، سنة ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م، ص٣٠، و ص٢٧-٢٨، و ص٧٥-٧٦.

الحياة - نور الدين - حتى يضع منبره بيديه في المسجد»^(١)، «ووضعه صلاح الدين على يمين المحراب، وبقي كذلك إلى أن أحرقه اليهود ١٩٦٩م. حيث أعلنت إسرائيل أن هناك شخصاً مختل العقل اسمه روهان قد أحرقه. ولكن آثار الحريق دلت على أن هناك آخرين ساعدوا روهان في عملية الحريق. من خلال أحد الشبابيك الغربية المطلة على حارة المغاربة التي هدمها الإسرائيليون»^(٢).

«ويظهر بجلاء أن اليهود كانوا طارئين على المدينة وأن منشئها هم العموريون الكنعانيون، وهم من الشعوب السامية»^(٣)، «ولقد وقَّع زئيف هيرتزونج على تقرير أثري مع مجموعة علماء آثار يهود رفعوه إلى رئيس الوزراء الصهيوني يفيد: بعدم وجود أي دليل أثري يربط بين فلسطين وروايات العهد القديم، وأن الحفريات التي تمت تحت أساسات المسجد الأقصى لم تسفر عن العثور على آثار يهودية»^(٤).

(١) شلش، خليل، القدس والمسجد الأقصى في الفكر الإسرائيلي المعاصر، دار المأمون، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠١١م، ص٥٩-٦٠.

(٢) نجم، رائف يوسف وآخرون، كنوز القدس، مرجع سابق، و ص٢٧-٢٨، و ص٧٥-٧٦.

(٣) العسلي، كامل، مكانة القدس في تاريخ العرب والمسلمين، مرجع سابق، ص١٦.

(٤) يوسف، فرج الله، اغتصاب فلسطين وآثارها، مجلة الفيصل، العدد ٢٢٦، شعبان ١٤٢٧هـ/ سبتمبر ٢٠٠٦م، ص٣٣.

التوجيهات الأخلاقية في سورة الإسراء

من أعظم وأهم موضوعات سورة الإسراء: التوجيه الأخلاقي.. فالأخلاق محور مهم في السورة، مثلما هي محور مهم في الدين وفي الحياة والواقع. ولعل أعظم وسام إلهي - بعد النبوة - علق على صدر رسول الله ﷺ، وسام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القله: ٤). وما تعاني الإنسانية اليوم من مأزق كما تعاني من مأزق الأخلاق، ولا نخر الفساد شيئاً إلا من خلال نخر أسس الأخلاق، فإذا تردى بنیان النظام الأخلاقي في المجتمع تردى عموم وضع المجتمع: سياسةً واقتصاداً وإدارةً.. الخ. وما حقق المسلمون العظام الأوائل انتصار الدين وانتشار الدين والفتوح العظيمة إلا بما حملوا في أرواحهم وقلوبهم من عقيدة وثمرتها المهمة: الأخلاق. ولعل من أشهر ما قال شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا
وقوله:

وإذا أصيب الناس في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً
بعد هذه المقدمة اليسيرة نعود إلى موضوع السورة، أو إلى موضوعنا الذي نبتغي من موضوعاتها ألا وهو: التوجيه الأخلاقي.

ونكرر أن سورة الإسراء هي منهاج تحقيق النصر لأمة الإسراء على أمة إسرائيل، ودستور تحقيق هذا النصر، ومن أهم ما في بنود هذا الدستور: النظام الأخلاقي والتوجيهات الأخلاقية. ولذلك حفلت السورة بهذه التوجيهات، ولا يظن ظان أن الأخلاق جزيرة معزولة في بحر الدين أو بحر الحياة، لا، وإنما هي جزء من نسيج عظيم متشابك، وجزء من بنیان مرصوص هو بنیان الدين، وكذلك التوجيهات في سورة الإسراء، لم تأت منعزلة منفردة، صحيح أن بعض الآيات اختصت بها، ولكنها ستكون، بالقطع، منبثة في ثنايا السورة.

وإن عدونا الماكر المفسد، أدرك أهمية الأخلاق في صمود الأمة وتغذية المقاومة، فقام يدمر هذا البنیان ويوهن من أسسه، بنشر المخدرات، والدعارة، وعبادة الشيطان، والتجسس، والمادية، والانتهازية، والقيم الهابطة والأفلام

الوضعية الرقيقة، والشعر المنحط القيمة، والأمثال المتردية السلبية و.... وعنده من الأساليب ما يعجز عنه الشيطان نفسه، فمعركتنا معه في بُعدها المهم، لا أريد أن أقول الأول، بُعد أخلاقي، أو في بُعدها الأخلاقي.

وهو في سبيل ذلك مستعد لإنفاق المليارات في توهين بنیان الأخلاق، وأخطر شيء: من يجنّدهم لنشر روح التفاهة والسفاهة، فهؤلاء يجتذبون الشباب كما تجتذب النار الفراش فيقع فيها. فشبكات لاصطياد الجواسيس، وشبكات لإسقاط الشبان والفتيات، وشبكات للمخدرات، وشبكات للوقية والدس ونشر الشائعات.. وحدث عن صنع بني صهيون ولا حرج. وهذا هو الحديث الشريف الصحيح، وهذا معناه «وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» لا ما تعود الناس أن يفهموه!!

فالمعركة في الميدان الأخلاقي أخطر الميادين والجبهات فلنعط هذا البعد حظه وحقه من الاهتمام والرعاية على الأقل كما يعطيه العدو اللأخلاقي جهده! ونعود إلى السورة وتوجيهاتها. وقد تأتي التوجيهات الأخلاقية في السورة كما في القرآن مسبوقة بالأمر والنهي أو: افعلوا ولا تفعلوا، وقد تأتي إشارة وضمناً، وسنمر سريعاً بهذا وهذا.. من أنماط التوجيهات الأخلاقية. فقوله عز وجل: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، أعده نصاً في صميم بنیان الأخلاق وفي صميم التوجيهات الأخلاقية. فالتأني والحلم والتلبث من أعظم الأخلاق، والعجلة والتسرع، وفيهما الردى والندامة من أسوأ الأخلاق، ومن رذيلة العجلة تأتي قضية دعاء الإنسان على نفسه أو غيره بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً. وتطبيقات النص في الواقع كثيرة لعل من أخطرها العجلة في تحصيل النصر على العدو قد تقود إلى التبعية له كما حصل.. والأمثلة والشواهد حواضر. ولا نستطيع التوقف عند كل آية نلمح فيها توجيهات فهذا يطيل اللبث وهذا ما لا نملكه ولا نريده: لئلا يثقل الكتاب وتطول صفحاته، ويشق على القارئ..

ولنقف عند الآية ١٦ وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، باختصار إن المترفين والترف أحد أسباب تلف الأمم وهلاكها، والترف والفسق وجهان لعملة

واحدة، وناتجها ثابت: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء: ١٦.. إن التدمير الأخلاقي مقدمة الانهيار العمراني والحضاري والسياسي! وننتقل بسرعة ست آيات أو سبعة لنقف عند الوصايا العديدة التي تضمنتها سورة الإسراء بدءاً من الوصاة بالوالدين بعد الوصاة بعبادة الله وتوحيده.. وهي وصية لا نظير لها في الوجود ولا في المبادئ ولا الأديان ولا النحل ولا الملل.. أن يصل النهي إلى حد ألا تقول لهما أف.. فأين مثل هذا اللطف؟!

ثم جاءت الوصاة بالحلقات الأخرى في شبكة العلاقات في المجتمع، بالوصاة بذى القربى وبالمسكين وابن السبيل ثم النهي عن التبذير؛ لأنه يقود إلى تدمير ثروة لا الأفراد فحسب، وإنما ثروة الأمة، ولا أريد أن أنبه إلى واقع الأمة وأثرياتها وكبرائها.. ويكفي التبذير سوءاً أنه يجعل صاحبه من إخوة الشياطين!

وفي الآية ٢٨ يوصي بالقول الطيب المعروف إن لم يكن عندك مال تتفقه على الفقراء، وفي الآية التاسعة والعشرين عود إلى الإنفاق باعتدال في جو من التوصية بصيانة المال، فلينفق لكن في وجوهه.. وليدخر، إلا عن وجوهه. ثم نهى عن قتل الأولاد، ولولا أنه كان واقعاً لاستغربت واستغرب الناس الإشارة إليه، وهو واقع قد عاد، فكم من شخص انتحر وقتل أولاده وامراته قبله من شدة الفقر، والله عز وجل يقول لك إنه الرزاق المتوكل بك وبهم فاصبر. ثم ينهى في الآية ٣٢ عن الزنا.. وقد تبين للناس جناية هذه الجريمة وبشاعتها من جراء ما رتبت في حياة البشر من أوبئة، فيكفي الزنا أنه نتج عنه ما نتج من أمراض آخرها وأخطرها (الإيدز)، أو مرض نقص المناعة المكتسب. ثم ينهى عن قتل النفس، وعن قريان مال اليتيم، ثم أمر بالوفاء بالعهد، ثم وفاء الكيل والميزان. وعن عدم تتبع ما ليس لك به علم، ونهى عن الكبر والاعتزاز، ثم عادت السورة إلى سياقها العام وموضوعاتها.. ثم عاد السياق في الآية ٥٣ ليقول: ﴿وَلِلْعِبَادِ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ الإسراء: ٥٣، ثم بيّن في هذه الآيات من ٦٧ فما بعد طبيعة نفسية الإنسان في الأحوال المتقلبة والمتقلبة بين الاحتياج وبين الإحساس بالاستغناء.. وفي الآية ٨٤ بيّن أن كل إنسان يعمل على شاكلته النفسية

والأخلاقية، وفي ذكر فرعون في آخر السورة نموذج للأخلاق الإنسانية إذا عنت وتجبرت وأفسدت وعلت واستكبرت وكيف تجني وجنت على أمتها وشعبها..

وبعد.. فهذا غيض من فيض من توجيهات سورة الإسراء في موضوع الأخلاق مررت بها مر السحاب، ومن أراد أن يفصل ويستزيد فليقرأ السورة وليقرأ «الكتاب» الذي منه سورة الإسراء.. أعني بالطبع القرآن الكريم!

حديث سورة الإسراء عن الإنسان

الإنسان في القرآن وفي سورة الإسراء

هذا الإنسان معجزة الله. وهذا الإنسان آخر موجودات الكون وأعلى المخلوقات. فهو الآخر السابق والمقدم على سائر المخلوقات. وإذا كان أعلى مخلوقات الله وهم الملائكة النورانيون الذين يسبحون لا يفترون سجدوا بأمر الله لهذا المخلوق فما شأنه إذا؟ وإذا حمل الأمانة التي عجزت عنها السموات والأرض والجبـال، فما درجته؟ وهو الذي بشر الله به قبل أن يولد وقبل أن يوجد، وحدد وظيفته قبل خلقه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠.

هذا الإنسان حارت البرايا فيه. فمن مبالغ فيه إلى حد التأليه ومن محتقر له إلى حد التسفيه. والحق السواء هو موقف هذا الكتاب من هذا المخلوق المكرم، ولأمر حكيم جلت سورة الإسراء صورة هذا الإنسان وبينت كرامته من بين المخلوقات وأوجه هذا التكريم، وتفوقت على كل سور القرآن في مرات ورود كلمة الإنسان فيها. وفي القرآن سورة باسم سورة (الإنسان) وفيه آخر سورة باسم سورة (الناس) أي الإنسان في صورته الاجتماعية. فإلى حديث موجز عن حديث سورة الإسراء عن الإنسان:

صورة الإنسان في سورة الإسراء

ورد لفظ «الإنسان» في القرآن ٦٥ مرة (بزيادة ٧ مرات) عن مرات ورود لفظ «القرآن» في القرآن. وورد لفظ «الإنسان» في سورة الإسراء (٧ مرات)، بنسبة تقرب من ١١٪ لما ورد في القرآن. فهي أكثر سورة حدثنا عن الإنسان من بين كل سور القرآن. علماً بأن أول آية في السورة ذكرت الإنسان هي آية (١١) وعدد آيات السورة (١١١) كما هو معلوم. وقد ورد لفظ الإنسان في

(٤٣) سورة. وقد كان، أول ورود في القرآن (بترتيب المصحف) هو في سورة النساء (سورة المستضعفين)، وذلك قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ النساء: ٢٨، وآخر مرات ورود لفظ الإنسان في سورة العصر: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ العصر: ٢، ولم يرد لفظ الإنسان إلا في ٣ سور مدنية: النساء والأحزاب آية ٧٢: ﴿وَجَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ الأحزاب: ٧٢ أي الأمانة. والحشر: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ أَكْفَرُ﴾ الحشر: ١٦، وبقيت (٤٠) سورة مكية هي السور التي ورد فيها لفظ الإنسان (١٢) سورة منها في جزء عم.

والآن إلى حديث سورة الإسراء عن الإنسان، وأول ورود للفظ الإنسان في السورة في الآية ١١ كما سبق، والعجيب أنه جاء بعد الآية المتحدثة مباشرة عن القرآن، والتي جاءت بدورها بعد الآيات المتحدثة عن إفساد بني إسرائيل والعقاب على هذا الإفساد وإنهائه بإرادة الله وأقداره.

والنص الكريم الأول الذي أورد لفظ الإنسان هو قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ الإسراء: ١١.

والملاحظة الأولى: هي هذا التتابع: القرآن أولاً ثم الحديث عن الإنسان تالياً وهما بالترتيب: دستور النصر وعدة النصر. فالنسق والتراتب ظاهر.

والملاحظة الثانية: خلو: «ويدع» من الواو بعد العين. فأصلها: ويدعو. ولكنها لعجلة الإنسان جاءت بلا واو، فحذف الواو يفيد هذه العجلة في الدعاء بالشر، وختمت الآية بالعجلة، فكان أولها إشارة إلى العجلة وآخرها تصريح بهذه العجلة. وسر الافتتاح، أعني افتتاح الحديث عن الإنسان بهذه الفاتحة أن العجلة من أخطر مقاتل الإنسان. ومن أخطر ما يصرفه ويحرفه عن طريق الحق والخير. ونقيض العجلة: الصبر. والصبر نصف الإيمان. فكان العجلة نصف الكفر أو هي مقدمته وفاتحته والممهدة له.

الملاحظة الثالثة: أن كلمة عجولاً لم ترد في القرآن كله إلا هنا فقط. الملاحظة الرابعة: أن الإنسان ورد في الآية مرتين في أول الآية وآخرها في الكلمة رقم ٢ من الأول وكذا من الآخر.

والملاحظة الخامسة: حول معنى هذا الدعاء بالشر، كما يدعو الإنسان بالخير. ولعل ما في سورة يونس يلقي ضوءاً على ما في سورة الإسراء، والعجيب أن رقم الآية هو كما في الإسراء أي ١١ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿يونس: ١١﴾، وأرى أن معنى الدعاء بالشر، يكون على ظاهر معنى اللفظ بأن يدعو الإنسان على نفسه بالشر والويل والهلاك. وقد يكون المعنى لازم حال العَجَل من الوقوع فيما لا تحمد عقباه، كما يستعجل بعض الناس حل قضية مسرى النبي ﷺ بالارتقاء على أقدام العدو، وهذا فيه الهلكة بلا ريب.

قال في تفسير الميزان: «المراد بالدعاء على ما يستفاد من السياق مطلق الطلب سواء كان بلفظ الدعاء كقوله: اللهم ارزقني، أو من غير دعاء لفظي بل بطلب وسعي فإن ذلك كله دعاء وسؤال من الله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الرحمن: ٢٩ فالدعاء مطلق الطلب، والباء في قوله «بالشر» و «بالخير» للصلة، والمراد أن الإنسان يدعو الشر ويسأله دعاء، كدعائه الخير وسؤاله وطلبه. وعلى هذا فالمراد بكون الإنسان عجولاً أنه لا يأخذ بالأنانة إذا أراد شيئاً حتى يتروى ويتفكر في جهات صلاحه وفساده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه ويسعى إليه بل يستعجل في طلبه بمجرد أن ذكره وتعلق به هو» أهـ. بإيجاز ج ١٢، ص ٤٩.

ثم جاءت آية عقب الآية المتحدثة عن الإنسان، والآية التي أعنيها هي الآية رقم ١٢ تتحدث عن الزمان، وأداته هي تعاقب الليل والنهار، وهل العجلة التي كانت تتحدث عنها الآية إلا محاولة سبق الزمن، واستعجال الشيء قبل حينه وقبل أوانه وقبل نضجه وقبل مجيء الظروف المواتية له، كما كان النبي ﷺ يحذر أصحابه رضي الله عنهم: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب أو الظعينة من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون». أو كما قال ﷺ. وعلى قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ وَفَضْلُهُ نَفْصِيلاً﴾ الإسراء: ١٢ عطف: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ﴾ الإسراء: ١٢. أما الآية ١٣ فهي

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عَنَقِهِ﴾. ونُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿الإسراء: ١٣﴾ وهذه الآية التي رقمها ١٣ عدد كلماتها ١٣ وقد اخترقت الزمان كله لتذهب بنا إلى ساحة الآخرة لنحاسب في ذلك الزمان السرمدي على أعمالنا في هذا الزمان القصير السريع الذهاب. والمقصود بالطائر الذي يلزم الإنسان في عنقه هو كتاب أعماله، فالكتب تتطاير ليلزم كل كتاب صاحبه كما توزع الشهادات على الخريجين في حفل التخرج فمن ناجح ومن راسب.

وربط الإنسان مع الزمان طبيعي وبديهي، فما نحن إلا دقائق وثوان. ومن هنا ربطت سورة العصر الإنسان بالزمان وذكرت النتائج: ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالْعَصْرِ ٣﴾ العصر: ١ - ٣.

قال ابن عاشور ونوجز ما قال: «والطائر أطلق على السهم. ومنه تطاير الأسهم في القرعة ونحوها. وإما من زجر الطير. والإلزام جعله لازماً. غير مفارق، «في عنقه»: يجوز أن يكون كناية عن الملازمة والقرب، أي عمله لازم له لزوم القلادة. ومنه قول العرب: تقلدها طوق الحمامة، فلذلك خست بالعنق. لأن القلادة توضع في عنق المرأة. ويحتمل أن يكون تمثيلاً لحالة لعلها كانت معروفة عند العرب. والمعنى أن كل إنسان يعامل بعمله من خير أو شر لا ينقص له منه شيء» أ. هـ. ج ١٤، ص ٣٨ - ص ٣٩ بتصرف وإيجاز.

قال في الظلال يربط السابق باللاحق: «فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن، فهم متروكون لهوى الإنسان، الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له. ذلك أن الإنسان لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها. ولقد يفعل الفعل وهو شر، ويعجل به على نفسه وهو لا يدري. أو يدري ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه فأين هذا من هدي القرآن الثابت الهاديء الهادي» أ. هـ. ج ٤، ص ٢٢١٥. والموطن الرابع لورود الإنسان هو في الآية ٥٣: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ الإسراء: ٥٣

فموضوع الآية الوصاة بقول الأحسن من الكلام والألفاظ لأن الشيطان بالمرصاد، وهو عدو بالغ العداوة للإنسان، فيمكن للفتنة مع تحريش الشيطان أن تشعل حرباً، أو تتسبب في عداوة تدوم أجيالاً وهي لم تعد أن تكون بسبب كلمة. أما عداوة الشيطان للإنسان فمسألة مهمة ركز عليها القرآن في مواضع عديدة: ﴿أَهْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ البقرة: ٢٦، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ الأعراف: ٢٢، ﴿أَهْطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الأعراف: ٢٤، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ٢٧.

والمرة الخامسة التي يذكر فيها الإنسان في سورة الإسراء هي في الآية ٦٧، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ الإسراء: ٦٧، وأسجل عدة ملاحظات هنا:

١. لم ترد صيغة ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ في القرآن إلا هنا في هذا الوطن.
 ٢. وردت كفوراً (بفتح الكاف) مرتين في الإسراء ومرتين في سورة الإنسان ولا شيء غيرهما (من هذه الصيغة).
 ٣. وردت كفوراً (بضم الكاف) مرتين أيضاً في الإسراء، ومرة أخرى في الفرقان فقط.
 ٤. بدأت الآية حديثها بصيغة الجمع، ثم خلصت في نهايتها إلى استخراج سنة تتعلق بالإنسان كطبيعة وسمة ثابتة، هي ما سجلته الآية، أنه كفور.
 ٥. قيل في معناها: وكان الإنسان الكافر كفوراً، وهذا فيما أرى غير صحيح، بل هو الإنسان عموماً، إلا ما ومن هذبه الإيمان.
- قال في (الميزان في تفسير القرآن): «وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ الإسراء: ٦٧ أي فلما نجاكم من الفرق وكشف عنكم الضر راداً لكم إلى البر أعرضتم عنه أو عن دعائه، وفيه دلالة على أنه تعالى غير مغفول عنه للإنسان في حال، وأن فطرته تهديه إلى دعائه في الضراء والسراء والشدة والرخاء جميعاً، فإن الإعراض إنما يتحقق عن أمر ثابت موجود، فقوله: إن الإنسان يدعوه في الضر ويعرض عنه بعد كشفه في معنى أنه مهدي إليه بالفطرة دائماً.

وقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أي أن الكفران من دأب الإنسان من حيث إن له الطبيعة الإنسانية فإنه يتعلق بالأسباب الظاهرية فينسى مسبب الأسباب فلا يشكره تعالى وهو يتقلب في نعمه الظاهرة والباطنة.

وفي تذييل الكلام بهذه الجملة تنبيه على أن إغراض الإنسان عن ربه في غير حال الضر ليس بحال غريزي فطري له حتى يستدل بنسيانه ربه على نفي الربوبية، بل هو دأب سيء من الإنسان يوقعه فيه كفران النعمة.

وفي الآية حجة على توحيده تعالى في ربوبيته، ومحصله أن الإنسان إذا انقطع عن جميع الأسباب الظاهرية وأيس منها لم ينقطع عن التعلق بالسبب من أصله ولم يبطل منه رجاء النجاة من رأس بل رجاى النجاة وتعلق قلبه بسبب ما يقدر على ما لا يقدر عليه سائر الأسباب، ولا معنى لهذا التعلق الفطري لولا أن هناك سبباً فوق الأسباب إليه يرجع الأمر كله. وهو الله سبحانه، وليس يصرف الإنسان عنه إلا الاشتغال بزخارف الحياة الدنيا والتعلق بالأسباب الظاهرية والغفلة عما وراءها^(١).

والمرة السادسة في سورة الإسراء التي وردت فيها كلمة الإنسان هي قوله تعالى في الآية ٨٣: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ الإسراء: ٨٣ وأسجل عدة ملاحظات:

١. قبل هذه الآية مباشرة حديث عن القرآن وأنه ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٨٢، فكان من ضمن معاني الشفاء: الشفاء من مثل هذه العلل النفسية وهي أنه إذا أنعم عليه أعرض، وإن سلب منه ما أنعم به عليه يئس، فهو في الحالين يقف موقفاً سيئاً وردئاً وسلبياً فلا السراء تجديه ولا الضراء تدويه، فبأي الأحوال يُعامل؟

٢. بعد الآية مباشرة كلام عن أن كل إنسان أو كل أحد يصدر في سلوكه وتصرفاته عن شاكلة داخلية، فيتماهى السلوك الخارجي مع المخزون الداخلي أو الشاكلة الداخلية. وهو قانون إلهي، يصور الطبيعة البشرية بدقة بالغة. فَمَنْ شَاكَلْتَهُ الصَّبْرَ صَبِرَ، وَمَنْ شَاكَلْتَهُ الضَّجْرَ ضَجِرَ.. وهكذا.

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ٢، ١٩٧٢، ج ١٣، ص ١٥٤.

٣. نلاحظ إطناباً نسبياً في النصف الأول من الآية وهي الكلمات السبع الأولى: ﴿وَإِذَا أَعْمَنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ نَحْنُ بِمَحَانِهِ﴾ (الإسراء: ٨٢، (٣٤ حرفاً)، والشق الثاني من الآية المتضمن الوجه الآخر لبنى الإنسان، وهي الكلمات الخمس التالية: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرْكَانَ يَتُوسَّ﴾ (الإسراء: ٨٢، (١٨ حرفاً). فالشق الأول يكاد يكون مضاعفاً في النص عما في الشق الثاني، ولعله في الواقع أكثر وجوداً وربما بنفس النسبة (أو النسبة نفسها).

والموضع الأخير الذي ذكر الإنسان في الآية (١٠٠) من سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (الإسراء: ١٠٠ والنص ١٤ كلمة. والآية عجيبة في صياغتها وجوهر معناها. فتصور لو أن بني البشر أو أن أحداً منهم ملك خزائن رحمة الله، وهذا فرض المحال. لكن على هذا الفرض، ومع أن الخزائن لا ينفد خيرها ولا كنوزها ولا مخزونها، ورحمة الله لا يحدها حد، ومع كل هذا فإن إنساناً لو تملك الخزائن المحتوية على هذه الرحمة لأمسك خشية أن ينتقص الإنفاق من هذه الخزائن. ثم ختمت الآية بثلاث كلمات تحتوي سِنَّةَ إلهية في البشر: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (الإسراء: ١٠٠ قتوراً: شديد التقدير بالغه. على صيغة (فعل) مثل أكل، جهول... إلخ. قال في الظلال يربط الآية بالسياق ويوضح معناها: «الذين يقترحون على الرسول ﷺ تلك المقترحات المتعنتة، من بيوت الزخرف، وجنات النخيل والأعنان، والينابيع المتفجرة، بخلاء أشقاء، حتى لو أن رحمة الله وكلت إليهم خزائنها لأمسكوا وبخلوا خوفاً من نفادها، ورحمة الله لا تنفد ولا تفيض. ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ﴾ (الإسراء: ١٠٠. وهي صورة بالغة للشح، فإن رحمة الله وسعت كل شيء، ولا يخشى نفادها ولا نقصها، ولكن نفوسهم الشحيحة تمنع هذه الرحمة وتبخل بها لو أنهم كانوا هم خزنتها»^(١).

قال ابن عاشور: «وشأن (لو) أن يليها الفعل ماضياً في الأكثر، أو مضارعاً في اعتبارات، فهي مختصة بالدخول على الأفعال، فإذا أوقفوا الاسم بعدها في الكلام وأخروا الفعل عنه فإنما يفعلون ذلك لقصد بليغ:

(١) الظلال ج٥، ص ٢٢٢.

إما لقصد التقوي والتأكيد للإشعار بأن ذكر الفعل بعد الأداة ثم ذكر فاعله ثم ذكر الفعل مرة ثانية تأكيد وتقوية، مثل قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ التوبة: ٦، وإما للانتقال من التقوي إلى الاختصاص. بناء على أنه ما قدم الفاعل من مكانه إلا لمقصد طريق غير مطروق. وهذا الاعتبار هو الذي يتعين التخريج عليه في هذه الآية ونحوها من الكلام البليغ، ومنه قول عمر لأبي عبيدة: (لو غيرك قالها). والمعنى: لو أنتم اختصاصتم بملك خزائن رحمة الله دون الله لما أنفقتم على الفقراء شيئاً^(١). وذلك أشد في التقرع، وفي الامتتان بتخييل أن إناهم غيره كالعدم. وكلا الاعتبارين لا ينادى اختصاص «لو» بالأفعال للاكتفاء بوقوع الفعل في حيزها غير موال إياها ومولاته إياها أمر أغلبي.

واختير الفعل المضارع لأن المقصود فرض أن يملكوا ذلك في المستقبل. و«لأمسكتكم» هنا منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول، لأن المقصود: إذا لاتصفتم بالإمساك، أي البخل. يقال: فلان ممسك: أي بخيل. ولا يراد أنه ممسك شيئاً معيناً. وأكثر جواب لو بزيادة حرف «إذا» فيه لتوفية معنى الجوابية، ولابد في (إذا) معنى الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا نَشْعُوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ الإسراء: ٤٢ وجملة ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ الإسراء: ١٠٠ حالية أو اعتراضية في آخر الكلام، وهي تفيد تذييلاً لأنها عامة الحكم - فالواو فيها ليست عاطفة - . والقنور: الشديد البخل، مشتق من القتر وهو التضييق في الإنفاق^(٢).

(١) المعنى اشمل واعم فلا داعي لتخصيص الفقراء، فمن معناها: لأمسكتكم حتى على أنفسكم أو على أقرب الناس إليكم أو على الفقراء، فلا داعي لحصر المعنى ولا أرى محلاً لقوله: (دون الله).

(٢) التحرير ج ٤، ص ١٧٥ إلى ١٧٦

كلمة (الأرض) في سورة الإسراء

الأرض في سورة الإسراء

وردت «الأرض» في سورة الإسراء (١٢) مرة، وردت الأرض مرفوعة مرة، ووردت ٣ مرات منصوبة والثمانية الباقية مجرورة (ثلاث بمن، وثلاث بفي). ولا بد من بيان معنى الأرض في كل موطن من هذه المواطن. فأحياناً يراد بها العموم وأحياناً يراد بها الخصوص، مما احتيج معه إلى بيان وتوضيح وتفصيل. فالى البيان بدءاً من عرض مرات الورد:

- ﴿وَفَضَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ ﴿الإسراء: ٤.
- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ﴿الإسراء: ٣٧.
- ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ ﴿الإسراء: ٣٧.
- ﴿سُحِبَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ ﴿الإسراء: ٤٤.
- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿الإسراء: ٥٥.
- ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ ﴿الإسراء: ٧٦.
- ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿الإسراء: ٩٠.
- ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا لَّيَمْسُوكَ يُطْمِئِنُّنَ﴾ ﴿الإسراء: ٩٥.
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ﴾ ﴿الإسراء: ٩٩.
- ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ ﴿الإسراء: ١٠٢.
- ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ ﴿الإسراء: ١٠٣.
- ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ ﴿الإسراء: ١٠٤.

«والأرض» في الموضع الأول، والتي نصها: ﴿لُفْسِدُنَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿الإسراء: ٤﴾ أعتقد أنها ليست الأرض المطلقة، بمعنى عموم الأرض، ولكنها الأرض المخصوصة بمكان الإفسادين، وهما مرتبطان بأرض المسجدين وما أحاط بها.. أي وما حولهما.

الإفساد الأول من حول المسجد الأول، والإفساد الثاني من حول المسجد

الثاني، ولفهم هذا النص كلمة «مفتاح» هي كلمة «مرتين». فلو قصدنا الأرض مطلقاً لكان الإفساد غير منحصر بمرتين ولا مئتين ولا ألفين. فقد قتلوا من الأنبياء عدداً، وهموا بقتل المسيح بل توهموه وزعموه. وفخروا به.

الخلاصة أن الأرض في الموطن الأول خاصة، وإن خرجت بصيغة العموم، فمثل هذا في القرآن كثير جداً، من مثل: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يوسف وهذا بمجرد أن بيع إلى بيت العزيز. وفي النص الثاني في يوسف الآية ٥٦ قال بعد أن استلم مقاليد مصر: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يوسف ٥٧ وهذا خاص وإن كان أعم من الأول.

والموطن الثاني لورود كلمة الأرض في الإسراء هو في الآية (٣٧) أي بعد ٣٣ آية من الموطن الأول. وفي الموطن الثاني وردت الأرض مرتين. بعد الموطن الأول الذي ذكر فيه إفسادهم في الأرض مرتين: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ الإسراء: ٣٧ وواضح أن النص يقصد بالأرض مكان مشي الإنسان، والتي لن يخرقها هي الأرض التي يمشي عليها. فهي بالنسبة لكل مخاطب خاصة لتغدو في النهاية والعموم: عامة. والله أعلم.

والموطن الثالث هو الآية (٤٤) والنص الكريم هو: ﴿نُسِجَ لَهُ السَّتُورُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ الإسراء: ٤٤ وإذا جاءت الأرض في مقابلة السموات فهو العموم المطلق بالتأكيد، فلا مكان هنا لمجاز ولا لخصوصية، خاصة في مثل هذا الموضع من التسيب، فما من ذرة في الأرض أو غلافها الغازي إلا وهي مسبحة لله تبارك وتعالى.

والموطن الخامس هو في الآية (٥٥)، ونصه هو: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً الإسراء: ٥٥ وجاءت الأرض هنا أيضاً في مقابل السموات التي أحاط الله بعلم كل من فيها وما فيها، فهي تقييد العموم المطلق كما أسلفنا سابقاً. ولاحظ أن الموطن الثالث جاء بفارق ٣٣ آية عن الموطن الأول. والموطن الرابع جاء في الآية (٤٤). والموطن الخامس جاء في الآية (٥٥).

والموطن التاسع هو في الآية (٩٩).

والعاشر والحادي عشر والثاني عشر بعد الآية ١٠٠... فتأمل.

هذه ملاحظة أو لطيفة رقمية، فخذها أو دع.

وأما الموطن السادس فجاء في الآية (٧٦) وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٧٦. وواضح أن اللفظ وإن جاء بصيغة العموم إلا أن المقصود بالأرض هنا مكة قطعاً، لكنهم لو ملكوا الأرض كلها لأخرجوه منها، ولكن هذا كله افتراض. فيظل النص في إطاره الخاص. تماماً كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ آل عمران: ١٧٣ يقصد بالناس الأولى من أوصلوا المعلومة للنبي ﷺ، والناس الثانية هي قريش. فتأمل.

والموطن السابع هو قوله تعالى في الآية التسعين: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِرَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الإسراء: ٩٠. ولاحظ أن الأرض في هذه الآية جاءت الكلمة رقم (٩) في الآية (٩٠) والأرض هنا تفيد الخصوص أي الأرض التي يعيشون فيها أي أرض مكة.

والموطن الثامن هو قوله تعالى في الآية رقم (٩٥): ﴿قَدْ لَوْ كُنْتَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَعْمَلُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ الإسراء: ٩٥. والأرض هنا تفيد العموم، عموم الأرض، أو الأرض مطلقاً لأنها جاءت في الآية أيضاً مقابل السماء في قوله تعالى: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ الإسراء: ٩٥.

أما الموطن التاسع فهو في الآية (٩٩)، وهو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌّ عَلَى أَنْ يُخْلِقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ الإسراء: ٩٩. ولا نحتاج أن نعيد أن الأرض هنا مطلقة أولاً لأنها مرتبطة بالخلق فهي مطلقة، وثانيها لمجيئها في مقابلة السموات، وهذه من مواطن الإطلاق.

أما الموطن العاشر لورود كلمة الأرض فهو في الآية (١٠٢)، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي

لَأُظَنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مَّشْبُورًا ﴿١٠١﴾ الإسراء: ١٠١ وهنا كما قلنا تفيد العموم والإطلاق لأنها تتكلم عن الربوبية أولاً وهذه مطلقة، وجاءت في مقابلة السموات فهي لهذا أيضاً مطلقة وعامة.

والموطن الحادي عشر قوله تعالى في الآية (١٠٢): ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرِقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ الإسراء: ١٠٢ والمقصود هنا فيما أرى الخصوص أي أرض مصر. لا كل الأرض، وإن خرجت بصيغة العموم. لأن الذي يحدد أن النص عام أو خاص، إنما هو السياق.

والموطن الثاني عشر والأخير هو قوله تعالى في الآية (١٠٤): ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جُنَّا بِكُمْ لَعِيفًا﴾ الإسراء: ١٠٤.

وأعتقد أن الأرض هنا معناها على العموم أي عموم الأرض التي يسكنها البشر بدليل شطر الآية الثاني وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جُنَّا بِكُمْ لَعِيفًا﴾ الإسراء: ١٠٤ ووعد الآخرة هو موعد الإفساد الثانية وحلول العقاب عليها، وهذا سيكون في أرض مخصصة هي أرض المسرى، أعني أرض فلسطين. فهم سيجمعون من شتات الأرض، إلى أرض الجمع «والقطع» إن شاء الله، أعني استئصال شأفتهم، وهم سرطان الأرض، وسوس الأرض. وفساد الأرض، وأمراض الأرض، وعلل الأرض، وجرائم الأرض، وعتث الأرض. فقتلهم وإخراجهم من هذه الأرض أعظم فرض!

ملاحظة: الآية الأخيرة رقم (١٠٤) عدد كلماتها (١٤)، مقسومة إلى قسمين بالتساوي: وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض. وهذه (٧) كلمات. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جُنَّا بِكُمْ لَعِيفًا﴾ الإسراء: ١٠٤ وهذه أيضاً (٧) كلمات. فتأمل.

وتأمل أن الأرض جاءت في مقابلة السموات أو السماء (هذه مرة واحدة) جاءت (٥) مرات. وجاءت الأرض غير مواجهة ولا مقابلة مع السماء في (٧) مرات. فتأمل أيضاً!

وملاحظة أخيرة أن (الأرض) جاءت مناصفة في السورة بين العموم والخصوص والإطلاق والتقييد، فست مرات الأرض بمعنى مخصص وست مرات وردت الأرض مطلقة.

تَفَرُّدَاتُ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ

تفردت سورة الإسراء بالعديد من الكلمات، بعضها لم ترد المادة كلها في القرآن إلا في الإسراء وأغلبها وردت مادته ولكن تفردت الإسراء بصيغة معينة أي بصورة لفظية معينة للكلمة. ككلمة ﴿حَدِيدًا﴾ الإسراء: ٥٠ لم ترد في القرآن على هذه الصيغة أو الصورة إلا في الإسراء، وورد الحديد في القرآن في خمس مواضع.

وهذه بعض الكلمات التي تفردت بها الإسراء بأي صورة من صور التفرد: أذقناك، وليدخلوا، لدلوك، مُدخل، تخرق، خطأ، دعاءه، مذموما، أرايتك، ربياني. نرزقهم، لرفيك (لاحظ انسجامها مع الإسراء)، زعمت، الزنى، تسقط. أسأتم. سيئه (بالهاء)، وشاركهم، شُكُوراً (بالفتح)، شاكلته، مشهوداً، طولاً. طائره. لأظنك، عجلنا، عجولاً، معذبوها، معذبين (بالكسر)، أعرضتم، عنب. يعيدنا، غسق، فرقناه، يستفزههم، ليستفزونك، واستفزز، لتقرأه، تقرأه، كرمتم. كرمنا، كلاهما، فتلقى، مكث، منصوراً، نفيراً، موفوراً، خيلك، ورجلك، بإمامهم، أمرنا، عنقه، فَسَيُغْفَضُونَ.

ومن تفردات الإسراء أن بعض الكلمات وردت فيها أكثر من غيرها وقد بينا بعضها. ومن تفردات الإسراء أن كثيراً من الكلمات وردت فيها لأول مرة في القرآن. أو لآخر مرة في القرآن. ونكتفي من كل هذا بالنوع الأول وهو الكلمات التي لم ترد إلا في الإسراء.

مقاطع سورة الإسراء

١. المقطع الأول: آية الافتتاح
٢. المقطع الثاني: الآيات (٢ - ٨) بنو إسرائيل نشوءاً وعلواً ونهاية
٣. المقطع الثالث: الآيات (٩ - ١٧) القرآن .. والإنسان
٤. المقطع الرابع: الآيات (١٨ - ٢١) كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ
٥. المقطع الخامس: الآيات (٢٢ - ٢٨) وَقَضَىٰ رَبُّكَ
٦. المقطع السادس: الآيات (٢٩ - ٣٨) دستور الأخلاق
٧. المقطع السابع: الآيات (٣٩ - ٤٤) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ
٨. المقطع الثامن: الآيات (٤٥-٤٨) القرآن والمحجوبون
٩. المقطع التاسع: الآيات (٤٩-٥٣) عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً
١٠. المقطع العاشر: الآيات (٥٤ - ٦٠) إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ
١١. المقطع الحادي عشر: الآيات (٦١ - ٦٥) قصة آدم والشيطان
١٢. المقطع الثاني عشر: الآيات (٦٦ - ٧٠) الفطرة تعرف ربها
١٣. المقطع الثالث عشر: الآيات (٧١ - ٨١) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ
١٤. المقطع الرابع عشر: الآيات (٨٢ - ٨٩) القرآن والروح والشفاء
١٥. المقطع الخامس عشر: الآيات (٩٠ - ٩٦) مقترحات الكافرين على الرسول
١٦. المقطع السادس عشر: الآيات (٩٧ - ١٠٠) وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً
١٧. المقطع السابع عشر: الآيات (١٠١ - ١٠٤) جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً
١٨. المقطع الثامن عشر: الآيات (١٠٥ - ١٠٩) وَيَا لِحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ
١٩. المقطع التاسع عشر الختامي: الآيات (١١٠ - ١١١) وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا

المقطع الأول

آية الافتتاح

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ، لِئَرِيَهُ، مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

سبحان: هذه آية الافتتاح لسورة الإسراء، وسبحان كلمة الافتتاح لهذه الآية، والآية فاتحة جزء، وفاتحة النصف الثاني من القرآن. وفاتحة مجموعة المسبحات، فهي جملة فواتح في وقت واحد. وسبحان على وزن فعلان. والكلمة مصدر، أو اسم فعل، وهي تفيد الخبر والإنشاء. فهي في جانب تقرر حقيقة. ومن زاوية أخرى تدعو إلى التسبيح كل من يصح منه التكليف والتسبيح. والتسبيح: تقديس وتزينة، وإبعاد كل ما لا يليق عن الله عز وجل. وهذا يتضمن وصفه سبحانه بكل ما ينبغي له ويليق به.

ولئن افتتح الجزء الأول من القرآن بالتحميد، فقد افتتح الجزء الخامس عشر أو النصف الثاني بالتسبيح. وأعقب هذه السورة سورة الكهف المفتحة بالتحميد. ولئن كانت الإسراء في قلب المصحف فإن الكهف في قلب قلب سور الحمد. والتسبيح والتحميد مقترنان دائماً.

وحكمة بالغة أن تفتتح السورة بالتسبيح ذلك أن السورة تتكلم عن ارتقاء الرسول ﷺ إلى مرتبة لم يبلغها نبي مرسل من قبل ولا ملك مقرب لا من قبل ولا من بعد، فلا يظن ظان أنه تجاوز مقام العبودية مع كل هذا الارتقاء وهذه الرفعة، فتزده الله عن أن يكون له ند أو شريك أو مثيل، فمقام العبودية لا يلتبس بمقام الألوهية.

وأيضاً فإن السورة تكلمت عن صراع مع المفسدين في الأرض، بل أفسد من أفسدوا في الأرض، فلا يظن ظان أن أفعال الله تبتعد عن الحكمة. فهذا الصراع لأمر حكيم، وهذا التهجير والقتل لأمر حكيم، فتزده الله أن تكون أفعاله بعيدة عن الحكمة. فسبحان من افتتح هذه السورة بهذه الكلمة (سبحان)!

﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾

قال ابن عاشور: «الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام متضمن ما

يجب تنزيه الله عنه يؤذن بأن خبراً عجبياً يستقبله السامعون دالاً على عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه.

وأصل صيغ التسبيح هو كلمة «سبحان الله» التي نحت منها السبجلة والتعبير عن الذات العلية بطريق الموصول دون الاسم العلم للتبني على ما تفيدته صلة الموصول من الإيحاء إلى وجه هذا التعجب والتبويه وسببه» أ.هـ. وقال ابن عاشور في قوله «بعده» : لم يقع لفظ العبد مضافاً إلى ضمير الغيبة الراجع إلى الله إلا مراداً به النبي ﷺ.

والإضافة إضافة تشريف لا إضافة تعريف لأن وصف العبودية لله متحقق لسائر المخلوقات فلا تفيد إضافته تعريفاً.. أ.هـ.

﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾:

قال الزمخشري: «أراد بقوله «ليلاً» بلفظ التكرير: تقليل مدة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام. وذلك أن التكرير فيه قد دل على معنى البعضية. فالغرض من ذكر الليل وإن كان الإسراء يفيد تصوير السير بصورته في ذهن السامع، وكأن الإسراء لما دل على أمرين، أحدهما: السير، والآخر كونه ليلاً، أريد إفراد أحدهما بالذكر تثبيتاً في نفس المخاطب، وتبنيهاً على أنه المقصود بالذكر». أ.هـ.

وقال ابن عاشور: «وأسرى لغةً في سري، بمعنى سار في الليل، فالهمزة هنا ليست للتعدي لأن التعدي حاصلة بالباء، بل أسرى فعل مفتتح بالهمزة مرادف سري، وهو مثل أبان المرادف بان».

وللمبرد والسهيلي نكتة في التفرقة بين التعدي بالهمزة والتعدي بالباء بأن الثانية أبلغ لأنها في الوضع تقتضي مشاركة الفاعل المفعول في الفعل فأصل (ذهب به) أنه استصحبه.

ثم قال عن تكرر ليلاً: فتكرر ليلاً للتعظيم، بقرينة الاعتناء بذكره مع علمه من فعل أسرى، أي هو ليل عظيم باعتبار جعله زمناً لذلك السرى العظيم فقام التكرير هنا مقام ما يدل على التعظيم» أ.هـ.

سبحان في القرآن

وردت كلمة «سبحان» في القرآن (١٨) مرة. أولها في سورة يوسف الآية رقم (١٠٨). ولم تسبق «سبحان» التي في الإسراء إلا بهذه الكلمة التي في يوسف، وقد وردت كلمة «سبحان» في الإسراء (٣) مرات: أولها الآية رقم (١) وثانيها الآية (٩٣) وآخرها الآية (١٠٨) فتأمل.

أما سر ارتباط يوسف بالإسراء بحيث إن سبحان لم تسبق إلا في سورة يوسف، فإن سورة يوسف سورة عدد آياتها (١١١) وعدد آيات سورة الإسراء (١١١) آية. فهذا وجه شبه. ثم إن نزولهما متقارب جداً. ولعل ما هو أهم من هذا أن سورة يوسف هي بداية تكون أمة إسرائيل. وسورة الإسراء فيها نهاية أمة إسرائيل. من هنا جاء الارتباط بهذه الكلمة. والله أعلم.

أما باقي المواضع فقد وردت في الأنبياء والمؤمنون والنمل والقصاص والروم ويس (٢) «أي مرتين»، والصفاء (٢) والزخرف (٢) والطور والحشر والقلم. وانفردت سورة الإسراء بالثلاث مرات، ولم ترد سبحان في سورة مدنية إلا في سورة الحشر.

وبعد كلمة الافتتاح جاء الاسم الموصول: (الذي) الذي يستدعي صلته وهي ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وفور النطق بالاسم الموصول تشرّب النفوس لتجلية صلة الموصول. ومن هنا كانت صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، لأنها جزء الكلمة.

أسرى بعبد له ليلاً: هنا اختار للموصول «الذي» ما يناسب المقام من صلته، وهو «أسرى بعبد» ومعنى أسرى: سار به ليلاً، وليلاً ظرف لهذا الإسراء. ومعلوم في العربية وعند العرب أن السرى والإسراء لا يكون إلا السير ليلاً، وفي أمثال العرب: «عند الصباح يحمد القوم السرى» أي عندما يشتد الحر يُسَرّ السارون والسائرون ليلاً بما قطعوا من مسافة والجو محمول لطيف قبل وقدة الهاجرة.

فلماذا خصص السرى والإسراء بالليل مع أنه لا يكون إلا في الليل؟

والقرآن لا يحتمل وجود زوائد، وما يمكن الاستغناء عنه، فكل لفظة في محلها وموقعها. فليلاً إما لتأكيد أنه ليس مطلق السير بقطع النظر عن ظرفه وزمانه. بل هو إسراء بالليل فهو على هذا إما تأسيس وإما تأكيد أنه بالليل. وإما لإفادة أنه في ليلة واحدة، والله أعلم.

و «ليلاً» ظرف زمان مفعول فيه للفعل أسرى.

من المسجد الحرام: وهذا منطلق الرحلة ومبتدؤها. والمسجد الحرام أشهر أسماء البيت العتيق. والحرام إما مأخوذ من الحرم بمعنى التعظيم كما قال سبحانه: ﴿حَرَمَاءَ وَنُحًى﴾ القصص: ٥٧ وإنما كان حرماً لأنه محرم دخول غير المؤمن المسلم فيه وإليه. وإما لأنه محرم فيه سفك الدم، والأمن فيه واجب. ولأنه حَرَمَ يحرم فيه الصيد واللقطة والظلم والمخالفات عموماً بصورة أشد مما في غيره كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمْ نُزْفَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الحج: ٢٥.

إلى المسجد الأقصى: هذا منتهى الرحلة، فرحلة الإسراء طرفاها المسجدان: الحرام والأقصى. فالأقصى منتهى رحلة الإسراء ومبتدأ رحلة المعراج ومنتهى رحلة المعراج، ومبتدأ رحلة العودة إلى مكة. وهو على هذا بوابة السماء، كما ينعت بحق، و «همزة الوصل» بين الأرض والسماء. والأقصا: الأبعد. ومعلوم أن القرب والبعد نسبيان. فما هو قريب في عرف قوم ووسائلهم بعيد في عرف آخرين ووسائلهم وتصورهم.

أمر آخر: هو أقصى بالنسبة إلى ماذا؟ فعندما سموا شرقنا هذا بالشرق الأوسط، أي بالنسبة لهم، أي بريطانيا مركز الغرب وقت قوتها وهي التي ألزمت العالم بتوقيف غرينتش، وهي التي صنفت الشرق الأدنى والأوسط والأقصى أي بالنسبة لها هي، فاعتبرت نفسها نقطة القياس. ومعلوم في المساحة أننا نحتاج إلى نقاط قياس تثبت باقي نقاط المساحة إليها. فقد جعل الله الكعبة البيت الحرام نقطة الارتكاز والقياس. وباقي الأماكن تقاس إليها. فما المسجد الأدنى أو الأقرب من المسجد الحرام حتى يكون الأقصى هو الأقصى بالنسبة له؟ ولعل المسجد الأقرب هو المسجد النبوي وهذه بشرى

ضمنية بكونه، وقد كان. والأقصى هو الأبعد. والله أعلم. ويكفي الأقصى شرفاً أن اختاره الله ليكون ثاني بيت يوضع لعبادة الله في الأرض وأن يقترن ذكره بالمسجد الحرام، وأن يختاره الله ليكون مُجاوِر إبراهيم عليه السلام، وأن يكون مسرى النبي الأمين، وأن يكون بوابة السماء، وأن يكون مجمع الأنبياء ليؤمهم سيد الأنبياء عليهم السلام، وليكون القبلة الأولى، وثالث المسجدين الحرمين الشريفين اللذين تشد إليهما الرحال، ومزاياه لا تعد، واختار القرآن من بينها هنا أميزها وهي ميزة: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ وإنما بورك ما حوله من بركته هو. ولم لم يشر إلى بركة المسجد الحرام وهو أعظم؟ أعتقد أن التركيز هنا في هذا السياق على المسجد الأقصى. فكان مقتضى الكلام أن يقال: ﴿مَرَبِّ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ بهذا يكون التعادل والتقابل، لكن الله تعالى زاد أوصاف المسجد الأقصى حين قال عنه: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾. والبركة: الزيادة والنماء والاستقرار. وهو مفهوم لا يمكن فهمه إلا بالإيمان، فالمادي لا يتصور ما هي البركة ولا كيف تكون.

وإذا كان الأقصى بورك ما حوله فالمسجد الحرام بالضرورة مبارك ما حوله. فكان البركة موجبات تنطلق منهما وتتداح دوائر إلى أن تتلاقى وتتقاطع. ومفهوم البركة مطلق. أي بركة في البشر والتربة والثمر والهواء والماء وكل الموجودات وليست البركة مفهوماً قاصراً مقتصرأ على أشياء دون أشياء، ويعجب الدارس حين يسمع عن كمية الأمطار لقلتها كيف تثبت الأرض هذا النبات الطيب وبخاصة الشجرة المباركة الزيتون.. والتين. ومن بركة الأرض أنها موحدة العرب والمسلمين وموقظة الهمم والعزائم والروح المعنوية ومحرك التغيير في المنطقة برمتها، ومن أعظم صور البركة مضاعفة الأجر فالصلاة في الأقصى بخمسائة صلاة.

قال ابن عاشور: «الأقصى: الأبعد، والمراد بعده عن مكة، بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام، وهو وصف كاشف اقتضاه هنا زيادة التبيين على معجزة هذا الإسراء وكونه خارقاً للعادة لكونه قطع المسافة الطويلة في بعض ليلة. وأحسب أن هذا العلم (أي الاسم) له من مبتكرات القرآن فلم يكن

العرب يصفونه بهذا الوصف..» أ.هـ.

﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾

«حوله» وردت في القرآن (٥) مرات أولها في البقرة آية (١٧) وثانيها

ما في سورة الإسراء وهي السورة التي رقمها (١٧).

أما (باركنا) فقد ورد (٦) مرات أولها في الأعراف بحق الأرض نفسها،

وثانيها ما في الإسراء وفي الأنبياء مرتين بحق الأرض ﴿الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا

لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ٧١، ٨١ ومرة في سبأ بحق الأرض نفسها وفي الصافات بحق

إبراهيم وذريته.

قال ابن عاشور: «و (حول) يدل على مكان قريب، من مكان اسم ما

أضيف حول إليه، وكون البركة حوله كناية عن حصول البركة فيه بالأولى،

لأنها إذا حصلت حوله فقد تجاوزت ما فيه، ففيه لطيفة التلازم، ولطيفة

فحوى الخطاب، ولطيفة المبالغة بالتكثير. وقريب منه قول زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندی في قبة ضربت على ابن الحشرج

ولكلمة (حوله) من حسن الموقع ما ليس لكلمة (في). وأسباب بركة

المسجد الأقصى كثيرة كما أشارت إليه كلمة (حوله) منها «أن واضعه إبراهيم،

ومنها ما لحقه من البركة بمن صلى فيه من الأنبياء، وأعظم البركات حلول

النبي فيه وصلاته بالأنبياء» أ.هـ.

لنريه من آياتنا: اللام لام التعليل، يعني أسرى الله بعبده ليلاً من المسجد

الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه من آياته. وفي سورة النجم أشار إلى

تحقق الهدف وإنجازه، فقال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ النجم: ١٨. والآيات

هي العلامات الدالة على الله وعظمته وحكمته وعلمه وقدرته. وتطلق مثلثة

بمعنى: الآيات الكونية كالشمس والقمر، أو الآيات القرآنية، أو معجزات

الرسل عليهم السلام.

والمقصود هنا: الآيات الكونية.. لأن الرحلة في الفضاء الكوني والرسول

عليه الصلوات سيرى من آيات هذا الفضاء الكوني ما قدره الله له أن يراه.

ولاحظ الالتفات في الآية فقد بدأ الحديث عن الله بضمير الغائب. والآن انتقل إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع أي نون العظمة. ثم عاد إلى ضمير الغائب في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ولسنا مع المفسرين الذين يرون أن الضمير في «إنه هو» عائد إلى الرسول. لا نراه بحال.

إنه هو السميع البصير: تذييل الآيات أو ختامها مرتبط قطعاً بمضمون الآية. فالله أرى نبيه الآيات لأنه سبحانه سمع دعاءه وضراعه وأبصر ما عانى وما قدم، فلأنه السميع البصير كانت رحلة الإسراء. ولأنه السميع البصير رعى عبده طيلة رحلة الإسراء. فالاسمان الكريمان يصاحبان الرحلة وصاحبها من قبل ومن بعد.

﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَ نَزَّ إِلَهُهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

صيغة «لنريه» لم ترد إلا هنا في الإسراء. أما «آياتنا» فقد وردت في القرآن (٩٢) مرة، وما في الإسراء هو الرقم (٣٨، ٣٩) (وهذه أي آياتنا وردت في الآية رقم (٩٨) من الإسراء). وورد اسم السميع (٤٢) مرة وما في الإسراء هو رقم (٢٦) وبعدها (١٧) مرة.

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿لَئِنْ رَأَيْتُم مِّنْ آيَاتِنَا﴾ تعليل الإسراء بإرادة إراءة الآيات الربانية، تعليل ببعض الحكم التي لأجلها منح الله نبيه منحة الإسراء، فإن للإسراء حكماً جمة وأهمها وأجمعها إراسته من آيات الله ودلائل قدرته ورحمته. ولام التعليل لا تفيد حصر الغرض من متعلقها في مدخلها. وإنما اقتصر في التعليل على إراءة الآيات لأن تلك العلة أعلق بتكريم المسرى به والعناية بشانه، لأن إراءة الآيات تزيد يقين الرائي بوجودها الحاصل من قبل الرؤية. واعلم أن تقوية يقين الأنبياء من الحكم الإلهية.

وفي تغيير الأسلوب من الغيبة التي في اسم الموصول وضميريه إلى التكلم في قوله: «باركنا .. لنريه من آياتنا» سلوك لطريقة الالتفات المتبعة كثيراً في كلام البلغاء. والالتفات هنا امتاز بلطائف: منها: أنه لما استحضرت

الذات العلية بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام مشاهدة فناسب أن يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلم. ومنها: الإيماء إلى أن النبي عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة. ومنها.. ومنها «إخ. أ هـ.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

قال ابن عاشور: «الأظهر أن الضميرين عائدان إلى النبي ﷺ، وقاله بعض المفسرين، واستقره الطيبي^(١)، ولكن جمهرة المفسرين على أنه عائد إلى الله تعالى. ولعل احتماله للمعنيين مقصود. وقد تجيء الآيات محتملة عدة معان. واحتمالها مقصود تكثيراً لمعاني القرآن، ليأخذ كل منه على مقدار فهمه كما ذكرنا في المقدمة التاسعة»^(٢) أ هـ. وأيضاً ما كان فموقع «إن» التوكيد والتعليل كما يؤذن به فصل الجملة عما قبلها.

من دروس آية الافتتاح

١. افتتح النصف الأول من القرآن بالحمد، وافتتح الجزء ١٥ منه بالتسبيح، ولم يرد قبل الإسراء افتتاح سورة بالتسبيح، والتسبيح والتحميد أعظم ذكر بعد كلمة التوحيد. بل هما يتضمنانها.
٢. التسبيح تنزيه الله عن كل ما لا يليق به، وتنزيه أسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه.
٣. فصلت رحلة الإسراء بسورة ورحلة المعراج بسورة ليعلم أنهما رحلتان ولتتملى كل منهما بمفردها. فكل واحدة آية ومعجزة.
٤. سورة الإسراء إمامة سور المسبّحات فهي ذات امتياز من هذه الناحية

(١) أي رآه قريباً. ونراه نحن بعيداً جداً.

(٢) أي من مقدمات التفسير التي وضعها ابن عاشور في أول تفسيره.

- وهي في قلب المصحف مع سورة الكهف.
٥. الربط بين المسجدين الحرام والأقصى لأن الله يعلم أن المعركة المصيرية القادمة ستكون حول الأقصى فأراد أن يعلي من شأنه ليضحي المسلمون لأجل حمايته ولا يفرطوا فيه.
٦. الإسراء كرامة للنبي ﷺ وكرامة لأمته وكرامة للمسجد، وكرامة للإنسانية في شخصه الشريف ﷺ فهو نبي الإنسانية ورائدها وقائدها فكرامته كرامتهم.
٧. التركيز في فاتحة السورة على المسجد الأقصى وبركته.
٨. مكافأة الداعية على صبره وجهده وجهاده.. كانت هذه الرحلة.

المقطع الثاني

الآيات (٢ - ٨)

بنو إسرائيل نشوعاً وعلوّاً ونهاية

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ (٢)

الرابط: «وأتينا»: في هذه الآية منة على كليم الله موسى، بأن آتاه الله الكتاب، وفي الآية السابقة منة من الله على عبده محمد ﷺ بالإسراء به من مكة إلى القدس ومن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم الارتقاء به إلى السموات العلا في رحلة المعراج. فهذا إنعام بالرفع إلى السموات، وذاك إنعام بإنزال الكتاب من السماء إلى الأرض.

قال الشنقيطي في أضواء البيان: «لما بين في هذه الآية عظم شأن نبيه محمد ذكر عظم شأن موسى بالكتاب العظيم الذي أنزله إليه...» والرازي وابن كثير قالوا قريباً من هذا.

والمناسبة: ونعني بالمناسبة حيث وردت: العلاقة بين الآية وسابقتها ولاحقتهما. فهذا القرآن وثيق العلاقات فيما بين السور والآيات، ولا يظن ظان أن الانتقال من موضوع إلى موضوع مجرد استطراد أو انتقال فجائي لا رابط ولا منهجية معه أو وراءه! وحاشا لكلام الله فهو المنهجية والترابط. لكن على الناس اكتشاف ذلك.

وأرى المناسبة من وجوه لا من وجه واحد في هذه الآية وآية الافتتاح التي جاءت متميزة في موضوعها وفاصلتها.

فأولاً: في الإسراء إفضال وإكرام للنبي محمد ﷺ وإيتاء عظيم، وقد عطف ما أوتيته موسى الكليم على ما أوتيته النبي الكريم عليهما الصلوات والتسليم. لكن لماذا اختار موسى من بين مئات المرسلين؟ لأن أمة هذا النبي - أو بالأحرى أمته بالادعاء لا بصدق الانتماء - ستقع في صدام مرير عسير طويل وهي ظالمة لأمة نبي الإسراء في أرض الإسراء، لذا انتقل من الحديث عن الإسراء إلى الحديث عن الخطر الذي يتهدد أرض الإسراء والمنازلة التاريخية التي ستكون في أرض الإسراء. ففي هذا قمة المنهجية.

أضف إليه أن أمة إسرائيل وأمة النصارى التي هي فرع - هكذا أرادوا

- بالانتماء إلى العهد القديم، وهكذا شاء الله بأن كان عيسى رسولاً إلى بني إسرائيل إذ هو بالانتماء التاريخي والعائلي منهم، عليه الصلوات، وحاشاه منهم أخلاقاً واعتقاداً فاسداً!

فهاتان الأمتان هما أقرب الأمم زمنياً تاريخياً ومكانياً جغرافياً إلى أمة الإسلام، بل إن الملابس شديدة على مر التاريخ، نقصد أن المناسبة أيضاً جغرافية بالتجاور المكاني بين الأمم الثلاث.

أفجيب بعد كل هذا، هذا الانتقال من حديث الإسراء إلى حديث أمة إسرائيل. والسورة الجليلة -بالمناسبة- تحمل الاسمين من بين السور القليلة التي تحمل اسمين، فهي سورة الإسراء، وسورة بني إسرائيل كما في حديث البخاري وغيره.

قال ابن كثير في وجه المناسبة للآية السابقة وفي المعنى: «لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد ﷺ عطف بذكر موسى كليمه، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة «وجعلناه» أي الكتاب «هدى» أي هادياً، ﴿لِنَبَيِّ إِسْرَءِيلَ أَنَّا نَنخِذُ﴾ أي لئلا تتخذوا ﴿مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبد وحده لا شريك له^(١).

قلت: قول ابن كثير رحمه الله: «عطف بذكر موسى فإنه كثيراً ما يقرن بين موسى ومحمد». هذا وجه مناسبة عام يصلح لهذا الموقع ولغيره. ولكني أرى وجه مناسبة خاصاً بالسورة، أي بالإسراء، فقد انتقل من الإسراء، إلى أمة إسرائيل، التي تشكل خطراً على أرض الإسراء وأمة الإسراء.

المعنى: وآتيناه أي وأعطيناه وأنزلناه

الكتاب: التوراة

وجعلناه: أي وجعلناه هذا الكتاب وأودعنا فيه ما يمكنه من أن يكون هدى وإرشاداً لهذا الشعب المنتسب إلى يعقوب عليه السلام. وفي هذه الآية عناصر تكوين

(١) المصباح المنير مختصر تفسير ابن كثير. ص ٦٠٢ - ص ٦٠٣.

الأمة: القائد أو الرسول، والمنهج: الكتاب، والشعب.

والعالم الإسلامي الآن ينقصه عنصران: القيادة والمنهج. أما الشعب فلا أزمة فيه إلا نقص القيادة وغياب المنهج.. فحسب!

ألا تتخذوا من دوني وكيلاً: لخص مطالب الله منهم في الكتاب بمطلب واحد هو التوكل على الله وحده.

وأتينا: الواو إما واو الاستئناف وهو الأظهر أو عطف إيتاء باللفظ على إيتاء بالمعنى كان في الإسراء كما سلف معنا. وأتينا: الإيتاء الإعطاء دون مقابل بل دون توقع. وهو كثير في القرآن، إذ الله تعالى صاحب الفضل على بني الإنسان والمرسلين بخاصة: فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ الأنبياء: ٥١، وقال عن داود: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِمَّا فُضِّلَ﴾ سبأ: ١٠، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ النمل: ١٤، وقال على لسان سليمان: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ النمل: ١٦، وقال عن كل من موسى ويوسف: ﴿وَأَتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يوسف ٢٢ والقصص ١٤، وقال عن يحيى: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ مريم: ١٢، وقال عيسى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ مريم: ٣٠. وقال عن ذي القرنين الحاكم الصالح: ﴿وَأَتَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف: ٨٤، ولا نطيل في النقول فهي كثيرة. وهي في المعنى أعني: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ الإسراء: ٢. وفي النحو أيضاً عطف على: ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ الإسراء: ٢. نقول ذلك لبيان ارتباط الآيات وارتباط المعاني والمنهجية الوثقى!

وقد ورد ذكر موسى في القرآن بتكثيف لم يكن لنبي قط. فقد ذكر في القرآن ضعف ما ذكر الخليل عليه السلام، مع أن الخليل أعظم درجة. وذلك لاعتبارات أخرى غير المنزلة. فموسى خاض أعظم منازلة مع أعتى قوة إلى زمانه: فرعون^(١).

وثانياً: ستخوض أمتة أعظم منازلة مع أمة الإسراء ونبي الإسراء، وسيقع منها بحق الأمة ودينها أعظم إفساد. وهذا الموضوع من ذكر موسى هو

(١) لاحظ أنه ليس في القرآن سورة باسمه، وتفسيره لهذا أنه أخذ حقه بكثرة ذكر اسمه دون حاجة لتكون له سورة باسمه.

(الستون) ٦٠ من ١٣٦ مرة.

وأل التعريف في الكتاب هي لام العهد أي الكتاب المعهود الذي تعرفونه وهو التوراة بدلالة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الإسراء: ٢.

وجعلناه: الجعل: تصيير بعد إيجاد. هذا الأصل في المعنى. فكان الكتاب ثم كان الجعل الذي يترتب على وجود الكتاب وهو جعله هدى لقوم النبي الذي أنزل عليه الكتاب، وهم هنا في هذه الحالة: بنو إسرائيل.

و «هدى» بمعنى دلالة وإرشاداً. وقد تكون «هدى» بالفعل وقد تكون بالإمكان وهي هنا أي الكلمة محتملة للمعنيين، فهي لجماعة منهم هدى بالفعل ولآخرين منهم هدى بالإمكان أو الاحتمال، فإن استجابوا اهتدوا، وإن أعرضوا فقد ضلوا.

وبنو إسرائيل تعني أبناء يعقوب وذريتهم من بعدهم، فكان الدين والقومية أصبحا شيئاً واحداً. وهذا في الحقيقة على التغليب أو على الأصل. ومعنى على الأصل: أي على النشأة. فقد نشأ الدين اليهودي في أبناء يعقوب لأن التوراة نزلت على موسى وهو من نسل الأسباط، أبناء يعقوب، وأما دولة إسرائيل الآن فأغلب من يحملون جنسيتها من غير بني إسرائيل. ولكنهم إسرائيليون باعتبار انتسابهم إلى دولة تنتسب - ولو زوراً - إلى إسرائيل. ليصدق وعد الله أن الإفساد واقع من بني إسرائيل، وأن المواجهة الكبرى حاصلة مع بني إسرائيل. وفي الآية الكريمة عناصر تكوين الأمة: القائد والمنهاج والشعب كما سلف. ثم لخصت الآية المطالب الإلهية من بني إسرائيل بمطلب واحد جامع: ﴿أَلَا تَنذَرُ أَنَّ الدُّنْيَا مَبْغُوتٌ وَمَا فِيهَا كُفْرٌ وَهِيَ كُفْرٌ عَظِيمٌ﴾ الإسراء: ٢. وهنا عظمة الاختصار!

فالدين أوامر ونواه وقواعد ونظم وتشريعات وتفصيلات وأخلاق و...، ولكن القرآن لخص كل ذلك بما يختصر حقيقة الدين من ناحية ويلخص طبيعة الشعب من ناحية. فالدين هو التوكل أو روحه التوكل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المائدة: ٢٣.

﴿وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ يونس: ٨٤،

فالشعب اليهودي غلبت عليه المادية والتوكل على الأسباب لا على مسبب الأسباب. ولذلك طلبوا القوم والعُدس والبصل بدل المن والسلوى. لأن المن والسلوى تأتي خارج الأسباب وترتبط بالتوكل ولكنهم يريدون قوتاً لا يرتبط بالتوكل، في زعمهم أو فهمهم أو تصورهم.

فعندما طالبهم الله بمطلب يختزل روح الدين قال: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الإسراء: ٢) فكان منهم أن اتخذوا وكيلاً كل شيء عدا الوكيل سبحانه. وتوكلوا على الأشياء وما توكلوا على رب السماء!

«الكتاب» في سورة الإسراء

سورة الإسراء أكثر سورة ذكرت القرآن، فما شأن «الكتاب» في السورة الكريمة؟ ذكرت السورة الكريمة «الكتاب» بعدة تصارييف، فلنذكرها مقترنة بمرات الورد: لكن نقول قبل ذلك: إن أول مرات ورود «كتب» في سورة الإسراء هي في صيغة الكتاب، وقبله وردت (٢٢) (١١ × ٢) صيغة جلها من الصيغ الفعلية لم ترد في الإسراء ولا مرة من بين هذه المرات. فإلى الصيغ الواردة في سورة الإسراء:

١. الكتاب: ورد في السورة ٣ مرات، في الآيات (٢، ٤، ٥٨)، علماً بأن وروده في القرآن (٢٣٠) مرة.
٢. كتاباً: ورد في السورة مرتين. (في النساء كذلك ولا غيرهما في العدد مرتين).
٣. كتابك: وردت في القرآن كله مرة واحدة هي التي في الإسراء آية ١٤.
٤. كتابه: أول ورودها في القرآن في سورة الإسراء ٧١، ووردت بعد ذلك في سورتين الحاقة والانشقاق.
٥. كتابهم: لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة هي التي في الإسراء آية (٧١). هذا ما هنالك.

من دروس الآية ٢

- ١ . عناصر تكوين الأمة قيادة ومنهج وشعب.
- ٢ . شعب بلا قيادة ومنهج قطيع غير مؤثر في الحياة.
- ٣ . كتب السماء مصدر الهدى لأهل الأرض.
- ٤ . التوكل أعظم ثمرات الإيمان ومقتضياته.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

الربط والمناسبة: تحدثت الآية السابقة عن تشكل أمة إسرائيل على يد القائد النبي الزعيم موسى عليه الصلوات والتسليم ومعه المنهج المتمثل في الكتاب، وطلب منهم مولانا طلباً واحداً ألا يتوكلوا إلا عليه. فهنا يخاطبهم بالالتزام والشكر على نعمة المنهج، يخاطبهم بوصفهم ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ الإسراء: ٣. ونسق ثان مع أوائل السورة «بعده» و «إنه كان عبداً شكوراً».

المعنى: ذرية: منصوب على النداء، وحذف حرف النداء معروف في العربية مشهور، فكل مرات ورود «ربنا» جاءت بلا حرف نداء.

مَنْ: اسم موصول في موقع جر مضاف إليه للمضاف ذرية.

حملنا: أنجبنا مع نوح في السفينة.

ولم يسهمهم أو يصفهم بذرية نوح لينزع عنهم ادعاءهم أنهم أبناء سام بن نوح، ليطمئئوا بدعوى السامية. ولم يقل لهم يا بني إسرائيل. إنما ذرية من حملنا مع نوح ليجردهم من ورقة طالما استعملوها ووظفوها في وجه الناس لتعطيتهم إحساساً بالتميز والتفوق وإشعار العالم أمامهم بالدونية. وهم بالفوقية، فأن أن يجردوا من أسلحتهم النفسية والثقافية والفكرية ودعاواهم العريضة!

إنه كان عبداً شكوراً: هذا تعريض بهم أنهم شعب كفور، أما نوح الذي هم ذرية من نجوا مع من نجاهم الله معه فإنه كان شكوراً، وإياك أعني واسمعي يا جارة.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾

الآية الأولى في السورة ذكرت خاتم الرسل وخير الرسل وأعظم الرسل ورحلة إسرائه إلى المسرى في المسجد الأقصى.

والآية الثانية ذكرت أعظم رسل بني إسرائيل وهو موسى، الذي أنقذ أمة إسرائيل التي تأسست على يد «إسرائيل» في مصر، فأنقذها موسى من فرعون وأخرجها من هناك إلى الأرض المقدسة وهي أرض الإسرائ، لكنهم

رفضوا دخولها فحرمت عليهم. وهم في الإفساد الثاني يعودون لها غادرين غاصبين محتلين.

وفي الآية الثالثة، وهي هذه الآية يرد ذكر نوح أول رسل الله إلى قوم من الأقسام^(١)، وهو أطول الرسل مدة دعوة، فكل رسول من هؤلاء الثلاثة الكرام ممتاز بميزة.

ولكنني أرى في ذكر نوح ملحظاً آخر سوى ما ذكرت قبل قليل. وهو أن اليهود الآن يسمون أنفسهم الساميين، ومن يعاديهم، عدو السامية، وقد استطاعوا أن يسنوا قوانين بها أزهبوا العالم، وهي قوانين معاداة السامية. وسام كما يزعمون هو ابن نوح، فالسامية إذاً واحد من أفعال أسلحتهم.

والقرآن في هذه الآية التي جاءت في مكانها بالضبط يجردهم من هذا السلاح بمنتهى الهدوء، وبطريقة غير مباشرة، وغير ملحوظة إلا بالتدقيق. فهو ينسبهم لا إلى نوح ولكن إلى من حملنا مع نوح، فسقطت دعوى السامية التي يتدعون ويتذرعون بها ويتمترسون وراءها. وكما ذا بين أيدينا من أسلحة! وكما ذا عندنا من غفلة عن أرصدة قوتنا!

قال ابن كثير في معنى الآية: «تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح، وفيه تهيج وتبويه على المنة، أي سلاله من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم»^(٢)، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً...^(٣).

قلت: وقوله: «إرسالي إليكم محمداً» تضييق للمعنى وحصر له في مرحلة ما أو حقبة معينة، وهم شعب كان ديدنهم طيلة تاريخهم الكفر لا الشكر، فكما نبههم القرآن إلى الشكر على نعم سابقة لنزول القرآن وأن موقفهم منها كان كما قلت: الكفران. واقرأ الآيات من سورة البقرة من الآية

(١) آدم هو أول رسول مطلقاً، ولكنه رسول في نطاق عائلة.

(٢) قلت: القرآن يجردهم من شرف الانتساب إلى نوح وينسبهم إلى من نجوا معه وابن كثير يقول: «تشبهوا بأبيكم».

(٣) ذكر ابن كثير عدة أحاديث في لماذا سمي نوح عبداً شكوراً وأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله. وذكر حديث الشفاعة الذي في البخاري. قلت: الأمر أعم وأهم من هذا. فالشاكرون قلة ومعنى الشكر أعظم من مجرد الشاء على الله بعد الطعام والشراب. فقد قال الله لداود وسليمان: (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور).

(٤) (المصباح المنير، ص ٦٠٣).

(٤٦) إلى قوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَصَّلْتُكُمْ عَلَى الْآلَمِينَ﴾ البقرة: ١٢٢ فهي كلها تقريباً في تعداد النعم على بني إسرائيل من إنجاء لهم إلى إنزال المن والسلوى إلى العفو عنهم بعد عبادة العجل.. إلى.. وكل ذلك وموقفهم واحد في جملتهم!

ووردت كلمة «ذرية» في القرآن (١١) مرة، في (٩) سور. وما في الإسراء هو الموضع رقم (٩)، وما بعدها إلا سورة مريم ورد فيها في موضعين. ولم تتكرر ذرية في سورة إلا في آل عمران ومريم. ومريم من آل عمران. قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرّاً بَاقِينَ﴾ الصافات: ١١. ملاحظة أولى: أن النص الكريم في خطاب بني إسرائيل لم يخاطبهم بـ: «ذرية نوح»، وإنما بـ «ذرية من حملنا مع نوح» لأنه - فيما أرى - لا يريد أن يعطيهم نقطة قوة، خاصة وأن دعواهم اليوم بالسامية ومعاداة السامية تتذرع وتحتمي وتختبئ وراء الانتساب إلى سام ابن نوح، ولا نعلم هذا الابن «سام» ولا غيره بغير هذا الاسم لنوح، فمصادرنا للمعرفة والمعلومات هي الوحي. لا أعداء النبوات والرسالات والآيات والوحي، وأن أن تتحرر أمتنا ثقافياً وتستقل عن الاستعمار الفكري والثقافي المتمثل برواية الإسرائيليات. أن والله أن يا أمة القرآن!!

لكن في سورة الصافات قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرّاً بَاقِينَ﴾ مما يفهم أن الناجين كلهم من ذرية نوح، وأن الأب الثاني للبشرية هو نوح، حقاً وصدقاً وبالفعل، وحتى في هذه، فإنه لا مكان لدعوى هؤلاء المدعين الكاذبين، البنية لسام أو غير سام.

والملاحظة الثانية: أن جو سورة الصافات وسياقها ونسقها ينسجم مع التعبير الذي جاء فيها، فيتحدث السياق عن ابن إبراهيم الذي هم بذبحه وهو بالقطع أبونا إسماعيل، فلا مجال للتردد العقيم وتكثير الأقوال والاختلاف، فلا مجال للاختلاف مع النص القاطع الدلالة والصريح في الصافات نفسها بعد الانتهاء من قصة الذبيح قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ الصافات: ١١٢ وفي سورة أخرى (هي هود) قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ هود: ٧١ فكيف

يبشر بإسحق وهو كان يهّم بذبحه قبل سطر من هذا النص؟ إننا كثيراً ما نروي ولا نعمل العقل النقدي والنقد العقلي فيما نروي. فلو تأملنا أدنى تأمل ما رويناه في هذا أي رواية.

وبعد هذا نقول إن النص التالي في الصافات قال: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ الصافات: ١١٣. وبعد قليل قال: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ الصافات: ١٤٩. في هذا السياق والنسب قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ﴾ فسبحان من هذا كلامه!

من دروس الآية ٣

١. لليهود دعاوى وأساطير يوظفونها في خدمتهم منها السامية وأنهم أبناء سام، والعالم أعداء السامية، وهي دعوى يفندوها هنا القرآن ويسلبهم إياها ويحرمهم من توظيفها لو كنا وكان العالم يعقل!
٢. التعريض بأن اليهود شعب كفور من خلال مدح نوح بأنه شكور.
٣. لا ينفع النسب إذا كان المنتسب ليس على خطى من إليه انتسب.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفِئِدَنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلَمَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

الربط والمناسبة: في الآية الثانية انتقل سياق سورة الإسراء من الحديث عن الإسراء ورحلة نبي الإسراء إلى أرض الإسراء. انتقل من هذا الحديث إلى الحديث عن بني إسرائيل وتشكل أمة إسرائيل بإيتاء موسى الكتاب، فالمنهج هو الأساس الذي تقوم عليه أي أمة. وما سر هذه النقلة؟ إنه الانتقال من الإسراء وأرض الإسراء إلى أمة إسرائيل أعداء أرض الإسراء ونبي الإسراء. وسورة الإسراء محورها وموضوعها الأساس هو أنها دستور النصر لأمة الإسراء على أمة إسرائيل. وأكرر هنا لأقرر ما سبق قوله. أقول: ثم انتقل السياق إلى الآية الثالثة في خطاب أمة إسرائيل بقوله ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ الإسراء: ٢. وليس ذرية نوح كما سلف ليسلبهم مواضع ومواضيع فخرهم على الناس وادعاء تفوقهم، ونسبتهم التي بها يتباهون ويستعلون ويستكبرون، ويغطون بها على فسادهم وإفسادهم.

أقول: انتقل من هذا كله إلى إخبارنا بما أخبر الله به بني إسرائيل أنه سيقع منهم إفسادان في الأرض. وأنه وإن تكن الأرض مطلقة في الظاهر فهي مقيدة في الواقع. والذي قيدها مرتا الإفساد، وإفسادهم لا يحصى ولا يعد. فلما قيده بمرتين اقتضى تقييده بهذه الأرض التي هي طرفا رحلة الإسراء والمعراج أعني المسجد الأول: المسجد الحرام ومن حوله الإفساد الأول، والمسجد الثاني: وهو المسجد الأقصى ومن حوله الإفساد الثاني. هذا مفتاح فهم سورة الإسراء، وفهم الإفسادتين اللتين كثرت فيهما الأقوال وتعددت وتشعبت وتباعدت وابتعدت عن روح النص. وفات سادتا من المفسرين أن النصوص تؤخذ جملة مجتمعة لا تفريق ولا عضين. فقوله تعالى «مرتين» ضابط من ضوابط الفهم أو حسن الفهم أو أحسن الفهم كما نقول دائماً ونكرر. وقوله تعالى: «بعثنا عليكم» بالماضي ضابط ثان. وقوله: «أولي بأس» ضابط ثالث، ولا أريد أن أسترسل، فلماذا غاير في الفعل في الإفسادة الثانية

بالتعبير بالمضارع، أهو مجرد التفتن؟ بالطبع لا . هناك إذا ضوابط كثيرة منها: أمددناكم بأموال وبنين، ومنها وجعلناكم أكثر نصيراً... إلخ.

وقوله: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الإسراء: ٦٠ من أهم ضوابط الفهم، فإن الكُرَّة لم ترد لأمة إسرائيل على أحد إلا على أمة محمد ﷺ.

وقد تكلمت الآيات السابقة عن إيتاء موسى الكتاب وجعله الله هدى لبني إسرائيل، وطلبت تالياتها منهم أن يتوكلوا على الله لا على أحد سواه، وخاطبتهم الآية الثالثة بنسبتهم إلى ذرية من حملهم الله مع نوح وأنه كان عبداً شكوراً وهذا تعريض باليهود بنقيض صفة نوح. بعد هذا جاءت الآيات المتحدثة عن إفسادين. فهي تتحدث عن مناقضة تامة وقعت منهم لما طلبه الله. فالسياق من أول السورة نسق وعقد مترابط وسلسلة آخذة كل حلقة منها بسابقتها.

المعنى: الواو إما عطف قصة على قصة أو استئناف وهو الأظهر.

وقضينا: قضى هنا فيما أرى بمعنى «أعلم».

فيكون معنى: وقضينا: أعلمنا. لا ألزما. فيكون القضاء بمعنى القضاء الكوني والتقدير الكوني، الذي هو إلزام لا راد له. كقوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فسك: ١٢. هذا ليس مقصوداً ولا هو المراد، ولو كان إلزاماً لما كان ثم تكليف البتة. ولو كان الله ملزماً الخلق لألزمهم بالصلاح لا بالفساد لأنه لا يحب الفساد ولا يحب المفسدين. وإنما هو إعلام. فلماذا عبّر الله تعالى بقضى؟ أرى أنه لشدة التزامهم بالإفساد واعتباره هدفهم ورسالتهم ودأبهم وديدنهم وشنشنتهم وعادتهم وسننهم الذي لا يتغير ولا يتحول، فكأنه بهذا الإصرار فهو فهم قضاء مبرم ملزم، كأنه، وليس به.

المهم أن ظلال «وقضينا» لا تتوقف ولا تنتهي. فعلم الله لا يتخلف. ومن هنا إذا قال: «وقضينا» فإن منطلق الكلمة من كون علمه سبحانه لا يتخلف وحاشاه. لا من باب أنه يلزم سبحانه بالإفساد بحيث لا راد لما ألزم. هذا نستبعده بادئ بدء ثم نجتهد في الفهم ما وسعنا الاجتهاد.

إلى: إلى حرف جر يفيد الغاية، أي قضاءً واصلاً إلى. ولو كان المعنى

جبراً وإلزاماً لكان النص «وقضينا على».

بني إسرائيل: هذه هي المرة الثانية التي يذكر فيها هؤلاء في هذه السورة.. بفصل آية واحدة وأقل من ١٧ كلمة.

وإنما سُمّوا بني إسرائيل أي يعقوب لأنه عليه السلام هو نواة هذا الشعب، فمنه تأسس، وذرية الأسباط هم الذين شكلوا هذا القبيل أو الفصيل من الناس. وإسرائيل اليوم تكاد لا تمتّ إلى بني إسرائيل، ولكن يظل بنو إسرائيل هم نواة التكوين والوجود. وتظل إسرائيل تنتسب إليهم. بل إن تسميتها «إسرائيل» شاهد لهذا القرآن. أما الشاهد الأكبر فزوالهم من هذه الأرض. أرض الإسرائاء، كما زالوا من قبل من أرض الإسرائء الأولى. أقول هذا الزوال سيكون هو أعظم شاهد في هذا القرن لهذا القرآن. فكل كلمة فيه حق وكل وعد فيه لا خلف فيه. أفليست هذه أعظم شهادة تركية وثبتت حقية كل ما فيه وأنه كلام الله لا ريب فيه؟ ونعلم أن انتسابهم إلى إسرائيل كذبة. فهم أعداء الأنبياء، وهم من نعتوهم بأقذع وأسوأ النعوت، فكيف ينتسبون إليهم؟ في الكتاب: هذا مؤكد آخر لما نقول، فهذا الإفساد ذكر في كتابهم ليحذرهم، كما كان يحذرنا القرآن من التفرق مثلاً، ويحذرنا رسول الله. وكما حذرنا ﷺ من اتباع سُنَن من كان قبلنا بصيغة: (لتتبعن سُنَن من كان قبلكم) أفهذا يفهم منه ويشتمّ الإلزام؟ أم هو الإخبار والتحذير والإعلام؟ بل هو كذلك. وأما الكتاب فقد ورد ذكره في الآية الثانية. فهل هو هو؟ أم هو زيادة؟ أعني «في الكتاب»، لا يمتنع أن يكون في اللوح المحفوظ أولاً، ومنه نقل إلى بني إسرائيل في كتابهم فبلغهم ما سطر. وسجل في كتابنا فبلغنا ما بلغهم مما أخبر عنهم، فعلمناه، وعلموه عن طريقنا إن كانوا طمسوا ما عندهم وأخفوه. فلو بحثنا فلم نجد في كتابهم هذا الخبر فلا يعني الشك فيه، ولكن يعني أن القوم لعبوا بكتابهم وتصرفوا فيه وأخفوا الحقائق التي لا تروقهم فيه ولا تناسبهم وتحرجهم.

لتفسدن: اللام هي الموطئة للقسم أي الدالة عليه والممهدة له. والنون المشددة للتوكيد وهي ملازمة للام القسم. وأما الفساد فحدث عن البحر ولا

حرج! وحدّث عن بني اسرائيل وإفسادهم ولا حرج!

ولن نبحت في المعاني اللغوية للفساد، كأن يقال ضد الصلاح، فهذا مع تجلي فسادهم وإفسادهم في الواقع لم يعد يغني ولا يضمن. فالفساد على كل صعيد هم وراءه. والفساد في كل مجال وميدان وبُعد من أبعاد الحياة هم وراءه. فأن تقرأ عن مباركة قسيس في كنيسة بأول زواج مثلي، بتعبيرهم الكاذب، هذا لا يعقل أن يكون من أتباع المسيح، إنما هو ممن دسهم اليهود في دين المسيح ليفسده، وقد نجحوا، فأفسدوا الدين المسيحي بالتثليث على يد بولس اليهودي والذي اسمه الأصلي شاؤول.. كلنا لا نتكلم عن الإفساد في العالم، فهذا لا تتسع له مجلدات. إنما نتكلم عن الإفساد الأول والثاني وهما متعلقان بأمّتنا وبلاد أمّتنا، وبالأخص، كما سلف، ما يتصل بالمسجدين المكرمين.

فأما الإفساد الأول فهو كونهم أول كافر بالقرآن، وكانوا يلقنون العرب ما به يكفرون، ويجذّر ويعمّق كفرهم ويزيدهم عناداً وإصراراً واستكباراً، ويعرضون على الحروب البينية، فالأوس والخزرج أبناء العم في حرب استمرت عقوداً وهم مزودوها بالسلح. وكما قلت فإنه لا يعقل ولا يتصور أن نُحصي، إنما نذكر مجرد أمثلة. فتأمّرهم على الإسلام والقرآن وكل ما ينزل منه بحرب الشبهات وحرب التشويش بات معلوماً واضحاً. وهو باختصار شديد: الإفساد الأول.

مرتين: حصر الإفساد بمرتين لضبط الفهم كما كررنا. وإلا فإن الإفساد الإسرائيلي لا حصر له. فهذا الشعب قد نذر نفسه لخلافة إبليس، فكل جريمة هم من ورائها وكل حرب اشتعلت هم محرشوها ومعرضوها ومسعروها. كل جريمة أخلاقية هم صناعها. والإلحاد هم سددته وسادته. في الوقت الذي يزدادون هم فيه تعصباً لدينهم، فيكف هذا؟ إنهم لن يتمكنوا من قيادة عالم منضبط بالدين، فليحطمو الأديان، لتسهل لهم قيادة البشرية. فكان فكر ماركس المادي الإلحادي ومن قبله الفلسفات المادية، الحسية، ولو جئنا نفتش في أسماء الفلاسفة الملاحدة الماديين لوجدناهم جلهم من هذا الشعب. ولماذا

العالم يدعو إلى الاعتراف بدولة يهودية أو يهودية الدولة. فهل يسمحون بدولة إسلامية؟ هذا المستحيل بعينه، وأوباما العلماني يدعونا إلى الاعتراف بيهودية دولة الكيان! فتأمل.

والآن ما القوة الخفية التي تشجع عبادة الشيطان؟ وما القوى التي تفرض الاتفاقات المناقضة للقيم. ومن الذي يرضى الشذوذ في العالم؟ ومن وراء الماسون وأضراب الماسون من مخربي العالم؟ إنهم هم وراء كل جريمة ووراء كل فساد!

ولتعلن علواً كبيراً: ولن نتكلم عن العلو في اللغة وأنه بمعنى ضد ونقيض السفلى. فماذا يفيدنا هذا؟ ولم نغض الطرف عن الواقع والعلو الكبير الذي يجعل رئيس أعظم قوة في الوجود يستجدي «صداقة الشعب الإسرائيلي» علماً بأن إسرائيل تعيش على حساب أمريكا والدعم العسكري والاقتصادي بالمليارات، ومع هذا فإن الرؤساء الأمريكيين يعلمون أن أي مرشح رئاسي لن ينجح من دون دعمهم. ولن ينجح بعد الانتخابات إلا بدعمهم. فهم شرط النجاح في الحالين. كيف وصلوا إلى هذا العلو؟ حطموا العراق بمفتشين تعينهم الأمم المتحدة وهم جواسيس لهم. فحرقوا كل شاردة واردة فيه. وعندما نجحت الثورات العربية صفوا في طريقها صنوف العقبات وصفوف الجواسيس والخونة المرتبطين بهم حتى كادوا يحطمون هذه الثورات ويحرموا الشعوب من جني الثمرات من الثورات فهم مانعو التغيير في العالم العربي الذي يفرق في الفساد الذي هم وراءه وهم مانعو تغييره. فتأمل!

وتأمل ما قال ابن جرير الطبري رحمه الله في معنى الآية: (وقضينا: القضاء: الفراغ من الشيء ثم يستعمل في كل مفروغ منه، فتأويل الكلام: وفرغ ربك إلى بني إسرائيل فيما أنزل من كتابه على موسى بإعلامه إياهم، وإخباره لهم: (لتفسدن) يقول: لتعصن الله يا معشر بني إسرائيل ولتخالضن أمره في بلاده مرتين. ولتعلن علواً كبيراً: ولتستكبرن على الله باجترائكم عليه استكباراً شديداً. وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل. ثم ذكر الروايات..) أ هـ. قلت: وابن جرير معذور إن فسّر الآية بمعناها اللغوي. أما نحن فغير

معذورين بعد أن تجلى معناها واقعاً شاخصاً.. وصل في علوه وعتوه أن يحكموا العالم، وأن يتحكموا في اقتصاده ومؤسساته...

وقال الشعراوي رحمه الله: (الإفساد أن تعمد إلى الصالح في ذاته فتخرجه عن صلاحه فكل شيء في الكون خلقه الله لغاية، فإذا تركته يؤدي غايته فقد أبقيته على صلاحه، وإذا أخلت به يفقد صلاحه ومهمته والغاية التي خلقه الله من أجلها) وكما يكون الإفساد في الماديات، كما أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوثات، كذلك يكون في المعنويات.. وعدم تنفيذ المنهج الإلهي إفساد لمنهج الله. ثم تحدث عن آراء العلماء وأقوالهم في الإفسادين ثم قال: والمتأمل في سورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام.

وللشيخ عبارة لا نقره علينا كقوله: «إن الإسلام تعدى إلى مناطق مقدساتهم. فأصبح بيت المقدس قبلة للمسلمين، ثم أسري برسول الله إليه وبذلك دخل في حوزة الإسلام، لأنه جاء مهيمناً على الأديان. ثم استعرض فسادهم قبل الإسلام من عبادة العجل وقتل الأنبياء.. وتحريف كتابهم إلخ، ثم رجح أن الفساد الأول ما كان من يهود النضير وقينقاع وقريظة الذين خانوا العهد.. إلخ» أهـ.

ونضيف في معنى:

«وقضينا»: أعلمنا لا ألزمننا. ومعاذ الله أن يكون الإفساد إلزاماً. وإنما هذا إعلام من الله يتضمن التحذير. كما في بعض الأحاديث المحذرة من الفتن والفرقة أفهي ضرية لازم لا فكاك منها أم تحذير؟

لكن من بدهيات الاعتقاد أن علم الله لا يتخلف. وهذا شيء والجبر على الإفساد والمعصية شيء آخر!

إلى بني إسرائيل: والفرق واضح بين «إلى» و «على» فلو كان ثم إلزام لكان حرف الجر المستخدم «على» ولكن لا. إنه إعلام وبلاغ واصل إلى من يعنيه الأمر وهم بنو إسرائيل. أن سيكون منكم فساد!

وإسرائيل هو يعقوب كما هو معلوم وبنوه سلالاته وأحفاده إلى ما شاء الله. ومعلوم كذلك أن إسرائيل اليوم كتلتها الرئيسة من البشر من يهود الخزر،

وقد حشدت إسرائيل يهوداً مصنعين مزورين من الفلاشا ومن الهند ومن كل فج لحاجتها إلى كتلة بشرية تستخدمها في مواجهة الثقل الديموغرافي العربي. لكن الكتلة المحورية التي بيدها النفوذ والقوة والسطوة هم من تلك السلالات أو من «الاشكنازيم» أما «السفارديم» فهم منبذون كمنبذني الهند من «الشودرا». وإسرائيل وإن زعمت أنها دولة ديمقراطية فهي دولة عنصرية تقوم على الفصل والتمييز والمحابة لا المواطنة ولا المساواة! وهذا جزء من طبيعتهم وطبيعة دولتهم الفاسدة والقائمة على الفساد والراعية الداعمة للفساد. وكل فساد في العالم ستجده يمتّ بسبب إلى فساد يهود وأصابعهم الملوثة وأيديهم الملوثة! وأخطر كل ذلك الفساد السياسي. لأن السياسة هي أم الاقتصاد والإعلام وسائر المناشط فإن فسدت فقد فسدت الحياة كلها. وإسرائيل راعية الدول المارقة كلها، والدول الدكتاتورية من حيث تزعم هي وأمريكا أنها تفضل التعامل مع دول ديموقراطية. وكذبوا بالطبع. فأكثر تحقيقاً لصالحهم ومصالحهم أن تكون الدول في قبضة فاسدة دكتاتورية!

«في الكتاب»: المتبادر أن الكتاب هو كتابهم. وهذا المتبادر صحيح. ولكن ما في كتابهم هو جزء من «أم الكتاب» أي ما في اللوح المحفوظ، فهو إذاً مما يشمل المعنى. وقد سجل كتابنا هذا القضاء كما هو في الآية التي نخط تفسيرها فهو إذاً مشمول كذلك فصار معنى الكتاب مثلاً.

«لتفسدن»: هذه اللام الموطئة للقسم والدالة عليه. أي والله لتفسدن. والفساد لشدة معرفته ووضوحه، يكاد يكون المعلوم المجهول. فالكل يتحدث عنه ولكنه غير منظور ولا منضبط ولا «مضبوط» ولا مسيطر عليه ولا محدد! فهو أكثر ما تعاني منه الإنسانية برمتها، وهو أبعد ما يكون عن الإمساك به. والكل يتحدث عن الإصلاح والتغيير ولا يرى الناس أثراً لكل ذلك الحديث.

والعلماء لهم طريقة في تفسير الشيء بضده^(١)، فيقولون: الفساد ضد الصلاح، على اعتبار أنه بضدها تتميز الأشياء، ولكن لا أرى ذلك كذلك! فالفساد الآن بات أخفى وأبعد وأكثر تشعباً وتنوعاً وتفناً من أن يرصد

(١) وجدت جلال الدين الرومي يقول: لا يمكن معرفة الشيء إلا بضده. وضرب مثلاً فقال: من لم ير عمر بن عبد العزيز يظن الحجاج عادلاً! المشوي ج ٥، ص ١٠٠.

أو يشهد أو يحدد بنقيضه! فلا بد من حديث مفصل عنه. حتى يمكن تبينه والتعرف عليه ومقاومته بالتالي، وإلا فكيف يقاوم الناس عدواً غير منظور ولا معلوم؟

وأخطر الفساد الآن بعد السياسة واحد من أهم أدواتها وأدوات الفساد: إنه الإعلام وأدوات ووسائل الإعلام.

قال النسفي: «وأوحينا إليهم وحياً مقضياً، أي مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة. والكتاب التوراة. و «لتفسدن» جواب قسم محذوف، أو جرى القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جواباً له كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن في الأرض «مرتين» أولاً قتل زكريا عليه السلام، وحبس أرميا عليه السلام، حيث أنذرهم سخط الله، والأخرى قتل يحيى، وقصد قتل عيسى.

ولتعلن علواً كبيراً: ولتستكبرن عن طاعة الله، من قوله: إن فرعون علا في الأرض» والمراد به البغي والظلم وغلبة المفسدين على المصلحين» أهـ^(١). وردت كلمة «مرتين» (٥) مرات في القرآن، ولم تتكرر كلمة «مرتين» في سورة واحدة مرتين إلا في سورة التوبة. وقد وردت «مرتين» في ٤ سور: الإسراء في منتصفها، قبلها مرتان وبعدها مرتان. ووردت «مرتان» مرة واحدة في البقرة في الطلاق.

قال في الظلال: «ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرة من إفساد في الأرض، اكتفاء بما ذكره من قبل: ﴿لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَنَّ عَلَوْاً كَبِيراً﴾ الإسراء: ٤ ويثبت ما يسلطه عليهم في المرة الآخرة: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ﴾ الإسراء: ٧ بما يرتكبونه معكم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه، أو بما يجبهون به وجوههم من

(١) قلت: وكلام النسفي مختصر مفيد مركز شديد الكثيف كامل الدسم والزخم. لكن في قوله ملاحظات: تفسير المرتين بقتل النبيين. فهم قد قتلوا عدداً. فحضر قتلهم الأنبياء في اثنين غير مسلم له. ثم إن الأمر يعيننا نحن بدلالة: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَفْوَهم وَيُنشِرُ الْمُؤْمِنِينَ) أما حبس أرميا فلا مصدر عندنا عنه. تفسيره العلو بالاستكبار عن عبادة الله. هذا تفسير محصور في اللغة. وهو يعمز عن الواقع. أما التأويل الذي يأخذ بعين الاعتبار الاستفادة من الواقع فإن علوهم أخذ منحى ومعنى جديداً هو الهيمنة على العالم من خلال الهيمنة على زعماء القوى العظمى في العالم!

(٢) النسفي: مدارك التنزيل. ج ١. ص ٣٠٧.

مساء وإذلال. ويستبيحون المقدسات ويستهنون بها: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾

الإسراء: ٧.

وليتبروا: ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار. وهي صورة للدمار الشامل الكامل الذي يطفئ على كل شيء. والذي لا يبقى على شيء. ولقد صدقت النبوة ووقع الوعد، فسلط الله على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض، ودمر مملكتهم فيها تدميراً. ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلطهم على بني إسرائيل، لأن النص عليها لا يزيد في العبرة شيئاً. والعبرة هنا هي المطلوبة. وبيان سنة الله في الخلق هو المقصود.

ويعقب السياق على النبوة الصادقة والوعد المفعول، بأن هذا الدمار يكون طريقاً للرحمة: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ الإسراء: ٨. إن أفدتم منه عبرة. فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية: ﴿وَلَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ الإسراء: ٨^(١).

ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها. ثم عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم عبداً آخرين. حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم «هتلر». ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات. وليسلمن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقاً لوعد الله القاطع، وفاقاً لسنة التي لا تتخلف.

وإن غداً لناظره قريب! ويختم السياق بمصير الكافرين في الآخرة، لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكلة: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ الإسراء: ٨. تحصرهم فلا يفلت منهم أحد، وتتسع لهم فلا يند عنها أحد.

ومن هذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل، وكتابهم الذي آتاه الله لموسى ليهدتوا به فلم يهدتوا، بل ضلوا فهلكوا. ينتقل السياق إلى القرآن، القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء: ٩^(٢).

(١) الظلال، ج. ٤، ص ٢٢١، طبعة الشروق.

(٢) الظلال، ج. ٤، ص ٢٢١ - ص ٢١٥.

وإن غداً لناظره قريب! ويختم السياق بمصير الكافرين في الآخرة، لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكلة: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ الإسراء: ٨. تحصرهم فلا يفلت منهم أحد، وتتسع لهم فلا يند عنها أحد.

ومن هذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل، وكتابهم الذي آتاه الله لموسى ليهتدوا به فلم يهتدوا، بل ضلوا فهلكوا. ينتقل السياق إلى القرآن، القرآن، القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء: ٩^(١). ولنا تعقيب على ما قال الظلال: قوله: «بأن الدمار يكون طريقاً للرحمة إن أفدتم منه عبرة...»، هذا تعقيد عام، فيما أرى، أعني قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ أي إن تبتم ورجعتم عن إفسادكم، ومعلوم بالقطع أنهم لن يعودوا، ولكن الله يضع قانوناً عاماً.

وتعقيب: أنه فسّر الإفسادتين بما قبل الإسلام، وما حصل في الإسلام إنما هو قانون ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾، والذي أراه غير هذا، أن الإفسادين نحن المعنيون بهما، ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ هذا تقنين عام، وهم -فيما أرى- لن يعودوا، إلى يوم القيامة، في صورة إفساد منظم قوي له سلطة ودولة ونفوذ وعلو... هذا سننتهي إلى الأبد إن شاء الله، وإنما يظنون أفراداً فاسدين مفسدين، وهذا شأنه هين.

وتعقيب عند قوله: «سلط الله عليهم هتلر» هذا يصح في تفسير آية الأعراف: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الأعراف: ١٦٧.

أما الإفساد هنا فتحن المعنيون، ونحن من ننتهي إن شاء الله، بدلالة ما قلنا في شرح الآية: ﴿عِبَادًا لَنَا﴾ الإسراء: ٥٠٠. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٩٠٠. ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الإسراء: ٦٠٠٦... إلخ، ولا نعيد. ورحم الله صاحب الظلال على كل حال، فكل متكلم بعده مستفيد منه.

(١) الظلال. ج: ٥. ص: ٢٢١ - ص: ٢١٥.

ثنائيات الآية (٤)

١. كلمة «مرتين» وردت قبل هذا الموطن من الإسراء. وردت في القرآن مرتين، وبعد هذه المرة، سترد حتى آخر المصحف مرتين.
٢. «الكتاب» حتى هذه الكلمة وردت في الإسراء من أولها إلى هذه الآية وردت مرتين.
٣. «بني إسرائيل» وردت من أول الإسراء إلى هذه الآية وردت مرتين.
٤. كلمة «لتفسدن» تقسم الآية إلى قسمين متساويين، قبلها ٦ كلمات، وبعدها ٦ كلمات.
٥. تكلمت الآية عن شيئين يقوم بهما بنو إسرائيل: الإفساد والعلو.
٦. الفعل المضارع ورد في الآية مرتين.
٧. نون التوكيد المقترنة بلام القسم وردت في الآية مرتين.
٨. ورد العلو في الآية مرتين: ﴿وَلَعَلَّنَ عَلُوًّا﴾ الإسراء.
٩. تكلمت الآية عن إفسادتين.
١٠. رقم الآية (٤) وهي مقسومة (٢×٢)، فهي مكررة مرتين.
١١. «إلى» وردت من أول السورة حتى هذه الآية مرتين.
١٢. وردت قبلها كلمة «المسجد» مرتين.
١٣. وردت قبلها كلمة «عبد» مرتين.
١٤. موقعها في الصفحة تقسم الصفحة قسمين قبلها ٣ آيات، وبعدها ٣ آيات.

من دروس الآية ٤

١. القضاء إلى بني إسرائيل بالإفساد إعلام لا إلزام.
٢. الفساد والإفساد رسالة بني إسرائيل في العالم بعامة والعالم الإسلامي على الخصوص والعالم العربي على الأخص.
٣. كون الإفساد في النص محصوراً بمرتين ضبط المعنى بأنه من حول المسجدين طرفي رحلة الإسراء، وليس الإفساد مطلقاً. فالإفساد مطلقاً

لا يعد مطلقاً!

٤. الإفساد هو طريق بني إسرائيل نحو العلو الكبير، فعن طريق إفساد أنظمة الحكم في العالم تحكموا في العالم.
٥. مقاومة الفساد في العالم العربي مقاومة لإسرائيل، ولا أظنّه مسموحاً به!
٦. التزام بني إسرائيل بالفساد التزام لا يخلف ولا يتخلف، فكأنه القدر والقضاء!
٧. حيثما وجدت فساداً في العالم، فتش أولاً عن أصابع بني إسرائيل.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴿٥﴾ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٦﴾﴾

الرابط والمناسبة: بينت الآية السابقة أن إفساداً سيقع من بني إسرائيل وحددته بالمرتين. وفي هذه الآية بيان ما أعده الله لهم من عقاب على الإفساد الأول.

المعنى: فإذا: الفاء للتفريع والتفصيل. وإذا: أداة شرط مستقبلي لما يتيقن وقوعه وحصوله.

جاء: فعل ماض وهو فعل الشرط، والغالب أن يكون فعل الشرط بعد «إذا» ماضياً: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١)، ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (الواقعة: ١) أو يقع بعد «إذا» اسم يعقبه الفعل الماضي: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (الانشقاق: ١)، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ (الانفطار: ١). والمجيء: الإتيان أو القدوم من مكان قريب، و«أتى»: تأتى للقدوم من مكان بعيد، ومعلوم أن القرب والبعد نسبي إلى حد بعيد! ومن هنا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَيْنَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ (المارج: ٦-٧). وعد أولاهما: موعد مجيء مرة الإفساد الأولى. وعبر عن الوقت بالوعد للإشارة -فيما أرى- إلى تحقق ذلك، وكأنه وعد لا بد من تحقيقه. أو الوعد بمعنى الموعد. والأمر قريب من بعضه. وإنما أنت «أولاهما» مع أن الإفساد مذكر باعتبار المرة الأولى والمرة الثانية لا بالنظر إلى الإفساد. فالتركيز على الترتيب في الوقوع أعني وقوع الإفساد لا على الإفساد.

بعثنا عليكم: والبعث إرسال فيه قوة. ومن هنا عبّر عن القيامة بالبعث. وعليكم: فيها معنى القهر والتسلط والعلو عليكم والتمكن منكم. وكل ضمائر المخاطب تعود على بني إسرائيل، ولسنا مع من حاول أن يغير من مرجع الضمائر إلى غير بني إسرائيل.

عباداً لنا: هذا وصف تشريف لا مجرد العبودية. كما حاول بعض من تكلم في هذا الموضوع أن يخرج معنى عباداً على معنى مطلق العبودية. ليدخل في هذا (نبوخذ نصر وطيّطس) ومن على شاكلتهم، وهو خطأ مضاعف: خطأ

في معنى: «عباداً لنا»، وخطأ في اعتقاد مضي الإفسادين أو الأول منهما على الأقل قبل الإسلام.. وتفسير «عباداً» على ما قيل من العبودية مطلقاً لتسويغ وتبرير قولهم.. وليس كذلك بطبيعة الحال، فهم أخضعوا معنى «عباداً» لما اختاروا من تصور معنى الآية على مضي الإفسادين قبل الإسلام، وهذا الذي أوقعهم في الخطأ في معنى الكلمة!

أولي بأس شديد: أصحاب شدة في الحرب وعزيمة وإرادة قتالية صلبة وهمة ماضية. والباس منفصل عن «القوة» بدلالة ﴿نَحْنُ أَوْلُو الْقُوَّةِ وَأَوَّلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ﴾ التمر: ٣٣ فالقوة للمعدات والباس للعزائم والإرادات، وهذه فيما أرى إحدى المعجزات. فالذين تصدوا للإفساد الإسرائيلي في المرتين كانوا يمتازون بالباس لا بتكافؤ أو توازن القوى. فتأمل! (١)

فجاسوا: الجوس: السير والتتقل والتفتيش. مما يشي بأن الحرب عنيفة شديدة وكأنها من بيت لبيت، لأنها حرب وجود أو صراع وجودي، كما يقال: نكون أو لا نكون، ويكونون هم أو لا يكونون.

والديار: جمع دار، وهي مكان السكنى والعيش. وكان وعداً مفعولاً: لاحظ أن الآية بدأت بالوعد وختمت بالوعد، أي وكان هذا الوعد وعداً مفعولاً متحققاً ناجزاً، أي لا يمكن إخلافه، كناية عن تحقق وقوعه.

والتعبير بالماضي في: جاء، بعثنا، فجاسوا، وكان.. لا للمضي -بالضرورة- وإنما لإفادة قرب الوقوع من ناحية وتحقيق الوقوع من ناحية.

وتأمل ما قال الماوردي رحمه الله في النكت والعيون: «وفي المبعوث عليهم في هذه المرة الأولى خمسة أقاويل:

١. جالوت وكان ملكهم طالوت إلى أن قتله داود (وهو قول واه واضح الضعف، فكيف يقول الماوردي بعثنا عليكم من غلبتموه؟)
٢. أنه بختصر. (والرد أين رد الكرة على بختصر؟)

(١) لقد تكلم الله عن حصول بني إسرائيل في سورة الحشر حيث قال: (ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) فالذي قاتل في المرة الأولى الرجال أولو البأس لا القوة والمعدات. أما المرة هذه أي الثانية والأخيرة فمرز الجهاد رجل مشلول على كرسي!

٣. أنه سنحاريب. قاله سعيد بن جبیر! والاعتراض نكرهه.

٤. أنهم العمالقة وكانوا كفاراً!

٥. أنهم كانوا قوماً من أهل فارس. «أهـ».

قلت: وما أملى هذا ألا تكثير الأقوال والإحاطة بكل شاردة. وواردة والنقل دون تمحيص. وإلا فإنه لا معنى لكل هذا. وتعدد الأقوال شهادة على الشك فيها وعدم موثوقيتها. وقال الزحيلي في تفسيره الوسيط دون أن يحدد من لكنه يفهم منه كما قال الماوردي، قال:

«أولي بأس شديد: أي قوة وشدة، فتوغلوا في بلادهم وتملكوها. وقاموا بتخريب مدنها، وإحراق التوراة، وسبى كثير منهم، وكان هذا حتمي الوقوع. نافذ المفعول، بسبب تمردهم عن طاعة الله، وقتلهم الأنبياء» أهـ.

ولسنا نُقرُّ أباً زهرة فيما قال في تفسيره زهرة التفاسير. وتأمل ما قال: «بعثنا عليكم عبداً لنا: في قوله عبداً لنا إشارتان: الإشارة الأولى أنه عبّر بـ «عباد» وذلك إشارة إلى أنهم خاضعون لإرادة الله فيهم. والإشارة الثانية: إضافتهم له سبحانه بما يفيد الاختصاص، ومؤدى ذلك أن الله جعلهم له لا لأجل العبودية والطاعة، بل ليكونوا آلة تأديب وتهذيب لمن يخرجون عن الهداية ويقعون في الفساد، وهؤلاء الجبارون هم طعمة لغيرهم إذا فسدوا. وهكذا يتدافع الشر، ويدفعه أخيراً الخير: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

أولي بأس شديد: البأس: القوة، وشديد: فيه بطش وعتو، ولا يرحمون أعداءهم، وقد نزعت منهم النواحي الإنسانية العاطفة كالتر في طغيانهم، وإذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة. وأنهم في حروبهم لا يقنعون بأماكن الجند ومعسكرات الحرب بل يدخلون المدائن ويجوسون خلال دورها ويقتلون النساء والذرية والعجزة، فلا يعرفون قانوناً مانعاً ولا نظاماً حاجزاً، إنما شهوتهم إلى الدماء والمجازر... إلخ» أهـ.

قلت: ولا نقرّه أن الله يحدثنا عن دفع فساد بفساد أفسد من الفساد الأول! وبم يبشرنا القرآن إذا؟

من دروس الآية هـ

١. وعد الله متحقق قطعاً ولا يخلف أبداً، لأن الله لا يخلف وعده، سبحانه، لأنه قادر، ولأن وعده صدق وحق، ولأنه لا يشغله عن تحقيقه شيء، ولا ينسى، ولا يحول دون نفاذ إرادته بتحقيق وعده شيء. وتحقق الوعد شيء والجبر والإلزام شيء آخر.
٢. حتم مقضي وقوع الفساد والإفساد من بني إسرائيل. لا لأن الجبر واقع عليهم، ولكن لأن الإفساد في طبيعهم الاجتماعي وثافتهم، وهو واقع منهم لا أنه مفروض عليهم.
٣. العبودية أعظم وأشرف صفات الخلق، وفرق بين عباد وعبيد، فعباد تطلق على عبودية الاختيار، وعبيد على عبودية الاضطرار، ومن هذا القبيل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الفرقان: ٦٣، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ الحجر: ٤٠، ﴿عِبَادًا لَنَا﴾ الإسراء: ٥، ومن هنا افتتح الإسراء الذي هو أعلى مقامات العبودية بوصف عبده في قوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء: ١. وليشير إلى أن العباد هم من صنف ومن جنس ذلك العبد ﷺ.
٤. البأس أهم من القوة في صراعنا مع أعداء الإسراء من أمة بني إسرائيل، وكمدسنا من أسباب القوة ولم نستخدمها لعدم توفر إرادة القتال. والأمة اليوم تملك القوة ولا تملك البأس أعني الإرادة.. ولذا لم تحرك ساكناً ولم تحرر زهرة المدائن من بين البرائن الآثمة لأجبن الشعوب وأضعف النفوس والقلوب.
٥. الذين ينهون الإفساد الأول من حول المسجد الأول في زمان الرعيل الأول لهذه الأمة هم عباد لله من جنس أول هذه الأمة الذي جاء ذكره في أول السورة في قوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء: ١.
٦. أن أن يفسر القرآن لا بمجرد النقل عن السابقين، بل بتحقيقه في الواقع، وتأويله أي أيلولته في الواقع وما يؤول إليه أمر النص بمعنى التحقق.
٧. الجوس خلال الديار، يعني التفتيش عن العدو بيتاً بيتاً، وهو كناية عن احتدام المعركة واشتداد القتال.

٨. هذا درس أقتبسه من كلام أبي زهرة بعد أن أنهيت دروسي التي استفدتها من النص: «أنه بمقتضى السنة الإلهية من كان فاسداً من الجماعات والأمم يكون فريسة لمن هو أقوى منه. والوعد مفعول وقائم ومنجز لا يتخلف».
٩. وهذا الدرس كذلك منه: «الفساد يغري بالهجوم على الفاسدين، ولأن المغالبة الإنسانية تجعل القوي يأكل الضعيف، ولا ضعف أكثر من استئراء الفساد، فإنه يهدم كيان الأمة ويعرضها للفناء. سنة الله في الوجود».
١٠. وهذا الدرس كذلك: «فإذا جاء... بعثنا» هذه القضية الشرطية تقيد أن الفساد في الأمم يتردى (بها) إلى أن تكون نهياً للمغيرين عليهم، وإن الحصن الحصين لمنع غارات المغيرين هو استقامة الأمة في ذات نفسها وإقامة العدالة والحكم بالأمانة والعدل، وأما فسادها فإنه يؤدي إلى الانهيار وأن تكون طعمة للمغيرين يجدون فيها مغانم يغمونها». أهـ.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَنَفِيرًا ﴾ (٦)

الربط والمناسبة: بينت الآية السابقة ما ينبغي على الإفساد الأول لبني إسرائيل، وذلك هو عقاب الله لهم بإرسال عباد الله يؤدّبونهم ويجوسون خلال دورهم. فهل كان هذا العقاب نهاية المطاف؟ الجواب تقدمه هذه الآية إذ تبين أن ذاك كان جولة في حرب من جولات. وأن الكرّة ستردّ لبني إسرائيل على الأمة التي انتصرت عليهم وهي أمة الإسراء.

المعنى: ثم: حرف عطف يفيد التراخي الرتبى أو الزماني، وهنا تفيد التراخي الزمني. أي وبعد مضي ما شاء الله من الزمن، وهو في الواقع وبعد المشاهدة والتجربة كان قرابة ألف ومئتين وخمسين سنة. على وجه التقريب لا التدقيق. لأن بداية ردّ الكرّة علينا يصعب حصرها. هل هي مع دخولهم إلى فلسطين متدربين بقوة بريطانيا.. أم إقامة دولتهم وإعلانها رسمياً سنة ١٩٤٨م؟

رددنا لكم الكرّة عليهم: أعدنا لكم الغلبة عليهم، والدولة لكم على الذين غلبوكم أول مرة. وهم في ما نؤكد ونختار أمة المختار صاحب الإسراء ﷺ. وهذا ما يؤكده ويشهد له التاريخ الممتد، فإنه - كما قلنا غير مرة - لم تُردّ الكرّة لأمة إسرائيل على أحد إلا على أمة محمد ﷺ.

وأمددناكم: نسب ردّ الكرّة إلى الله بنون العظمة والإمداد كذلك والجعل في آخر الآية، كل ذلك نسب إلى الله، من خلال ضمير المتكلم بنون العظمة، وهذا لا يعني من قريب أو بعيد أن الله يمدّهم لكرامة لهم عنده، أو لخصوصية، لا أبداً، وإنما ينسب كل ما يجري في الكون إلى الله، وتأمل أن الذي قال «وأمددناكم» هو الذي قال بنون العظمة أيضاً: «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن»، وهو الذي قال بنون العظمة أيضاً: «بعثنا عليكم عبداً لنا» وهو الذي قال عن مريد الدنيا العاجلة ومريد الآخرة الآجلة في هذه السورة بعد آيات: «كلأ نمد هؤلاء وهؤلاء». وهو الذي قال قبل تلك الآية: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا

أَنْ تُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿٦٦﴾ الإسراء: ٦٦ فهذا أسلوب قرآني يقتضي التلبث عنده وحسن فهمه، وهو في غاية الوضوح واليسر لمن كان عنده أدنى إلمام بأسلوب القرآن ولغة البيان وبيان اللغة!

بأموال: عجيب هذا القرآن فهو بكلمة يلخص ما يحتاج إلى مجلدات في بيانه، فيكيف تتدفق الأموال إلى دولة الاحتلال، من كل أرجاء العالم ومن دول الكفر والضلال، متقدمة ومتخلفة، فألمانيا دفعت من التعويضات لدولة البغي ما يقارب مئة مليار والحبلى على الجرار. وكم تدفع أمريكا سنوياً في صورة مساعدات عسكرية، وتبرعات من اليهود الأمريكيان، وتبرعات من شركات تعتبر دعماً للعمل الخيري وتنزل من ضرائب تلك الشركات، بل إن بعض الحروب العربية الإسرائيلية (حرب سنة ٦٧ نموذجاً) مُولت بأموال عربية. أقصد بوضوح أن تكاليف تدمير الدول العربية من قبل إسرائيل مولته بعض الدول العربية. أمور لا تصدق! لكنها في عالم العجائب ليست عجباً ولا هي من الغرائب، فكم من أمور غريبة عجيبة لا يقبلها العقل ولا الدين تجري في العالم العربي!

هذا ولم نتكلم بعد عن النهب المنظم للثروات، وكيف كان الغاز المصري يصدر إليهم بأقل من سعر الاستخراج بعد أن ملكت شركة إسرائيلية كل أسهم شركة الغاز المصرية!

ولم نذكر استثمارات المومساد في العالم والعالم العربي وهي بمئات المليارات، ولم نذكر النهب المنظم لماس قارة إفريقيا في الكونغو وغير الكونغو. ولم نذكر البنوك التي يسيطرون عليها، وكيف أن بنكاً أمريكياً يملكه شريكان يهوديان ادعى الإفلاس فدعمته أمريكا بمبلغ سبعمئة مليار دولار. ناهيك عن الثروات المنهوبة من النفط العربي ودول الفقر العربي وكلها في بنوك يملك جلها يهود، ولا تعود لدولها، وإن عادت فبعد عشرات السنين إذ تكون قيمتها البنكية صفراً. بمعنى أن البنك استعاد قيمتها أكثر من مرة قبل أن يعيدها، هذا إذا أعادها.

ولقد ذكرت وسائل الإعلام أن لمبارك - رئيس مصر السابق - شخصياً

في بنوك إسرائيل من فروق الغاز والنفط ما يقارب (٣٠) ثلاثين مليار دولار.. والكلام في هذا لا ينتهي والقرآن لخصه بكلمتين: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ﴾ الإسراء: ٦٠ فتأمل الإيجاز البالغ حد الإعجاز بل قمة الإعجاز.

وبنين: أصل معنى البنين الذرية، ومنه قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ﴾ الكهف: ٤٦ وقوله سبحانه: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ آل عمران: ١٤، ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ الدثر: ١٣. ومعناها هنا ليس بعيداً عن هذا النسق. وهي فيما أرى كلمة فيها معجزة وإعجاز. فدولة الاحتلال المسماة زوراً (إسرائيل) تقوم على المهاجرين وقد أمدتهم الدول العربية وقت قيام الدولة الإجرامية المسماة إسرائيل بما يقارب نصف سكان دولة الاغتصاب: أمدتهم المغرب واليمن والعراق ومصر، كل دولة بما يعادل نصف مليون. وباقي العالم ثلاثة ملايين، فهذه دولة إسرائيل. لكن لماذا يعبر القرآن عن المهاجرين أو المستوردين من السكان بالبنين؟

إن دولة الظلم والاستعمار والتهجير والاحتلال والإرهاب والإغتصاب تقوم على المهاجرين، وهي تريد لهم في عمر يصلح للجنسية والتعمير والزراعة والصناعة لا من المسنين الذين تحتاج الدولة أن تقدم لهم الرعاية. فهؤلاء في نظر دولة الاحتلال عبء ليس يطلب، بل يطلب التقليل منه. ولذا فقد جاء في الكتاب الأبيض الذي أصدرته بريطانيا لتهدئة خواطر العرب، إذ بدأت ثورة لهم أو انتفاضة ضد سماح الإنجليز لليهود بالهجرة، فنصّوا في كتابهم الأسود، المسمى الكتاب الأبيض، على أنه تمنع هجرة اليهود إلى فلسطين، وفي الهامش بخط لا يكاد يبين: «باستثناء من سن ١٦ إلى سن ٤٠» أي ليصدق تماماً قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ الإسراء: ٦٠.

وجعلناكم أكثر نفيراً: وهذه معجزة أخرى وإعجاز في البيان. أما المعجزة فهذه الحقيقة التي كانت وقت نزول هذه الآيات من هذه السورة غيباً مخفياً لا يعلمه إلا العليم الخبير. فكيف عرف النبي عليه الصلوات أن سيكون لليهود دولة وأن ستكون هذه الدولة «أكثر نفيراً» هكذا دون تحديد، ودون تقييد؟ ومن معجزات هذه الآية: أن اليهود في كل حروبهم معنا، أو ما نحسبه

حروباً، أو ما كنا نظنه أو نتصوره، أو نتوهمه، حروباً، لا تمثيلات. كان اليهود دائماً أكثر نفيراً. في حرب ١٩٤٨م لم تكن لهم دولة معلنة بعد. إنما كانوا مجرد عصابات، فهل يخطر ببالك أنهم كانوا أكثر نفيراً من الدول العربية التي شاركت في حرب «التحرير» مجتمعة؟ هل يخطر ببالك أنهم كانوا متفوقين علينا كذلك في حرب ٥٦ وحرب ٦٧ التي اشتركت فيها - أي الأخيرة - ثلاث دول عربية، ثتان سوى مصر، وكانت دولة إسرائيل أكثر نفيراً في سلاح الجو وسلاح الدبابات والبحرية والمدفعية.. إلخ. بل حتى في المشاة! فتأمل!

ودعك من النفير بالمعنى العام. فالأمم في حالة النفير العام، يكون الجيش جزءاً من هذا النفير أو الاستنفار أو التعبئة أو التجنيد أو التجيش أو الاستدعاء.. سمّه ما تشاء.

فالافتصاد في حالة نفير أو استنفار، والنقل والإعلام والسياسة والدبلوماسية... إلخ. وإسرائيل كانت في كل ذلك أكثر نفيراً. أفليس هذا من ألوان الإعجاز؟

وأولست الصياغة الجامعة المعجزة في هذه الكلمات القلائل (٣) كلمات، أليست إعجازاً في البيان مثلما كانت معجزة في اختراق الزمان. فشهدت أن منزل هذا القرآن هو رب الأكوان سبحانه لا أنه كلام الإنسان أياً كان هذا الإنسان! وكلمة «نفيراً» لم ترد في القرآن إلا في هذا الموطن.. وهي في موقعها من سورة الإسراء كما هي في موقعها المتفرد من القرآن كله. ومن معاني كلمة نفير: «التعبئة»، فإسرائيل في نظام التعبئة وسرعة الالتحاق تفوق كل دول العالم، والعالم العربي في هذا وراءها بكثير.. فتستطيع في ٢٤ ساعة أن تستنفر بمقدار جيشها المنتظم في الخدمة والمحترف. فالاحتياط عندهم يعرف كل فرد موقعه إن استدعي ووحدته وسلاحه، بحيث ينتقل إلى المكان المطلوب في أقل زمن ممكن، فهم بهذا المعنى أيضاً أسرع وأكثر نفيراً. فتأمل. وتأمل!

من دروس الآية ٦

١. هذه الآية إحدى محددات تفسير آيات الإسراء بما فسرناها به. إذ إن الكثرة لم تردّ لبني إسرائيل على أحد إلا على أمة محمد ﷺ.
٢. هذه الآية وباقي الآيات معجزات تدل على ربانية القرآن وصدق الرسول ﷺ، فكيف يعلم غير الله ما سيكون بعد ١٤٤٤ سنة كما هو شأن هذه الآية، فقد تجلى تفسيرها الآن وقد مر على نزولها ١٤٤٤ سنة، وهي السنة الهجرية التي ستوافق زوال إسرائيل المفترض أي (سنة ١٤٤٤ هـ) فتأمل.
٣. عناصر قوة دولة البغي إسرائيل: المال والمهاجرون الشباب والنفير العسكري والإعلامي والسياسي، أو الجاهزية والقدرة على التعبئة والتحشيد في الزمن القصير.
٤. كل جهات الأرض تخدم إسرائيل بما في ذلك الدول التي يفترض أن تحارب إسرائيل وتكون في مواجهتها..!

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأَ مَا عَلَوُا تَتَبَرَّأَ﴾

الربط والمناسبة والمعنى؛ كانت الآية السابقة تتحدث عن ردِّ الكثرة

لبني إسرائيل على الأمة المسلمة التي أدبتهم أول مرة وكانت عقاباً إلهياً لهم على إفسادهم الأول. وفي هذه الآية يبين القرآن قانوناً إلهياً وسنة اجتماعية أن من أحسن أحسن لنفسه وأن من أساء فإساءته على نفسه. لكن ما علاقة هذا بما يجري في منطقتنا؟

وهنا أقول مرة أخرى: إن هذا القرآن معجب مدعش معجز! فأغلب تعبئة الشعب العربي ضد إسرائيل كانت تتم بممارسات إسرائيل. وما أعجب أطروحة ما سمي «المبادرة العربية»^(١) والتي رجا فيها العرب اليهود أن يقبلوا باعتراف جميع الدول العربية في مقابل ماذا؟ في مقابل أن تكتفي إسرائيل بحدودها سنة ٤٨ وتعيد للعرب، بصورة أو بأخرى، ما احتل سنة ٦٧، ولو منقوصاً، وفي المقابل تطبيع كامل وانفتاح اقتصادي، وتمثيل سياسي ودبلوماسي، سوى الذي يمكن أن يسرب تحت الطاولة من اتفاقات سرية يغطي عليها بالاتفاقات العلنية، فما نعلمه من كامب ديفيد وما نعلمه من اتفاق أوسلو هو القشرة الخارجية. وكان أول رد فعل عبري على «الطرح» العربي ليس الرفض فقط. وإنما التحقير والاستهزاء والتطاول والتمادي والتسفيه حتى قال البلدورز شارون الذي أصابه الله بالموت السريري لمدة نيفت على الخمس سنين ولم يذق الموت بعد، وإن كان عذاب الآخرة - إن شاء الله - قد ابتدأ إلى ما لا نهاية.. أقول هذا الشارون علق على «المبادرة العربية» أي المبادرة المكتوبة باللغة العربية وإلا فإنها في نسختها الأصلية كتبت بالإنجليزية وكتبها: «توماس فريدمان» الصحفي اليهودي الصهيوني

(١) هذه المبادرة الأولى. أما الثانية فهازل وسقفها انزل. والثالثة سيلحق السقف فيها الأرضيات. ومن يقس يرا!

المتطعرس وكتب العمود اليومي في النيويورك تايمز، وأعلن هذا هو بنفسه فقال: أنا كتبت المبادرة كلمة كلمة ولم يعقب أي الأعاريب بنفي أو تكذيب.. أعود إلى القول إن تناول اليهود واستعلاءهم وإساءتهم هي التي تعبى العرب ضدهم.

ولقد سألت منذ حوالي ثلاثين سنة أي في مطلع الثمانينيات أحد القادمين من الضفة الغربية، كما تسمى، فقلت: كيف معاملة اليهود للفلسطينيين؟ فقال متألماً شاكياً: في منتهى السوء وفي غاية الإذلال. فقلت: الحمد لله، واستبشرت. فبدا الاستغراب من هذا الاستبشار على وجه العائد من الديار.. وسأل عن سر ذلك. فقلت: إن هذه الإساءة هي التي ستشعل نار الثورة. وما لبثا إلا قليلاً حتى كانت الانتفاضة الأولى. ولقد كنت أقرأ هذه الآية وأتوقف عندها، فأقول في نفسي: إن الله يعلم أنه لن يكون من بني إسرائيل في هذا الزمان - بخاصة - إحسان فكيف يقول لهم: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ الإسراء: ٧ وكنت أجيب نفسي، والآن أكتبه لنفسي ولغيري: إن هذا كلام الإله العظيم سبحانه، صاغه قانوناً لهم ولكل البشر، وكرره القرآن ولم يخصصه لهؤلاء، فقال: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّٰ فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ الإسراء: ١٥، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَٰ فَعَلَيْهَا﴾ الأنعام: ١٠٤، ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ. وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رُبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ النمل: ٤٠، ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ الإسراء: ١٥. وكرر ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ فصلت: ٤٦، والجمالية: ١٥. وكرر ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ الحشر ٩ والتغابن ١٦، هكذا فهمت قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ على أنه قانون عام وناموس ثابت مطرد، وأنه وإن كان الله يعلم منهم الإساءة فإنه لا يحاسبهم بعلمه بل بعملهم.

وكان الله يقول لهم: إن أحسنتم معاملة هذا الشعب العربي الفلسطيني، فإنما تحسنون لأنفسكم، وإن أسأتم فجنايتكم على أنفسكم بالدرجة الأولى. وأن سوء فعالهم مع هذا الشعب والجدار العازل، أو جدار الفصل العنصري الذي حصروهم خلفه وقطعوا أهل القرى عن بعضهم والقرى عن بعضها، وحالوا بين الفلسطيني وأرضه، كل هذا أكسب الشعب المرباط حب العالم

وتعاطف العالم وأكسب العدو عداوة شعوب العالم. ولأول مرة فإن المتضامنين بلغوا المثات والألوف، ولأول مرة يحرق علم إسرائيل في عواصم العالم الذي كان له «الفضل» في قيام دولة العدوان إن في بريطانيا أو أمريكا!

إذاً إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. وإن أسأتم بالتعدي والتماذي والإساءة إلى المقدسات والحرمان، فإساءتكم مردودها السلبية عليكم أولاً. ودلالة ما نقول أن الآية جعلت السياق على النحو التالي: (وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة). أي وإن أسأتم فلها أي لأنفسكم وعليها، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ الإسراء: ٧ أي كأنه سيستمر إفسادكم وإساءتكم إلى الناس أهل البلاد جزء من الإفساد، في هذه البلاد، ومن تابع أخبار المجرمين المحتلين وكيف يعاملون أهل البلاد بالعسف والتكيل والعبث وإضاعة الوقت وطواير المنتظرين والسجون والمصادرات والأحكام الجائرة، يعلم حجم الإساءة، فكم مريض مات على الحواجز، وكم حامل قضت أو قضى وليدها على «المحاسيم» كما يسمونها؟! هذه الإساءة إن استمرت إلى مجيء وعدة الآخرة: ﴿لَيْسَتُوا وَجُوهَكُمْ﴾ جزاء إساءتكم إليهم. إنكم ملأتم أنفسكم بالمرارة فلا مجال للصفح. وهل تذكرون يا صهاينة العالم كيف أن صلاح الدين السَّمْع الصفوح عفا عن كثير من الصليبيين لكنه أقسم على «أرناط» أن يقتله بيده لشدة تماديه على الحُجَّاج المسلمين وتهديده بنبش قبر الرسول ﷺ، وقد أمكنه الله منه فوفى بندره. وأنتم أسأتم إساءة تجعل الصفح والتسامح غير وارد! ووالله لئن أمكننا الله منكم لنحققن فيكم حكم الله الذي نطق به سعد بن معاذ وقال فيه المصطفى ﷺ: (والله لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات). وقول من كان يقول: لا نجوت إن نجا منكم واحد. وقول من قال: لا عفا الله عن عفا عنكم!

فإذا جاء وعد والآخرة: أي حتى إذا جاء وعد مرة الإفساد الثانية، ماذا سيكون؟ ﴿لَيْسَتُوا وَجُوهَكُمْ﴾ فما هذه اللام؟ أم هي لام الأجل؟ أم هي لام العاقبة، أم الصيرورة؟ وفعلاً إن موقعها لعجيب، وكأنها تريد التعليل لما يأتي بعدها أو تكون النتيجة أن تقع عليكم إساءة وجوهكم وتقبيحها إساءة بإساءة،

وهل جزاء الإساءة إلا الإساءة؟ وكيف تسيء وأنت المسيء بالاحتلال ثم يعفو عنك من وقعت عليه إساءاتك المتكررة من احتلال ومن التبعات الثقالة التي ترتبت على الاحتلال؟

إن إساءة واحدة كفيلة بمسح العفو من القاموس والنفوس، فكيف بمسلسل إساءات عديد الحلقات، بل لا تنتهي حلقاته؟

ليسوعوا وجوهكم: أي ليسيئوا إليها ويجللوا بالخزي والعار والفضيحة نتيجة انكشاف سوءة هذه النفوس القبيحة المجرمة التي تتسريل بثياب السلام والتعايش والحوار والتفاوض، وأنها الضحية والمظلومة وهي الجلال القاتل الظالم. فإذا انتهت خديعة الدعاية، وخديعة التجميل للوجه القبيح اللثيم تكون بدأت مرحلة إساءة الوجه. والسلام المزعوم مع المعتدين النقيض المطلق لقوله تعالى: ﴿لَيْسَتْ أَوْجُوهَكُمْ﴾ فالسلام يجل القبيح ولا يجل بالمسلم القوي الذي يحبه الله والذي لا يسكت عن حق مفقود أو مسلوب!

السلام لا يكون مع مغتصب الحق. قد تعجز الأمة في مرحلة عن المقاومة والأصل ألا تعجز، لكن سلّمنا جدلاً أنه وقع العجز، فهذا شيء والاستسلام المسمى زوراً بالسلام شيء آخر. وكيف تعجز أمة عديدها ما تعلم مليار ونصف المليار من البشر، واستعدادها للتضحية لا نظير له في العالم، أمة وهي قليل عديدها فتحت أقطار الدنيا؟ حتى إذا كثرت أعدادها وأمدادها وثرواتها وقدراتها، ادعت العجز عن تحرير أقدس مقدساتها بعد الحرمين الشريفين!

هذا لا يقبل لا في الدين ولا في الخلق والمرءة ولا في السياسة ولا في الاستراتيجي وموازن القوى ولا في مقياس من المقاييس. إن الابتسام للأعداء اللثام تسليم بحقهم في الذي اغتصبوه من الأرض المقدسة المباركة. ومن يملك حق التنازل عن الحق؟ إن ادعاء العجز خدعة لتغطية التواطؤ والتهاون والتفريط وتبرير لتمرير حلول الخيانة والإجرام والاستسلام.

وأن يوظف الدين لتمرير الجريمة فهذه جريمة أشنع من تلك. الدين عدة التحرير لا أداة التبرير والتمرير. كذاك الذي أفتى مستخرجاً حكماً من

بطن الكتب العتيقة في جواب عن سؤال: ما حكم الصلح مع إسرائيل؟ فنبش وحفر عميقاً في الكتب حتى وجدها في نص قبل ألف سنة لفقهاء التبرير. مع الإجلال للعلماء من سلفنا الكرام كأمثال ابن تيمية فهذا كان جبل علم وجهاد.

على كل حال فرح العالم - بالكسر - إذ وجد النص فكأنه خرج يصيح لا باكتشاف نظرية أرخميدس ولكن بالفتوى المعلقة التي لا تراعي فرق الظرف والزمن والاعتبارات العديدة. خرج يصيح: وجدتها! وما هي التي وجدتها؟ إنها فتوى تبيح للحاكم وبعبارة الشيخ المنقولة من الكتب المؤلفة في سالف الحقب، تقول: «لولي الأمر (أين هو؟) إذا وجد مصلحة في عقد الصلح مع العدو أن يعقده»! وأين المصلحة يا شيخ؟! فهذا أولاً إلغاء للأمة. وثانياً مغايرة لحكم الله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ بِالْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرُكَ أَعْمَالُكُمْ﴾ محمد: ٢٥ وإعمال كلام الله أولى من إعمال فتوى لا يدري ما ملابساتها؟ ثم إن ذاك الحكم هدنة أو صلح وبلاد المسلمين وكرامتهم موفورة، أما صلح والحقوق مهدورة، فهذه فتوى ما أريد بها وجه الحق، بقطع النظر عن النيات التي لا يعلمها إلا رب السموات. فلنقل إذاً إنها فتوى لم توافق الحق. والله أعلم. فهذه الفتوى لم تكن مصيبة وكانت على الأمة «مصيبة»!

واجبنا إساءة وجوه مغتصبي حقنا وأرضنا المعتدين على أقصانا المهديين إياه ليل نهار بالتهويد والهدم والمصادرة. أفتسالمهم ولا نذكر مصادرة مسجد الخليل، وتحويل عشرات المساجد إلى خمارات ومستودعات؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ البقرة: ١١٤.

﴿وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ المقصود بالمسجد هنا في الآية - بالقطع - المسجد لأقصى. ودخوله دخول فتح وتحرير وقوة لا دخول استئذان وتصريح من قوة محتلة غالبية سوى المسلمين. فهذا ليس دخولاً، وإنما هو إذعان وقهر، أن تدخل تحت حراب عدوك، وله الصولة في بلدك وأنت تستأذن في الدخول وتنتظر «الفيزا» حتى تصدر، وتقف في الطابور حتى تفتش ويشيك عليك أمنياً، ثم تدخل أو لا تدخل. ليس هذا من الصور التي عنتها الآية، اللهم إلا

بالرفض المطلق!

وليدخلوا المسجد إذا دخول عز ودخول قوة وعنوة وقهر خصوم. وعدم التصريح باسمه أعتقد أنه لشدة وضوحه وانفهامه من السياق. فقد ذكر مسجداً قبل هذه الآية، ومعاذ الله أن يكون لهم سبيل أي بني إسرائيل أن يصلوا إلى المسجد الحرام، فما كان لهم ذلك ولن يكون. فبقي متعيناً أنه المسجد الأقصى.

فروح المعركة ومحور المعركة وقطب رحى الصراع إنما هو حول المسجد الأقصى وكأن الأقصى، هو الراية والغاية وعمود الأرض المقدسة وعمادها. ومن تابع مجريات الأحداث يجد كل يوم أن هذا المعنى يتجسد أكثر ويتعمق أكثر. فقد بدأ العدو اللئيم يصرح بنواياه الخبيثة المبيتة السيئة، من هدم الأقصى وإحلال الهيكل محله، والكلام في هذا كثير، فقطعان مستوطنينهم تحاول اقتحام الأقصى يومياً تحت حراب الجيش والأمن الإسرائيليين، بينما ينغص على المصلين الموحدين أن يصلوا إلى مسجدهم ومسرى نبيهم! والعالم كله بما فيه العالم العربي والإسلامي ﴿صُمُّكُمْ عَنِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ البقرة: ١٨، وهم لا ينطقون ولا يتكلمون مع عدم جدوى الكلام!

وهنا معجزة جديدة أعني تحرير المسجد ودخوله بعزة تتضاف إلى ما ذكر، واستشراف المؤمنين بما أقرأهم ربهم صفحة الغيب، استشرافهم للمستقبل بتمكين الله لهم، وسيأتي مصداق هذا الوعد كما وعد الله تماماً بلا نقص: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ الأنعام: ١١٥.

وأما الإعجاز البياني فالاكفاء باللمحة الموجزة عن طویل العبارة ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ ويحار العقل في هذه اللام. واكتفى بكلمة «يدخلوا» عن النصر والظفر والغلبة والقهر والتحرير. فالدخول كناية عن كل ذلك ومعبر عنه بأبلغ تكنية.

ثم حذف اسم المسجد، وهو «الأقصى» باليقين، إحياء بأن شهرته تغني عن ذكر اسمه من ناحية، ولأن الواقع سيفسره، والأحداث ستؤوله وتظهره. كما دخلوه أول مرة: ونجد الأمر طويلاً أن نعيد عند كل جملة أن هنا

إعجازاً بيانياً ومعجزة غيبية مستقبلية سيجليها الواقع. وقد كان. في بعض الجوانب ونحن ننتظر البقية الباقية والبعض الآخر. ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ نحن بانتظار هذا الشق من الوعد. وليس معنى الانتظار بطبيعة الحال، أن تأتي الأمور ونحن قعود، هذا لا يخطر بالبال، وإنما الإعداد والاستعداد والحشد والتعبئة وانتظار اللحظة المواتية إن على صعيد الذات أو على صعيد القوى المحلية والعالمية.

كما دخلوه أول مرة: وهنا أكثر من إشارة وأكثر من بشارة. لقد كان الإسراء فتحاً روحياً دينياً، وكان الفتح العمري فتحاً سياسياً عسكرياً وعندما قال القرآن. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنه يعني هذا الفتح الأخير. أي الفتح العمري ولقد بشر الله به قبل أن يوجد، وهذه شهادة عظمى لعمر لو كان يفقه الذين يطيلون ألسنتهم في هذا العظيم العبقري صاحب الفتح الأول والدخول الأول الذي قاس النص الكريم دخولنا القادم عليه.

وصحيح أن عمر فتح القدس صلحاً، لكنه صلح إذعان للقوة العسكرية. وليس بالضرورة أن يكون الفتح القادم في التفاصيل مشابهاً للفتح الأول. فهو يفيد مطلق الدخول بقطع النظر عن التفاصيل.

والذي نعلمه أن الفتح القادم والدخول الآتي عسكري كما كان الفتح العمري، ولكن النص هنا ذكر أمراً ثالثاً إضافياً هو: ﴿وَلِيَسْتَرْوُا مَا عَلَوْا تَبِيرًا﴾ الإسراء: ٧ فهذا زائد على الدخول العمري: إنه التدمير الشامل لما علا اليهود.

وهو تدمير للعلو السياسي والعلو العسكري والعلو الاقتصادي، والعلو في الحواجز، والعلو الإعلامي، والعلو العمراني... فقد علوا في البنيان وتطاولوا ليخنقوا الأقصى وليشوهوا جماله عندما يحاط بغابات الإسمنت الجامدة الصلدة الصماء الشوهاء الشاهقة فيتقرم - وحاشاه - أمام علوها. هذا كله سيدمر، ويعود الأقصى شامخاً كما كان عبر الزمان. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٤) يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ (الروم: ٥). والتبشير والتدمير سيكون أثناء المعركة وبعد تحقيق النصر، فتزال الأبراج التي أرادوا بها التغطية على الأقصى وتحصيناتهم العسكرية، وخماراتهم وما

إلى ذلك!

ولقد جاء هذا الوعد الثالث مقترباً باللام كسابقه: ليسوءوا.. وليدخلوا.. وليتبروا.. وكل ضمائر الغائب تعود على المسلمين. واللافت للنظر أن ضمير الغائب الوحيد على اليهود هو ضمير: (عَلَوْا)، وكما قلت في أكثر من مناسبة: أنا سنحولهم من ضمير المخاطب الحاضر إلى ضمير الغائب، ونحن الذين كان يعبر عنا بضمير الغائب سنعود إلى الشهود والحضور والوجود من جديد بإذن الله.

من دروس الآية ٧

١. إن الله يعلم أن بني إسرائيل لن يحسنوا ومع هذا يقنن ويقول: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ الإسراء: ٧ وحقاً إن هذا لكلام إله عظيم سبحانه.
٢. أعدى أعداء بني إسرائيل أخلاقهم السيئة وظلمهم وهي التي تعبئ الناس ضدهم وتحشد كل الناس عليهم وتؤلب الخلق ضدهم، ثم يسألون لماذا يكرهنا الناس؟ اسألوا أنفسكم!
٣. كشف خبيثة بني إسرائيل الخبيثة واجب الوقت وفريضة المرحلة، وجزء من المعركة، وفصل في الحرب ضدهم، فلتكتب عنهم الكتب والدراسات الجادة والعميقة في حملة منظمة تحت عنوان: ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾.
٤. ضرام المعركة سيكون أشده حول المسجد، ولعل المسجد يكون الشرارة وصاعق التفجير في المعركة المقبلة، ولا يزال المجرمون يتحرشون بالمسجد حتى يستيقظ النيام وينتبه الغافلون، فإذا صَحَّت الأمة وصَحَّت فالويل للأمة الظالمة المحتلة.
٥. المعركة القادمة ستكون عنيفة إلى حد التدمير الشامل، فهذا عدو يائس مدجج والمعركة القادمة ليست حلقة في سلسلة ولكنها الفاصلة فستكون أعنف ما يمكن والدمار فيها شامل، وإذا كان طاغية سوريا دمر بلداً عظيماً من أجل كرسيه فكيف أسياده من أجل أرض المقدسات؟

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدنَا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (٨)

الربط والمناسبة: حديث القرآن وحديث سورة الإسراء عن إفساد بني

إسرائيل الأول والثاني ما يزال مستمراً. ففي الآية السابقة بين العقاب الثاني والأخير على الإفساد الثاني والأخير الذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: ٧] أي مرة الإفساد الثانية والأخيرة التي لا ثالث بعدها ولا قيامة لكيان يهودي بعدها بإذن الله، كما نفهم. فكيف ينسجم هذا مع هذه الآية وتحديداً مع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُمْ عُدنَا﴾ [الإسراء: ٨] وهذا الذي جعل بعض المفسرين يرى أن هناك إفساداً ثالثاً ورابعاً، وهو فيما أرى غير صحيح بدلالة كلمة (الآخرة) التي تعني الأخيرة، وإنما الذي هنا تقعيد وتأصيل: أن الله بالمرصاد لكل صاحب فساد. تماماً كقوله: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٥٥] والله يعلم أن محمداً لن يقتل. وتاماً كقوله: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] والله يعلم أنه لا إنساء ولا نسيان. فهذا مثل هذا. والله أعلم.

المعنى: عسى: في أصل وضع اللغة للترجي والتمني. وهذا في غير حق الله تعالى. فإذا استعملت كما هنا في الآية كانت تعني أن الأمر يتوقف على سلوك الطرف الآخر لا على موقف الشرع فقط.

تماماً كما في قوله تعالى في ختام أول آيات الصيام: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] لأن التقوى متوقفة على مقدار الإخلاص والوعي بحكمة الصيام وحسن التوجه وحسن القيام بالعبادة.. فإن لم تتوفر الشروط أو توفرت بشكل جزئي كانت الثمرة مجزوة.

ربكم: جاء لفظ الرب هنا دون لفظ الجلالة لأنه الذي يربيكم ويفرق بكم إن استحققتهم. وهذه أول كلمة (ربكم) في الإسراء من بين ٧ مرات. أما موقعها من بين مرات ورودها في القرآن كله فهو ٦٥ من بين ١١٩ مرة بمعنى أنه بقي بعدها ٥٤ مرة، وأكثر ما وردت في الأعراف ١٦ مرة. وهذه الآية (١١) كلمة يمكن تقسيمها إلى ٤: ٣: ٤ عسى ربكم أن يرحمكم، وإن عدتم عدنا،

وجعلنا جهنم للكافري حصيراً.

أن يرحمكم: هذه الـ «أن» مقارنة لعسى. ومثلها: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ الإسراء: ٥١، ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ الإسراء: ٧٩، ﴿عَسَى رَبِّتْ أَنْ يَهْدِيَنَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ القصص: ٢٢. وبحسب استقراءي للسورة فإنه لم يرد فيها إلا ما هنا والآية ٥١، وفي الآية ٧٩ فقط. أعني ﴿عَسَى أَنْ﴾^(١).

أن يرحمكم: أن يدخلكم في رحمته، وهذا إن تبتم وأقلعتم عن فسادكم وتوقفتم عن شروركم وكفركم. فالله لا يريد عذاب الخلق، لكن عقابه نتيجة لتجاوزهم حدودهم في العبودية والطاعة. وهذا يدل على رحمة الله وعدل الله.

وإن عدتم عدنا: وإن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى تسليط العباد يؤدبونكم ويردونكم إلى الجادة. وهذا ليس كامل حسابكم وجزائكم ولكن ما ينتظركم في الآخرة يفوق الوصف.

وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً: أي وصيرنا جهنم للكافرين فراشاً كالحصير. وقيل كما في أبي السعود أن حصيراً بمعنى الحصر أي التضييق. والذي رجحناه أرجح. والله أعلم.

دروس الآية ٨

١. الأصل في معاملة الله لعباده الرحمة ولا يعاقبهم إلا إذا أصروا على الكفر والعناد.
٢. إذا كان الله يعامل اليهود بهذا العدل فكيف يعامل بقية الخلق ممن هم دون اليهود في الشرور والإفساد؟
٣. العدل الإلهي المطلق المتمثل في فتح باب العودة والأوبة والتوبة، حتى لأفسد الخلق، والذين أفسدوا الخلق من بني إسرائيل.
٤. القانون الإلهي أن الإفساد جزاؤه ملازم له بلا فكاك فلا يعقل أن يترك الله المفسد بلا عقاب في الدنيا قبل الآخرة، ومما يؤكد هذه القانونية:

(١) يراجع عزيمة في (عسى): دراسة لأسلوب القرآن الكريم.

﴿وَلِنْ عُدْتُمْ عَدْنَا﴾.

٥. عقاب الله للمفسدين في الدنيا ليس هو الجزاء الكامل وإنما هو مقدمة العقاب وأما بقية العقاب وجملته ففي الآخرة: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ

لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾.

٦. لا يعني قوله تعالى: ﴿وَلِنْ عُدْتُمْ عَدْنَا﴾ أن هناك عودة لبني إسرائيل

للإفساد في صورة دولة وعلو، فهذا فيما نرى لا عودة له، وإنما قد يظل

الإفساد الفردي بلا دولة ولا مؤسسات، كما هو حاصل لهم الآن بوجود

دولتهم في فلسطين.

المقطع الثالث

الآيات (٩ - ١٧)

القرآن.. والإنسان

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

الربط والمناسبة: انتهى حديث سورة الإسراء عن إفسادي بني إسرائيل، والآن التعقيب على هذين الإفسادين، وعلى الجزاء المترتب عليهما.. إن القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين مما يجزم بصواب ما قلنا من تفسير الآية، إن الذين يُنْهَوْنَ إفساد بني إسرائيل هم من هذه الأمة المسلمة المؤمنة، وليس إنهاء الفساد بمفسدين آخرين!

المعنى: تفتح الآية الكريمة بـ «إِنَّ» التي تفيد أقوى التأكيد.

ثم اسم الإشارة «هذا» المفيد القرب والتعظيم في آن، فلو قال (إن القرآن) لم يفد ما أفاد «إن هذا القرآن» من التوقير والتعظيم وإفادة القرب من القلب والعقل، ومن التحديد!

والقرآن أشهر أسماء هذا الكتاب العزيز المنزل على النبي العظيم ﷺ. وكررنا مراراً أن كلمة القرآن تكررت في سورة الإسراء ما لم تتكرر في سورة أخرى على الإطلاق وبتميز واضح وعللنا لماذا وأنه دستور النصر لهذه الأمة في صراعها مع بني إسرائيل أعداء الإسراء وأمة الإسراء ونبي الإسراء وأرض الإسراء.

وهذا الموضع لكلمة (قرآن) هو الخامس عشر في القرآن فقد سبق هذه الكلمة هنا «القرآن» ١٤ مرة و ١٠ سور (وفي سورة الإسراء ١٠ مرات لفظ القرآن) وهذه السورة رقم ١١ التي تحتوي كلمة قرآن، وكلمة «قرآناً» وردت مرة فهذه ١١ مرة تماماً وهي السورة رقم ١١ التي تضمنت كلمة قرآن من بداية المصحف. فتأمل.

وتعبير «إن هذا القرآن» لم يرد إلا في سورتين هما الإسراء آية ٩ والنمل ٧٦ وهي السورة ٢٧ وبين السورتين شبه بيناه، في شبكة علاقات سورة الإسراء.

أما تعبير «هذا القرآن» فقد ورد أول ما ورد في الأنعام آية ١٩ ثم في

سورة يونس آية ٣٧ ثم في يوسف ٣ ثم في الإسراء ٩ ثم في الإسراء ٨٨ ثم في الإسراء ٨٩ ثم في الكهف ٥٤ ثم في الفرقان ٣٠ ثم في النمل ٧٦ (وقد مرت) ثم في الروم ٥٨ ، ثم في سبأ ٣١ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ ثم في الزمر ٢٧ ثم في فصلت ٢٦ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ ثم في الزخرف ٣١ وآخرها في الحشر ٢١ وهي السورة ٥٩ .

وهنا ملاحظات:

- ١ . ورد هذا التعبير «هذا القرآن» في القرآن ١٥ مرة، وكلمة «القرآن» وردت في القرآن حتى هذه الآية من الإسراء ١٥ مرة.
- ٢ . لم يتكرر هذا التعبير في سورة إلا في الإسراء فقد ورد ٣ مرات.
- ٣ . هذا التعبير ورد في سورة يوسف المرة رقم ٣ من أول القرآن في الآية ٣ من السورة فتأمل الموافقات.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾

إذاً بعد هذه الجولة السريعة مع كلمة القرآن يتحدث القرآن عن نفسه في هذه الآية فيقول ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

الإسراء: ٩ .

ولفتنا النظر إلى التوكيد واسم الإشارة، ونلفت الآن النظر إلى قصر الحديث عن مهمات القرآن في اثنتين: الهدى والبشرى. ولو دققنا لوجدنا أنهما أهم مهمتين في ضوء سياق السورة وطبيعتها ومنهجها وموضوعها وباعتبارها «دستور النصر» كما سلف القول مراراً وتكراراً وسنكرره.

ذلك أن الأمة ضيعت طريق نصرها وتحرير مقدساتها إذ ضيعت سبيلها إلى هذا القرآن. وكم كنا نعجب ونحن نرى «مقاومين» يتبنون الماركسية منهجاً وطريقاً لتحرير فلسطين، وآخرون يتبنون القومية والعلمانية، وما هب ودب من أفكار ومبادئ ومذاهب وملل ونحل، وعميت عيونهم عن «هذا القرآن». وأذكر أننا حللنا في موقع قاعدة أخلاها من قبلنا فرفع أحدنا كتاباً فقبله

يظنه القرآن، فقلت: ألقه من يدك إنه رأس المال لكارل ماركس.. كان قد وزعه أمراء اليسار على المقاتلين الصغار ليمركسوههم وليركسوههم وليضللوهم عن طريق التحرير مع الزعم أنهم سائرون بهم في طريق التحرير.

فكنت كلما قرأت هذه الآية أستحضر هاتيك الأيام الخوالي وما حفلت به من مناهج ضلال وإضلال، فأقول ما أعظم القرآن!

إن هذا القرآن يدلكم على طريق نصركم فلا تضيعوا «خارطة الطريق»! إن هذا القرآن هو الهدى، ولئن اتبعنا سواء من المناهج ضيعنا الهدى وضلنا سواء السبيل وتردنا في مهاوي الردى، وغلبنا العدى.. فكيف لا تسمعين يا أمة الهدى؟

﴿يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ وأفعل التفضيل هنا فيما أرى ليست على بابها أي على أصل وضعها وقاعدتها النحوية أنها للمقارنة والتفضيل لشيء على شيء بل هي مطلقة. فلا هدى إلا في ضلال الكتاب.

ولا والله ومهما التمسنا الهدى في غيره أضلنا الله ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله كما قال الفاروق يوم فتح بيت المقدس لأمين الأمة أبي عبيدة، على الصحابة جميعاً الرضوان الأتم الأكمل. فلم يقل يهدي للقيمة. وإنما يهدي للتي هي أقوم. فلا نقارن بين الشمس والشمعة مثلاً، فكيف نقارن بين الشمس والظلام؟

إن المناهج الأخرى هي الظلام والظلم والضلال، وإن منهج القرآن هو الهدى والخير والنور، فلا مقارنة ولا مقاربة!

فكلمة «أقوم» فيما أرى ليست للمقارنة.. كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون: ١٤ ولا خالق إلا الله! والتي «هي أقوم» تشمل الدنيا والآخرة. فهو يهدي للصرائط المستقيم ليحيا الناس في استقامة وعدل وسلام وخير وبركة.. وفي الآخرة يهديهم إلى الجنة، كما قال الله في سورة محمد ﷺ: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾﴾ محمد: ٥ - ٦ أما الكافرون: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ الصافات: ٢٢.

«ويبشر المؤمنين» وأعتقد أن هذه الكلمة من هذه الآية كلمة مفتاحية في

آية هي موجهة للفهم، ومحكمة إن تشابهت الآيات المتحدثة عن إفساد بني إسرائيل.

فهل القرآن يبشر المؤمنين بشارة معزولة عن السياق السابق؟ أم يبشرهم بشارة محددة منضبطة مرتبطة بالسياق السابق؟ وهل هذه الآية منبئة عن نسيج الكلام العظيم قبلها؟ بالقطع لا ومعاذ الله. بل هي مائة له بكل أسباب الصلات وأوثق العرى بين الكلمات! إن هذه الكلمة العظيمة ضمانة^(١) لحسن فهم الآيات السابقات وموجه للعقل كيف يدير التفسير وكيف يتدبر كلام الخبير سبحانه.

فليس الكلام عن كفار يعاقبون كفاراً وظلمة يطردون ظلمة ليحلوا محلهم، وفاسدون يكتسحون فاسدين في دورات لا طائل من ورائها، فهذا «وقع وتكرر في التاريخ» كما يقول الندوي^(٢):

لا ليس ذلك كذلك... ولكنها بشرى للمؤمنين بأنهم خيرة الله، وخير أمة أخرجت للناس تطارد الفاسدين المفسدين وتشفي الناس من سرطان الأمم، من هؤلاء المفسدين، بل أفسد المفسدين.. والبشرى لهم بالاختيار الإلهي لهذا الأمة الجلل. والبشرى لهم بالنصر الأكمل الأجل الأشمل على الأمر الأفسد والأضل!

والقرآن لا يبشر بالخراب كما في التفاسير من أن (بختنصر) أو (تيطس) خربوا الهيكل. فوقعوا في مغالطتين أو خطأين بل في مسلسل من الأغلاط. فهل القرآن يخبرنا بأن الله سيزيح فساد بني إسرائيل بفساد الفرس أو الروم؟ وثانياً إنكم بمقولتكم هذه تثبتون مقولة المجرمين بأن لهم هيكلاً في هذه البلاد ولا هيكل لهم حتى نقول إنه قد خرب، فهو ليس موجوداً إلا في خيالاتهم المريضة.

(١) لي بفضل الله مصطلح أو تعبير وبحث في آن. سميت: «ضمانات حسن الفهم من داخل النص القرآني».

(٢) وعبارته في كتابه السفر القيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» في مقدمته، ص ٢٢: لم يكن انحطاط المسلمين أولاً. وفشلهم وانعزالهم عن قيادة الأمم بعد. وانسحابهم من ميدان الحياة والعمل أخيراً، حادثاً من نوع ما وقع وتكرر في التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم. وانقراض الحكومات والدول. وانكسار الملوك والفاتحين وانهزام الغزاة المنتصرين. وتقلص ظل المدينيات والجزر السياسي بعد المد. فما أكثر ما وقع مثل هذا في تاريخ كل أمة. وما أكثر أمثاله في تاريخ الإنسان العام؛ ولكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له في التاريخ. مع أن في التاريخ مثلاً وأمثله لكل حادث غريب. ط ١. سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م. دار القلم ودار الأنصار.

وخطأ ثالث هو لازم لأقوالهم وإن لم يقولوا به تصريحاً. ذلكم هو: تفكيك النص ونقض بنية وحدته ووحدة بنيته. فالقول الذي قالوا يستلزم أن البشرى للمؤمنين في هذه الآية معزولة عن سياقها وتأتي مفاجئة وبلا مقدمات! وحاشا لكلام الله أن يكون كذلك. بل البشرى مرتبطة متصلة كما أسلفنا القول.

إنها والله بشرى أثنى من ذهب الأرض كله ونفط الأرض كله! إن الأقصى عائد لكم بأيديكم وقتالكم واستبسالككم وليس عبر طاولات المفاوضات، والمغامرات السياسية الخرقاء العابثة والعبثية والعدمية. إنها -أي هذه الآية- تحدد المنهج والطريقة لاستعادة المسرى السليب الحبيب وتحرير القدس الشريف درة فلسطين وسائر فلسطين. وتبشرهم بأن ذلك كائن طالما التزمت نهج الهدى فالبشرى لكم.

فآخر العبارتين مرتبط بأولهما: أعني «ويبشر» مرتبط بـ «يهدي». فالعبث كل العبث أن نقضي العمر في تجارب فاشلة ثبت فشلها ألف مرة ونعود لجحر المفاوضات الذي لدغنا منه ألف مرة، وللحلول السياسية التي تعفن جرحنا من طول انتظار حلولها التي نتوقع أن تجترحها وتقترحها علينا لحل مشكلتنا. وما حلت بعد سبعة عقود.

أما كفى ما كان؟ أما آن أوان العودة إلى هدى القرآن؟

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾

الإيمان وعمل الصالحات شجرة وثمره. فلا تتصور الشجرة بلا ثمرة ولا الثمرة بلا شجرة، من هنا اقترن الإيمان بالعمل الصالح في صورة (آمنوا وعملوا الصالحات) ٦٠ مرة. (آمن وعمل صالحاً) ٢٠ مرة فهذه ثمانون مرة بالتمام يقترن فيها ذكر الإيمان بالعمل الصالح.

هؤلاء المؤمنون الذين قادهم إيمانهم إلى عمل الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ويكتب العزة والنصر والتمكين والحياة الطيبة دنيا وأخرى لهم.. وما لا يحصى من الخيرات. والآخرون في الشقاء يتقلبون ويتدههون.

وهنا في هذه الآية لهم البشرى، ولكن بماذا؟

﴿أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

وقد وصف الأجر بالحسن وبالكريم وبالعظيم وبغير المنون وبغير حساب وهنا بأنه كبير .. وهي جهات متعددة، ست جهات، على الأقل للأجر كجهات الكون الست: الجهات الأربع والفوق والتحت.

والكبير فيه إشارة إلى الكم، والعظيم إشارة إلى الكيف، وكذا الحسن. وقد وردت كلمة ﴿كَبِيرًا﴾ في القرآن ١٧ مرة فهل تعلم أن ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بهذه الصيغة لم ترد في القرآن إلا في هذا الموطن من سورة الإسراء؟ وهل تعلم أن أكثر من ثلث مرات ورود كلمة (كبير) في القرآن هي في سورة الإسراء؟

فهذا وجه انسجام وتناسق بين وصف الأجر الكبير في سورة الإسراء مع جو سورة الإسراء، فقد ورد قبل هذه الآية في الآية ٦ وصف العلو الكبير ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ثم ﴿خَطًّا كَبِيرًا﴾ في قتل الأولاد ثم ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ في حق الله تعالى، ثم ﴿طَغْيًا كَبِيرًا﴾ في حق الذين يخوفهم الله فلا يرتدعون، ثم في وصف فضل الله على الرسول ﷺ: .

أما ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بهذه الصورة فقد ورد في القرآن في سورة هود ١١، وفي فاطر ٧، والحديد ٧، والمملك ١٢ أي (٤ مرات)، وأما ﴿الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ فاطر: ٣٢، فقد ورد في مرتين.

ووصف الفوز بالكبير، ووصف ﴿الْعِلْيُ الْكَبِيرُ﴾ لقمان: ٣٠ في عدة مرات (٤ مرات)

وجاء ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ في الرعد.

هذه نظرة عجل على هذه الكلمة في القرآن.

ومجيئها منكراً ﴿أَجْرًا﴾ ليدل على التعظيم ووصفه بالكبير فأفاد المعنى مرتين، مرة بالتكثير ومرة في وصفه بالكبير، فتأمل جمال مقال العليم الخبير.

من دروس الآية ٩

١. المؤمنون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة وعاجل بشرائهم النصر والذكر، والذخر المذخور لهم في الآخرة.
٢. هذه الآية ضماناً لحسن فهم الآيات المتحدثة عن إفسادي بني إسرائيل. فما دامت تبشر المؤمنين فهم الذين ينهون الإفسادين الإسرائيليين الأول والثاني.
٣. القرآن وظائفه لا تحصى لكن أعظم وظائفه بما ينسجم مع جو سورة الإسراء: الهدى والتبشير، وتناسق ذلك مع جو الإسراء، أن الصراع مع بني إسرائيل يحتاج أحوج ما يحتاج إلى الهدى إذا أظلمت طرق التحرير وغامت السبل وتعقدت وكلحت واكفهرت، ويحتاج إلى التبشير في وقت اليأس والقنوط والإحباط وتراكم الإخفاقات كما هو حاصل طيلة سنوات الصراع المدعى مع العدو الإسرائيلي.
٤. الإيمان وعمل الصالحات صنوان الشجرة والثمرة كما قلنا.
٥. مهمة أهل الإيمان كمهمة القرآن هداية الناس من تيه وضلال وتبشيرهم من قنوط ويأس.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٠﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية جزء متمم للآية السابقة فلا تحتاج إلى بيان وجه الربط. فالسابقة بينت جزاء «المؤمنين» وهذه بينت جزاء «الذين لا يؤمنون».

المعنى: وأن: افتتحت الآية السابقة بيان، وهذه بأن مسبوقة بالواو والأقرب أنها واو العطف أولى من أن تكون واو الاستئناف. فهي تعطف فريقاً على فريق وإن كان في الاتجاه المضاد، وجزاء على جزاء وإن كان بينهما أتم المفارقة.

وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة: أول ما يلفت النظر التعميم في الآية الأولى بلفظ «المؤمنين» على العموم، فهم قد أخذوا الإيمان صفقة واحدة جملة. بكل أركان الإيمان، فلا داعي للتخصيص والتفصيل.

ولماذا هؤلاء في الآية الثانية خصصهم بأنهم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾؟ إنه حتى أكفر كفار قريش كانوا يقرون بالإله سبحانه، ولقد كررت الآيات جوابهم على أسئلة من مثل: من خلق السماوات والأرض؟ من بيده ملكوت كل شيء؟ من...؟ كان الجواب دائماً «الله» أو ﴿حَاقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿الزخرف: ٩﴾ أو ما قارب هذا. أما الآخرة فكانوا ينفونها بالمطلق فيسألون إن كانوا عظاماً أو كانوا رفاتاً أو ﴿أَوَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ السجدة: ١٠ وقد سجلت الإسراء ذاتها عدة مواقف لهم من هذا القبيل من مثل قولهم مستهزئين: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿الإسراء: ٩﴾: (١). والسؤال هو: لماذا التركيز على الإيمان بالآخرة حتى إن كثيراً من الآيات في القرآن كانت تقتصر على ذكر الركنين الأعظمين: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ آل عمران: ٩١٤

أقول: إن جدية الإيمان بالله تتحقق الإيمان باليوم الآخر. فما قيمة إيمان بالله أو بإله لا يجازي ولا يحاسب؟ ولا يعاقب المسيء ولا يثيب المحسن؟

(١) لاحظ التقسيم في الآية في جملتيها: (وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً) و (إننا لمبعوثون خلقاً جديداً) فالمقدمة والنتيجة تتضمن الهمزتين المتتاليتين (أنذا، أننا). وهل تعلم أن الجملة الأولى ٢٢ حرفاً والثانية ٢١ حرفاً. يعني أن التقسيم حتى في عدد الحروف. ولاحظ عظاماً ورفاتاً. و خلقاً جديداً. تقسيم.

ومن هنا كان سؤال القرآن: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (الغالب ٢٥). فهم يريدون بالإقرار بوجود الله أن يأخذوا امتيازات الإيمان دون أن يتكلفوا شيئاً من تبعات الإيمان أو استحقاقات الإيمان. فهي انتقائية مزاجية.

وأمر آخر مهم - فيما أرى - أن السياق كان يركز الحديث عن بني إسرائيل وإفساد بني إسرائيل، وما كان هذا الفساد المريع والفظيع إلا لعدم إيمانهم بالآخرة. وإن آمنوا بها نظرياً، فإيمانهم مدخول إذ يفضلونها على مقاسهم وعلى وفق أهوائهم إذ يزعمون أن «الدار الآخرة خالصة» لهم «من دون الناس» وأن الله لن يعذبهم لأنهم «أبناء الله وأحبأؤه» وإن عذبهم - جدلاً - فلا يعدو العذاب أن يكون «أياماً معدودات» أو «أياماً معدودة»، هكذا سولت لهم أنفسهم وحتى تكتمل النظرية الشيطانية والتنظير الإبليسي للفساد قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَكِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥).

ونظّل في موضوع الآخرة فهذه التوراة بين يديك قلبها بحثاً عن صورة واضحة واحدة للآخرة، إنك لن تجد، وهذا الإنجيل كذلك والنتيجة ذات النتيجة!

فالكتاب الوحيد الذي أعطى صورة تفصيلية عن الآخرة وحسابها وموازينها ونعيمها وعذابها وديمومتها هو القرآن والحمد لله.

هذه مقدمة لأقول إن ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ في ضوء السياق صحيح أنها عامة، لكن في ضوء السياق يدخل فيها دخولاً أولياً كما يقول السادة المفسرون بتعبيرهم المكرور في مثل هذه المناسبات، يدخل فيها دخولاً أولياً: بنو إسرائيل، الذين لا يؤمنون بالآخرة ليرتعوا في الفساد، ولا يؤمنون بها لأنهم لا يملكون عنها أي اعتقاد، ولا صورة عنها في كتابهم. من هنا فيما أرى التركيز على ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

ولئن ذكرت الآية السابقة الإيمان مقترناً بلازمه من العمل الصالح، فلم تذكر الآية هذه قرينة ملازمة لعدم الإيمان، لأن الاقتران لا يحتاج إلى بيان فهو قار في الفطر والأذهان، إن الفساد وعدم الإيمان لازمان متلازمان! ولا حظ نسق السورة بين «وعد الآخرة» و «الذين لا يؤمنون بالآخرة» مع

أن المعنى هناك: الثانية. وبالطبع المعنى هنا هو الثانية. لكن الذي يختلف هو ثانية ماذا. فتأمل!

أعدتنا لهم: أعدتنا: أعدنا وهياناً، وفيها مزيد عناية في الإعداد عن أعدنا.

وهذه نظرة على هذا الفعل (أعدنا) والذي جذره «عدّ» والقريب جداً في معناه من الفعل (أعدّ) والذي جذره (عَدَدَ). وقد ورد (أعدنا) ١٣ مرة وورد (أعدّ) ١٤ مرة ولم يرد (أعدنا) قط، إذ فيما أرى سد مسده (أعدنا). أقول من بين مرات (أعدنا) استأثرت سورة «النساء» بـ ٤ مرات على ما هي عادة سورة النساء في رباعيات كثير من المفردات. والكهف مرتين والفرقان مثلها.

وورد الفعل مرة في كل من: الإسراء والأحزاب والفتح والملك والإنسان. هذا كل ما هنالك.

أما «عتيد» فلم ترد إلا في (ق) مرتين. وأما «أعدت» فلم ترد إلا في يوسف. ولا شيء غير.

«عذاباً أليماً» وقد وردت (أعدنا) مقترنة بـ «عذاباً أليماً» في سورة النساء آية ١٨ ، ١٦١ ، ومقترنة فيها بـ «عذاباً مهيناً» في الآيتين ٣٧ ، ١٥١ . واقتربت «عذاباً أليماً» بـ «أعدنا» في الفرقان آية ٣٧ فهذه ٤ مرات من الاقتران.

واقترن العذاب هنا بوصف (الأليم) لأنه فيما أرى الأليق والأنسب للسياق. فهم قد آلموا الناس بإفسادهم وتسببوا لهم في ألم التشرد وألم الجوع وألم الفقر وألم البرد شتاء وألم مفارقة الوطن والحنين إليه والموت بعيداً عنه، إنه مسلسل من الآلام، فليكن الألم صفة للعذاب الذي أعده الله لهم. والجزاء من جنس العمل. فتأمل.

وألقي نظرة على آية النساء ١٦١: ﴿فَيُظَاهَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ النساء: ١٦٠ ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ النساء: ١٦١ .

إنهم يؤلمون الناس بأكل أموالهم ويتركونهم يواجهون قسوة الحياة. إنهم هم هم.. هنا وهناك وفي كل مكان. والألم بانتظارهم.

من دروس الآية ١.

١. الإيمان بالآخرة ثاني أعظم أركان الإيمان، وهو الذي يعطي للركن الأول حقيقة أهميته وجديته إذ لولا الإيمان بالآخرة لأصبح الإيمان بالله قضية نظرية فلسفية لا يترتب عليها ولا ينبنى عليها شيء على الإطلاق.
٢. من أكثر ما يميز بني إسرائيل عدم الإيمان بالآخرة ليتيح لهم ذلك أن يفجروا كما يشاءون ويفسدوا كما يريدون كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِفَجْرٍ آمَامَهُ﴾ (٥) ﴿يَسْتَلْ أَیَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (٦) ﴿الْقِيَامَةِ: ٥ - ٦﴾، ومن هنا فإن سورة البقرة التي نزلت في بيئة المدينة التي يوجد فيها اليهود ركزت على الإيمان باليوم الآخر منذ بدئها إلى ختامها، فبينما عبرت عن أركان الإيمان كلها بـ «يؤمنون بالغيب» قالت عن الآخرة: «وبالآخرة هم يوقنون» وقرنت الإيمان بالله واليوم الآخر في عدة مواطن بصورة لم تشبهها فيها سورة.
٣. الجزء من جنس العمل. فمن تسبب في ألم الناس بالتهجير فإن الله قد أعد له العذاب الأليم في السعير.
٤. عذاب الكافرين جزء من بشرى المؤمنين، فلا تهدأ النفوس إلا إذا علمت أن قانون العدل الإلهي سيأخذ مجراه في ساحة الآخرة إن ظلمنا في الدنيا.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝﴾

الربط والمناسبة: تبدو الآية أنها في فهمها وفهم نسقها مع السياق تحتاج إلى توقف.

والأمر يسير إن شاء الله . فالسياق يتحدث عن إفساد بني إسرائيل وعلوهم وبشرى المؤمنين بالنصر عليهم، فما سر الانتقال إلى الحديث عن السنن الفردية وتحديد طبع الإنسان على العجلة وهذا سر دعائه بالشّر كدعائه بالخير، لأنه كان عجولاً بطبعه.. لأنه «خلق الإنسان من عجل»؟ أقول: إن من أهم شروط النصر الصبر، والصبر نقيض العجلة، والعجلة نقيض الصبر. فلئن كان الصبر عدة النصر فإن العجلة هي مضيقه النصر. وبالتالي في تاريخ القضية رأيت أن سر تحولنا من المقاومة إلى المهادنة والمساومة موجود في هذه الآية. إنه العجلة. فأرى أن الآية مرتبطة أتم ارتباط بالسياق.

المعنى؛ ويدع: فعل مضارع لم يسبقه لا ناصب ولا جازم فهو مرفوع، وأصل رسمه: يدعو. فما سر حذف الواو في الرسم مع أنه لا جازم تُحذف الواو لأثره ولأجله؟ والرسم فيما أرى توقيف وليس متروكاً للناس واجتهاد النسخ، فكلّام الله لا يقبل الزيادة ولا النقصان، لا حرف ولا أكثر. وأعتقد أن حذف حرف الواو يدل على السرعة والعجلة في الذي يدعو بالشّر، فحذفت الواو للدلالة على هذا المعنى، فينسجم الرسم مع المعنى، كما يعبر الجرس أحياناً كثيرة عن المعنى.

الإنسان: مطلق الإنسان، وجمهرة بني الإنسان، واستثنى القلة من أهل الإيمان الذين تعمق في نفوسهم الإيمان، وليس المقصود هنا بالإنسان الإنسان الكافر كما قالت بعض التفاسير في مثل هذه الآية من مثل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ (النصر: ٢) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (المارج: ١٩) .. فهذه وأمثالها تتضمن الإشارة إلى طبيعة قارة وطبائع ثابتة وجبلة عميقة في التكوين. وهل هي إذاً خلقة خلق عليها الإنسان لا دخل له ولا للمجتمع بها؟

والجواب: لا بالطبع. بل الإنسان مسؤول عنها وعن سائر انفعالاته وغرائزه. قاله خلق الإنسان على طبائع وجبالات من مثل حب الشهوات وحب المال.. إلخ. فلم خلق الله البشر كذلك؟ خلقهم ليبتيهم وليمتحنهم وليقاوموا. وأيضاً فإن هذه الجبالات والغرائز محركات الحياة ودوافع العمل والجد والنشاط، والجنة أجر المقاومة. فحب المال جبلة. فهل نستسلم؟ الجواب: لا بل نقاوم. والخوف على الأجل جبلة. فهل نهرب من ميدان المعركة خوفاً على الذات والحياة؟ والجواب: لا أيضاً. بل نقاوم طبائعنا وحرصنا وخوفنا وتعصبنا وأنانيتنا. ونلاحظ أن الإنسان في أول الآية وآخرها، وأن كلمة الإنسان هي الثانية من الأول أي أول الآية والثانية من آخر الآية..

بالشر: أي أن الإنسان يدعو على نفسه أو على أولاده أو ممتلكاته بالشر أو على الآخرين مطلقاً أو على أمته أو... بالشر: أي بالهلاك أو بالسوء. دعاءه بالخير: أي كما يدعو لنفسه ولأولاده ولمن يحب ولممتلكاته بالخير. بالنماء والبقاء والسعادة ودوام الحال.

ومن الطبيعي أن يدعو الإنسان لنفسه بالخير ولمن يحب. ولكن غير الطبيعي أن يدعو الإنسان بالشر. ولكن غير الطبيعي في الواقع أصبح من الطبيعي.

وكان الإنسان عجولاً: هذا الجزء من الآية تفسير لما سبق منها. فما سبب دعائه بالشر؟ إنه استعجاله.

فقد تتعطل السيارة ولا تعمل.. فيدعو بالخراب، وأن لا تصلح أبداً. أليس الإنسان قد يطلق أم أولاده لغضب دقيقة؟ إنه السلوك ذاته. الانفعال بلا ضابط ولا اتزان يؤدي إلى المبالغة ومضاعفة الشر. وعندما يصفو الإنسان يحاول أن يعيد الأشياء إلى ما كانت وربما لا يستطيع.

ونذكر قصة الزمخشري الذي كسر رجل دجاجة أمه فدعت عليه أمه أن تكسر رجله كما كسرهما، فكان. وعاش حياته بإعاقة في رجله.

وكم من أمهات عاندهنّ الأبناء إذ أمرنهم بعدم الخروج فخرجوا فقالت: بلا عودة. وقد كان!

وصور هذا السلوك أكثر من الحصر .

والآن ننتقل من هذا السنن الفردي إلى السلوك الجمعي والسنن الاجتماعي .

فالأمم من عجلتها قد تقع في ورطات، كأن يضيقوا معاش الشعوب ثم يوهموهم أن حل أزماتهم في السلام مع اليهود والتعايش والتطبيع، فمن ضيقها توافق الناس وتستبشر، فتجد أنها قد وقعت في الشبكة حتى بلا طعم . وأنها كانت صيداً سهلاً وبلا ثمن .

وحركات التحرير هذا مقتلها أن تستعجل النصر وتستبطئ قدومه إن تأخر عن توقعاتها .. فتغير الوجهة إلى نقيضها، وأما صيغة (فعول) في قوله تعالى ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ الإسراء: ١١، وقوله تعالى في الآية ١٠٠ في ختامها: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ الإسراء: ١٠٠، ومثلها في الحديث عن الإنسان إنه ﴿كَانَ يَتُوسًا﴾ الإسراء: ٨٣، ومثلها في وصف الباطل: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء: ٨١، ومثلها في وصف الشيطان: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ الإسراء: ٢٧ . فالإنسان عجول قتور يؤوس .. وغير هذه من الصفات على هذا الوزن الذي يفيد الإكثار من الشيء والتوسع فيه، كما نقول: نؤوم، أي كثير النوم، وأكول: كثير الأكل .. وهكذا، وضحوك وعبوس .. إلخ .

من دروس الآية ١١

- ١ . الإنسان متقلب سريع العطب وسريع الانتقال من الرضا إلى الغضب وسريع التعب، سرعان ما يتحول من نقيض إلى نقيض .
- ٢ . الدعاء إحدى علامات هذا القلب عند الإنسان، ففي الرضا يدعو بالخير وعند أول منعطف ينقلب على ذاته ويدعو عليها بالشر والويل والثبور والهلاك أو على من يحب من ولد .
- ٣ . هذه الطبيعة السلبية في الإنسان عليه أن لا يستسلم لها بل يقاومها، وكم من طبائع إذا استسلم لها الإنسان أردته، فعليه أن يجاهدها ويقاومها وله الجنة . ولا يتعلن بأنه هكذا خلق «وَأَيُّ كَمَا خُلِقْتُ» كما

- في الأمثال، هذا ينبغي أن لا يقال، بل إن تغيير ما بالأنفس قانون الهي
وسنة اجتماعية صيغت في واحد من أجمع القوانين والسنن الاجتماعية
في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الآية ١١.
٤. العجلة طبيعة عميقة في الإنسان وهي مصدر كثير من الشرور ولذا
ترسخ على ألسن الناس أن «العجلة من الشيطان» وفي المقابل فإن
الهدوء والحلم والروية والرفق والاتزان والأناة من الرحمن. هذه العجلة
قد تنتقل من سنة فردية إلى طبيعة اجتماعية فتوقع الأمة في مهاوي
الردى، وتحولها من المقارعة والممانعة والمقاومة والمدافعة إلى الاستسلام
والخنوع والخضوع والمسألة والمصانعة والمصالحة.
٥. المجتمعات البدائية والمتخلفة تتسم بالسمات الفردية من العجلة والتسرع
ونحوها. وكلما نضجت المجتمعات وتحولت إلى الذكاء الجمعي والعمل
المؤسسي انتهت أو خفت أو تلاشت غلبة النزعات الفردية. فللمجتمعات
مصالح عليا وخطط بعيدة المدى تمنعها من رد الفعل المتسرع والمتعسف.
وبهذه المناسبة أذكر ما في كتاب محمد أسد (أو ليوبولد فايس) الذي
ترجم إلى «الطريق إلى مكة» أو «الطريق إلى الإسلام» وعنوانه الإنجليزي
Way to Mecca وقال فيه محمد أسد: إنه قابل الملك عبد العزيز
وقال: إنه ينظر إلى هذه الصحراء وقد تحولت حقولاً خضراء مزروعة
بالقمح، فظن المضيف أن الضيف يحمل خطة جاهزة من غدها فقال:
إن هذا يحتاج إلى خطة عشرية، فقال: لا نريدها، (وإنما نقلت بالمعنى
بالطبع).
٦. أن القبول بالحلول السلمية هو الصورة العملية للعجلة، فهذا كله من
قلة الصبر ومن تسرع النتائج ومن عدم اليقين بنفاذ وعد الله. وكل هذه
السلبيات منشؤها العجلة.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (١٢)

الربط والمناسبة: في الآية السابقة حديث عن عجلة الإنسان. وفي هذه الآية حديث عن حركة الزمن وتقلب الليل والنهار واختلافهما، بمعنى تعاقبهما، وهل الصبر إلا مراعاة الزمن واحتمال مرور الزمن، فهو وعاء الصبر أعني الزمن.

ولاحظ النسق في ضمير المتكلم بنون الجمع المفيدة للتعظيم: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطفاً على ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ﴾ و ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾. **المعنى:** وجعلنا: الواو للاستئناف، والجعل للتصيير بعد الخلق والإيجاد، ونون العظمة للفت النظر إلى أهمية الفعل.

الليل والنهار آيتين: فالليل آية والنهار آية، وكل آية مختلفة عن الأخرى إلى حد النقيض، ولكنهما مع كل ذلك الاختلاف، تتكاملان في الوظائف: «الليل لباساً والنهار معاشاً» والآية هي العلامة الدالة على الله.

وقدّم الليل على النهار، على دأب القرآن في هذا، فلا أذكر أن القرآن قدّم النهار على الليل، وإنما دائماً يبدأ بذكر الليل. حتى في أقسام القرآن قال: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ (الليل: ١-٢). وربما كان الاستثناء الوحيد ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ (الشمس: ٣-٤) وقد قال في عمّ ﴿وَجَعَلْنَا آيَلًا لِّبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝﴾ (النبا: ١٠-١١) وفي الفرقان قال ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ (الفرقان: ٦٢).

﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ (البقرة: ١٦٤) حيث وردت بهذا الترتيب. وفي قوله ﴿يَغْشَىٰ آيَلُ النَّهَارِ﴾ (الأعراف: ٥٤) وقوله ﴿وَلَا آيَلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ (يس: ٤٠)، وفي سورة القصص عندما قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ آيَلًا سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (القصص: ٧١) ذكره قبل النهار.. فهي منهجية مطردة.

والأيام تحتسب من الليل فرمضان تبتدئ أحكامه من رؤية هلاله فتصلى

التراويح تلك الليلة.

وآيتنا هنا في الإسراء قريب منها ما في سورة يس ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلِيلٌ
سَلَخُوا مِنْهُ النَّهَارَ فِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ يس: ٢٧. وإنما أفرد في يس كلمة «آية» باعتبار
أن الليل والنهار صفحتان لورقة واحدة أو وجهان لورقة واحدة هي (اليوم).
والنسق هناك ذكر الآية ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلِيلٌ أَنَا حَمَلْنَا ذِزْيَتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُونِ﴾
يس: ٤١^(١) وأيضاً ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا﴾ يس: ٢٣.

ولكن لاحظ النسق في سورة الإسراء، أعني النسق مع ﴿وَأَيَّتَيْنِ﴾ لاحظ
الثنائية الدائمة في الإسراء المسجدان «المسجد الحرام والمسجد الأقصى»
والرحلة إسراء ومعراج فهما رحلتان، والإفساد مرتان: ﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ﴾ ودخولان للمسجد الأقصى ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ
مَرَّةٍ﴾ والناس بين إرادتين «إرادة العاجلة وإرادة الآخرة» و ﴿كَلَّا نُبَدِّلُهُمْ
وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ ﴿وَيَا أُولَ الَّذِينَ إِحْسَنَّا﴾ والرزق بسط وقبض ﴿يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الإسراء: ٣٠ والمستغفرون البيعة يقولون ﴿إِذَا كُنَّا عِظَمًا
وَرَفَنًا﴾ ويعيدها النص مرتين ويرد عليهم ﴿كُونُوا جَارَةً أَوْ حِيدًا﴾ ويقيس
لهم القرآن خلقهم الثاني على الخلق الأول ﴿مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ﴾ والحمل في الأسفار ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وعند التهديد بالعذاب على
عدم الثبات قال ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ ضَعْفَ الْمَمَاتِ﴾ ﴿وَقُرْآنَ
الْفَجْرِ إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ كررها مرتين.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ ﴿لَيْنِ اجْتَمَعَتِ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ في موضوع تحدي الإعجاز. وثنائية ﴿بَشَرًا رَسُولًا﴾
﴿مَلَكًا رَسُولًا﴾.

وحتى فواصل الآيات غالباً ما تجمع اسمين كريمين من الأسماء الحسنی
﴿خَيْرًا بَصِيرًا﴾ ١٧، ٢٠، ٩٦ ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الإسراء: ٤٤ ﴿السَّمِيعَ الْبَصِيرَ﴾ الإسراء: ١
والرسول الكريم يجمع له السياق وصفين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الإسراء: ١٠٥
ويذكر للقرآن الكريم وظيفتين ﴿يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ﴾ الإسراء: ٩ ويستق للفاصلة
من الكلمة مفعولاً مطلقاً: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ الإسراء: ١٠٦ ﴿وَكَبِيرَةً تَنْذِيرًا﴾ الإسراء: ١١١.

(١) لاحظ النسق مع الإسراء. في هذه الناحية انه قال في الإسراء «وحملناهم في البر والبحر».

فَجَوَّ السُّورَةَ مَفْعَمَ بِالثَّانِيَّاتِ، وَفِي هَذَا النَّسْقِ جَاءَ عَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ : ﴿ءَايَاتِينَ﴾ .

فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ: عَبَّرَ النَّصُّ عَنْ ذَهَابِ اللَّيْلِ بِالمَحْوِ، فَاسْتَعَارَ المَحْوَ لِلإِذْهَابِ وَالْإِنْهَاءِ .

وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مَبْصُرَةً: إِنْ بَلَغَةَ الْقُرْآنَ تَأْبَى إِلَّا أَنْ تَفْجَأَ القَارِئُ فَكَانَ المَتَوَقَّعُ أَوْ المَقَابِلُ لِقَوْلِهِ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أَنْ يَكُونَ: وَأَتَيْنَا بِآيَةِ النَّهَارِ، لَكِنَّ النَّصَّ الكَرِيمَ تَضَمَّنَ هَذَا، وَفَاجَأْنَا بِالتَّبْيِيرِ ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أَيَّ أَتَيْنَا بِالنَّهَارِ بَعْدَ اللَّيْلِ، إِذْ هُوَ الَّذِي مَحَا آيَةَ اللَّيْلِ وَحَلَّ مَحَلَّهَا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ بَصِيرًا وَمَبْصُرًا، مَعَ أَنَّ البَصِيرَ هُوَ الَّذِينَ يَتَحَرَّكُونَ فِي النَّهَارِ مِنَ النَّاسِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْجَاسِ. وَقَدْ اسْتَخْدَمَ النَّاسُ هَذَا المَجَازَ فِي قَوْلِهِمْ «النَّهَارُ ذُو عَيْنَيْنِ». ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: هَلِ المَقْصُودُ بِهَذَا حَرَكَةُ النَّاسِ فِي النَّهَارِ لِابْتِغَاءِ الفَضْلِ أَمْ المَقْصُودُ وَجُودُ الْآيَتَيْنِ؟ وَهَذَا مَا أَرْجَحُهُ أَيُّ عَوْدِ ﴿لَتَبْتَغُوا﴾ إِلَى ﴿ءَايَاتِينَ﴾ لَا إِلَى ﴿مُبْصِرَةً﴾ فَحَسَبَ، لِأَنَّهُ لَوْلَا الرَّاحَةُ فِي اللَّيْلِ مَا تَمَكَّنَ النَّاسُ مِنْ ابْتِغَاءِ الفَضْلِ فِي النَّهَارِ فَتَقَرَّرَ فِيمَا أَرَى عَوْدَ «لَتَبْتَغُوا» إِلَى آيَةِ اللَّيْلِ وَآيَةِ النَّهَارِ وَإِنْ كَانَ عَوْدُهَا إِلَى آيَةِ النَّهَارِ وَاضِعًا بِاعْتِبَارِ أَنَّ ابْتِغَاءَ الْأَرْزَاقِ وَالفَضْلِ وَاضِحٌ فِي آيَةِ النَّهَارِ، وَهَذَا مَفْهُومٌ. لَكِنَّ الضَّرُورَةَ تَقْتَضِي الإِخْلَادَ إِلَى الرَّاحَةِ وَالسَّكُونِ فِي آيَةِ اللَّيْلِ كَمَا سَلَفَ القَوْلُ.

وَعَبَّرَ «بِالفَضْلِ» لِأَنَّهُ مَقْصُودُ أَنَّهُ عَطَاءٌ تَفْضُلًا وَتَكْرَمًا مِنَ المَوْلَى الكَرِيمِ سُبْحَانَهُ. وَالفَضْلُ الزِّيَادَةُ، وَالتَّفْضِيلُ العَطَاءُ بِلا اسْتِحْقَاقٍ. وَمِنْ هُنَا قَوْلُ النَّبِيِّ الكَرِيمِ سَلِيمَانَ لَمَّا رَأَى العَرْشَ عِنْدَهُ ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ النمل: ١٠، وَعَبَّرَ بِكَلِمَةِ «رَبِّكُمْ» لِأَنَّهُ الاسْمُ الْأَوْفَقُ لِلرِّزْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّفْضِيلِ.

وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّنِينَ وَالحِسَابَ: بِاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَدَوْرَةِ آلَةِ الزَّمَنِ يَتَحَرَّكُ النَّاسُ لِحَاجَةِ أَقْوَاتِهِمْ بِالزَّرْعَةِ وَمَوَاسِمِهَا وَبِالتِّجَارَةِ، وَبِالصَّنَاعَةِ وَالحِرَفِ، فَيَكْتَسِبُونَ الفَضْلَ، وَكَذَلِكَ يَنْتَفِعُونَ مِنْ كُرِّ الْأَيَّامِ وَالليَالِي أَنْ يَعْلَمُوا ﴿عَدَدَ السَّنِينَ﴾ فَنَقُولُ: نَزَلَتْ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ قَبْلَ ١٤٤٤ سَنَةٍ قَمَرِيَّةً.

وَأَمَّا الحِسَابُ فَمَعْنَاهُ لَا الحِسَابَ بِمَعْنَى الرِّيَاضِيَّاتِ، وَإِنَّمَا الحِسَابُ أَنْ تَحْسِبُوا الْأَوْقَاتَ وَتَحْصَوْهَا، وَحَاصِلُ هَذَا أَنْ تَعْلَمُوا الحِسَابَ كَثْمَرَةً لِهَذَا المَقْصِدِ .

وكل شيء فصلناه تفصيلاً: وقدم (كل) على (فصلناه) للاهتمام. والمقصود من (كل شيء) لا الإطلاق، وإنما كل شيء مما يلزم الناس معرفته. وليس مطلوباً من القرآن الكريم أن يفصل علوم الأرض والإحصاء والرياضيات والتجارة والهندسة بأنواعها والطب والصيدلة والأدوية.. إلخ.

وإنما هذا عام مخصوص بالعقل - فلا يعقل أن يعني بـ (كل شيء) كل شيء على الإطلاق، فهذا تتقضه المشاهدة - وإنما كل شيء كما أسلفنا مما يلزم الناس معرفته ولا يسعهم الجهل به. أي من أمور الدين. وأمور التشريع التي قد تضطرب فيها العقول.. والقيم والموازين التي تختلف من بيئة إلى بيئة ومن ثقافة إلى ثقافة ومن مجتمع إلى مجتمع ومن عصر إلى عصر. فليفتن لهذا، فبعض المتصدين يحاولون المغالطة وأنى لهم؟! وبعض البسطاء يظنون أن هذا التعميم والإطلاق شهادة للقرآن. وليست كذلك فيما أرى، كما فهموا قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام: ٣٨ أنه يعني القرآن الكريم، ولا بالطبع، وإنما هو الكتاب المحفوظ أو اللوح المحفوظ. فإذا أردنا القرآن لزم تخصيص عموم «من شيء» أي من شيء مما يلزم الناس في دينهم وتشريعهم وعباداتهم.. إلخ، أما ما ذكر من علوم وغيرها فليست من شأن القرآن ولا الكتب السماوية قبله، وما يمكن للبشر أن يتعلموه بعقولهم وبالتجربة والمشاهدة لا يتعرض له القرآن. ومما قيل في الآية من تفسير علمي أو إعجاز علمي:

سمعت من شيخنا وأخينا وأستاذنا الدكتور زغلول النجار غير مرة أن آية الليل كانت مستمرة على الأرض بمعنى أنها كانت ظلاماً لعصور وحقب.. وذلك إما بعدم دورانها حول الشمس بأن كانت في مدار آخر مثلاً، أو أنها كانت تدور حول الشمس ولا تدور حول نفسها، أو تدور بسرعة كالقمر الذي لا نعرف منه إلا وجهاً واحداً، ويدلل لهذا بأن مكتشفات الأشجار وحفريات النبات تثبت هذا.

ومع تقديري للتفسير العلمي والإعجاز العلمي الذي -بالقطع- لا أرفضه، من حيث المبدأ، لكني أتحفظ على الكثير حتى يثبت بالدليل القطعي أو القاطع، لئلا نضع قرآننا في مؤاخذات، نحن مسؤولون عنها لا هو، وحاشا

أن يُستدرك على كلام الله شيء، إنما الاستدراك على أقوالنا واختياراتنا وعدم أناتنا في العلم والمعرفة واستعجالنا في قبول الأقوال.

ويظل الدكتور زغلول علماً من أعلام الأمة إن شاء الله وعلماً من أعلام التفسير العلمي والإعجاز العلمي، وإن استدركنا بعض الأقوال فما هذا بضائره، وقد يكون الاستدراك عدم معرفة منا.

والله يهدينا جميعاً للتي هي أשוב وأقوم.

من دروس الآية ١٢

١. الكون مليء بالآيات فهو الكتاب الثاني.
٢. الليل والنهار آيتان من آيات الكون وتعاقبهما ووظائفهما كل ذلك يشهد بحكمة إلهية بالغة وراء هاتين الآيتين.
٣. من حكم الله في آية الليل السكن لتجديد النشاط وترميم الجسم والخلايا لاستئناف العمل والسعي والجهد في النهار الذي يعقب الليل.
٤. صمم الله الكون والجسم الإنساني ليكونا في نسق وانسجام وبعض الناس يسهرون الليل وينامون النهار لا لاقتضاء عملهم وطبيعتهم وظائفهم ذلك، وإنما هي برمجة شخصية ويسمون أنفسهم بطيور الليل Night Bird وأعتقد أن هذا عكس للناموس.
٥. من حكم تعاقب الليل والنهار سوى ما ذكر أن يتعلم الناس ويعلموا عدة السنين أي تواريخ الأشياء.. فنؤرخ للغزوات والمناسبات وننظم حياتنا ونشاطنا على حركة الساعة في الليل والنهار.
٦. من حكمة ورود هذه الآية بعد إفساد بني إسرائيل أن السورة تتحدث عن زوال إسرائيل وهذا له توقيت وحساب، وقد تكلم فيه كثير من الباحثين والدارسين والمؤلفين وبذلوا فيه جهداً لا يهضم بجرة قلم أو موقف رفض متسرع متعجل تعود ألا يقبل أيّ طرح جديد. ومن خير من كتب في هذا الأستاذ بسام جرار فله سوى «زوال دولة إسرائيل» وهو كتاب جيد، كتاب آخر «ولتعلموا عدد السنين والحساب».

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾
 وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾

الربط والمناسبة: هناك أكثر من وجه ربط بين هذه الآية والسياق. فأولها: الربط الظاهر واللفظي أو الشكلي إن شئت. فقد ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ وافتتحت هذه بقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ﴾ فالتقت الكليات.

وثانياً: كر الأيام والليالي والسنين سائر بالعمر إلى أجله المسمى. لتبتدئ دورة «الحساب»، فمذ يموت الإنسان يبتدئ الحساب والجزاء. من هنا قال في هذه الآية ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ﴾.

وثالثاً: هذه الحكمة البالغة في حركة الكون لا بد أن تكون متصلة بحكمة بالغة أخرى في الحساب. إذ كيف يقوم الوجود على هذه الدقة والنظام والضبط والعدل والميزان ثم يعقب ذلك أن لا حساب؟ هذا تناقض فظيع. فافتضى أن يكون إلزام والتزام وجزاء على ما يعمل الإنسان.. من هنا قال: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ﴾ فلا بد من حساب قطعاً.

المعنى: تقول الآية الكريمة إن كل إنسان سيأتي يوم القيامة وكتاب أعماله ملازم له إما بحرفية النص ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أو بلزومه واقتضائه من جزاء وتلازم بين العمل وقانون الجزاء، ولا حرج في أي الفهمين وليتحملنا من يضيقون ذرعاً بما لا يتفق مع ما ألفوا من فهم.

وكل إنسان: هذه هي المرة الثالثة التي تواجها فيها كلمة «إنسان» في سورة الإسراء. فقد سبق في الآية ١١ ذكر الإنسان مرتين. ألزمناه: جعلناه ملازماً له لا ينفك عنه.

طائره: أي كتاب أعماله، وإنما سمي طائراً إما من تطاير الكتب كما في عدد من التفاسير، وإما من التيمن والتشاؤم من حركة الطير يمنة ويسرة على اعتبار أن الناس بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه ومنهم من يؤتى كتابه بشماله.

في عنقه: ظاهر النص أن كتاب الأعمال المستسخ عن العمل نفسه معلق في رقبة الإنسان، ولا مانع من هذا بل إن عدة نصوص تؤيده، من مثل «اقرأ كتابك» زمن مثل ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطِيعُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجاثية: ٢٩، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبْدِلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف: ٤٩.

﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ (٢) في رَقٍّ مَنشُورٍ (٣) الطور: ٢ - ٣ على تفسير أنه صحف الأعمال ولعله الراجح، وغير ذلك.

ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً: إذا كان الطائر هو الكتاب فما معنى «ونخرج له يوم القيامة كتاباً»؟ أما أنه تكرار للتأكيد فغير وارد - فيما أرى-، وإنما المعنى -والله أعلم- أن طائره كأنه النتيجة، والكتاب في آخر الآية للتفصيل.

قال ابن كثير في وجه الربط للآية السابقة وفي معنى الآية: «يقول تعالى بعد ذكر الزمان، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ﴾ (الإسراء: ١٣)».

وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: من خير وشر، ويلزم به ويجازى عليه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (١٠) ﴿كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ (١١) الانفطار: ١٠ - ١١ والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً (١).

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾: أي نجمع له عمله في كتاب، يُعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً وإما بشماله إن كان شقيماً. منشوراً: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أوله إلى آخره ﴿يَبْنُو الْإِنْسَانُ يَوْمَذِي بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (القيامة: ١٣). والآية كما تلاحظ قسمان متقاربان ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾

(١) المصباح المنير.

والثاني ﴿وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ فالنتيجة فائز أو خاسر. منعم أو معذب توضع في عنقه، ويوم القيامة يؤتى بالكتاب المنشور مفصلاً. وبالذرة من النوايا أو الأعمال وبالتوقيت وبالصوت والصورة.

من دروس الآية ١٣

١. كل عمل الإنسان خيراً أو شراً صغيراً أو كبيراً مسجّل عليه في كتاب عمله وهو يلقاه منشوراً يوم القيامة. فيا ضيعة من ضييع عمره وجاء كتاب عمله مخزياً.
٢. كل إنسان يلازمه طائره أي كتاب عمله ولا يفارقه.. وبعض المجرمين يضعون في أرجلهم قيوداً لا تحل وهي ترسل إشارات تدل على مكانه فلا يستطيع الإفلات.

﴿ أَقْرَأْ كُتُبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤ ﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة تحدث السياق عن نشر الكتب، في الآخرة، بحيث يعطى لكل إنسان كتاب أعماله أو صحائف أعماله أو مدونة عمله.

وهنا يكمل الحديث بأن يقال لكل إنسان فائز أو خاسر: اقرأ كتابك يا من كنت من الفائزين لتسر بنتيجتك، ويا من كنت من الخاسرين لتغتم من نتيجتك، والعجيب أن أول الوحي ﴿ أَقْرَأْ ﴾ وأول الحساب (اقرأ) فأنت محاط بالقراءة وأنت في جو القراءة بدءاً وختاماً وما بين ذلك.

المعنى: يأمر المولى الجليل في هذا النص الكريم كل إنسان أن يقرأ صحيفة عمله فيقول له بالأمر: ﴿ أَقْرَأْ كُتُبَكَ ﴾ راجع نتيجتك ودقق بنفسك عملك، ولا مجال للخطأ بالطبع، لكنه منتهى العدل أن تراجع أنت صحيفتك بل يقال لك ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ولله المثل الأعلى. كأن تعطي طلاب فصل دراسي دفاتر إجاباتهم وأقلاماً حمراء ونموذج إجابة ثم تقول لكل طالب: صحّح دفتر إجابتك، ووراءك من يراجع فإن غالطت فأنت مسؤول وتضاعف لك العقوبة. فما أعدل من حساب وجزاء! ونسأل الله السلامة وأن نعامل بلطف مولانا لا بعملنا الضعيف الضئيل!

من دروس الآية ١٤

١. ﴿ أَقْرَأْ ﴾ أول ما نزل لتعلم وتسلك، و(اقرأ) في الآخرة لتعلم نتيجتك وتسلك سبيلك إما إلى الجنة وإما إلى النار.
٢. العدل الإلهي مطلق، فأنت يتاح لك أن تراجع نتيجتك بل أن تصحح دفتر إجاباتك ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾.
٣. شهودك أيها الإنسان منك تشهد عليك، فهل عدالة بعد هذه أعدل من هذه؟
٤. حاسب نفسك أيها الإنسان قبل أن تقف للحساب في يوم الحساب.

﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۚ﴾

الربط والمناسبة: هل هذه نقلة من الدار الآخرة إلى هذه الدار كما تكرر ذلك مراراً في القرآن، العودة من الآخرة إلى الدنيا، لتصوير سرعة النقلة ذهاباً وإياباً، فمرة ينتقل بك سريعاً من الدنيا إلى الآخرة، ومرة بالعكس لتستحضر المشاهد يا من كنت تتمنى العودة، فها هي الفرصة ما زالت متاحة لك وما زلت في البجوحة وما زال في الوقت متسع، فاغتم.

أقول: هل هذه الآية من هذا القبيل؟ أم أن الحديث ما زال في ساحة الآخرة أن من اهتدى، فإنه الآن يحصد نتيجة الهدى، ومن ضل فعلى نفسه جلب الردى، وأنه لا يحاسب أحد عن أحد ولا يحمل أحد وزر أحد. استثنى بالطبع من هدى شخصاً إلى الله فله مثل أجره، ومن أضل شخصاً عن منهج الله فعليه مثل وزره! فهذا جزء من عمله، ولا يقال لهذا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الزمر: ٧ فهذا وزره المباشر، فمن قدم المخدرات لشخص حتى أدمنها وصار أسيراً لها يتحمل كل تبعات من أغوى ورماء في هذه المهلكة. ومن زين لشخص جريمة الزنا وارتياح أماكن الفجور حتى علق بها، فكل وزر هذا في صحيفة ذاك، فهذا وزر مباشر. أما المعنى المقصود -بلا تشابه- فهو أن الابن لا يحمل عن أبيه ولا الأب عن ابنه ولا الصديق عن صديقه ولا المولى عن مولاه. كما قال المولى العظيم في خواتيم سورة لقمان: ﴿وَإِخْشَاؤُكُمْ لَا يَمَجِرُ وَالِدَعَنَ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٌّ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ لقمان: ٣٣.

المعنى: من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه: شرط وجواب.

من حقق الهدى في نفسه فلنفسه هذا الهدى وهو المنتفع الأول ولا أقول الأوحد، لأن المهتدي يعم خيره، وشجرة الإيمان تؤتي أكلها كل حين، والمؤمن كالشمس تسطع وتطلع على كل أحد، وينتفع بها ومنها كل أحد. وهذا النص يبين جلياً أن الهدى اختيار وأن الضلال اختيار، ولا مرية في هذا لكن فريقاً منا مازالوا يكابرون في المحسوس ويطرحون قضية الجبر والاختيار!

ومن ضل فإنما يضل عليها : ولاحظ التقسيم، فالقسم الأول خمس كلمات، وهذا القسم خمس كلمات، والقسم الثالث التالي خمس كلمات. ولاحظ تكرار (فإنما) المفيدة للحصر والقصر، وهي تتكون من الفاء الواقعة في جواب اسم الشرط «مَنْ» ثم «إِنَّ» المفيدة للتوكيد، ثم «ما» وهي الكافّة لـ (إن) عن عملها، بحيث تقيد بعد اتصالها بها معنى الحصر، وهي أقوى من مجرد عمل التوكيد. ولاحظ أن فعل الشرط كان بالماضي في الحالين، وجوابه بالمضارع، فكأنه إذا اتخذ القرار بالهدى والإيمان امتد واستمر إلى المستقبل، وبالعكس إذا اتخذ قراره بالضلال والكفران فإن تبعات قراره ومقتضياته تمتد وتستمر في المستقبل وإلى المستقبل.

فإنما يضل عليها: أي تبعة ضلاله على نفسه فلا يلومن إلا نفسه، فلا يقل: الشيطان أغواني، لأنه ليس له عليك سلطان لو لم تُرد! ولا تزر وازرة وزر أخرى: تكرر مثل هذا النص في القرآن، لأنه مهم. فتحمل التبعة الفردية، والمسؤولية الفردية أمر في غاية الأهمية، وعقلية الشفاعة والواسطة أفسدت الأخلاق وأفسدت الحياة وخربت الضمائر وذهبت بالعدل والمساواة وتكافؤ الفرص. ويظن الناس أن أمور الآخرة ستمضي على نسق الدنيا وعلى وتيرتها، والقرآن يلح أن يا أيها الناس إن موازين الآخرة مختلفة عن كل معهودكم. ولا تزر: ولا تحمل.

وازره: حاملة، أي نفس حاملة لأوزارها، لا تحمل أوزار غيرها. وزر أخرى: والوزر الثقل، والحمل، والتبعة، والذنب، والوزير يحمل الأعباء والمهمات الثقالة، وهو الذي يتعرض للمساءلة لا الذي عينه، فالوزر كله عليه إن جرى تقصير.

وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا: لا عقوبة إلا بنص ولا تجريم إلا بقانون، ولا نص من الله إلا على رسول وكتاب ينزل على هذا الرسول. إذا قلن يعذب الله أحداً إلا إذا أنزل القانون الذي يحاسب بناء عليه، وهذا القانون الإلهي لا ينزل إلا على قلب رسول.

فلا عذاب إلا بعد إرسال الرسول، وقد يقال: أفليس الرسل رحمة

وبخاصة خاتمهم؟ والجواب: بلى، فكيف يكون العذاب بعد الرسل؟ العذاب ليس نتيجة الإرسال ولكنه نتيجة الإهمال وإضلال الذات وتكذيب الرسول ومن أرسل الرسول، فليعلم!

وقد كانت الأقوام، كقوم فرعون يتطيلون بالرسول ومن الرسول زاعمين أن العذاب ما جاءنا إلا بعد رسالتك، والشدائد ما دهتنا إلا بعد بعثتك. فالشؤم من مصدره إذا؟

يريدون أن ينسبوا كل ما يلهم بهم ويحل بهم لا إلى أنفسهم وإعراضهم وصددهم وتكذيبهم، بل يُخلون أنفسهم من المسؤوليات والتبعات وينسبونها إلى الرسول أو الرسل، وكذبوا، بل العذاب على كفرهم. وذلك كما لو أن راكباً في سيارة يحذر السائق من أن السرعة الطائشة عواقبها الحوادث المهلكة فأصابته السيارة حادثة فطُفِق السائق يردد: إنه من شؤم هذا الراكب الذي بادرنا بالفأل السوء من بداية الطريق، ولا يردّ هذا السائق الحادث إلى مسؤوليته في السرعة الزائدة والحديث مع الركاب والانشغال بتقليب الإذاعات والرد على أجهزة الاتصال وشرب القهوة وكل ذلك أثناء السوافة. أفكلمة هي السبب في الحادث وكل هذه الأفعال ليست هي السبب؟ ولذلك يرد القرآن على مثل هذه الدعاوى من التشاؤم بالرسول بقوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢١] وطائرتهم يعني شؤمهم.

من دروس الآية ١٥

١. الهدى ثمرته لمن اهتدى، والضلال على من ضل.
٢. المسؤولية يتحملها من قام بالفعل، ومن أعظم قواعد المسؤولية في هذا الدين وفي كل القوانين: ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].
٣. لا عقوبة إلا بنص وقانون.
٤. لا مسؤولية ولا عذاب قبل بعثة الرسل.
٥. من رحمة الله بالعباد، ورحمته لا تُحدّ، ولا تقيد، أن أكرمهم بالرسول، ولم يحاسبهم إلا بعد البلاغ.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦)

الربط والمناسبة: وجه العلاقة بين الرابطة واضحة والسبب والنسب ظاهر قريب لا يحتاج إلى بحث معمق ولا نظر مدقق. فقد ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» وهذه الآية تتحدث عن وقوع العذاب بعد النذير، فهي كالتطبيق العملي للقانون الموجود في تلك الآية.

المعنى: «وإذا أردنا أن نهلك قرية»: التفسير دون معرفة جيدة بالسنن، خبط في تيه بلا معالم، فالسنن من أهم ضوابط الفهم. وهنا يتحدث السياق الكريم في هذه الآية عن أمر جلل: إهلاك جيل أو أمة من الأمم، وما ينبنى على هذا الهلاك، لأن من أهلك بسبب الكفر لم ينته عذابه بل بدأ مسلسل عذابه. فالأمر خطير جد خطير، فمثل هذا الكلام ينبغي أن يكون واضحا في العقول مستقرا في فهم المنقول أن الله لا يعذب أحدا إلا بعد استحقاق وبعد استفاد كل وسائل الإنذار، ونوح مع قومه أجلى مثال! فلولا أن الله حلیم لعجل لهم العذاب ولم يمهلهم «ألف سنة إلا خمسين عاماً» فلا يظن ظان أن العذاب يقع لأول مخالفة، وإنما سنة الله في المعذبين أنه يمهلهم حتى يكاد الذين آمنوا يفقدون صبرهم.. ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ يوسف: ١١٠ ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ البقرة: ٢١٥ فهذا الإله الحكيم العظيم الحلیم لا يعاجل الناس بالعقوبة، ولكن يمهل حتى يكون احتمال الرسل والمؤمنين معهم في النهايات. وكم تطاول الكافرون على الله ورسول الله وهزئوا من الوحي والرسالة والبعث والحساب والملائكة...؟!

وأمهلهم الله، حتى إذا جاء الأجل وغضب الحلیم بعد إمهال وحلم عظيم جاء العذاب الأليم والعظيم والإنسان ملوم ومليم؛ فيكون المعنى إذاً: وإذا أردنا إيقاع الهلاك بقرية، والمقصود من القرية

لا المعنى المستحدث لها وإنما القرية هنا قوم أو أمة أو شعب أو حضارة بأكملها.. لكن على مستوى شعب أو قطر.. كحضارة مصر الفرعونية إذ أخذ الله فرعونها وجنده وعصبته والملا الذي يستعين به.

إذا أردنا إيقاع العذاب بسبب جريمة تلك القرية من شرك وكفر وصد عن سبيل الله وإيذاء للمؤمنين يصل حد القتل والحصار. فتكون القرية قد أوجبت على نفسها العقاب وحلول العذاب.

أمرنا مترفيها: لا داعي لتفسير أمرنا بغرائب التفسير من مثل تفسير الكلمة على تشديد الميم، وهذا غير وارد في القراءات المعتبرة. ولا التفسير المتكلف للمعتزلة الذين يوجبون على الله ما يرونه هم أنه الأصلح، ففسروها باشتداد أمرهم من قولنا: أَمَرَ أَمْرُ فلان إذا قوي واشتد كما قال أبو سفيان في غزوة فتح مكة للعباس رضي الله عنهم جميعاً.

ولكن خير من هذا أن نقول: إن الله لا يأمر بالفسق ولا بالفحشاء ولا بالمنكر بل ينهى عن كل ذلك. بقي أن يكون المأمور به محدوفاً أي أمرنا مترفيها بالطاعة والعبادة والامتثال فتركوا الأمر وفسقوا.

ففسقوا فيها: الفسق في اللغة: الخروج، فيقال فسقت الرطبة و الثمرة أو الفاكهة إذا تصدعت وخرجت من قشرتها الحافظة لها، فتسارع إليها ديبب الفساد.

والفسق في المعنى الاصطلاحي لا يخرج ولا يذهب بعيداً عن المعنى اللغوي بل هو تمثل له، فالفسق معناه: الخروج عن الفطرة وعن تعاليم الدين وعن مقتضى العقل وعن عرف المجتمع المقبول في الشرع، فهو خروج شامل. ولعل أكثر ما استخدمت هذه الكلمة في حق بني إسرائيل. لأن أو كأن من معاني الفسق الخروج عن الشرع عن علم أو بعد علم.

فإذا استخدمت بحق العرب الذين لم ينزل فيهم منهج وشرع ذهب المعنى إلى الخروج عن الفطرة ومقتضى العقول والعرف المقبول، والله أعلم. فحق عليها القول: أي فاستوجبت العقوبة المقررة في قانوننا وسنتنا وكتابنا، فالقول الذي حق هو قول الله، وحكم الله في منهج الله على مثل هؤلاء العتاة الطغاة

الفسقة الفجرة.

فدمرناها تدميراً: استخدم في حق بني إسرائيل «وليتبروا ما علوا تتبيراً» وهنا استخدم التدمير، فهناك فعل عباد الله، وهنا عقوبة الله. فلا نذهب إلى أن «تتبيراً» أشد من «تدميراً». ولكن نقول أن السياق ميزهما وإن كانتا متقاربتين في الوزن والمعنى.

من دروس الآية ١٦

١. لله في الأمم والكون والمجتمعات سنن يجب مراعاتها وفهمها جيداً ونحن نفسر كلامه سبحانه في آيات القرآن.
٢. الأصل في معاملة الله للعباد الرحمة، والعذاب والهلاك ليس لأول معصية، ولكن إذا تمادى القوم الكافرون واعتدوا وتخطوا وتجاوزوا حدَّهم وطغوا وبغوا، وطال أمد تطاولهم، أخذوا، وإلا فإنها فتنة لإيمان المؤمنين فنكون عاملنا بالرحمة من لا يستحق، وفتنا المؤمن عن دينه، ومعاذ الله أن يقع ذلك.
٣. يجب فهم القرآن بأحسن ما يليق بالآية من معنى فقوله تعالى: «أمرنا مترفيها» ينبغي ألا يفهم بحال بأن الله أمر القوم ففسقوا، فالله لا يأمر إلا بالعدل والإحسان، وينهى الله عن الفحشاء والمنكر وعن البغي والظلم والفسق.. قاله إذاً أمرهم بالإيمان فتركوا أمر الله وخرجوا على كتابه وعلى فطرهم وفسقوا فاستحقوا العقاب.
٤. حلم الحليم عظيم، وعقابه وعذابه بعد حلمه، عقاب وعذاب أليم وعظيم، ولذلك قيل: اتق غضب الحليم.
٥. الترف والمترفون هم سبب تلف المجتمعات، وتعريضها للعذاب والمهلكات.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾
 ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧)

الربط والمناسبة: ذكرت الآية السابقة إهلاك القرى التي أفسدها الترف والفسق وتدمير هذه القرى. وفي هذه الآية يعدد القرآن من هذه الشواهد المعروفة دون أن يذكر تفاصيل فقد تولت سور أخرى تفصيل المهلكين مثل عاد وثمود ومدين.. إلخ.

المعنى: وكم أهلكنا: أي كثيرة هي القرى التي أهلكناها والأقوام التي عذبناها ودمرناها واستأصلناها.

من القرون: عبّر بالقرون عمن يمرون عبر هذه القرون. ويعمرون الدنيا. متلبسين بظروف الزمان في هذه القرون، فعبّر بالظرف وأراد المظروف.

وعبّر بالمحل وأراد الحال فيه، والمقصود هنا الزمان بالطبع لا المكان. وقد تكرر التعبير بالقرون عن المعذبين في مثل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ يس: ٢١، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخَشِ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ مريم: ٩٨.

من بعد نوح: هذه هي المرة الثانية التي يُذكر فيها نوح في هذه السورة. وهنا يشير إلى قومه دون ذكرهم فهم أول من أهلك، مع أن النص يقول: «من بعد نوح» فكانه لم يذكرهم لشهرة إهلاكهم ولأنفهامهم (أي لأنهم يُعلمون ويُفهمون) ضمناً من مجرد ذكر رسولهم، والله أعلم.

وكفى بربك: يكفي الله لإحصاء ذنوب العباد ومحاسبتهم عليها، وكفى به سبحانه خبيراً عالماً بدقائق الأفعال وخفايا النوايا القابعة والكامنة وراء الأفعال. بصيراً: يرى كل ما يجري من الناس في هذه الأرض من ذنوب يستحقون عليها العقوبات والأخذ.

من دروس الآية ١٧

- ١ . عجيب عدم اعتبار الإنسان ممن سبقه، ولا من كثرة الأمم المهلكة المعذبة.
- ٢ . كثيرة هي الأقوام التي عذبت بعذاب الاستئصال من لدن أول قوم أبيدوا وهم قوم نوح إلى وقت نزول القرآن.
- ٣ . أحكام الله على العباد عدل مطلق، فلا يأخذ إلا بعد صبر وحلم ولا يعجل العقوبة، فإذا أخذ، فإن أخذه أليم شديد.
- ٤ . الله يعلم دقائق وتفاصيل أفعال العباد فهو الخبير وهو البصير.

المقطع الرابع

الآيات (١٨ - ٢١)

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ
ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَحُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ١٨

الربط والمناسبة: ربما يتوهم متوهم من قراءة غير واعية للآيتين السابقتين أن هؤلاء الأقوام الذين عذبوا كانوا فاقدي الإرادة الحرة والاختيار. فجاءت هذه الآية وما بعدها تبين أن الإنسان مريد مختار، فقد يختار الفانية العاجلة وهي الدنيا وهذا نعطيه ما اختار إن شئنا.

وقد يختار الآخرة وهذا نشكر سعيه، ولا نحرم واحداً من ثمرة عمله ولا نمنع مختاراً أن يختار ما يشاء، فإن أساء الاختيار فلا يُقَلُّ إنه الإجبار بل أنت الذي اختار هذا المصير لنفسه أو لأمته إن كان اختيار الضلال جمعياً.

المعنى: تبتدئ الآية باسم الشرط «من» وبعدها الفعل الماضي الناقص «كان» ثم الفعل المضارع «يريد»، وأفهم من هذا الترتيب أنه الإرادة المسبوقة بـ (كان) والتي تفيد التبييت وسبق التصميم وقبلية القصد، وعمق الإرادة وقدم القرار والاختيار.

والمضارع وإفادته التجدد معلوم. فالإرادة تتجدد وتتقلب وتتغير. كل ذلك عبّر عنه المضارع. وأثبت حرية الاختيار وحرية المشيئة.

العاجلة: المقصود بها الدنيا. ووصفها بالعاجلة إما لقرب الأيام فيها فالغد قريب وبعد الغد كذلك، وكل إنسان يؤمل في كل يوم فرجاً ويؤمل جديداً ويتمنى الأمنى في كل يوم. وهي عاجلة لأن ذهابها وزوالها سريع وعطبها قريب. وهي عاجلة كناية عن جهوزيتها وواقعيتها وحضورها فهي حتى لا تحتاج إلى انتظار. فهي العصفور الذي في اليد وكأن الآخرة هي رف العصافير الموعود به في الغدا!

عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ: ما أجمل وأجمع وأدق وأشمل هذا النص، ولا حظ أولاً للنسق بين ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْهُولًا﴾ الإسراء: ١١ وبين ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ الإسراء: ١٨ لقد أدركه طبعه، فهو يريد العاجلة، تماماً كمن يقول: أعطني ديناراً هذا النهار ولا تعطني مليوناً بعد سنة. بالله أكون هذا عاقلاً؟

وما التجارة كلها؟ إنها شراء البضاعة وتخزينها ليكون صافي الربح في آخر السنة ١٠٪ مثلاً. ومن لا يحبون المغامرة بالتجارة يرتضي من البنوك الربوية أن يضع مبلغه مقابل نسبة ٣٪، وليس المطلوب منك أن تتخلع عن الدنيا بالكلية، فقط انزعها من قلبك. ولا ضير من أن تجمع الملايين في يدك أو في جيبك. لكن حذار من أن يدخل حبها إلى قلبك.

ومراراً كررت وقديماً قلت: المال كالماء، إن عمت فوقه حملك، وإن دخل جوفك قتلك.

فقط اطلب الآخرة وصدّق ربك أنها قادمة، لا ريب فيها، يعطك الله ما لا عين رأت. ولو وعد تاجر تاجراً وكان بينهما معاملات سابقة بأن يسدد له ثمن البضاعة بعد حين لقال على الفور: على الرحب والسعة. أفلا نثق بوعد الله كما نثق بوعد بعضنا؟ والله أصدق قيلاً، وهو لا يخلف الميعاد، ولا ينسى، ولا يشغله شيء عن شيء، فما يعوقنا أو يمنعنا أن نطلب ما ادخر عنده ونثق بأنه ملائقنا وأنا ملاقوه؟ ولا حظ «عجلنا له فيها»: ضمير (له) لتحديده بعينه فهو الذي طلب. وهو الذي يُعطى. وأما (فيها)، فإنه لما نسي الآخرة فإنه يُعامل نسياناً بنسيان، إذ يُنسى هناك من رحمة الله. ولا يلومن أحد إلا نفسه. فالمولى يقول لك: أنا أعطيت لكل سائل مسألته، فقلت أو قال أحد: أنا أريد العاجلة ولا أريد سواها. فأعطيناه ما طلب جزئياً أو كلياً أو فوق ما طمح، فلما جاء للقاء الله قال: أين نصيبى من الدار الآخرة؟ فيكون الجواب: هل كنت طلبتها أصلاً؟ وهذه «طلبتيك» موجودة في نسختها الأصلية محفوظة ضمن المحفوظات؟ «لا ظلم اليوم» تُسكت هذه الكلمة كل من يجروء على قول غير ما يقال له.

ما نشاء: أي أعطيت كما قدّرت لا كما طلب، فهو يطلب ما يشاء، وأنا أعطي ما أشاء لمن أشاء، وقتما أشاء، وكيفما أشاء!

لمن نريد: قدّم ما يُعطى على من يُعطى، لأن محور الحديث كان في طلب الأشياء وتحقيق المطالب.

ثم جعلنا له جهنم: هذا الذي جحد الآخرة وأسقطها من حسابه، سنجعل

جهنم له جزاء. ولما كان لا يؤمن إلا بالمحسوس، فسنجعله يؤمن وفق منهجه الذي ارتضاه، فنقول: ذُق. وصدق.

يصلها مذموماً مدحوراً: الملاحظة الأولى أن «يصلها» كتبت أو رسمت بألف صغيرة على ياء بين الصاد واللام، للإشارة إلى تفاوت أنواع الصلي فيها وأنواع العذاب.

مذموماً: ملاحقاً بالذم واللعن والشتيم.

مدحوراً: مقهوراً مغلوباً بلا ناصر ولا معين ولا حول ولا طول ولا قوة.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَآلَةَ﴾

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له^(١)، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات. فإنه قال: ﴿عَجَلْنَا لَهُ﴾، ﴿فِيهَا مَا شَاءَ لِمَنْ تُرِيدُ﴾، ﴿مَرْجَعْنَا لَهُ﴾، ﴿جَهَنَّمَ﴾ الإسراء: ١٨ أي في الدار الآخرة (يصلها) أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه. «مذموماً»: أي في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه إذ اختار الفاني على الباقي.

مدحوراً: مُبْعَدُاً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً^(٢). أ. هـ.

من دروس الآية ١٨

١. أقام الله الوجود على سُنن، وهذه السُنن ثابتة، فمن أراد فهم الوجود وكيف يسير، بل من أراد فهم القرآن، ومن أراد فهم مجتمعه ونفسه فإن عليه أن يفهم هذه السنن.
٢. من ضمن أهم السنن وكلها مهم: أن من أراد التقدم بمجتمعه يتقدم، ومن أراد التخلف يتأخر، ومن أراد الازدهار حققه، ومن أراد إفقار بلده

(١) اعتقد أن عبارة ابن كثير أتت بنقيض المراد. صحيح أن كل شيء متعلق بإرادة الله ومشئته الله. ولا يكون إلا ما قضاه وارتضاه، لكن الآيتين يصدد تقرير أن مرید الدنيا، في الأصل يعطاها، وليس الأصل ألا يعطاها. ومرید الآخرة يحصلها. فهناك تساوق وانسجام وتناسق بين الآيتين فلم فك ارتباطهما؟ وهناك دولة وشية كاليابان والصين وكوريا الجنوبية تقدمت تقدماً فاق الوصف. وعبارة الإمام توهم كما قلت. فاقترضى التثوية. وربما العيب من آفة سوء فهمنا. وبالتالي فليست أرى أنها مقيدة لما سواها من الآيات كما قال رحمه الله. بل هي على سنتها في الإطلاق.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني. ج ٢. ص ٣٧١.

- حقق ما أراد، ولا يحرم الله أحداً ثمرة جهده.
٣. الموفق من اختار صفقة الدنيا قائمة على أسس الدين ليضمن الفوز في الآخرة والحياة الطيبة في الدنيا.
٤. من نسي الآخرة نسيه الله من رحمته، وجزاء النسيان النسيان.
٥. ليس ظلماً أن تعطي كل سائل مسأله.. بل هو العدل كل العدل.

والدروس لا تنتهي...

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة كان يتحدث السياق عن من أراد العاجلة، وفي هذه تتحدث الآية عمن يريد الآخرة الآجلة. فهي تكميل لتلك.

المعنى: ومن: الواو إما للعطف وهو الأظهر أو للاستئناف.

من: اسم الشرط. أراد: فعل ماض هو فعل الشرط.

الآخرة: الثانية التي لا ثالث بعدها فهي الآخرة.

وسعى لها سعيها: إن طلب الآخرة لا تكفي فيه الأمانى والأحلام والتطلعات، فلا بد من سعي حثيث.

وهو مؤمن: الواو واو الحال. أي حال كونه مؤمناً، فهو مع هذه الإرادة يعمل الصالحات ويسعى جاهداً لتحقيق ثواب الآخرة، مع الإيمان الذي يملأ القلب، فماذا يكون الجزاء؟

فأولئك كان سعيهم مشكوراً: لاحظ أنه ذكر ثلاثاً من صفاتهم: إرادة الآخرة، والسعي لها، والإيمان بها وبأركان الإيمان. لكنه في الجزاء ركز على السعي. ولاحظ أيضاً أنه لم يفصل نعيمهم واكتفى بأن سعيهم كان مشكوراً. ومن شكر الله سعيه جزاء أعظم الجزاء وأعطاه أكرم العطاء.

قال عبدالرحمن السعدي: «مشكوراً: أي مقبولاً منمى مدخراً، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا فكلاً يمدّه الله منها لأنه عطاؤه وإحسانه وما كان عطاء ربك محظوراً»^(١).

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. ص ٤٣٠.

﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ
وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

الربط والمناسبة: هذه الآيات لا تحتاج إلى بيان العلاقة. فالكلام السابق عن فريقين: أحدهما أراد الدنيا وجزاه الله منها ما أراد. وفريق أراد الآخرة وشكر الله سعيه. والآية هنا تتحدث عن قانون الله في الفريقين: «كَلَّا نُمَدُّ» فكلا الفريقين يُعطى.

المعنى: يقول الله تعالى في هذه الآية إنه يعطي من عطائه لكلا الفريقين: من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة. وما كان عطاء الله ممنوعاً عمن طلبه وسأله. وهذا منتهى الكرم أن تعطي لكل سائل مسأله. فإلى لشقاوة من لم يسأل الباقي ولم يسأل إلا الفاني.

لفتة لغوية بلاغية: في الحديث عن مريد الدنيا قال: من كان يريد. وفي حالة مريد الآخرة قال: ومن أراد. فمريد الدنيا كأنه يحدث لكل مستجد إرادة جديدة، ومريد الآخرة إرادته ممتدة مستمرة دائمة. لقد عزم وأراد وانتهى الأمر.

وفي اللفتة نفسها نقول: إن مريد الدنيا جمع الماضي والحاضر: «كان يريد» دلالة على استجماع الإرادة بالمبالغة في شأن الدنيا. وكم رأينا من أصحاب إرادة في الدنيا ربما يملكون من مضاء العزيمة ما يجعل المؤمنين يشعرون بأنهم ليتهم ملكوا مثل إرادتهم. وهل يبذل الدعاة مثل جهد مرتادي القطب أو متسلقي إفريست؟ بالطبع لا.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾^(٢١)

الربط والمناسبة: بعد الكلام عن الفريقين وقانون الله فيهما التفت النص إلى المؤمنين قارئ هذا النص ليعتبروا ويزدادوا همة وإيماناً وإرادة للآخرة.

المعنى: انظر: إما بعيني البصر أو بعيون البصيرة والعقل. والأصوب الأجمع، أن تنظر بكليهما. فهذا الأمر مشاهد بالبصر ومعاش بالنظر في واقع الحياة. ومدرك بالفكر والنظر العقلي والتأمل والاعتبار.

كيف: السؤال عن الكيفية. والمسؤول عنه: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الإسراء: ٢١ أي درجاتهم في عطاء الدنيا، وهي متفاوتة جداً، فشعوب غنية عندها ثروات وشعوب فقيرة وشعوب تموت جوعاً، وشعوب بطرت معيشتها. وأفراد يملكون عشرات البلايين بلا هدف ولا رسالة، وأحوال شديدة التباين والتباعد. هذا في الدنيا التي لا تستحق الإشارة. فكيف تفاوت الآخرة؟ وهي دار التفاوت والتغابن!

ويأتي الجواب سريعاً: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٢١ كان السؤال: ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الإسراء: ٢١، وجاء الجواب زائداً على ما في السؤال: ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٢١ أي التفاوت كبير في الدرجات. فكيف إذا قارنا الدرجات بالدركات؟ إنه لا وجه للمقاربة أو المقارنة لأن البون شاسع يعز على القياس ويصعب على الحساب.

وأكبر تفضيلاً: أي أكبر في التفضيل مطلقاً وإلى ما لا نهاية من درجات الدنيا. ففي الدنيا موت ينهي كل فوت وكل سبق وكل فوارق. ولا موت في الآخرة ينهي هذا التفاوت ويضع حداً لشعور المرارة الذي يحسه المعوز وشعور التفوق الذي يحسه الواجد. هذا في الآخرة لا حد له ولا نهاية له. أما في الدنيا فالأمر يسير. فأولاً: أغلب الفارق نسبي. فالفقير ينفق على قدره ويأكل ويلبس على وسعه. والغني يأكل بمستوى ثروته. وليس بالضرورة أن

أكل هذا صحي أكثر من هذا. فإن قلة الطعام حكمة وعافية. بينما الإكثار مرض وتبغات. أضف إليه أن الفقير قد يملك راحة البال فيعوض عما فقد. أقصد إلى القول: إن التفاوت هنا إلى عوض غالباً وهناك لا عوض. ولو جئنا نعتقد مثل هذه المقارنات والمقاييس لكتبنا في هذا الصفحات والمقام لا يتسع للإطالة.

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تيسير الكريم الرحمن: «لا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها، إلى الآخرة، بوجه من الوجوه، فكم بين من هو في الغرف العاليات، واللذات المنوعات، والسرور والخيرات والأفراح، ممن هو في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم»^(١).

انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض: قال الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» في معنى هذا الجزء من الآية: «فضلنا في الدنيا في الرزق وفي الخلقة: يكون بعضهم أعمى وبعضهم بصيراً، أو يكون أصم ويكون سميعاً، ونحوه، فعلى ما يكونون في الدنيا على التفاوت يكونون في الآخرة كذلك في المنزلة والقدر عند الله» أه باختصار.

وقال الواحدي في الوجيز في تفسير الكتاب العزيز في معناها: «فضلنا بعضهم على بعض: في الرزق فمن مقل ومكثر. وللآخرة أكبر درجات: من الدنيا لأن درجات الجنة يقسمونها على قدر أعمالهم» أه. وقال الزمخشري في الكشاف في معنى: انظر: أي «بعين الاعتبار كيف يكونون متفاوتين وفي الآخرة التفاوت أكبر» أه.

وقال ابن عطية في محرره الوجيز: «آية تدل دلالة ما على أن العطاء في التي قبلها هو الرزق، وفي ذلك يترتب أن ينظر محمد عليه السلام إلى تفضيل الله لبعض على بعض في الرزق، وذكر أن الطبري قال: أعطى قوماً الطاعات، وأعطى الآخرين الكفر المؤدي إلى النار. (قلت: ولم ينقد الواحدي قول الطبري مع أنه يستحق التوقف والرد لما يثير من إشكالات نحن في غنى عنها والآية بعيدة عنها على كل حال). قال الواحدي: ثم أخبر عز وجل أن

(١) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. في مجلد واحد، ص ٤٢٠، ط ١ بيروت: دار ابن حزم ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

التفضيل الأكبر إنما يكون في الآخرة». أهـ. بإيجاز

من دروس الآيات ١٩ - ٢١

١. الناس فريقان: مريد الدنيا ومريد الآخرة.
٢. قصير النظر قليل الإيمان يسأل العاجلة وينسى الآخرة الباقية فيسأل من عجلته العطاء المستعجل، والعاقل المؤمن ذو الهممة مريد الآخرة يسأل العطاء العظيم الباقي وإن كان مؤجلاً لبعض الوقت.
٣. الكريم سبحانه يعطي كل سائل مسألته ولا يحرم أحداً من عطائه. فالخطأ فيمن لم يسأل إلا العاجلة فهو الملموم.
٤. من تأمل أحوال أهل الدنيا وجد التفاوت هائلاً وهي كلها دار الغرور. فإذا كان التفاوت في هذه الفانية بهذا القدر، فكم يكون التفاوت في الدار الباقية؟
٥. التفاوت في الدنيا نسبي غير مطلق. فقد يملك المالكون العقار والدينار لكنهم لا يملكون الاستقرار. والعكس قد تكون الجيوب الخاوية وراءها حياة صافية، ونفوس هادئة!

المقطع الخامس

الآيات (٢٢ - ٢٨)

وَقَضَىٰ رَبُّكَ

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾

الربط والمناسبة: ربما يكون التفاوت في الدنيا الذي أشارت إليه الآيات السابغات مدعاة للاغترار بالمال إلى درجة اتخاذ معبوداً... وكم من الناس يؤمنون بهذا الإله الزائف! ومن الناس من يؤله المركز. وجاءت هذه الآية تنهى وتمنع أن يتخذ مع الله إله آخر: لأنه لا إله إلا الله.

المعنى: لا تجعل: المخاطب سيد المخاطبين ثم من بعده سائر المخاطبين. وأما «لا» فهي الناهية التي تجزم الفعل بعدها. تجعل: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة الجزم السكون الظاهر على الآخر، والجعل هنا بمعنى اتخاذ أو التصيير على ما هو أصل المعنى. لا تجعل مع الله إلهاً آخر: لا إله إلا الله ولا إله مع الله، فلا تجعل أيها الإنسان ولا تتخذ إلهاً آخر مع الله. لأنه لا واقع له ولا حقيقة له، ولأن اتخاذ هذا الإله تحقير لك يا من تتخذ. وسلب الكرامة منك وعنك.

فتقعد مذموماً مخذولاً: فتقع في الذم والخذلان، وكلمة ﴿فَتَقْعُدَ﴾: الفاء في جواب الشرط والجزاء، والفعل بعدها منصوب بأن مقدرة. وأما اختيار ﴿فَتَقْعُدَ﴾ لدلالاتها على الارتكاس والخذلان، وأن فاعل هذا الاتخاذ لا تقوم له قائمة، وهو إنما اتخذ من أجل أن تقوم له هذه القائمة ويُنصر ويُعتز بهذا الذي اتخذه فباء بالنقيض.. بالقعود والخذلان فلا ناصر بعد الله عز وجل.

قال البيضاوي في أنوار التنزيل وأسرار التأويل: «لا تجعل: الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته أو لكل أحد. فتقعد: فتصير. مذموماً مخذولاً: جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى. ومفهومه أن الموحد يكون ممدوحاً منصوراً» أ. هـ. بإيجاز.

وقال أبو حيان في بحره المحيط: «القعود هنا عبارة عن المكث أي فيمكث في الناس مذموماً مخذولاً، كما تقول لمن سأل عن حال شخص: هو قاعد في أسوأ حال، ومعناه مكث ومقيم، وسواء كان قائماً أم جالساً، وقد يراد القعود حقيقة، لأن من شأن المذموم والمخذول أن يقعد حائراً متفكراً، وعبر بغالب

حاله وهي القعود .

وقيل: معنى فتقعد فتعجز، والعرب تقول: ما أقعدك عن المكارم. (قلت: ما تصلح أن تكون استفهامية أو تعجبية). والذم هنا لاحق من الله ومن ذوي العقول. والمخذول: الذي لا ينصره من يحب أن ينصره» أ. هـ. بإيجاز.

قال ابن كثير: «والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً فتقعد مذموماً على إشراكك مخذولاً لأن الرب لا ينصرك» أ. هـ. بإيجاز.

قلت: هذا من ساداتنا ابن كثير وغيره رحمهم الله تأدب مع الرسول. لكن - مع الاحترام والتقدير - فاتهم معنى مهم، هو أنه لا أحد فوق القانون الإلهي. وأن النبي عليه أزكى الصلوات، عبد، يخاطب كما يخاطب العبد، وما قول ساداتنا في قوله تعالى في حقه عليه الصلوات وعلى إخوانه الأنبياء بالنص والتحديد ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴿الزمر: ٦٥ - ٦٦﴾، فهل المخاطب أيضاً وفي أمثال هذه الآيات، وهو كثير، هل المخاطب الأمة كما يقول ابن كثير أو المكلفون كما هي عبارته؟ وهذا لا يخرم من تقديرنا لساداتنا مقدار ذرة، فهم الأصل وهم الأصوب والأصفي، ولا يمنعنا الأدب معهم من أن نقول ما نعتقد أنه الحق.

من دروس الآية ٢٢

١. أعظم حقائق الدين: التوحيد.
٢. أخطر معاصي الإنسان: الشرك.
٣. الشرك نظرية فاسدة لتبرير استعباد البشر للبشر.
٤. من يشرك يعتقد أن أصحاب القوة الذين يشركهم، يمكن أن ينفعوه ويرفعوه، فيبوء بالخذلان.
٥. لو فكر من يشرك لحظة ما وقع في الشرك، فهذا المزعوم شريكاً، ماذا خلق من الوجود؟ وهل يملك يوم القيامة شيئاً؟
٦. الشرك ارتكاس في العقل والفطرة والشعور والنفس والأخلاق والمشاعر.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ
الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا
قَوْلًا كَرِيمًا ١٣﴾

الربط والمناسبة: قد تبدو الآية في فهم وجه ارتباطها تحتاج إلى
إعمال عقل وجهد، والأمر أيسر.. فبعد حق الله عز وجل حق الوالدين. وهذا
مطرد في القرآن، ففي الأنعام: ﴿لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الأنعام: ١٥١،
وفي لقمان: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ وَصَيْنَا الْإِنْسَانَ
بِرَبِّدِيهِ لقمان: ١٣ - ١٤، وهنا في الإسراء، فهي قضية منهجية مطردة والشرك
ظلم وعقوق لحق الخالق، وعقوق الوالدين ظلم لحقهما كذلك. أضف إلى
النسق مع جو السورة: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الإسراء: ٥٠، قال السعدي في
وجه الربط: « لما نهى تعالى عن الشرك أمر بالتوحيد » أ هـ.

المعنى: وقضى ربك: تأتي القضاء في اللغة والشرع بعدة معانٍ. فمعنى
«وقضينا» التي سبقت هذه: أعلمنا، ومعنى «وقضى» هنا: ألزمتنا وأوجبنا،
ويأتي القضاء بمعنى القدر، ويأتي القضاء بمعنى الحكم والفصل بين
متنازعين، ومعاني أخرى. لكن المعنى المناسب كما أسلفنا هو: أوجبنا وألزمنا
وفرضنا. قال السعدي: « وقضى قضاءً دينياً وأمر أمراً شرعياً » أ هـ.

ربك: واضح أن الأنسب هنا هو لفظ الربوبية المفيد معنى التربية
والإيجاد. ألا تعبدوا إلا إياه: ما قضاه الله هو أن لا يعبد المكلفون إلا هو
سبحانه، ومفهوم العبادة شامل مطلق لكل أنواع التعبد، سواء بالشعائر
التعبدية من صلاة ودعاء وتقديم هدي وحج ونذر، إلى غير ذلك، أو كل
عمل يتوجه به إليه وإن لم يكن له سمة الشعائر التعبدية المحددة من أركان
العبادات، والعبادة هي الطاعة مع الخضوع والامتنال والحب. وكل طاعة
فيما لم يأذن به الله عبادة، لكن لغیر الله، رأيت إلى قول الله عز وجل:
﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١، وكما بين

النبي ﷺ أنهم قد أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال، فتلك عبادتهم إياهم. يقول سيد قطب رحمه الله: « لفظة قضى تخلع على الأمر معنى التوكيد إلى جانب القصر الذي يفيد النفي والاستثناء ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الإسراء: ٢٣، فتبدو في جو التعبير ظلال التوكيد والتشديد ». أهـ.

وبالوالدين إحساناً: كلمتان عظيمتان جامعتان تشكّلان دستوراً ومنهاجاً في العلاقة بأقرب الخلق إلى الإنسان وهما الوالدان. ولاحظ التعبير، فأولاً هذه الواو العاطفة حقاً على حق وواجباً على واجب، فأعظم بحق الوالدين أن يعطف على حق الله عز وجل، ويكفيه هذا شرفاً. ثم لاحظ تقدم الباء المفيدة للإلصاق، أي ليكن الإحسان متصلاً بكل معاملة يعامل بها الوالدان. وقدّم الوالدين على الإحسان إليهما، وتقديمهما ليدل على تقدمهما في كل شيء. والتعبير بالوالدين دون الأبوين مقصود بالطبع، ففي مواقف البر والإحسان يعبر بالوالدين، وفي مواقف المعاملات والمواريث يعبر بالأبوين.. فتأمل!

إحساناً: والإحسان بلوغ الأكمل أو الكمال في كل شيء. والحديث الشريف الصحيح عن سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان ينبغي أن يكون حاضراً في فهم معنى الإحسان. حيث قال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه...».

إما يبلغن عندك الكبر: إما للاحتمال، ولذلك تقتصرن -أحياناً كما هنا- بـ «أو».. وأحياناً بإما. ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ طه: ٦٥ وتأمل ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ واقترباها بالنون المشددة، فكأن الوالدين في مسير بانتظار بلوغ خط النهاية، فإن وصلاً فإنه الفراق، فالصبر هو الترياق، إن بدا منهما خرف أو تدخل أو شدة في المعاملة أو غلظ في الأخلاق، ففارق السن، والكبير مع المرض يصبح حساساً، وانقضاء أثرابه يشعره بالتوحد فتزداد مشاعره السلبية، والناس تعمل وهو كلٌّ على غيره، فمجمّل أحواله يقود إلى مزيد من التحسس والضيق، فليُعامل بالرفق واللين وأن لا يشعر إلا بالكرامة؛ لأن ضيقه يتضاعف إن تضايق الناس من ضيقه. باختصار هي مرحلة عمرية مفعمة بالحساسيات وعلاجها الصبر والإحسان والتفاهم وحسن الأخلاق..

حتى يقضي الله أمره ويكون افتراق، وعندها يشعر الولد كم خسر بفراق الوالدين كليهما أو أحدهما .

ولاحظ تقديم «عندك» على «الكبر».. ليدل بالإشارة اللطيفة أنهما أو أحدهما يجب أن يكونا أو يكون عندك. ومعاملة الأولاد للوالدين في هذه الأيام المادية، أو المادي أهلها، أصبحت صفحة سوداء في سجل الإنسانية. فكم تتراجع مساحة البر والإحسان والصلة إلى فتور ونفور وحسابات ضيقة أنانية، وكم تتدخل نساء الأولاد في تقرير مصير الوالدين! وأصبح الملجأ من أسف علاجاً، وهو مشكلة ما لم يكن الكبير بلا أولاد بالطبع. وساعتئذ فالعائلة أولى به من إخوة أو أخوات، أي لهذا الكبير.

على كل حال يفترض أن يكون الأولاد قد اتخذوا القرار من بدء الحياة أن المحيا معهما والممات دون إهانتهم أو إهالة تراب النسيان على إحسانهما! وليتذكر من لا يريد أن يتذكر أن العقوق من الكبائر الموجبة للنار، وأن الإحسان لهما من أعظم موجبات الجنة، فوازن بين جنة أو نار. والعاقل من يحسن الاختيار، ولتعلم الزوجة أن دون عقوق الوالدين حز الحلاقيم أو إنهاء الحياة الزوجية إن أصرت على إبعادهما، فهل يلقي بهما في الشارع من أجل راحة الزوجة؟ يستحيل بالطبع. ولتفهم هي أيضاً أن والديها إن لم يكن لهما أحد أنهما في الرعاية كوالديه تماماً، فالغرم بالغنم إن جاز التوصيف. أحدهما أو كلاهما: أي قد يبلغ عندك الكبير أحد الوالدين أو قد يبلغان الكبير معاً ويعمران عندك.

فلا تقل لهما أف: «لا» نهى بعد الفاء الواقعة في جواب الشرط المستفاد من «إن» المتضمنة في «إن ما». وهذا النهي عن أبسط ما يمكن أن يكدر خاطر الوالدين ويعكر صفو نفسيهما وهو كلمة «أف»، وهي أقل ما يتصور من اللغة في تصوير معنى الضجر والتعبير عن الضيق والسخط. فإياك أن تقول لوالديك كلمة من عيار أف وهي أخف ما يمكن في اللغة، فلم تتطق جملة من اللغة تفيد معنى من مثل: «لا تتدخل في شؤون البيت» أو «الزما حديكما» أو شيئاً من هذا، لا، وإنما أقل بكثير، كلمة من حرفين تعبر اصطلاحاً وعرفاً عن

تضايق وتأفف واستثقال وضجر . فإذا كان الأقل والأخف في دائرة الحظر، فكيف الأثقل والأطول من القول وما أفهم بصريح العبارة؟ إن «أف» قد نؤولها بأنه ضجر من الغلاء أو الأحوال العامة، فتضيق الكلمة وأثرها، لكن ماذا تقول في كلمة موجهة تنيد جملة ومعنى وقضية؟

هذا الدين لطف كله وأدب كله وذوق كله، وهو يحرص كل الحرص على حسن العلاقات وخاصة مع هذه الدائرة اللصيقة بالإنسان والأوجب للإحسان، وهما الوالدان.

ولا تتهرهما: واو عطف أعقبها «لا» ناهية أخرى معطوفة على الناهية الأولى، وهذه أثقل من تلك.. فلئن كانت تلك إشارة فهذه عبارة. فالنهر والانتهار: الزجر.. قال في اللسان: « والنهر من الانتهار، ونهر الرجل ينهره نهراً، وانتهره زجره » أهـ. بإيجاز.

وقل لهما قولاً كريماً: بدل التأفف والنهر والزجر، أرشد المولى إلى الكلام الذي فيه التكريم وعليه من الله الأجر، فقال قل لوالديك قولاً تكرمهما به أو تعبر عن إكرامهما من خلاله وعن تقديرك لهما من دلالة هذا القول. وكل قول فيه غنى في الدلالة على المشاعر ودفء الود، هو قول كريم وهو قول طيب وقول حسن.

والكلمة الحسنة مع الخلق حسنة، ومرضاة للرب.. فكيف مع الوالدين؟ وقد يقال هذا واجب.. فليكن، ألسنت في القيام بهذا الواجب قد امتثلت أمر الله؟ إذا ففي امثالك أجر. أرايت لو عصيته أكان عليك وزر؟ نعم.. إذا أنت تكرم والديك ولك من الله الأجر والثواب الجزيل. والحمد لله رب العالمين على عطائه الكريم أن نسعد والدَيْنا ونسعد أنفسنا وبيوتنا، ونشيع المحبة والسلام الاجتماعي والأسري ونؤجر!

قال ابن عاشور في التحرير والتوير: «افتتحت هذه الأحكام والوصايا بفعل القضاء اهتماماً به وأنه مما أمر الله به أمراً جازماً وحكماً لازماً. وليس هو بمعنى التقدير^(١)، لظهور أن المذكورات هنا مما يقع ولا يقع.

(١) قال ابن عاشور: بمعنى التقدير كقوله (وقضيناً إلى بني إسرائيل) ولم أثبت في الأعلى لأنه قد يلتبس معنى «التقدير» بمعنى الجبر. مع أن قصده هو أنه سيقع لا من باب الإلزام ولكن من باب أن علم العلام لا يتخلف.

و «أن» يجوز أن تكون تفسيرية لما في «قضى» من معنى القول. ويجوز أن تكون مصدرية مجرورة بباء جر مقدرة، أو قضى بأن لا تعبدوا» أ.هـ. بإيجاز. وقال في الظلال وأوجز ما قال: «إن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالآحياء، توجه اهتمامهم القوي إلى الأمام، إلى الذرية. وقبلما توجه اهتمامهم إلى الوراء إلى الأبوة. إلى الحياة المولية. ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتتعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات... ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء. إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف! وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد بعبادة الله. ثم يأخذ السياق في تظليل الجو كله بأرق الظلال وفي استجاشة وجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان. والكبر له جلاله. وضعف الكبر له إبحاؤه...» أ.هـ. بإيجاز. قال السعدي في التيسير: «وبالوالدين إحساناً: أي أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القولى والفعلى. فلا تقل لهما أف: وهذا أدنى مراتب الأذى. نبه به على ما سواه» أ.هـ. بإيجاز.

من دروس الآية ٢٣

١. عقوق الوالدين كبيرة، وبرهما من أعظم أسباب دخول الجنة.
٢. اقتران بر الوالدين بعبادة الله في مواضع عدة في القرآن يدل على عظيم شأن بر الوالدين، فالشيء يُعرف إما بنقيضه وإما بقرينه.
٣. الحياة شبكة علاقات وأوثق العرى بعد عروة الإيمان وتوحيد الخالق العلاقة بالوالدين ثم الأقارب ثم الجيران ثم بقية المجتمع.. ومن كان في علاقته بوالديه غير كريم ولا بار أشك أن يكون صالحاً لوطنه، وقديماً قلت: من لا يبر أباه وأمه لا يبر الوطن والأمة.
٤. درجة التهذيب في هذا الدين تفوق الوصف، فإذا كان ينهى عن مجرد حرفين هما كلمة «أف» فأى درجة راقية من التأديب والتهذيب بلغ هذا

الدين بأَمّته؟ وأي مبلغ من الصقل والصياغة صاغ أفراد مجتمعه؟
 ٥. من أسوأ صور النفاق الاجتماعي أن يكون الرجل مجاملاً ممتازاً مع
 الأصدقاء و «الشَّلَّة» كما يُقال، فإذا جاء إلى العلاقة المأمور بإحسانها
 من الله، كان خشناً غليظاً فظاً «دَفْشاً» «طَفْشاً»! من لم يكن مع والديه
 حنوناً كريماً فعلاقاته الناجحة الأخرى مزوّرة متصنّعة كاذبة!

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ
وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

الربط والمناسبة: ما يزال النص الكريم يوصي بالوالدين. فقد نهانا في الآية السابقة عن شيئين: التأفف والانتهاز. وأمرنا فيها أي في الآية السابقة بشيء في مواجهتهما وهو أن نقول لهما قولاً كريماً. ويواصل في هذه الآية بأن يأمرنا بشيئين: الأول في مواجهتهما سوى القول وهو التواضع بل التذلل لهما وأمامهما. والآخر بيننا وبين الله ولا بأس إن كان أمامهما وهو الدعاء لله أن يرحمهما على تربيتنا صفاراً.

المعنى: واخفض لهما جناح الذل من الرحمة: كناية عجيبة أو استعارة رائعة، فخفض الجناح كناية عن اللين والتواضع والترفق واللفظ والتذلل بين يديهما. وقوله «من الرحمة» إما أن تكون متعلقة بما قبلها. أو تكون «من» بمعنى بسبب الرحمة. يقول صاحب الظلال رحمه الله: «هنا يشف التعبير ويلطف ويبلغ شفاف القلب وحنايا الوجدان وكأنما للذل جناح يخفضه إيذاناً بالسلام والاستسلام» أ.هـ. بإيجاز.

وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً: لأننا لا نستطيع الوفاء بحقهما ولا نقدر أن نجزيهما، فنكل أمر جزائهما إلى الله عز وجل الذي يملك هذا المقدار العظيم من الجزاء. هما رعياني يوماً بيوم بل ساعة بساعة. وكبرت بين أيديهما قليلاً قليلاً حتى استقلت وعملت في هذه الحياة وكددت وكددت وهما تقاعداً أو قعدا عن الكسب بعد أن كانا معيليّ أصبحنا أنا الآن معيلهما.. لقد تبدلت الأدوار.

لكن الفضل لا يقدر، أعني فضلهما فهو سابق وبلا حدود، وعطاؤنا نحن محدود، وعواطفهما ومشاعرهما في تنشئتنا أعظم من أن تحسب بالحساب المادي والأرقام، فنكل كل ذلك إلى العلام سبحانه. من هنا جاء هذا الدعاء بالأمر: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ الإسراء: ٢٤، ولا حظ ﴿رَبَّيَانِي﴾ فهما بعد الله كانا يربياني ويرعياني، فاجزهما خير الجزاء وأعطهما أوفر عطاء.

قال الشيخ العلامة أبو زهرة في «زهرة التفاسير»: «واخفض لهما جناح الذل: الجناح هنا هو الحياطة والرعاية، وشبهت هذه المعاني بالجناح الذي يكون به قوة الطائر، وإضافة الذل إليه لتكون الرعاية ذلاً لهما، وتواضعاً من غير استكبار. وأن ذلك التواضع والانكسار من الرحمة لا من الذلة، بل من الرحمة. وأن هذا التعبير أعلى ما يمكن من تعبير العطف والرحمة» أ.هـ. بإيجاز.

وقال الشيخ الشعراوي في تفسيره: «الطائر يرفع جناحه يرفرف به إن أراد أن يطير، ويخفضه إن أراد أن يحنو على صغاره، ويحتضنهم، ويغذيهم، وهذه صورة محسنة لنا، يدعونا الله سبحانه أن نقف بها وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة، فنحنو عليهم ونخفض لهم الجناح، كناية عن الطاعة والحنان والتواضع لهما، وإياك أن تكون كالطائر الذي يرفع جناحيه ليطيّر بهما متعالياً..» أ.هـ. بإيجاز.

من درس الآية ٢٤

١. لا يُعامل الوالدان بالعزة، معاذ الله، إنما يعاملان بالتواضع والتذلل.
٢. ولا يُعامل الوالدان بالجفاء والتعامل الرسمي كما يقال، إنما يعاملان بالحنان والرحمة، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وهل جزاء التحنان إلا التحنان، وهل جزاء الإكرام إلا الإكرام؟
٣. مهما قدم الإنسان للوالدين في محاولة مقابلة إحسانهما فهم أعظم عطاء، وهو المقصر، فالباقي الذي قصرنا فيه الله يوفيه.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾

الربط والمناسبة: كان النص الكريم في الآيتين السابقتين يوصي بالوالدين، وفي هذه الآية يعقب بأن الله يعلم ما في نفوسكم. أي من خير وإيمان، إن كنتم مستجيبين للأمر السابق وغيره فإن الله يغفر لمن قصر منكم، ورجع إلى الحق، فالتقصير من البشر متوقع.

المعنى: للمرة الخامسة في هذه الصفحة من سورة الإسراء تتردد كلمة «رب» لكن هذه المرة مضافة إلى ضمير الجمع المخاطب «كم».. وقد ورد قبلها ٣ مرات «ربك» ومرة «رب» ومرة بعدها «لربّه»، ودائماً يلحظ معنى التربية والتعهد في استحضار الاسم الكريم «الرب».

أعلم بما في نفوسكم: إن الرب الجليل عز وجل هو أعلم بما تَكُنْ أنفسكم وتخترن ضمائركم وأفئدتكم من يقين وإيمان ونوايا طيبة أو غير ذلك، وبخاصة فيما يتعلق بالموضوع مدار الحديث وهو بر الوالدين. بقي الكثير مما ينبغي أن نقول لكن أقول: ﴿نُفُوسُكُمْ﴾ لم ترد قبل هذه الكلمة في القرآن، وقد تَفَاجأ إذا سألتك: هل تعلم أنه لا توجد في القرآن كله كلمة ﴿نُفُوسُكُمْ﴾ إلا في هذا الموطن؟

إن تكونوا صالحين: أي إن أكنتم نية الصلاح واستحضرتم الخير نحوهم أو مطلقاً. فإنه كان للأوابين غفوراً: فإن الله كان لمن قصر منكم أو أخطأ ثم رجع إلى جادة الصواب، فإن الله كان لهؤلاء غفوراً. ولاحظ أنه لم يعبر بالضمير (لهم) أو (لكم) وإنما قال (للأوابين) لاستحضار سبب المغفرة وعلتها. ولا مبالغة في أسماء الله وصفاته، لكن اللغة تقول إن صيغة «فعلول» تفيد المبالغة أو الكثرة في الصفة والقوة فيها أي قوة العفو والمغفرة.

قال البيضاوي في أنوار التنزيل: «ربكم أعلم بما في نفوسكم من قصد البر إليهما، واعتقاد ما يجب لهما من التوفير، وكأنه تهديد على أن يضمرا لهما كراهة واستثقالاً. إن تكونوا صالحين: قاصدين الصلاح، للأوابين:

للتوابين. غفوراً: ما فرط منهم، وفيه تشديد عظيم، ويجوز أن يكون عاماً لكل تائب، ويندرج فيه الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره»^(١) أ. هـ.

وقال الخازن في لباب التأويل في معنى الأوابين: «الذين يصلون صلاة الضحى، وروى عن ابن عباس الذين يصلون بين المغرب والعشاء، وهي صلاة الأوابين» أ. هـ. بإيجاز.

قلت: هذا تفسير ببعض المعنى أو ببعض صور المعنى، وإنما معنى الأوابين: العائدين إلى الله من شرورهم وشرورهم، والتائبين إلى الله من ذنوبهم.

من دروس الآية ٢٥

١. النفس مستودع المشاعر والمضمرات خيراً أو شراً.
٢. الله تعالى أعلم بما تكنّ هذه النفوس من صلاح أو فساد ومن خير أو شر ومن نوايا صلة وبر، أو قطيعة وعقوق، ويجزي بما يعلم عز وجل وبما يعمل أصحاب هذه النوايا والضمائر.
٣. البشر طبعهم الخطأ، ومتوقع منهم التقصير، والله الغفور يغفر لهم ذلك طالما كانوا رجّاعين إليه أوابين بين يديه، توابين من تقصيرهم.

(١) كنت أود لو قال البيضاوي رحمه الله بدل جنايته على أبويه: تقصيره في حق والديه. وقوله لوروده على أثره: أي لورود التعقيب على أثر الكلام عن التعامل مع الوالدين.

﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يُبْدِرْ بُدِيرًا﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة عَقِبَ على الإحسان للوالدين بعلمه تعالى بكل نواياكم، وهنا يتحدث عن ترجمة لهذه النوايا التي تستكن في الأنفس بالأمر بالإيتاء لذي القربى والمحتاجين.. ولاحظ أنه بدأ بالوالدين وثنى بذوي القربى.. على نهج سورة النساء.

المعنى: فات ذا القربى: أعط ذا القرابة أو صاحب القرابة منك، ولم يقل النص الكريم (قريبك) أو (القريب)، وإنما عبّر بـ «ذا القربى» أي صاحب أي درجة من درجات القرابة، فتوسعت الدائرة، ولكن يحدّد أولوياتها قدرتك على العطاء. وقدّم «ذا القربى» على حقه لأنه الأهم، لأن القرابة هي السبب في هذا الحق وهذا العطاء.

«حقه»: ما أعظم هذا الدين بكل ما فيه، وهذا القرآن بكل آية فيه، ومن أجمل ما فيه، هذا الانتقاء المعجز لألفاظ اللغة المعبر عن المعاني المطلوب توصيلها، فليس ما تعطيه منّة أو تفضل، لا، ولكنك تعطي الحق لأصحابه. وهذا فيه مطامنة من كبرياء المعطي، وجبر لنفسية الآخذ، فلست تأخذ فضلة أو تفضلاً وإنما تأخذ حقك، تأخذه بعزة نفس، لا انكسار فيها ولا خفض، ولا غشاً من قيمتك وقدرك.

«والمسكين»: وعطف على ذي القربى المسكين، ولم يُعَدِ الحق، فهم جميعاً مشتركون في كون ما يأخذون حقاً لهم، فلا داعي لإعادة كلمة «حقه»، والمسكين: من سكن عن الحركة لقلة ذات يده. فإنما يضرب في الأسواق من ملك المال، فمن لم يملك لم يتحرك، وسكن من السكون ضد الحركة لا من السكينة، والله أعلم.

وابن السبيل: من انقطعت به السبيل في التجارة أو السفر أو الحج أو الزيارة، ولاحظ التعبير المدهش «ابن السبيل» فكأن السبيل ولدته أو جاءت به. وقد يكون هذا في بلده مقتدراً غنياً أو تاجراً كبيراً، فتسرق حافظته مثلاً فيتعطل عن سفره أو يضيع تذكرة سفره، أو تتعطل مركبته وليس أخذاً أهبطه

لذلك التعطل، والصور كثيرة واختزلها القرآن بكلمة «وابن السبيل».

ولا تبذر تبذيراً: ولا تبثر المال بعثرة هنا وهناك، وتتفق بلا خطة ولا تنظيم ولا ترتيب أولويات ولا تقدير لمستوى دخلك ومستوى معيشتك، لا تفكير في ادخار للطوارئ. فهما يكن الدخل فإنه من الواجب التفكير في الادخار.

وهذا النهي في ختام الآية هل يقصد منه لا تبذر في الإعطاء لهؤلاء، أم المقصود ولا تبذر في مصروفك فلا يظل لهؤلاء، أم المقصود كل احتمالات المعنى؟ وهذا ما نرجح. بل أعم مما قلنا. وليكن نهجك في الحياة مطلقاً عدم التبذير، فكأن الختام كلام عام يتعلق بالآية بالقطع ويزيد على ما تضمنت الآية من قضية الإنفاق. والتبذير: من البذر والبدار أي الإنفاق كيفما اتفق على ما هو لازم وغير لازم، أما الإسراف فالمبالغة في الشيء، فبدل أن تشتري كمية محدودة من اللحم أو الفاكهة تشتري أضعاف المطلوب، والله أعلم.

قال الشوكاني في فتح القدير: «معنى حقه: المراد بالحق الحق المالي. ولا تبذر تبذيراً: التبذير: تضريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه، وهو الإسراف المذموم لمجاوزته الحد. أو هو الإنفاق في غير الحق وإن كان يسيراً» أ.هـ. بإيجاز.

قلت: وقوله «هو الإسراف» فيه قدر من التجوز، وإلا فإن الإسراف غير التبذير، وإن التقيا في التجاوز.

وقال الشيخ الشعراوي في تفسيره مستحضراً بعض فقه علمائنا واستباطهم من الآية: «كان بعض فقهاء الأندلس إذا منع الرجل زكاة تقرب من النصاب أمر بقطع يده كأنه سرقة، لأن الله سبحانه أسماه حقاً، فمن منع صاحب الحق من حقه فكأنما سرقة منه...» أ.هـ. بإيجاز.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧)

الربط والمناسبة: المناسبة بين الآية هذه وسابقتها أوضح من أن يحتاج فيها إلى بيان، فختام تلك كان النهي عن التبذير، وفاتحة هذه تقرير أن المبذرين كانوا أشباه الشياطين وإخوانهم.

المعنى: إن المبذرين: أول ما يلفت النظر أن النهي كان عن التبذير بالخطاب المفرد «ولا تبذر» وفي هذه، وهي ما أسميه تقعيد القاعدة في التبذير، جاء الكلام عن الجمع «إن المبذرين»، وكلا الأمرين أبلغ في محله.. فالنهي الفردي أبلغ، والتقنين بصيغة الجمع أبلغ؛ لأن الظواهر الفردية تصبح في النهاية ظواهر مجتمعية أو اجتماعية. لكن لاحظ ملاحظة: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢٧) ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧) الإسراء: ٢٦ - ٢٧. بدأ الكلام عن التبذير فردياً وختمه جماعياً، وبدأ الكلام عن الشياطين جمعياً وختمه فردياً.. فكأن الشيطان المفرد عود إلى بدء الكلام عن المبذر المفرد، والله بدقائق كلامه أعلم. وإخوان الشياطين أي أشباههم أو قرنائهم ونظراؤهم أو أصدقائهم.

وكان الشيطان لربه كفوراً: الفعل الماضي الناقص «وكان» تفيد الاستقرار في الشيء والقدم والتأصل فيه، وإنما عاد إلى الشيطان بالمفرد لأن الشيطنة بدأت ظاهرة فردية. فأول من كفر كان إبليس، ثم كرت السلسلة وتالت. وقدم «لربه» للاهتمام. فهي تفيد شدة الإنكار أن يكفر هذا الرب المتفضل عز وجل. قال أبو زهرة في زهرة التفاسير: «الأخوة التي تعقد بين المبذرين والشياطين تكون من وجوه: الوجه الأول: أن الإسراف يضيع الحقوق، والشياطين يحرضون على ذلك، والوجه الثاني: أن التبذير إضاعة رزق الله في غير نفع، بل في ضرر، وهذا يرضي الشيطان. والوجه الثالث: أن التبذير كفر للنعمة والشيطان يحث على ذلك» أ هـ. باختصار.

وقال أبو حيان في البحر المحيط: «وأخوة الشياطين كونهم قرنائهم في

الدنيا وفي الآخرة. وتدل هذه الأخوة على أن التبذير هو في معصية الله، أو كونهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف في الدنيا» أ.هـ. بإيجاز. وقال الخازن في اللباب في معنى إخوان الشياطين: «أمثالهم في الشر، وهذا غاية المذمة، والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم: هو أخوهم. وكان الشيطان لربه كفوراً: أي جحوداً للنعمة فما ينبغي أن يطاع لأنه يدعو إلى مثل عمله» أ.هـ. بإيجاز.

وقال البيضاوي في أنوار التنزيل في معنى إخوان الشياطين: «أمثالهم في الشرارة، فإن التضييع والإتلاف شر، أو أصدقاءهم، أو أتباعهم لأنهم يطيعونهم في الإسراف والصرف في المعاصي. وكان الشيطان لربه كفوراً: مبالغاً في الكفر به، فينبغي ألا يطاع» أ.هـ. بإيجاز.

من دروس الآيتين ٢٦-٢٧

١. المال عصب الحياة، هذا صحيح، ولذلك يجب صيانتها، ومن مقاصد الدين حفظ المال وتمية المال وتزكية المال وإعطاء حق الله من المال، وعدم التعبد للمال، وإنما التعبد لله بإنفاق المال.
٢. التبذير داء خطير، ولذلك نهى القرآن والسنة عن التبذير، ولن تجد مثل التفسير من التبذير المتضمن في تشبيهه المبذرين بالشياطين أو عدّهم نظراء لهم.
٣. دوائر إنفاق المال بعد العيال والوالدين يأتي حق ذي القربى والمحتاج من المساكين وابن السبيل.
٤. قد يقود التبذير إلى الكفر، وذلك أن المبذر يهدر المال ويبدد الثروة ثم يقعد كسيراً محتاجاً، فلربما يسخط على الأقدار وهو صنع بنفسه ما صنع، فيقوده سخطه على الأقدار إلى الكفر والاعتراض على توزيع الأرزاق.

﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَنَّهُمْ أَبِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ
تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (٢٨)

الربط والمناسبة: كان النص في الآية السابقة يحض على إيتاء ذي القربى والمساكين، وفي هذه إرشاد لمن لم يكن يملك في وقت كيف يتصرف مع هؤلاء بأن يُسمعهم كلمة طيبة إن لم يعطهم الدراهم.

المعنى: وإما تعرضن عنهم: توجيه قرآني للمؤمن الذي يرى بعض أصحاب الحق ممن ينبغي له أن يساعدهم، ولم يكن يملك في ذلك الوقت. فالناس بين عسر ويسر ومد وجزر، فما الموقف وما التصرف؟ في الآية الجواب.

والإعراض هنا ليس علامة الجفاء والازورار، ولكنه كناية عن عدم الإعطاء للملابسة الظرف، لا من منطلق الشح والخوف على المال، ووضح هذا: الجزء الثاني من الآية: ﴿أَبِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ (الإسراء: ٢٨): بأن يكون تاجراً مثلاً، ويكون عنده التزامات لكنه ينتظر سداد ديون من قبل مدينين عنده. أو تحصيل حقوقه من بعض من له عندهم حقوق، وإن كان موظفاً ولما يستلم راتبه بعد، فليقل لهؤلاء الأقرباء أو المساكين أو المحاويج: أيام ويأتي الفرج إن شاء الله، اعذرونا لعدم تيسر الأمر في هذه اللحظة، الخير قادم بإذن الله، تحمّلونا، ونحو ذلك. فقل لهم قولاً ميسوراً: لاحظ قولاً كريماً قبل خمس آيات، فهي الأنسب هناك، و«قولاً ميسوراً» هنا الأنسب؛ لأنك تنتظر اليسر، والقول الميسور إن كان الحال غير ميسور. فما دمت:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليُسعد النطق إن لم يُسعد الحال
وما أجمل الحديث: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ...»، وأرشدنا المعلم ﷺ أنه ما دما لا نسع الناس بأموالنا فليسمعهم منا حسن الخلق وبسط الوجه ولين الجانب والكلمة الحلوة الطيبة. وجبر خواطر الناس بالذوق واللفظ والحسنى مطلب ديني وأخلاقي واجتماعي. وقد تعطي مع التكشيرة فتجرح من أعطيت، وقد لا تعطي مع المذرة والابتسام فتجبر من لم تعط وتخفف

عنه بالكلمة. والإنسان قبل كتلة اللحم والعظم هو كتلة أحاسيس ومشاعر وأذواق ومواجد وكرامة. فلا تغلظ أيها الميسور على ذي الحال المتعثر، فهذا امتحانه وهذا أيضاً امتحانك، ومطلوب منكما أن تتجحا في امتحانكما المختلف في الاتجاه: يسراً وعسراً، أنت بالشكر وهو بالصبر.

قال الكيا الهراسي أبو الحسن الطبري في تفسيره: (أحكام القرآن) في معنى الآية: «وهو تأديب عجيب، وقول لطيف بديع. أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحرمهم، وإنما يجوز أن يعرض عنهم عند عجز يعرض، وعند عائق يعرض، وأنت عند ذلك ترجو من الله فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال عن المواساة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾: يعمل في مسرة نفسه عمل المواساة، فتقول: الله يرزق، والله يفتح بالخير» أ.هـ.

من دروس الآية ٢٨

١. الإنسان بين عسر ويسر، والمتأمل منك خيراً إن لم ينل من برك مالا، فلينل منك مقالاً حسناً يجبر خاطره ويعوضه عن المال الذي افتقده.
٢. الكلمة قد تسد ما لا يسد المال، وتجبر ما لا يستطيعه المال، خاصة إذا علم المعتذر إليه صدق المعتذر.

المقطع السادس

الآيات (٢٩ - ٣٨)

دستور الأخلاق

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ
فَتَقْعَدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

الربط: السياق يتحدث عن الإنفاق واليسر والعسر في الموارد. فناسب أن تذكر هذه الآية خطة ومنهجاً للصرف والإنفاق. والمعيشة. قوامها -أي الخطة-: الاعتدال والتوسط في النفقة.

المعنى: ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك: كناية لطيفة عن الشح والبخل والإمساك، فشبهه من يتصف بهذا بمن غلت يده وربطت إلى عنقه فهي مقيدة غير مطلقة السراح في الإنفاق حتى في الضروري. ولماذا اختار النص غل اليد مع العنق؟ ربما لأن غل اليدين قد يمكن جزئياً من بعض الحركة. لكن غل اليد إلى العنق يُفقد اليد القدرة على الحركة تماماً. أضف إلى ما في تقييد العنق من مذلة وامتهان، والبخل كذلك يعيش وأولاده وعياله وأهله في عوز الفاقد مع أنهم واجدون! فلا هم انتفعوا من هذا المال، ولا عدموه فرحمهم الرحماء من الناس. فالفاقد أحسن حالاً منهم. فكان المال غلاً وقيداً وذلاً وحجاباً.

يقول صاحب الظلال: «التوازن هو القاعدة الكبرى في المنهج الإسلامي. والغلو كالتفريط يخل بالتوازن» أ. هـ.
﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾:

كناية أخرى عن الإنفاق بلا حساب، وزاد الصورة بالقول الكريم: «كل البسط» فهناك بسط معتدل أقرب إلى البحبحة المنضبطة المعقولة. لكن البسط كل البسط قد يصل لا إلى البحبوحة ولكن إلى هلكة المال الذي يعقبه ندامة وحسرة. مثل هذا البسط هو والسفه من معدن واحد.

﴿فَتَقْعَدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾:

فتقعد: مضارع منصوب بأن المقدرة بعد الفاء الواقعة في جواب النهي «ولا تبسطها».. فتقعد. واختار السياق لفظ «تقعد» لأن منعدم المال يقعد عن الحركة، فالمال هو الوقود الذي تسير به أنشطة الحياة، كالدم في الجسد إن

نزف مات. من هنا وجب الحفاظ على هذا المال إلا بحقه. وكما يتبرع الناس بالدم لإنقاذ حياة شخص، كذلك يتبرعون بالمال لإنقاذ حياة أناس تتوقف حياتهم على وجود هذا المال بأيديهم لقضاء ضروراتهم من غذاء ودواء. ملوماً: مستحقاً اللوم. من نفسك لنفسك أولاً. ثم ممن حولك من أهل وولد وعشيرة وأقرباء وزوجة.

محسوراً: حسيراً، من حسر ثوبه إذا انشمر وقصّر عن ستر بدنه. ومن انحسر المال عنه انحسر هو عن النشاط والحركة وتحسر على ما فاتته من ثروة بددها شذر مذر.

يقول سيد قطب رحمه: «الحسير في اللغة: الدابة التي تعجز عن السير فتقف ضعفاً وعجزاً. فكذلك البخيل يحسره بخله فيقف. وكذلك المسرف ينتهي به سرفه إلى وقفة الحسير ملوماً في الحالتين على البخل وعلى السرف وخير الأمور الوسط» أهـ.

قال الطبري في جامع البيان: «معنى الكلام: ولا تمسك يا محمد يدك بخلًا عن النفقة في حقوق الله إمساك المغلولة يده إلى عنقه. ولا تبسطها بالعطية كل البسط، فبقي لا شيء عندك. فتتعد ملوماً محسوراً: فتتعد يلومك سائلوك إذا لم تعطهم حين سألوك، وتلومك نفسك على الإسراع في مالك وذهابه.

محسوراً: معيباً، قد انقطع بك، لا شيء عندك تنفقه.. ومنه حسر البصر فهو يحسّر وذلك إذا بلغ أقصى النظر^(١) فكل. ومنه قوله تعالى: ﴿يَقَلِّبُ إِلَيْكَ الْبَصَرَ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الملك: ؛ وكذلك ذلك في كل شيء كلّ وأزحف حتى يضنى.. أهـ. بإيجاز.

وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن في معنى ولا تجعل يدك مغلولة: «هذا مجاز عبر به عن البخيل لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله، فضرب له مثل الغل الذي يمنع من التصرف باليد، وذكر القرطبي حديث البخاري ومسلم والمثل الذي ضربه رسول الله ﷺ للبخيل والمتصدق

(١) هكذا في الأصل ولعلها النظر.

وأنه كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد... إلى آخر الحديث.

ولا تبسطها كل البسط: ضرب بسط اليد مثلاً لذهاب المال. فإن قبض الكف يحبس ما فيها، وبسطها يذهب ما فيها. وهذا كله خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وكثيراً ما جاء في القرآن (يقصد مثاله). فإن النبي ﷺ لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب في ذلك» أهـ. بإيجاز.

وقال أحمد بدوي في كتابه: من بلاغة القرآن: «وما ورد في القرآن من طباق بالجمع بين المتضادين، كانت الكلمة فيه مستقرة في مكانها تمام الاستقرار، سواء كان التضاد لفظاً أو معنى، حقيقة أو مجازاً. إيجاباً أو سلباً» أهـ. بإيجاز.

وقال ابن كثير في تفسير القرآن العظيم في معنى هذه الآية: «قال تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش ذاماً للبخل ناهياً عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ الإسراء: ٢٩. أي لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، ولا تبسطها كل البسط: أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك. وتخرج أكثر من دخلك. وهذا من باب اللف والنشر». (أي بخيلاً مذموماً، ومسرفاً محسوراً).

قال زهير:

ومن كان ذا مال فيبخل بماله على قومه يستغن عنه ويذمم
قلت: وقد استشهد ابن كثير بقول الله تعالى عن اليهود ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ
اللَّهُ مَغْلُولٌ﴾ المائدة: ٦٤ أي نسبوه إلى البخل.

من دروس الآية ٢٩

١. البخل غل يقيد يد صاحبه.
٢. نهى الدين عن البخل كما نهى عن التبذير والإسراف، وأمر بالتوسط والاعتدال في النفقة.
٣. المال كالدم، ينزف المال من اليد كما ينزف الدم من الجسد، وعندئذ

تصاب الحياة بالشلل وفقد القدرة على الحركة والمال كالدم مرة أخرى: البخل كالجلطة يسبب إما الموت أو الإعاقة والبخل يجمد حركة الاقتصاد!

٤. المبذر والمُسرف يقع في دائرة اللوم من كل من حوله، ويقع في الحسرة والندامة والألم.

٥. البخل تعطيل عجلة الاقتصاد وتدمير للعلاقات الاجتماعية ويؤدي إلى القعود وأصل الحياة السعي.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٢٠)

الربط والمناسبة: نهى النص السابق عن قبض اليد كما نهى عن بسطها كل البسط، وفي هذه الآية بين أن الله هو يبسط الرزق لمن يشاء ويضيق وفق حكمته على من يشاء.

المعنى: إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر: التوكيد في «إن» لأهمية الموضوع، ولأن بعض الناس أو كثيراً منهم لا يوقنون في موضوع الرزق. فكان التأكيد.

ربك: كاف الخطاب ضميره ﷺ ثم من بعده كل من يصح منه الخطاب. واختار السياق لفظ الربوبية لأنه المفيد التعهد والتربية ومن أهم أوجهها الرزق. يبسط: يوسع ويزيد في هذا الرزق لمن يشاء. ومن أمثله في القرآن قارون، وفرعون وملأ فرعون كما قال القرآن عنهم على لسان موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يونس: ٨٨، وهذا البسط لحكمة بالغة، فهو يختبر من يبسط له في الرزق. وينسى المبسوط له الامتحان، فيقول كما قالت سورة الفجر: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْلَغَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ الفجر: ١٥ أي بقطع النظر عن الامتحان فهذا مؤشر الكرامة، هكذا يحسب.

ويقدر: من التقدير وهو بمعنى التضيق للامتحان كذلك. وقد يطول أوان الامتحان وقد يقصر، فبعض الناس يقضي في الفقر عشرات السنين، والبعض يتجاوز هذه المرحلة في بضع سنين والبعض يموت على ما كان عليه وعاش عليه من ضيق. ولله حكمة في كل ذلك. والبعض ينتقل من السعة إلى الضيق. والبعض يظل في السعة إلى آخر الطريق.. أحوال كثيرة.

إنه كان بعباده خبيراً بصيراً: إن الله خبير بالعباد بصير، ولذلك يبتليهم بالقليل والكثير حسب حكمته وأمره، والبعض ينقله من طور لطور والبعض يديم عليه حالاً بعينها. وكله قائم على علم الله بالعباد وما يصلح وما لا

يصلح لهم. فالبعض قد يبطره الغنى فيبقيه مولاه في الأصلح له. والعكس. والبعض ينقله ليعلم قدرة الله ويلزم حد العبودية وأن أحوال البشر تتقلب.

قال المراغي: «خبيراً بصيراً: إن ربك ذو خبرة بعباده، فيعلم من تصلحه السعة في الرزق، ومن الذي تقسده. ومن الذي يصلحه الإقتار والضييق، ومن الذي يفسده. وهو البصير بتدبيرهم وسياستهم». أ. هـ. بإيجاز.

وقال المظهرى في التفسير المظهرى (باكستان): «خبيراً بصيراً: علم سرهم وعلانياتهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، ويرزقهم على حسب مصالحهم، ويجوز أن يراد أن البسط والقبض من أمر الله الذي يعلم سرائرهم وظواهرهم، وأما العباد فعليهم أن يقتصدوا» أ. هـ. بإيجاز.

وقال الشعراوي: «الله الذي لا تتدف خزائنه يعطي خلقه بقدر، فلا يبسط لهم الرزق كل البسط، ولا يقبضه عليهم كل القبض، بل يبسط على قوم، ويقبض على آخرين لتسير حركة الحياة، لأنه لو بسط الرزق ووسعه على جميع الناس لاستغنى الناس عن الناس وحدثت بينهم مقاطعة تفسد حياتهم» أ. هـ. بإيجاز.

وقال الجزائري في أيسر التفاسير: «يبسط: أي يوسع على من يشاء امتحاناً له ويضيّق على من يشاء ابتلاءً له. خبيراً بصيراً: يوسع ويضيّق بحسب علمه وحكمته» أ. هـ. بإيجاز.

من دروس الآية ٣.

١. الرزق أحد أعظم مواد الامتحان لبني الإنسان في هذه الدار.
٢. البعض يُبسط له في رزقه ويُوسّع، والبعض قد يُضيّق عليه حتى يجد مشقة في تحصيل الضروريات، والله في كل ذلك حكمة بالغة.
٣. المبتلى بالسعة والمبتلى بالضيّق يجب أن يستشعرا أن الأحوال كلها في موضوع المال وغير المال امتحان. والأحوال تتغير باستمرار، إذ كل يوم هو في شأن.
٤. هذا الكون مدبّر بحكمة الله وعلمه بخلقه وبصره بهم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾
 ﴿إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَاً كَبِيراً﴾ (١٥١)

الربط والمناسبة: كان في الآية السابقة يتحدث عن بسط الله للرزق

على من يشاء، وفي هذه الآية ينهى الآباء الذين ضيق عليهم الرزق عن قتل أولادهم من شدة ضيق العيش، فالله جاعل مخرجاً والله هو الرزاق. وعلى الناس أن توفن. وهذه الآية فيها تشابه مع آية الأنعام (١٥١). بل لم يرد الإملاق إلا فيهما.

المعنى: ولا تقتلوا أولادكم: كان من عادات نسبة من العرب وإن قلت، والبعض يجادل أنها نسبة قليلة جداً ضئيلة محدودة، وليست هذه المشكلة ولكن المشكلة أن المجتمع وموازينه الجاهلية كان يعتبر هذا أمراً عادياً. ففساد الميزان والقيم وعدم إنكار المجتمع هو المشكلة. أقول: هذه العينة من العرب قبل الإسلام كانت تقتل أولادها بعضهم خشية العار، وهذا يخص النساء (أي قتلهن) وبعضهم خشية الافتقار، وهذا للجنسين.

وقد قلت إن هذه الآية نظيرة لآية الأنعام (١٥١) ونصها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ الأنعام: ١٥١ فالقتل كما في الأنعام والإملاق واقع، والنهي عن القتل هنا والإملاق متوقع. لذا قال في الأنعام: ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وقال هنا في الإسراء: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾. أي أنه قدّم رزق الآباء في الأنعام وقدّم رزق الأولاد في الإسراء، لأن قتلهم كان من أجل رزقهم، فطمأن الأهل أن رزقهم قادم: نحن نرزقهم وإياكم. فخشيتكم في غير محلها. «إن قتلهم كان خطأ كبيراً»: تأكيد أن قتل الأبناء كان خطأ كبيراً أي خطيئة كبرى، وإثماً عظيماً مبيهاً. فأى جريمة أشنع من قتل الولد؟ وكيف يطاوع أباً قلبه أن يقتل قطعة قلبه وفلذة كبده ومهجة نفسه، وحشاشة روحه، وأمل عمره؟ عجيبة هذه الجاهلية، غريبة هذه النفسيات، وكيف روضت هذه الأنفس حتى قتلت؟ ومن؟ أقرب الناس وأعز الناس، فما بالك ببقية الناس؟ وكم فضل الله على الناس بالإيمان عظيم؟ وكم فضله

عليهم كبير بالتوكل على الله؟ وكم عقيدة أن ﴿اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^{٥٨} الذاريات: مهمة في تخفيف حدة التوتر المهلك في شغل النفس بالرزق وهم لقمة العيش؟ يصل بالناس الخوف على الرزق إلى هذا الحد؟ فلم لا تقتل نفسك أيضاً وتوفر قوتك؟ طبعاً لا نقصد هذا إنما نقصد أن العقل بالكفر يتعطل، ويتعطل العقل يسوق الكفر سلسلة إجراءاته «وإجراماته»! هذه هي صورة الجاهلية من خلال هذه الوصايا والنواهي التي هي نقيض ما كانت عليه الجاهلية، فتستطيع أن ترسم صورة مجتمع العرب في الجاهلية من خلال مثل هذه الآيات هنا أو في الأنعام أو في سائر سور القرآن.

وكلمة «خطأ» بهذه الصيغة لم ترد إلا هنا كما مر في تفردات سورة الإسراء. يقول سيد قطب رحمه الله: «إن فساد العقيدة وانحرافها يُنشئ آثاره في حياة الجماعة الواقعية. وتصحيح العقيدة ينشئ آثاره في صحة المشاعر وسلامتها» أ.هـ.

قال الشعراوي: «خشية إملاق: أي خوفاً من الفقر، الذي لم يأت بعد، بل هو محتمل الحدوث في مستقبل الأيام، فالرزق موجود وميسور، فالذي يقتل أولاده في هذه الحالة غير مشغول برزقه، بل مشغول برزق أولاده في المستقبل، لذلك جاء الترتيب: نحن نرزقهم وإياكم» أ.هـ. بإيجاز.

وقال طنطاوي في التفسير الوسيط: «الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم، فمن الظلم الاعتداء على حقوقهم، والتخلص منهم خوفاً من الفقر المتوقع في المستقبل» أ.هـ. بإيجاز.

وفي تفسير: موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور لحكمت ياسين قال: «خَرَجَ الشيخان بسنديهما عن ابن مسعود قال: «سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك».

وقال: خشية إملاق: أي خشية الفاقة، وقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفاقة» أ.هـ. بإيجاز.

وقالت بنت الشاطئ في كتابها الإعجاز البياني: «ليس في القرآن سوى ما

في الإسراء والأنعام من هذه المادة - تقصد الإملاق - . وقالت: إملاق: فسرها البخاري بالإنفاق، وقال: يقال: أنفق الرجل: أملك. قال ابن حجر: والذي قاله أبو عبيدة: أي من ذهاب مال. (فتح الباري، ج ٨، ص ٢٧٥). وقالت: وتفسير الإملاق على ما يبدو من قربه، فيه أن القرآن لم يستعمل الإملاق إلا في هذا الموضع بخاصة، على حين استعمل الفقر والفقر والفقراء، اثنتي عشرة مرة. والعربية (اللغة) تستعمل الملق في غسل الثوب، ورضاع الصغير أمه، فهل يكون الإملاق بمعنى الانفاق، يمتص المال كما يمتص (يملق) الصبي أمه؟ أ هـ. بإيجاز.

قلت: ولسنا مع بنت الشاطئ. فالقرآن عبر عن الفقر بعدة صور، بصيغة الفقر مرة، و «ذا متربة» مرة، والمسكنة مرة، والإملاق تارة. وورود الإملاق بالمعاني التي قالت لا يجعل معناها في الآية وفق ما قالت المعاجم وقالت. والله أعلم ورحمها الله.

وقال القصاب في «النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام»: «ظاهر الكلام دال على أن الولد المنهي عن قتله هو المخشي ببقائه الإملاق. (والأولى) اتباع ما يدل على منع قتل الأولاد جميعاً، من خشى الإملاق منهم ومن لم يخش» أ هـ. بإيجاز.

من دروس الآية ٣١

١. النقلة الهائلة التي نقل القرآن العرب منها وإليها، هذه الآية واحدة من معالمها.
٢. الكفر غلظة وقسوة وإجرام. والدليل قتل الأولاد.
٣. من قتل الأولاد هان عليه قتل العباد.
٤. الإيمان رفق ورقة ووداد.
٥. التوكل جزء من العقيدة مهم وركن ركين، وهو أساس استقرار النفس وإلا أكلتها الهواجس والمخاوف.
٦. الإنسان الذي يقتل إنساناً يقتل كل شيء جميل في نفسه. فما بالك بمن يقتل أولاده؟

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢)

الربط والمناسبة: هذه مجموعة من النواهي كانت السابقة تنهى عن قتل الولد، وهذه تنهى عن قربان الزنا. والزنا قريب من قتل الولد. ألا ترى أنهم يلقبون ثمرة خطيئاتهم في الحاويات؟ وأنهم لا يعترفون بهم، أليس هذا قتلاً للولد؟ قتل مادي وقتل معنوي!

المعنى: ولا تقربوا الزنا: نهى في هذه الآية لا عن فعل الزنا فحسب بل عن مقدماته. فنهى عن الاقتراب منه. والزنا كشجرة خبيثة تبدأ من بذرة خبيثة. فما لم تكن بذرة لن تكون الشجرة.

إنه كان فاحشة: إنه كان جريمة كبيرة شنيعة فظيعة واضحة. يقول صاحب الظلال رحمه الله: «الزنا قتل في صورة أخرى. قتل للجماعة التي يفشو فيها. فتضيع الأنساب وتختلط الدماء. وتذهب الثقة في العرض والولد، وتحل الجماعة وتفكك روابطها وتنتهي إلى ما يشبه الموت» أ.هـ.

وساء سبيلاً: ساء هذا السبيل لقضاء الشهوة أو الوطر. فهو أي هذا الفعل يأباه الإنسان لمن يخصونه من النساء، فكيف يقبله لغيره؟ أضف إلى ما جعل الله فيه من عقوبة مقترنة بفعله تمثلت الآن في مرض الإيدز الذي لم تعرف البشرية له علاجاً ناجعاً مع بحث دام أكثر من ثلاثين سنة وتكلف مثلها من المليارات بل أزيد.

قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: «هذه الوصية الثامنة من الوصايا الإلهية... وجملة: «إنه كان فاحشة» تعليل للنهي عن ملابسته تعليلاً مبالغاً فيه من جهات بوصفه بالفاحشة الدال على فعلته بالغة الحد الأقصى في القبح، ويتأكد ذلك بحرف التوكيد (إنه) وبإقحام فعل «كان» المؤذن بأن خبره وصف راسخ مستقر» أ.هـ. بإيجاز.

وقال الشعراوي في معنى «ولا تقربوا الزنا»: «نهى عن مجرد الاقتراب، فإن حمت حوله توشك أن تقع فيه، فالابتعاد عن أسبابه أسلم» أ.هـ. بإيجاز. وقال نعمة الله علوان في الفواتح الإلهية: «إنه»: «أي الزنا «كان فاحشة»

مسقطه للعدالة والمروءة مبطله لحكمة التناسل» أ هـ.

قال «المطعني» في خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: «للزنا كلمات أخرى في الدلالة على هذا المعنى مثل الفاحشة والبهتان والسفاح والإفك... إلخ، وما أطلقه على الحرام يثير في النفس شعور النفرة والارتياح.. وما بالك بالقرآن وهو في أعلى درجات البلاغة والقوة كان نهياً عنه وعن مقدماته لأن فعل المقدمات قريان للزنا» أ هـ. بإيجاز.

من دروس الآية ٣٢

١. جريمة الزنا وقتل الأولاد من معدن سيء واحد.
٢. جريمة الزنا كبيرة في نظر الدين وفي الفطرة السوية، أ رأيت أن بعض ذوي الحمية الجاهلية يقتلون بناتهم إن ارتكبن الزنا، وموضع الشاهد أنه فعل شنيع قبيح في ميزان الفطرة والعقل والاجتماع كما هو في ميزان الشرع، فالتقى الشرع والطبع على استقباحه.
٣. ما قبلت الحضارة الغربية الزنا منهجاً إلا بعد ترويض للفطرة شديد ومسوخ لها وتشويه وتدمير، وركام ران عليها، وحتى مع أنهم يفعلونه فعندما يفتضح أحد يستقيل من منصبه كما حصل لمدير وكالة الاستخبارات الأمريكية سنة ٢٠١٢م.
٤. الجاهلية هي الجاهلية قديماً وحديثاً، ومن سماتها جريمة الزنا.
٥. مقدمات الزنا تؤدي إليه، فتجنب المقدمات يعصم من الملمات والنهيات.
٦. يكفي الزنا سوءاً وفحشاً أن الله جعله بين ولا تقتلوا أولادكم.. ولا تقتلوا النفس. وما وضعه بينهما إلا أنه هو والذي بينهما من معدن واحد.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣)

الربط والمناسبة: نهت الآيتان السابقتان عن قتل الأولاد وعن قربان الزنا، وهذه تنهى عن قتل النفس، فهي تشكل منهجاً في صيانة النفس، بدأ بالنهي عن قتل أقرب الخلق إلى النفس وهم الأولاد، ثم نهى عن الزنا لأنه قطع للطريق على إنجاب الأولاد في محضن الشرعية، فهو قتل خفي أو ظاهر للأولاد، بأسلوب مباشر أو غير مباشر، والآن في هذه الآية نهى عن قتل النفس عموماً. فتأمل النسق في هذه النواهي في هذه السورة الجليلة من كلام المولى الجليل في هذا التزليل المعجز الجليل.

وتأمل النسق من وجه آخر في هذا الترتيب: ولا تقتلوا أولادكم.. ولا تقربوا الزنا.. ولا تقتلوا النفس.. ولا تقربوا مال اليتيم.

المعنى: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق: هذه هي (لا) الناهية الثالثة تباعاً في هذا السياق، وهذا هو النهي الثالث عن القتل إن اعتبرنا الزنا أسلوباً في القتل ولو من طرف خفي. والآن يعمم النص حرمة النفس وحرمة الاعتداء عليها بكل صور الاعتداء وبالذات القتل، أشد صور الاعتداء، عدا سلب الحرية، فهي الفتنة التي هي «أشد من القتل» كما قال المولى العظيم. فالنفس بنيان بناه الله، وقتلها هدم لهذا البنيان، فكأن القاتل ارتكب الجريمة مرتين. مرة بالعدوان على هذا البنيان المكرم: الإنسان، والجرم الثاني بالتعدي على حق العظيم الذي كرم وحرّم وجرم: كرم الإنسان وحرّم قتله وجرم من فعله أي هذا القتل. وعبر بالنفس وأراد الإنسان لأن النفس من أخطر ما فيه وأهم ما فيه. كما نقول أزهد روحاً، وقتل نفساً.

حرم الله: أي حرم قتلها، ولم يذكر المفعول قصداً ليعم التحريم أي ليس المحرم: القتل فقط، فهذا داخل دخولاً أولياً، ولكن ما سواه من صور العدوان محرم كذلك.

ألا ما أعظم هذا الدين. فليأتنا كل دعاة حقوق الإنسان بمثل هذه

التعليمات. وليأتونا بمثل التطبيق الدقيق لهذه التعليمات كما فعلت الحضارة الإسلامية. والذين كانوا ينحرفون عن هذا الصراط في التاريخ الإسلامي فهم شواذ هجاء منكر ما فعلوه. بينما الحضارة الغربية القتل فيها هو الديدن والشنونة والدأب والأصل والقاعدة. وقد ملأوا الدنيا عجيماً وضجيجاً عن حقوق الإنسان التي هم أول من أهدرها.

إلا بالحق: والحق مقيد حدده الله، ولم يتركه لكل أحد بل هو حق الأحد سبحانه. فالقتل في حال القتل هذا من أهم الأبواب. والقتل في حال القتال واحد من الصور. أما موضوع الردة فليس متروكاً أيضاً لكل من هب ودب أن يحكم على الناس، وهو موضوع على العموم يحتاج إلى دقة فهم وعمق نظر وشرح يطول. فلم يُقم رسول الله حد الردة على من شهد الله بكفرهم من المنافقين، ولا أحد أغير على الدين من النبي الأمين ﷺ.

ومن قُتل مظلوماً: التفت النص من خطاب النهي عن القتل إلى خطاب أولياء المقتول. لكن النص قال: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً﴾ الإسراء: ٣٣ ما شأنه؟ فقد جعلنا لوليه سلطاناً: هذا الدين والله جمال مطلق وكمال مطلق. هنا يتكلم السياق عن المقتول وأولياء هذا القتل. إن الشرع هو ينتقم لك فالثأر جاهلية انتهت أمدّها. والآن القانون، أي الشرع هو الحكم. والحاكم منفذ لحكم الشرع. هذه دولة القانون دولة الانضباط لا الفوضى والثارات، والدماء النازفة إلى ما لا نهاية. لا يأخذ الإنسان حقه بيده وكأننا في غابة تسكنها وحوش مفترسة. يا ولي القتل قد جعل الله القدير العزيز لك سلطاناً فاعتمد على الشرع والسلطان الذي أُعطيت في الدنيا والآخرة.

فلا يسرف في القتل: أي لا يستمر مسلسل الثارات. لأن الشرع حدد حكم القاتل وأنه القتل، فإن عفا أولياء القتل فالدية، فإن تنازلوا حتى عنها فهذا شأنهم ويبقى حق الله.

إنه كان منصوراً: واستخدم النص «إنه» للتأكيد و«كان» لإفادة قدم هذا الحق وثبوته. و«منصوراً» أي من شرع الله في الدنيا ومن ينفذ شرع الله من حاكم مسلم. وفي الآخرة هو منصور من الله الحكم العدل الذي لا تضيع

عنده ذرة.

يقول سيد قطب رحمه الله: «إن الإسلام دين حياة ودين سلام، فالحله سبحانه واهب الحياة وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها. وكل نفس هي حرم لا يمس» أ.هـ.

قال الطبري في جامع البيان: «أول ما نزل في شأن القتل آية الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الإسراء: ٣٣» أ.هـ.

وقال جعفر شرف الدين في الموسوعة القرآنية: «الإنسان بنيان الله، ومن هدم بنيان الله ملعون، وبذلك يقر الإسلام عصمة الدم الإنساني. ومن اعتدى على نفس واحدة كأنه اعتدى على الإنسانية» أ.هـ. بإيجاز.

وقال أبو بكر البيهقي في أحكام القرآن: «وكان الشريف من العرب إذا قتل يجاوز قاتله إلى من لم يقتله من أشراف القبيلة التي قتله أحدها، وربما لم يرضوا إلا بعدد يقتلونهم.

فقتل بعض «غني»^(١) شاس بن زهير العبسي، فجمع عليهم أبوه زهير بن جذيمة فقالوا له، أو بعض من ندب عنهم^(٢): سل في قتل شاس. فقال: إحدى ثلاث لا يرضيني غيرها، فقالوا: ما هي؟ فقال: تحيون لي شاساً، أو تملأون رداي من نجوم السماء^(٣)، أو تدفعون لي غنياً بأسرها فأقتلها، ثم لا أرى أني أخذت منه عوضاً» أ.هـ.

قال البغوي في معالم التنزيل: «سلطاناً: أي قوة وولاية على القاتل بالقتل، قاله مجاهد. وقال الضحاك: سلطانه هو أنه يتخير فإن شاء استقاد منه وإن شاء أخذ الدية وإن شاء عفا عنه» أ.هـ. بإيجاز.

(١) قبيلة والنسبة إليها غنوي.

(٢) يقصد بقوله هذا أن وفداً جاء يُفاوض والد القتيل.

(٣) هو يظن النجوم بقدر قطع الدراهم.

من دروس الآية ٣٣

١. حرمة الدماء حرمة قاطعة مؤكدة، وما أخرجنا إلى استحضار هذا المعنى في وقت تفشّت فيه جرائم القتل وزادت. ووسائل الإعلام تغذي نزعة القتل ونزغات الشياطين، وفي إحصائية أن الطفل في الغرب يرى آلاف الساعات من العنف في طفولته، مما ينشئ نفوساً قد تشربت العنف وتعمق فيها.
٢. من علامات وسمات مجتمع الإيمان والإسلام: صيانة الدماء وتعظيم حرمتها، وتمتع المجتمع بالأمن والسلام الاجتماعي.
٣. كل نفس محرم قتلها مؤمنة كانت أو كافرة، ولا يباح الدم إلا بحق الله الذي حدده وفي أضيق نطاق.
٤. القانون لا يؤخذ باليد والقوة وإنما بالشرع والسلطان.
٥. الإنسان نفس، والقتل المعنوي يوازي القتل المادي، ولا يجوز القتل حتى بالكلام، وكم من كلمة هدمت نفس إنسان.
٦. الإنسان هو أساس بناء المجتمع وركن ركين فلا يُمسّ ويهدّد أمنه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾
 ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٤)

الربط: تأمل ترتيب الآيات ونسق الكلام والنواهي فيها، فالآية ٣١ كانت: «ولا تقتلوا» والآية ٣٢: «ولا تقربوا» والآية ٣٣ كانت: «ولا تقتلوا» والآية ٣٤: «ولا تقربوا» فهي جزء من نسق النواهي وجزء من دفاع الإسلام العظيم عن الشرائع المستضعفة.

المعنى: ولا تقربوا مال اليتيم: اليتيم أو اليتامى جزء من شريحة المستضعفين في الأرض وفي المجتمعات. فلما كانوا لا ناصر لهم من البشر وأعنيه الأب، فإن الظلمة والمستغلين يستغلون مثل هذا الطرف وينتهزون الفرصة في التعدي على مال هؤلاء. وأحياناً تأتيهم الطعنات من أقرب الحلقات ربما من عم أو خال أو قرابة أو من أطراف العشيرة أو غير ذلك. وأياً كان فإن من لا ناصر له من البشر فإن رب البشر هو ناصرهم، وشرعه يحميه بالتشريعات، وعلى المجتمع أن ينفذها ويحمي هذه الفئات. في الآية يقول المولى العظيم: «ولا تقربوا» أي اجعلوا مسافة أمان بينكم وبين مال اليتيم. وملاحظة أن «يتيم» بالافراد لم ترد إلا في القرآن المكي و«يتامى» بالجمع لم ترد إلا في القرآن المدني. وهذا واضح ظاهر تعليقه: أن اليتيم لم تكن له مؤسسات مجتمعية ترعاه في مكة فكانت الرعاية فردية. وأيضاً فإن اليتيم في المدينة قد ينشأ عن معارك الإسلام مع أعدائه، ففي أحد وحدها قُتل سبعون شهيداً. فعدد اليتامى الذين تركوهم ربما لا يقل عن مئتين. فأصبح اليتامى ظاهرة اجتماعية تحتاج إلى رعاية مجتمعية مؤسسية ولذا عبّر عنهم باليتامى وهذا من دقائق التعبير القرآني لم أقرأها واكتشفتها منذ قرابة أربعين سنة!

نعود إلى قوله تعالى: «ولا تقربوا»، إن النهي موجه للاقتراب، لمزيد من التحوط والتخفظ بالنسبة لمال المستضعفين من اليتامى.

مال اليتيم: كلمة عامة تشمل النقد والعقار وكل أنواع المال، وكله محل

طمع الطامعين باعتبار أن اليتامى صغار قليلو التجربة سهل خداعهم ولا كبير لهم ولا والد يحميهم ويدافع عن مالهم وحقهم. وقد تولى الله تعالى حمايتهم بشرعه، من خلال الجتمع القائم على تنفيذ شريعة الله ورعاية أحكامه، ورعاية الشرائح المستضعفة من المجتمع. وحمايتهم من ذئاب البشر والطامعين والمغامرين والذين لا يرجون الله واليوم والآخر.

إلا بالتى هي أحسن: النهي عن قريان مال اليتيم عام خصص بهذا الاستثناء وهي أن يقترب منه بالتى هي أحسن صرفاً عليه نفقة لازمة أو استثماراً أو تنمية لهذا المال. وإن كان أرضاً فزراعتها واستصلاحها. وإن كان عقاراً فصيانتة وترميمه وتحسينه. والكلمة جامعة عامة كما هي طريقة القرآن العظيم في التعبير. فتفصيل صور الاقتراب من هذا المال. وصور التى هي أحسن، وصور العدوان أيضاً، كل ذلك تفاصيله لا تحصر ولا تحصى. وفي تقنين أحكام الشريعة يمكن أن يجتهد المقتنون في إعطاء تفصيلات وصور واقعية تطبيقية. وتقنين أحكام الشريعة مسألة في غاية الأهمية، فالقرآن في مجمله قواعد عامة تقبل التفصيل ومن هنا سماه الله أي هذا الكتاب تفصيلاً، وقال عنه: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ فصلت: ٤٤، وقال: ﴿فَصَّلَتْهُ تَفْصِيلاً﴾ الإسراء: ١٢. فالمقصد ما بينا والله أعلم. فأحكام الميراث تفصيل، يقبل مزيداً من التفصيل بمزيد من الحالات ومزيد من الصور، كالمسألة التى طُرحت في زمن عمر رضي الله عنه، وقال الفتية فيها: هب أن أبانا كان حجراً... إلخ.

حتى يبلغ أشده: حتى للغاية. وليس معنى الكلام أن الاقتراب من المال بعد بلوغ الأشد أصبح متاحاً مباحاً. لا بالطبع، ولكن الحرمة أكد وأشد قبل بلوغ الأشد والرشد. أما بعد بلوغ الأشد فالحرمة هي حرمة المال على العموم، أما مال اليتيم فحرمة أخص وأشد وأغلظ. وبلوغ الأشد يكون بالبلوغ وبعد الابتلاء للتأكد من الرشد كما قال عن اليتامى في سورة النساء: ﴿وَابْتَلُوا الَّتِي تَعْنَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ اسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ النساء:

وأوفوا بالعهد: ما علاقة هذا الجزء من الآية بما سبق من الآية؟ قد يكون عطف عام من الأحكام على خاص. بمعنى أن الوفاء بالعهد مطلوب

مطلقاً. وقد يكون هذا الحكم مرتبطاً متصلاً بما سبق، بمعنى أن يكون عهداً برعاية مال اليتيم. والأحسن العموم ويدخل العهد برعاية مال اليتيم وهو حالة خاصة يدخل في الحكم العام. والعهد والعقد قريب من قريب. وجاء بالعهد هنا عاماً وفي مواضع قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ النحل: ٩١، و﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ الأنعام: ١٥٢، و﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ البقرة: ٤٠. فالعهد هنا يشمل عهد الله، وعهدك مع كل عباد الله، فكله مشمول بهذا العموم والشمول.

إن العهد كان مسؤولاً: هل العهد هو الذي يُسأل أم الذي التزم بالعهد وأعطى العهد هو الذي يُسأل؟ والجواب واضح أن المعاهد هو الذي يُسأل، لكنه هنا عبّر بما عبّر به للتدليل على أهمية العهد. ولعله قريب من قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَلَتْ﴾ التكوين: ٨ كأنه يقال للعهد: لم نقضت؟ فيقول: سل يارب من تقضني. كما يقال للموعدة: لم وُدت؟ فتقول: سل من وأدني وقتلني.

وقال العز بن عبد السلام في تفسير القرآن وهو اختصار الماوردي: بالتي هي أحسن: «التجارة بماله، أو حفظ أصله وتثمينه. وأوفوا بالعهد: العقود بين المتعاقدين، أو الوصية بمال اليتيم، أو كل ما أمر الله به ونهى عنه. مسؤولاً: عنه الذي عاهد به. أو تسأل العهد لم نقضت كما تسأل الموؤدة بأي ذنب قتلت» أ.هـ. بإيجاز.

وقال الكشاف للزمخشري: بالتي هي أحسن: بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن، وهي حفظه عليه وتثمينه. إن العهد كان مسؤولاً: أي مطلوباً يطلب من المعاهد ألا يضيعه، وفيه به. ويجوز أن يكون تخيلاً، كأنه يقال للعهد: لم نُكثت، وهلا وفي بك؟ تكيئاً للناكث، كما يقال للموؤدة. ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً» أ.هـ. بإيجاز.

وقال الرازي في مفاتيح الغيب: «ثبت أن النهي عن الزنا والنهي عن القتل يرجع حاصله إلى النهي عن إتلاف النفوس، فلما ذكر الله ذلك أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، لأن أعز شيء بعد النفوس الأموال، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم هو اليتيم، لأنه لصغره وضعفه وعجزه يعظم ضرره

بإتلاف ماله، فلهذا السبب خصهم الله بالنهي عن إتلاف أموالهم» أ هـ .
بإيجاز .

وفي «الناسخ والمنسوخ» لقتادة ما يفهم أنها منسوخة بدلالة قوله: كانت هذه الآية جهداً عليهم حتى أنزل الله الآية التي في البقرة فرخص لهم أن يخالطوهم» وليس كما قال بطبيعة الحال!

من دروس الآية ٣٤

- ١ . التأكيد مرة أخرى على أهمية المال . والتأكيد الشديد على حماية أموال اليتامى وكل المستضعفين الذين لا يحسنون رعاية أموالهم . فقد تولى الشرع والمجتمع القائم على رعاية أحكام الشرع حياطة هذه الأموال وصيانتها وتمييتها .
- ٢ . المال عموماً حرام أكله بغير وجه حق، وأموال اليتامى حرمة أكلها أشد .
- ٣ . واقعية أحكام الشريعة، إذ أتاح الشرع تنمية مال اليتامى لمنفعة اليتيم ومنفعة المجتمع معاً .
- ٤ . ضرورة الالتزام بالوفاء بالعهود عموماً وبعهد الله على الخصوص .
- ٥ . من أهمية العهد قال الله: «إن العهد كان مسؤولاً» مع أن العهد مسؤول عنه لا أنه هو المسؤول .

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

الربط والمناسبة: تتواصل الآيات لتشكّل دستوراً ومنهاجاً متكاملًا في تهذيب الأخلاق، فالأمم أخلاق والمجتمعات قيم أخلاقية والروابط ما لم تقم على الأخلاق فعلام تقوم؟ وقد ختمت الآية السابقة بالأمر بالوفاء فقالت: «وأوفوا بالعهد» وبدأت هذه بالأمر ذاته من الوفاء: «وأوفوا الكيل». كما أن نقص المكيال نوع من أكل المال الذي كانت تتحدث عنه الآية السابقة.

المعنى: وأوفوا الكيل إذا كلتم: أي إذا بعتم أو اشتريتم فأوفوا الكيل. أي أعطوه وافيًا. فلئن لم يزد فلا ينقص بحال. وقد نزلت سورة في العهد المكي حيث لم تكن التشريعات تفصيلية باسم سورة «المطففين» تقول لهؤلاء ولكل أحد: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْوِفُونَ ۝٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ المطففين: ١-٣. والأشياء مكيلة وموزونة. والمكيل يمكن أن يشمل كل ذلك، فالكيل بالمعنى العام نوع من الوزن. والقماش يقاس، ويمكن أن نعهده نوعاً من الكيل. والأرض كذلك. والقمح كان يباع بالصاع أو يقترض ويسد بالطريقة ذاتها. والناس الآن تتعامل بالوزن من الذهب إلى الذرة إلى الفحم كل ذلك يوزن وزناً. والكلمة عامة على كل حال.

وزنوا بالقسطاس المستقيم: الآية ثلاث جمل: وأوفوا الكيل إذا كلتم. وزنوا بالقسطاس المستقيم. ذلك خير وأحسن تأويلاً. وهي على الترتيب ٤ كلمات، و ٣، و ٤. وأما الحروف فمقاربة وهي: ١٨، ٢١، ١٧. فأطولها هي أقصرها. أعني أن الجملة ذات الكلمات الثلاث هي الأكثر عدداً. فالقطع الأول من الآية تكلم عن المكيلات، ومع عمومها فيما أرى، فإنه خص الموزونات بالحديث فقال في الجملة الوسطى من الثلاث جمل: وزنوا بالقسطاس المستقيم. أي زنوا بالعدل المستقيم. وهل هناك عدل غير مستقيم؟ والجواب: أن وصف الاستقامة تأكيد للعدل، أو أن البعض قد يتطع في تطبيق العدل فأمرنا الله بالعدل على النهج المعتدل المستقيم غير المبالغ أو المغالي. ولقد

عرفنا من يتشدد في الأشياء حتى يضيق الناس ذرعاً بهذا الإنصاف الذي قد يأخذ من وقتهم أضعاف ما ينبغي. فالبعض قد يزن الشيء أكثر من مرة. ويعيد دوزنة الميزان كل عدة بيعات، في مبالغة ليست من روح الشرع، والعدل في القلب والعقل والنية دون هذه الإجراءات المتشددة المبالغ فيها. والله أعلم. ذلك خير وأحسن تأويلاً: ذلك: اسم إشارة. أو إن أردت التفصيل: ذا: اسم إشارة. واللام للبعد. والكاف للخطاب. فكأنها هذه الثلاثة حروف ثلاث كلمات. واسم الإشارة يشير إلى ما ذكر في هذه الآية من توجيهات، وقد يشار به إلى كل ما ذكر وإن كان الأقرب عوده للأقرب!

خير: أكثر خيراً وبركة وأجراً عند الله.
وأحسن تأويلاً: وأحسن عاقبة وأيلولة أمر. والتأويل: ما يؤول إليه الشيء.

يقول سيد قطب رحمه الله: «إفاء الكيل والاستقامة في الوزن أمانة في التعامل ونظافة في القلب يستقيم بها التعامل في الجماعة وتتوافر بهما الثقة في النفوس وتتم بهما البركة في الحياة. والطمع في الكيل قذارة وصغار في النفس. وتقل به البركة في محيط الجماعة» أ هـ.

قال ابن عطية في محرره الوجيز: «أمر الله تعالى في هذه الآية أهل التَّجَرِّ والكيل والوزن أن يعطوا الحق في كيلهم ووزنهم» أ هـ. بإيجاز.

وقال الصابوني في «صفوة التفاسير»: «القسطاس: الميزان، مأخوذ من القسط وهو العدل أي زنوا بالميزان العدل السوي بلا احتيال ولا خديعة.

ذلك خير وأحسن تأويلاً: أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خير في هذه الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة» أ هـ.

وزعم السيوطي في الإتقان أن القسطاس من الألفاظ المعربة. وقال: وليس استخدام هذه الألفاظ المعربة بمخرج القرآن عن أن يكون بلسان عربي مبين، فقد ارتضى العرب هذه الألفاظ واستخدموها في لغتهم، وارتضوها بين كلماتهم، وقد نزل القرآن بما أَلَفَ العرب استعماله، ليدركوا معناه، فليس غريباً أن يتخذ من تلك الأدوات المعربة أدوات له يؤدي بها أغراضه ومعانيه،

بل هذه الألفاظ في مواضعها هي غاية البلاغة، لأنها تؤدي معانيها الدقيقة في عبارة موجزة، فإن العرب لم تضع ألفاظاً تدل بها على معنى ما عربته، فلم تعد ثمة وسيلة للتعبير عنه سوى اختيار اللفظ المعرب» إلخ أ.هـ. بإيجاز. قلت: مثل كلمة قسطاس، جذرها عربي قسط، وندع كلمة قسطاس، فمن أين علم السيوطي أنها ليست عربية. إنه لم يذكر سبيله إلى هذه المعرفة. وإذا كانت مثل هذه الكلمات التي زعم أنها معربة موجودة في اللغات السامية، فهذا يدل أن أصلها واحد، ولن يكون هذا الأصل إلا عربياً.

وهل تتبع السيوطي أو غيره مسيرة اللفظ من منشئه حتى قضى بما قضى أن العرب لم تضع لفظاً يدل على معنى ما عربت العرب؟ وأعتقد أن القرآن حسم هذه القضية، أعني قضية عربية اللسان القرآني عربية مطلقة غير مهجنة في سورة فصلت وغيرها، لكن هذا ما في فصلت: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ فصلت: ٤٤، وهذه اللغة التي وسعت معاني القرآن كيف تكون ناقصة واحتاجت إلى ما يكملها من ألسنة الغير؟ بل هو قرآن عربي عربي عربي. ورحم الله السيوطي المصّر على أن في القرآن ما هو بلفظ أعجمي لكنه عُرّب، ونحن نُصِرّ على أنه عربي الأصل منذ اللفظة الأولى واللحظة الأولى. إذ زعم بعضهم أن كلمة القرآن ليست عربية الأصل، وتلك والله لا تحتمل! وزعم السدي فيما نقل السخاوي في جمال القراء أن هذه الآية نسخها: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾ المطففين: ١ ولا أدري وجهاً لكل هذا. ولكن السخاوي قال: ومثل هذا من الخبر لا ينسخ ولا تعارض بينهما ولا نسخ وصدق السخاوي!

وفي عربية القرآن يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه (إعجاز القرآن): «من عجب أن يدّعي أصحاب (الشطحات) من المستشرقين أن كلمة (قرآن) ليست من أصل عربي، وإنما هي معربة عن العبرية أو الحبشية أو النبطية.. إلى غير ذلك من المغريات (الغرائب) التي يحاولون أن يظهروا بها في الناس أنهم يعلمون دفائن العلم وخباياه، والحق أنهم إنما يتخرصون تخرصات الكهان! إنها رميات طائشة.

وأعجب من العجب أن يتلقى كثير منا هذه الأقوال، بل يتلقفونها في لهفة وحرص، كأنهم عثروا على ذخيرة من ذخائر العلم، أو مكتون من مكتونات. ظانين أن كشف العلم لا تجيء إلا من بعيد.. من أوروبا أو أمريكا. حتى ولو كان هذا العلم علم العرب، ولسان العرب، ودين العرب! إن ذلك هو الخزي والخسران! ونسأل: هل ضاقت اللغة العربية كلها عن أن تجد الكلمة التي تجعلها عنواناً لكتابها المبين؟ وإذا عجزت اللغة العربية عن أن تقدم كلمة واحدة هي رايتها، والشارة الدالة عليها، فكيف تستطيع أن تحمل هذه اللغة معجزة، أساسها الكلمة وبنيتها الكلام، هل يعقل هذا؟!

وقد أمر الله النبي ﷺ أن يقرأ على الناس ما ينزل عليه من كلمات الله: ﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ﴾ (الإسراء: ١٠٦)، أفبعد هذا يستقيم لقائل أن يقول: إن لفظة (القرآن) غير عربية؟ إن ذلك القول بأن لفظ القرآن غير عربي أشبه بقول من يقول: إن لسان العرب غير عربي إذ القرآن هو معجزة هذا اللسان، وإذ لفظة القرآن هي عنوان هذه المعجزة؟ ولا نقف أكثر من هذه الوقفة، لدحض تلك الفرية الداحضة، ولنفضح هذا البهتان العظيم^(١).

من دروس الآية ٣٥

١. الشرع الشريف حريص على العدل في المجتمع وإعطاء كل ذي حق حقه، من هنا أمر بالعدل في الكيل وضبط الموازين.
٢. توجيهات الشرع وأحكامه لا بد لها من سلطة تنفيذية. وإلا فهي قوانين مخطوطة، قد لا تجد سبيلها للنفوذ والتففيذ. من هنا لا بد من ضبط الموازين، ووجود جهاز لهذا الغرض: المكايل والمقاييس والموازين.
٣. الطمع والجشع قد يقود إلى النقص من حقوق الناس، لكن عواقب ذلك، في العاجل والأجل غير حميدة بعكس الوفاء والعدل فعواقبه في كل الأحوال حميدة.

(١) الخطيب، عبد الكريم: إعجاز القرآن، ص ٣٦٠ - ٣٦١ بإيجاز - ط١، القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٣٨٣هـ. ١٩٦٤م.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦)

الربط والمناسبة: هذه وصية متميزة من بين الوصايا، فهي قاعدة عامة في الشهادة والعلم ومسؤولية الإنسان عن حواسه، وإدراكه وحكمه على الأشياء، جاءت من بين وصايا شاملة وعامة في الأخلاق الاجتماعية وما يتصل بالشؤون المالية والموازن. فهي مع أخواتها سائر الوصايا تتكامل وتشكل الدستور الجامع لموضوع الأخلاق والمعاملات.

المعنى: ولا تقف: الاقتفاء: الاتباع، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الحديد: ٢٧ أي أتبعناهم. ومنه اقتفاء الأثر أي تتبع الخطوات ويقال له أيضاً: قص الأثر. وقافية الكلام أو الشعر: الحرف الأخير أو الكلمة الأخيرة. المهم أن «تقف» معناها تتبع. ومعنى المعنى أو روحه: لا تحكم على الأشياء إلا بعد تحقق. ولا تشهد إلا على مثل الشمس. ولا تقل عن أحد شيئاً، وإلا فهو قذف إن لم تكن بينة. والصور كثيرة على كل حال.

إن السمع والبصر: دائماً يسبق السمع البصر في الذكر لأنه يبدأ في العمل قبلاً وأولاً، ولأنه في العلم أهم وأخطر. وربما لم يسبق البصر السمع في الذكر في الذكر الحكيم إلا في موطن أو نحو ذلك وفي الآخرة، والنص هو: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ الكهف: ١٢٦

والفؤاد: هو قلب القلب مثلاً لللب عقل العقل. وقد يقال إن الحواس المذكورة من سمع وبصر هي قنوات تصب المعلومات في العقل أو الدماغ، فلم ذكر الفؤاد هنا؟ والجواب أولاً: إن الإنسان أعقد من معلوماتنا وتبسيطاتنا أو تسطيجاتنا للأشياء. فما وظيفة الفؤاد أو القلب؟ وهل هو مجرد مضخة للدم؟ جاء على الناس وقت ظنوا هذا وظنوا ظنهم يقيناً! ولكن العلم الآن بدأ يكتشف ما لم يكن يُعلم ولم يكن قد اكتشف من قبل، أن الفؤاد له مركز معلومات خاص وله ذاكرة خاصة. باختصار، إن الاختزال مُخلّ والقطع في

الأمر الإنسانية مجازفة. فإذا قال ربنا «الفؤاد» فلنبحث ولنحاول أن نفهم لماذا الفؤاد ولا نتفصّل بمعلوماتنا التي قال الله عنها: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] في هذه السورة نفسها جاء هذا النص أي بعد خمسين آية في الآية ٨٥. ويمكن أن نقول أيضاً إن الفؤاد هو مستشار العقل ويؤثر في أحكامه ويشترك في صياغة القرارات والمقررات. ولما كان هو مركز العواطف، والعواطف تؤثر في أحكام العقل، قال مولانا ما قال. وكل ما قلنا وقال الآخرون محاولات فهم لا أكثر.

كل أولئك: كل ما ذكر من سمع وبصر وفؤاد.

كان عنه مسؤولاً: فأنت مسؤول عن سمعك ومسموعاتك. وعن بصرك ومبصراتك، وما تخزن هذه الحواس من معلومات في الذهن وتأثيرات في الأحكام. وهذه الأحكام قد تبني عليها مواقف. وهذه المواقف أنت محاسب عليها أو عنها إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وإنها لمسؤولية جسيمة عظيمة. وأن من وعى هذه الآية فقد غير نمط علمه وتعلمه ونمط حياته. إن كل معلومة تدخلها إلى أرشيف الذهن مسؤوليتك. وقد أخبر النبي ﷺ أنك مسؤول عن «أن تحفظ الرأس وما وعى».

يقول سيد قطب رحمه الله: «إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب أمانة يُسأل عنها صاحبها. فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية ولا يحكم العقل حكماً ولا يبرم الإنسان أمراً إلا إذا تثبت من كل جزئية ومن كل نتيجة» أ هـ.

قال الشعراوي في تفسيره: «الإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده من حيث التلقي، وكذلك من حيث الإعطاء. فإياك أن تقول سمعت ولم تسمع، أو تقول رأيت ولم تر، وإياك أن تتعرض لشهادة تدلي فيها بغير ما تعلم وتتيقن، أو تتبنى قضية خاطئة وتبني عليها حركة حياتك، لأن المبني على مقدمات فاسدة تنتج عنه نتائج فاسدة، (والعكس صحيح) أ هـ. بإيجاز.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان: «نهى جل وعلا في هذه الآية عن اتباع الإنسان ما ليس له به علم، ويشمل ذلك قوله: رأيت ولم ير، وسمعت ولم

يسمع، وعلمت ولم يعلم، ويدخل فيه كل قول بلا علم. وذكر الشنقيطي أن هذه الآية ورد مثلها في قوله تعالى عن الشيطان في علاقته ببني الإنسان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٦٩ أ.هـ.

وقد أطل الشوكاني في فتح القدير في أن العمل بالرأي في المسائل أنه «عمل بما ليس له به علم» وقال: «والمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم» أ.هـ. ومن أراد التفصيل يرجع إلى فتح القدير.

وقالت كاملة الكواري في «تفسير غريب القرآن»: «القفو هو الاتباع، يقال: قفاه يقفوه إذا اتبعه، وهو مشتق من اسم القفا، وهو ما وراء العنق، فمعنى لا تقف أي لا تتبع ما لا تعلمه، ولا تقل ما لا تعلمه» أ.هـ.

من دروس الآية ٣٦

١. الإنسان مسؤول، وكلكم راع وكلكم مسؤول، وقفوهم إنهم مسؤولون. والآية ركزت على باب جديد من أبواب المسؤولية: مسؤوليتك عن حواسك وعقلك وقلبك. وهذا يشمل ملايين لا تعد من الأفكار والمشاعر والأحاسيس، والخواطر والأحكام والمقررات والمواقف والعواطف!
٢. أمر المسؤولية العلمية والعقلية جسيم خطير لخفائه من ناحية ولطبيعة العقل وللحروب الخفية الخطيرة الدائرة على العقل لحرف بوصلته ووجهته والتحكم فيه، فحرب العقول أخطر الحقول، وأخطر الحروب.
٣. التثبت في الشهادات، من هنا كرر الرسول ﷺ «ألا وشهادة الزور...» حتى قال الصحابة: «ليته سكت»، لحرصهم عليه من شدة انفعاله ﷺ!

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧)

الربط والمناسبة: هذه الوصية هي آخر الوصايا. وتأمل المنهجية هنا أنه بدأ بالتوحيد ثم بر الوالدين. وانتهى بكيف تمشي. وفي الفرقان ابتدأ صفات عباد الرحمن من حيث انتهت هنا في الإسراء. ففي التوجيه والبناء والتربية تبدأ بالأهم فالهمهم، وفي العلاقات من البشر تبدأ من الثمرات. والمشي في الأرض هوناً كناية عن التواضع، وهو أهم ما يمكن في العلاقة مع الآخرين. فتأمل. وهل تعلم أن هذه هي «لا» الناهية رقم ١٤ من بدء الوصايا حتى نهايتها هنا؟

المعنى: يختتم السياق الكريم هذه الوصايا/ الأوامر والنواهي بهذه الوصية المحصلة أو الثمرة لكل ما سبق. فالمطلوب أن تتشبه هذه الوصايا نفساً تتسم بالعبودية وأول تجليات العبودية: التواضع. فلا تستقيم العبودية مع الكبرياء. وهل تتسنى أن أول السورة «أسرى بعبده» وهو أعظم الخلائق ﷺ. والمسلطون على اليهود «عباداً لنا». وهنا تأتي هذه الآية ثمرة لكل ما مر. ولم تأت «مرحاً» في القرآن قبل هذه الكلمة هنا في الإسراء، وستأتي مرة أخرى في وصايا لقمان، هذا كل ما هنالك. وهناك النص ذاته هنا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ الإسراء: ٣٧.

ولا تمش في الأرض مرحاً: النهي عن كيفية معينة من المشي أو في المشي، وهي المشي «مرحاً»، والمرح الظاهر تنفيس عن أو ترجمة لـ «شعور باطن غامر» هو شعور الكبر والأشر والبطر وحس الاستعلاء على الخلق والفرح بما حصل من دنيا وجاه ومال ومنصب. وقد يمشي هذه المشية من جمع أسباب القوة من مال وجاه وعزوة وعشيرة. أو من كان حقق نجاحاً في الحياة في ميدان معين كقائد نجح في معركة أو في انتخابات، على ضالة شأنها، أو حتى طالب نجح بتفوق، أو تاجر حقق صفقة، أو مقال أنجز مشروعاً حظي باهتمام، أو مؤلف عمل كتاباً حقق مبيعاً سريعاً، أو.. والصور لا تنتهي.

والعجيب أن النقيض قد يفعل هذا. وهو «العائل المستكبر» فمن «عقدة النقص» قد يتصرف البشر بنقيض ما هم عليه، وأسوأ من كل من ذكر شخص ذو سابقة متواضعة اجتماعياً واقتصادياً وموهبة، ثم حصل مركزاً أو نفوذاً، فهذا يتصرف بما يشبه الجنون كبيراً، واستعلاءً واحتقاراً للخلق. وهذا الإنسان أعقد من أن تبسطه في ظاهرة واحدة أو بعد واحد، إنه كيان هائل التعقيد من مشاعر متشابكة متضاربة لا يفك عقدها إلا الإيمان الذي يلزمك حد العبودية، ومعرفة قدر الذات. وإذا كان الله تعالى ذكر أعظم الرسل وأرقى البشر فقال له: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۖ﴾ الضحى: ٦-٨ وقال له يوم الفتح الأكبر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ﴾ فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴿٢﴾ التصر: ١-٣ وقال سيد المرين والمعلمين عن مشية أبي دجاجة تيهاً بين الصفوف في المعركة في غزوة أحد قال: «إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلا في مثل هذا الوطن» أو كما قال ﷺ. وأما الذي خرج على قومه في زينته فقد خسف الله به وبداره الأرض، لأن الله يكره ولا يحب الكبرياء والمتكبرين من خلقه على سائر خلقه، وفيهم التكبر وأولك ما علمت وأخرك قوت الدود! يا أيها الترابي المخلوق ﴿مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ الحجر: ٢٦ أي من طين مسود متأسن. فيم تتيه خيلاء؟ يا أيها الطاووس المنتفش بريشه، ريشك سيريديك وفراء الدب قتله! وزينتك قاتلة لروحك. فأشرق بروحك لا بزوج نعالك! فأنت بالروح لا بالجسم إنسان!

ألا ما أعظم هذا الدين! هذه الوصية التي تبدو سيرة، هي في الحقيقة أعظم مما تبدو عليه. شأن الوصية عظيم وشأن الموصي بها عظيم والموصى وهو عظيم عند العظيم. فكما تبدو الوصية بسيطة، المطلوب أن يكون الملتزم بها بسيطاً مثلها متواضعاً بين إخوانه بل بين الخلق جميعاً. وبعد: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا ۖ﴾ الإسراء: ٣٧ جاء تعليلاً لعدم المرح وإقناعاً به: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ۖ﴾ الإسراء: ٣٧ فقيم دق الكعب والطققة؟ ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۖ﴾ الإسراء: ٣٧ فقيم الشموخ بالرأس والعرنين ورفع العنق والكتفين. إنك مهما

تشامخت فالجبال هذا المخلوق الحجري أعلى قامة منك. وفي القوة البدنية فإن أهون المخلوقات أقوى منك، فالنملة تحمل أضعاف وزنها فهل تحمل أنت كذلك؟ لا أريد أن أقيسك بباقي المخلوقات في القوة.

وهل نسيت أيها المتكبر أن أول معصية عصي بها الله هي التكبر. تكبر إبليس؟ ومن هنا يسأله الله تقريراً: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ص: ١٠ فكان مصيره الطرد من الرحمة وأن حاقت به اللعنة ولحق به العذاب!

ولقد قال قوم قارون لقارون: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قصص: وهذا هو المرح والفرح الذي ينهى عنه النص الكريم. ولا يعني هذا أن الدين جاء لفرض العبوس على البشر. معاذ الله، بل جاء ليفرحوا ولكن ضمن حدود العبودية، لا كفرح الأطفال. يقيم الدنيا ويملؤها ضجيجاً من أجل «بلونة بصاغ»! إنما: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يونس: ٥٨.

قال السيوطي في الدر المنثور في معنى ولا تمش في الأرض مرحاً: قال: «لا تمش في الأرض فخراً وكبراً فإن ذلك لا يبلغ بلك الجبال ولا أن تخرق الأرض بفخرك وكبرك» أ. هـ. بإيجاز.

وعجب أن القرطبي في جامع الأحكام استنتج من الآية ذم الرقص ولا نحب أن نطيل بالنقل عنه فليرجع إليه من شاء.

من دروس الآية ٣٧

١. التكبر أول معصية وأخطر معصية، وقد توعد الله من ينازعه الكبرياء بالذل والصغار في هذه الدار وتلك الدار. وجعل مصيره الخلود في النار.

٢. إمام المتكبرين وأول المتكبرين إبليس، ويكفي المتكبر شؤماً أن رائده في هذا الإحساس الخسيس هو إبليس.

٣. الغفلة والنسيان أساس التكبر. فلو تذكر الإنسان وتفكر في أول نشأته و«مم خلق» لما استكبر. ولو تذكر إلى أي شيء سيصير لما تكبر. ولو تذكر أن الحيوانات أقوى منه والحشرات أقوى منه وأن بعوضة لا تجعله

ينام الليل، وأن الفيروس الذي لا يرى يطرحه طريح الفراش. لو تذكر
أن خطوته لن تفجر الماء ولن تخرق أديم الأرض، وأن قامته لن تبلغ قمم
الجبال ولن تطاول عنان السماء، لو تذكر أن منصبه إلى زوال وهو إلى
زوال لزال عنه هذا الضلال. وللزم حد العبودية مع الرجال الرجال.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ٣٨

الربط والمناسبة: كثرت المنهيات في الوصايا السابقة حتى بلغت ١٥ نهياً، من هنا جاء التعقيب عليها: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ الإسراء: ٣٨. **المعنى:** كل ذلك: كل ما مر من منهيات. وحتى الأوامر من مثل «وأوفوا بالعهد» فإن نقيضها وهو النقض فإنه مكروه، لأنه ما أمرك بشيء إلا وفي ضمنه النهي عن ضده.

كان سيئه: كان سيء هذا المنهي.
عند ربك مكروهاً: أي في ميزان الله ونظره وحكمه وكتابه.
قال المراغي في معنى «كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً»: «أي كل الذي ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهي وهي الخمس والعشرون السالفة كان سيئه وهو ما نهى عنه منها، مكروهاً: أي مبغوضاً...» أهـ. بإيجاز.

من دروس الآية ٣٨

١. ما نهى الله عن شيء إلا وهو سيء وكرهه ويشقى من فعله.
٢. الحسن والقبح يتحددان وفق ميزان الله لا وفق أهواء البشر وأمزجتهم.
- من هنا كثر تعبير «عند الله»، أو «عند ربك» في القرآن.
٣. المكروه في نظر الله ينبغي أن يكون مكروهاً عند المؤمن.

المقطع السابع

الآيات (٣٩ - ٤٤)

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ
وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾^(٢١)

الربط والمناسبة: في الآية السابقة بدأ النص بـ «كل ذلك» وفي هذا يبدأ النص «ذلك...» وهذا وذلك يشير إلى ما مر من وصايا. وفي السابقة قوله «عند ربك» وفي هذه «أوحى إليك ربك». من عند قوله تعالى: «لا تجعل...» آية ٢٢ إلى هذه.

المعنى: ذلك: اللام في اسم الإشارة للبعد، للإشارة إلى شرف المنزلة وذهابها بعيداً في السمو والسموق والرفعة.

مما أوحى إليك ربك: هذا الذي ذكرته الآيات مما أوحى، ومما أنزل إليك ربك بطريق الوحي وعن طريق أمين الوحي جبريل وبلغك في هذا القرآن الكريم. وَمِنْ فِي (مما): إما للبيان، فهي مِنَ البَيَانِيَّةِ. أو للتبويض فهذا الذي ذكر في هذه الآيات هو بعض الذي أوحى إليك ربك من الحكمة. والقول نفسه في «من الحكمة» أعني في «مِنْ».

وأما الحكمة فهي على عدة معان، منها أحسنية الفهم. ومنها وضع الشيء في موضعه، ومنها ما يمنع عن الفساد والخلل، ومنها حسن التصرف... إلخ، والجذر (حكم) فيه معنى المنع، والحكمة: لجام الدابة يمنعها من الانطلاق فيما لا يريده صاحبها والحكمة من أعلى وظائف العقل ومقاصد الدين، ومن هنا قال الله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة).

ولا تجعل مع الله إلهاً آخر: ألا ما أجمل القرآن! لقد بدأت الوصايا بـ ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾^(٢٢) الإسراء: ٢٢. وها هي ذي تختتم بـ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾^(٢٩) الإسراء: ٢٩. ولا حظ ختام الآية هناك: فتقعد مذموماً مخذولاً. أي هذا جزاء العاجلة. ولا حظ ختام الآية هنا: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾^(٣٠) الإسراء: ٢٩. وهذا جزاء الآجلة. فاكتملت الصورة من طرفيها. واكتمل الجزاء بشقيه: العاجل والآجل.

فَتُلْقَى: الفاء واقعة في جواب النهي. وعجيب تعبير (فَتُلْقَى)، وما

يحملة من ظلال وتصوير، فالمشرك يُلقى إلقاءً، أي يُحمل كما تُحمل التوائف والمهملات فيُلقي في الوعاء المخصص. وجهنم هي وعاء هؤلاء. وحاشا لمقام الكريم أن يكون كذلك. ولكن الخطاب ليعلم الجميع أن لا أحد فوق القانون الإلهي، ولا خصوصيات ولا استثناءات.

في جهنم: وجهنم أشهر أسماء النار ولها أسماء عديدة.

ملوماً: مستحقاً اللوم.

مدحوراً: مهزوماً لا ناصر لك.

وبقوله تعالى: «ولا تجعل» تكون اكتملت ٢٤ وصية، ٨ منها إيجابية بمعنى

(افعل) من مثل: وبالوالدين إحساناً، وآت ذا القربى حقه،... إلخ و ١٦ سلبية

بمعنى النهي: لا تفعل، من مثل لا تجعل يدك... إلخ.

من دروس الآية ٣٩

١. سُمى القرآن وصاياه الأخلاقية ومنهجه الأخلاقي ودستوره للتزكية

سمّاه (حكمة)، لأن من شأنه أن ينشيء الحكمة في النفوس.

٢. بدأ النص الكريم وصاياه الأخلاقية بالتوحيد وختمها بالتوحيد إشارة

إلى أنه لا منهج للأخلاق، على الحقيقة، إلا إذا كان معتمداً على

التوحيد. وفصل الأخلاق عن الدين بدعة هذه الأعصر الأخيرة، بل

ضلالتها العظمى. فلن تكون أخلاق بلا اعتماد على أساس من الدين

الحق القائم على التوحيد، وكم تكشف أخلاق الغرب أو «إتيكيتهم» عن

مخاز عند الامتحان، فلا هي تبقى ولا تصمد عند الامتحان ولا تثبت

على المحك.

٣. الشرك عواقبه وخيمة في الدنيا والآخرة.

﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا
إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾

الربط والمناسبة: تعقيباً على قول الله: «ولا تجعل» جاءت هذه الآية بصيغة الاستفهام، تسأل المشركين الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله. وهم ينفرون من البنات ويحبون الذرية من الأولاد. فيسألهم السياق الكريم: هل خصكم الله بالبنين واتخذ هو ذرية من البنات؟

المعنى: أفأصفاكم: الهمزة في أول الكلمة للاستفهام. والفاء للعطف مع التعقيب. والمعطوف عليه محذوف. تقديره مثلاً: أعطاكم أو خصكم فأصفاكم. ثم فعل «أصفى» وهو متعد بالهمزة، والكاف في (كم) للخطاب وهي مفعول به. فصارت الجملة ذات الكلمة محتوية على أشياء: ١- الاستفهام. ٢- المعطوف عليه المحذوف والمقدر. ٣- فاء التعقيب والعطف. ٤- الفعل. ٥- الفاعل. ٦- المفعول به. فأى لغة عبقرية مضمرة مكتتزة غنية وجيزة رشيقة هذه اللغة؟ ربكم: هذه الآية الثالثة التي ذكر فيها اسم الرب تبعاً، أي ربكم الذي يريكم ويرزقكم ويحييكم ويميتكم..

بالبنين: أي بالذرية من الأولاد الذكور.

واتخذ من الملائكة إناثاً: لماذا تتسبون لله ما تكرهون وما لا تحبون وتختارون أنتم ما تحبون من الذرية؟ فكيف تكون مقاييسكم مختلفة عنه سبحانه؟ تعالى الله عما يقولون ويفكرون. وهي فرية مضاعفة الإثم أن يجعلوا الملائكة إناثاً فهذه فرية أولى. وأن يجعلوها بنات الله فهذه ثانية، وأن يفضلوا أنفسهم بحسب مقاييسهم على الله فهذه ثالثة. فهي مجموعة افتراءات كل منها تخلصهم في النار فكيف إذا جمعوها؟

إنكم لتقولون قولاً عظيماً: إنكم بهذا القول قد قلتم قولاً عظيماً وارتكبتم خطأ فظيماً، وتجاوزتم تجاوزاً بعيداً، وافتريتكم افتراءً جسيماً مبيناً.

من دروس الآية ٤.

١. كم يجتريء العقل المادي الإلحادي على الغيب وعالم ما وراء الحس. فكيف تجرأوا ونسبوا الملائكة إلى عالم الإناث. وقد صوروهم ورسموهم بصورة أطفال بأجنحة وهي صور أقرب إلى لعب الأطفال وهذرهم. فهل هذه الأطفال الرقيقة في رسومهم هي التي تقوم بالمهام الجسيمة كخسف الأرض بقوم لوط؟ أو نصرة المؤمنين بالثبوت في بدر؟ أفهذه مهمة هؤلاء الأطفال؟ ولماذا هذا الاجترار وما المصلحة؟
٢. الشرك مدخل الطغيان والظلم، والشرك أفيون الشعوب لا الدين كما زعم طاغوتهم ماركس بمقولته الشهيرة الفاجرة. ولأن الشرك مدخل الظلم بل هو الظلم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: ١٣.
٣. ينسب المشركون إلى الله ما لا يحبون من البنات ويختصون أنفسهم بما يحبون: الأولاد من البنين. وما من تمييز ولكن نحاكمهم بمنطقهم.
٤. من قبائح الجاهلية قديماً وحديثاً التمييز بين الذكور والإناث. ودعك من تبجح الغرب والشرق فهما كلاهما مميّزان في الوظائف والأعمال فلماذا لم يحكم أمريكا رئيس أنثى حتى الآن؟

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿١١﴾

الربط والمناسبة: أشار النص الكريم السابق إلى القرآن دون تصريح

بالاسم الصريح إذ قال: ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ الإسراء: ٣٩ وهنا صرح باسم القرآن إذ قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الإسراء: ٥١.

المعنى: ولقد: الواو: الأقرب أنها للاستئناف. أي الكلام الناشئ عن

سؤال مقدر في الذهن أوحى به الكلام السابق.

صرفنا: التصريف: التويع. والطريف أن التصريف جاء هنا مطلقاً. فلم

يقبل ماذا صرف أهو الآيات أم الأمثال بل جاء عاماً: ﴿صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾

وقد وردت «صرفنا» في القرآن (٥) مرات هذه أولها. ولم ترد في سورة

مرتين إلا في الإسراء في هذه الآية وبعد ٤٨ آية فقد جاء النص هكذا:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ الإسراء: ٨٩.

والفرق بين التعبير الأخير وما في آيتنا أنه لم يذكر هنا لمن صرف وإن

إتى به ضمنا في قوله ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ ولم يصرح به كما في الآية ٨٩. وأما الثانية

فقد قال هناك ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ فقد صرح بما صرف وهو الأمثال. ولكن

لاحظ أن النهاية والنتيجة واحدة: النفور والكفور. فقال هنا: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا

نُفُورًا﴾ وقال هناك: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ الإسراء: ٨٩ والنفور قبل

الكفور. فتأمل!

وأما النص الثالث فهو في الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ

مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف: ٥٤، والملاحظ أن النص في

سورة الكهف والأخير في سورة الإسراء كل منهما ١٤ كلمة واختلف ختام

الآية وتشابهت الكلمات التسع الأولى، وختام آية الإسراء ذكرت الناس، وختام

آية الكهف ذكرت الإنسان، مع أن سورة الإسراء ركزت على الإنسان في

مجمليها. والموطن الرابع في طه ١١٣: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ وقبلها جاء

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. والأخير في الأحقاف: ﴿وَصَرَّفْنَا الْأَنْبِيَاءَ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأحقاف: ٢٧، والملاحظ أن آية طه أيضاً ١٤ كلمة.

ليذكروا: السلام لتعليل التصريف، والعلة هنا التذكر. والتذكر يكون للحقائق المعلومة والمستقرة والمنقوشة في الفطر والبدائه والعقول. وذكر هنا لماذا صرّف ولم يذكر لماذا صرف ولمن صرف. فماذا كانت نتيجة التصريف؟ وما يزيدهم إلا نفوراً: صيغة فيها «ما» و«إلا» فهي تفيد الحصر والقصر. أي لم يزداهم التصريف شيئاً إلا النفور. والنفور: الابتعاد والفرار والتجافي.

من دروس الآية ١٤

١. ينوع القرآن حججه وبراهينه ولا يسير فيها على لون واحد، لأن طبيعة الإنسان محبة لهذا التصريف والتتويج. والله يريد أن يقرب القلوب من القرآن والقرآن من القلوب، فكان هذا التصريف.
٢. حقائق الإيمان مستقرة في الفطر والعقول والوجدان والقرآن مذكر والرسول كذلك.
٣. الكفر والنفور طينة واحدة. وعجيب أمر هذا الإنسان كيف يستخدم عقله الذي خلقه الله ليكون بؤصلة الهدى.. يصبح بسوء الاستخدام وسيلة الإضلال. كما تصبح كثير من الأدوات وسائل شقاء بسوء الاستخدام.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

الربط والمناسبة: بدأ القرآن الوصايا بالتوحيد وختمها بالتوحيد. ثم رد على الذين زعموا الملائكة بنات الله من جهلة مشركي العرب. ثم أتى على تصريح القرآن للمعاني وأهمها بالقطع: التوحيد، ثم عاد يرد على من يدعون أن مع الله آلهة أخرى.

المعنى: قل: أمرٌ بالقول موجّه إلى سيد المخاطبين ﷺ ثم لكل من يصح منه الخطاب والأمر بقُل.. فماذا تقول؟

لو كان معه آلهة: لو كان مع الله آلهة.

كما يقولون: كما يقول المشركون بزعمهم الكاذب.

إذا: إذا كان الأمر كذلك أن معه آلهة بزعمهم.

لا تبتغوا: لقصودوا وتوجهوا.

إلى ذي العرش سبيلاً: هل هذه الآية أو هذا الجزء من الآية بمعنى الآية

٥٧ من هذه السورة وهو قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَيْنَا رِيَّهُمُ الْوَسِيلَةَ﴾؟

أم للمعنى اتجاه آخر وهو: إذاً لنزعوه الملك. ولماذا يظنون بعيداً هنا في

الأرض، فلماذا لا يتخذون طريقهم وسبيلهم إلى الله ذي العرش؟ لماذا يظنون

بمنأى عن مركز سلطانهم، بزعمكم؟

﴿سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣)

الربط: تنزيه لله تعالى عن قول أولئك المشركين بوجود الشرك، وهو القول الذي فندته الآية السابقة. فالآية متناسقة مع سابقتها ومع فاتحة السورة وجوهاً.

المعنى: سبحانه: تنزه الله، وهذه سورة سبحان.

وتعالى: كثيراً ما تقترب سبحانه بكلمة «وتعالى» كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ الأنعام: ١٠٠، ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يونس: ١٨، والنحل ٥٧، والروم ٤٠، والزمر ٦٧.

وتعالى: فعل ماض يفيد أن هذا القول بعيد مطلقاً عن الله. عما يقولون: بعد هذا القول عن الله، وارتفع قدر الله عنه، أن يقال عنه سبحانه مثله.

علواً كبيراً: تعالى الله علواً كبيراً مطلقاً عن هذا القول الذي لا يليق بجلال الله وعظيم شأنه وقدره.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿١١﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة ورد «سبحانه» وفي هذه الآية ورد التسبيح ٣ مرات بثلاث صيغ: تُسَبِّحُ، يُسَبِّحُ، تَسْبِيحُهُمْ. لتأكيد جو التنزيه لله تعالى عما يقول المشركون.

المعنى: تسبِّح له السموات السبع: تنزه الله تعالى. وتسبح لله فهي تسبحه وتسبح له: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾ الحديد: ١ وقد وردت هذه الصيغ كلها في القرآن: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ فصلت: ٢٨ ﴿كُنْ تَسْبِيحًا كَثِيرًا﴾ طه: ٢٣ وقد ورد ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ النور: ٢٦ مرات في النور مرتين والحشر مرة. وورد ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ فاتحة سورة مرتين الجمعة والتغابن. ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ الاعراف: ٢٠٦ وختم المسبِّحات: ﴿سَبِّحْ أَسْمَاءَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الأعلى: ١ وأرى أن يسبِّحونه تعني ينزهونه. ويسبِّحون له: بمعنى ينزهونه كذلك لذكره ولمرضاته. وورد التسبيح بحمده مرات كذلك. وأما تسبيح السموات السبع فتؤمن به ونعلمه ضرورة لذكر الله إياه في كتابه وإن كنا كما قال الله لا نفقه ماهية وكيفية هذا التسبيح. وهل ندرك نحن ماهية وكيفية السموات السبع حتى ندرك كيف تسبِّح؟

والأرض ومن فيهن: والأرض مُسَبِّحة كذلك ومن في السموات ومن في الأرض مُسَبِّحون هم أيضاً.

وإن من شيء إلا يسبح بحمده: إما أنها تأكيد أو تفصيل لما قيل قبلاً. فقد أخبرنا الله هنا أنه لا شيء من الذرة إلى المجرة إلا يسبح بحمد الله فيجمع بين التنزيه وإثبات المحامد لله.

ولكن لا تفقهون تسبيحهم: ولكنكم أيها الناس لا تفهمون ولا تعلمون ولا تدركون كيفية تسبيحهم، وقد أثبت العلم أن الحشرات لها لغات. وأن النباتات لها تواصل ولها انفعالات، وما أوتي البشر من العلم إلا أقل القليل، كما قال التنزيل الجليل في هذه السورة: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٨٥ والنفي أعني نفي ما لا تعلم أو لاتدرك ليس عن علم ولكنه عن إنكار، فلو

قال مادي: طالما أنني لا أدرك التسبيح فهو غير موجود. لكان هذا منه جحداً أو جهلاً وإنكاراً. فكما قلت قبل قليل، فإن التجارب العلمية أثبتت أن للنباتات تواصلًا وانفعالات، ولا مجال للتفصيلات، فهذا ميدانه ومجاله كتب العلم. فقد ذكرت تجارب أنهم ذبحوا تحت شجرة أرنباً وكانوا ربطوا بالشجرة أسلاكاً ترصد الذبذبات فسجلت ارتفاعاً ملحوظاً. وأن النباتات تتواصل كالأحياء الأخرى. ومن ضمن ما قرأنا قبل عشرات السنين أن الروس الملحدون وقتها يوم كان الاتحاد السوفياتي أخذوا أرنبية في غواصة، وذبحوا ابنها على الأرض فزادت في لحظة ذبحه ذبذبات مخّها. والعالم الياباني المختص ببلورات الماء وجزيئاته وتصوير هذه الجزيئات وسجل هذا في كتاب منشور مشهور وكيف ترتبت الجزيئات بسماع الآيات. فلما وضع بجوار الماء موسيقى صاخبة أصبح شكل الجزيئات مختلفاً مشوشاً مضطرباً. والأمثلة والشواهد كثيرة جداً، والنفي سهل جداً. إنه موقف المحصور المحبوس عن عوالم الغيب. تماماً كما نقول لجنين في بطن أمه إن خارج سجنك هذا عالم هائل بل عوالم، ولأنه لم ير، ربما لو أتيح له لنفى مثل باقي المحبوسين في قمقم المحدود، وفي سجن المألوف والمعروف. والإيمان نعمة عظيمة تُوسّع الآفاق والمدارك وتصلك بأصلك، فلأمر حكيم جعل الله الحكيم جزءنا العظيم الأهم من عالم الغيب وهو الروح، فكأن منكر الغيب منكر لذاته وهل حماقة أضخم من أن ينكر الإنسان ذاته؟

إنه كان حليماً غفوراً: عجيب هذا الختام، وكم كررت أن من بلاغة القرآن أن يدهشك ويفاجئك بالتعبير غير المتوقع. فما وجه الختام بما ختم به النص الكلام بهذا الختام؟ فهل لأن البشر لا يفقهون فهم منكرون والله يحلم عليهم ويغفر لهم إن رجعوا عن محدوديتهم وجهلهم وإنكارهم. أم أن النص كان يتكلم عن الكون المسبّح والله حليم غفور بهؤلاء ولهؤلاء المسبّحين في هذا الكون. أم هذا وذاك وما قلنا وما لم نقل؟

من دروس الآيات ٤٢ - ٤٤

١. أعظم حقائق الدين وأعظم حقائق الكون والوجود توحيد الإله العظيم سبحانه.
٢. لو كان مع الله آلهة لكان لهم في الكون نفوذ ولا تخذوا سبيلهم وطريقهم إلى موقع نفوذهم عند ذي العرش. تعالى الله عن هذا.
٣. تنزه الله عن الشرك والشريك وتعالى عما يقول المتخرصون علواً كبيراً.
٤. الكون كله مسبّح لله بلُغته فالطير بلُغته والنبات والجماد. فما من شيء في الوجود إلا وهو مُنَزَّه لله.
٥. عدم رؤية الشيء وعدم إدراكه لا ينفي وجوده. فالتسبيح لسنا نحسّه ولا نراه ولكن الله أخبر بوجوده فهو موجود.

المقطع الثامن

الآيات (٤٥-٤٨)

القرآن والمحجوبون

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^(٤٥)

الربط والمناسبة: تحدث السياق عن القرآن قبل ٤ آيات في الآية ٤١ ثم أعقب الحديث عن القرآن ذكر التوحيد. والآن في هذه الآية وتالياتها يتحدث عن القضيتين معاً: القرآن والتوحيد. وأيضاً فإن السياق كان يدعوهم إلى الله واتباع دينه والإيمان بكتابه، فما الذي يجعلهم لا يستجيبون؟ تجيبنا هذه الآية بأنها الحُجب المضروبة على قلوبهم. ووجه ثالث في العلاقة أن الناس لا يفقهون تسبيح الكون لله، لوجود الحجاب المانع، فكذلك فريق من الناس لا يفقهون القرآن لذات العلة.

المعنى: وإذا قرأت القرآن: سيذكر القرآن في هذه الصفحة ثلاث مرات وهذه المرة واسطتها وموقعها وسط الصفحة الكريمة من الكتاب الكريم. وربما لا يناظرها في هذا التكرار لكلمة القرآن صفحة أخرى من الكتاب العزيز. والخطاب لسيد المخاطبين ﷺ ثم لكل من يصلح منه الخطاب من بعده.

يقول له: وإذا قرأت القرآن يا رسول الله وسمعوه منك، إما بأن تتلوه لنفسك أو تتلوه لتدعوهم به إليه. وكلمة «قرأت» لم ترد في القرآن إلا مرتين وفيهما كانت مقترنة بالقرآن في السورتين الجارتين التوأمين: النحل الإسراء. فقد جاء في النحل ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ النحل: ٩٨ وهنا في الإسراء جاء ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ الإسراء: ٤٥.

جعلنا: أصل معنى (الجعل) تصيير بعد الإيجاد: أي أنها أعراض متبدلة متغيرة. تماماً كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا إِلَيْهِ لَيْلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ الإسراء: ١٢ ونسب هنا وهناك الجعل إلى الله لأنه يتم بأمره أو وفق ناموسه.

والجعل هنا ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الإسراء: ٤٦ معناه وضع حواجز على القلب وحُجب تمنع الفهم، لأنهم قرأوا بعيون مغلقة وقلوب جاحدة جامدة

وعقول منكورة مصرة على باطلها . فأنى تتفتح له أي لهذا القرآن الأبصار والبصائر؟ وهذا الجعل ليس جعلاً ابتدائياً أي في أصل الخلقة ولكنه نتيجة لمواقفهم الخاطئة ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^{٤٥} .

جعلنا: وقد وردت (جعلنا) في سورة الإسراء بصيغ مختلفة (٩) مرات وهذه الصيغ هي: وجعلناه (مرة) وجعلناكم (مرة)، جعلنا (٣ مرات)، وجعلنا (٤ مرات) ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^{٤٦} . والحجاب يفصل شيئين. كخطاب أمهات المؤمنين من وراء حجاب: ﴿فَسَتَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^{٤٧} الأحزاب: ٥٣ ولكن الحجاب هنا في الإسراء جعل بين النبي ﷺ وما يحمله من قرآن وما يمثله من دعوة ودين وقيم، وبين الكافرين من جهة أخرى، جعل الله حجاباً أي حاجزاً وساتراً حائلاً.

حجاباً مستوراً: كنا نتوقع التعبير أن يكون حجاباً حاجزاً أو ساتراً فلم عبر القرآن بـ (حجاباً مستوراً)؟ إما أنه عنى مستوراً بمعنى ساتراً فعبّر بالمفعول وأراد الفاعل.

وإما أنه أراد حجاباً معنوياً غير ظاهر، فالحجاب نفسه مستور، ويستتر ويخفي بين المتكلم والسامع ويحول دون اللقاء! والله أعلم.

ولماذا اختار الإيمان بالآخرة من بين سائر أركان الإيمان ليجعله المعيار والمقياس؟ لأنه - فيما أرى - هو الذي يعطي للدين جديته، فكل الناس أو جل الناس يؤمنون بالله بطريقة أو بأخرى، لكن الذي يعطي لهذا الإيمان جدية وقيمة عملية - إن جاز التعبير - إنما هو الإيمان بالآخرة. ولله المثل الأعلى فما مثل طالب يؤمن أنه في الجامعة لكنه لا يؤمن بالامتحان؟

ولسنا مع الذين فسروا الحجاب بأنه إخفاء الرسول ﷺ، وقد جاءت أم جميل تبحث عنه وقد حملت (فهراً) أي حجراً لتضربه به وكان يقرأ القرآن، فألقى الله عليه هذا الحجاب الساتر، والسياق يأباه على كل حال! وأقرأ بعدها: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾^{٤٨}.

من دروس الآية ٤٥

١. عبّر القرآن عن المانع الذي يمنع من الإيمان بكلمة حجاب في قوله تعالى ﴿حِجَابًا مُسْتُورًا﴾ الإسراء: ٥٠؛ وصحيح أنه عبّر بالمفرد، لكنه أراد الجنس. فهي في الواقع حُجب لا حجاب واحد، وما قصد القرآن أنه واحد كما يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الحجر: ٧٧ وكما قال: ﴿وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ النحل: ١٨ فالإلف حجاب، والهوى حجاب، والتقليد حجاب، والمصالح حجاب، والفتنة والتهديد حجاب... إلخ.
٢. مقياس الخير والصلاح في القابلية لاستماع القرآن فهو مصدر الدين.
٣. الإيمان بالآخرة والإيمان بالله قضيتان مقترنتان، بل إن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يعطي للإيمان بالله حقيقته العملية الجوهرية. وإلا فإنه إيمان نظري كالذي كان يقرّ به العرب في مساءلتهم: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ النكبت: ٦١ ونحوه من الأسئلة، فإن جوابهم كان بشكل دائم: الله. ولكن ما الجدوى وهم يستبعدون المثول بين يديه للحساب؟
٤. نسبة الجعل إلى الله أي وفق النواميس والقوانين والسنن أن الذي يأتي حمى القرآن بأحكام مسبقة وإصرار مسبق، أنه لا يؤمن فلا جدوى سمع أم لم يسمع.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُورًا﴾ ﴿٤٦﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن حجاب يحجب الكافرين

عن سماع القرآن. وفي هذه الآية حديث عن حجاب على قلوبهم يحول بينهم وبين الإيمان. وفي الأولى «جعلنا» وهنا «وجعلنا» فكأن الحديث عطف على ما مر. كما أن في الآية هنا خطوة «متقدمة» في سلبية الكافرين، فهناك انحبوا عن السماع وهنا ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُورًا﴾ ﴿الإسراء: ٤٦﴾.

المعنى: وجعلنا: الأقرب أن الواو للعطف، عطف ما بعدها وهو جعلنا على جعلنا في الآية السابقة. ويجوز أن تكون للاستئناف بمعنى أنها جواب عن سؤال مقدر نشأ من الكلام السابق تقديره: ما يمنعونهم من التأثر بالقرآن مع أنه كلام الله؟ فقال ما قال. ويجوز ثالثاً وأخيراً أن تكون الواو للحال أي في حالة كونهم مغطى على قلوبهم. وأرجحها أولها فيما أرى.

على قلوبهم: لا فك ارتباط بين العقل والقلب. فلا تأخذنا الحيرة، هل المقصود عقولهم أم قلوبهم بالفعل؟ والجواب قلوبهم ولكنها لا تتفصل ولا تفك عن عقولهم. و (جعلها) هنا محور الخطاب أي القلوب، لأن المشاعر هي التي تحدد اتجاه العقل. وكم باحث مستشرق أو غيره من بني جلدتنا، يكتب عن القرآن كلاماً غريباً عجباً في سلبيته، ويأباه كل من كان عنده أقل قدر من الإنصاف. إذاً ما الذي حمله على أن يحقر نفسه بهذه الطريقة. لأن من يحقر العظيم فقد حقر نفسه^(١).

على قلوبهم: تسيطر عليها وتُحكم غلقها، وتتمكن منها بأجمعها.

أكنة: أغطية، والكنانة: جعبة السهام. لأنها تحفظها وتغطيها وتخفيها. ومصر الكنانة لأنها مجللة بالحفظ إن شاء الله. حماها الله من كل كيد ومكر ودسيسة، وقد وردت أكنة ٤ مرات في القرآن، ثلاث منها: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ

(١) بمعنى ما قال العقاد في مقدمة كتابه: عبقرية محمد ﷺ.

أَكِنَّةٌ أَنْ يَقْقَهُوهُ ﴿٤٦﴾ الإسراء: ٤٦. (١)

والفقه: الفهم أو دقة الفهم وعمق الفهم وصوابه.

وفي آذانهم وقراً: اقترنت ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ﴾ الإسراء: ٤٦ أو ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ فصلت: ٥ وهي المرات الأربع التي أشرنا إليها آنفاً. اقترنت بقوله ﴿وَفِي مَآذِنِهِمْ وَقْرًا﴾ الإسراء: ٤٦ ٣ مرات والأخيرة ﴿وَفِي مَآذِنَا وَقْرًا﴾ فصلت: ٥ والوقر: الثقل في السمع أو الصمم جزئياً أو كلياً.

وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده: أول ما يلفت النظر في هذا الجزء من الآية هو الترتيب. فهناك احتمالات عقلية للترتيب ولكن القرآن يختار الأحكم والأبلغ قطعاً. ومن هذه البدائل: وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده. أو: وإذا ذكرت ربك وحده في القرآن. والمقصود من الكلام: وإذا ذكرت ربك في القرآن ووحدته ولم تجعل له شريكاً ولا نداً، وهذا هو الحق.

ولوا على أديبارهم نفوراً: إنه في نظرهم إما الشرك، الذي لا دليل عليه. لا من الدين، ولا من الكون، ولا من العقل، ولا من الفطرة، ولا من مصلحة. إما الشرك وإما رفض الدين والكتاب المبين والرسول الأمين جملة وتفصيلاً. نفوراً: أي نافرين فارين مبتعدين، كما قال القرآن: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩) كَانَهُمْ حُمُرٌ مَسْتَفِرَّةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَيَّنُوا مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ المشر: ٤٩ - ٥١.

من دروس الآية ٤٦

١. جزاء القرار المسبق بالإعراض عن الحق أن يجعل الله على قلوب المعرضين أغلفة وأغطية لئلا يفقهوه.
٢. السمع أحد أهم قنوات العقل والقلب وجزاء من اتخذ قراره بالانصراف عن الحق أن يعطل الله سمعه عن سماع الحق.
٣. لا ينفر الكافرون من شيء نضرتهم من التوحيد لأنه يقطع عليهم سبل التأله على العباد.

(١) في الأنعام والإسراء: «وجعلنا» وفي الكهف: «إنا جعلنا» والموضع الرابع في فصلت وهو: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ»

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ
إِنْ تَنبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٤٧)

الربط والمناسبة: ذكر في الآيتين السابقتين القرآن بلفظه وفي الآية

الأولى جمع بين القرآن وسماع تلاوة الرسول ﷺ من قبل المشركين. وهنا جمع الأمرين معاً كما في الآية الأولى من هذه المجموعة إذ قال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَنبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (الإسراء: ٤٧).

المعنى: يقول الله تعالى في هذه الآية بنون العظمة «نحن» إنه سبحانه أعلم ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ (الإسراء: ٤٧) وهو تعبير عجيب يحتمل معاني، أرى منها: أعلم بالذي يختزنونه في أنفسهم من إصرار وعناد ورصيدهم المسبق من عقائد الكفر وهم يستمعون القرآن، ولاحظ: ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴿فقد كرر (يستمعون) مرتين وغاير المتعلق بها من ﴿يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ إلى ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ فهم يستمعون إليك أي إلى تلاوتك القرآن، أو دعوتك لهم بمضمون مشتق مستخرج من القرآن، ففي الأحوال كلها أنت تدعو من القرآن وللقرآن وبالقرآن. وهم يستمعون بأرصدتهم المختزنة من أفكارهم وعقائدهم الباطلة، وإذا استصحب الإنسان هذا «المخزون» الرديء فأنى يفهم إذا استمع؟ وكما قيل: إنك لا تكتب على الورقة المكتوبة. فالورقة لا يُكتب عليها مرتين. وكمن نبه صاحب الظلال إلى هذه الفكرة وهي التخلي عن المخزونات القديمة وعدم استصحابها، إذ كان الصحابة يخلعون إرثهم الجاهلي على عتبة الإسلام، أظن أن عبارته قريب من هذا. وهذا ليس بالشيء الهين أو اليسير. بل هذه أزمة الحياة وأزمة التغيير، وأزمة دعوات الإصلاح، أن تواجه وأن تصطدم بمثل هذه العقبات والمعوقات.

وإذ هم نجوى: عطف على «يستمعون إليك» فالقرآن ذكر حالتين من حالاتهم: يستمعون إليك، وهم في حال التناجي أيضاً. أي في حال المسارة لبعضهم أو المحادثة عموماً. فهم يرددون عبارات وأحكاماً مما يختزنون،

منها ينفقون، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ البقرة: ٢٦٦ وفكرهم ومخزونهم خبيث، فأنى يهديهم إلى صراط الله المستقيم؟!

إذ يقول الظالمون: هذه «إذ» الثالثة في هذه الآية. و (إذ) ظرف لما مضى من الزمان. هذه الجزئية من الآية اقتطعت عينة من هذه الأقوال التي يرددونها في مواجهتك أو في مجالسهم وندواتهم ومسامراتهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ الإسراء: ٧؛ صيغة (إن) وهي بمعنى (ما) النافية و «إلا» تفيد الحصر والقصر.

إن تتبعون: يخاطبون من بهذه الكلمة؟ ومن الذي يتبع الرسول؟ إنهم المؤمنون. فهل هم يخاطبونهم بهذا ليصدّوهم وليتبطّوهم؟ أم أنهم يخاطبون عامة جمهور مكة مؤمنهم وكافرهم، على اعتبار أن دعوة الرسول تؤهله للإمامة الفكرية والزعامة الاجتماعية أو السياسية، إذا «إن تتبعون» على العموم، «إلا رجلاً مسحوراً» واقعاً تحت تأثير السحر.

وهذا تفسير في ضوء الثقافة السائدة، أن الذي يأتي بما يخالف إلف الناس وما يعرفون، إنما يعرض تخاليط، نشأت عن وقوعه تحت تأثير السحر. ومعاذ الله أن يكون كما قالوا فهذا الرسول مصون عقله، كما أن السحر لا يفعل ما زعموا. ولا نريد أن ندخل في متاهة هذا الموضوع، لكن الخلاصة أن الرسول يبلغ كلمة الله، وهي حكمة مطلقة، فأين هي من اختلاطات من تزعمونهم واقعين تحت تأثير السحر؟

وهذه التهمة الباطلة ذكرتها كذلك سورة الفرقان بالنص نفسه: (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) فهل نردد مثل قول المشركين؟ وهل نصدقهم في قولهم ونقول: نعم، لقد تعرض لأثر السحر؟

من دروس الآية ٤٧

١. أن تستمع إلى الحق وأنت تستصحب رفضه بقرار مسبق فإنه لن يؤثر فيك، لا لعجزه عن التأثير، معاذ الله، لكن لأنك على حالتك تلك أتيت نبع الماء بإناء مقلوب أو محكم الإغلاق فأنى يمتلئ الإناء المقلوب أو المغلق تحت مصدر الماء؟
٢. الكفار يتواصون بينهم في مجالسهم ومنتدياتهم ونجواهم بمقاومة هذه الدعوة وهذا الدين وترديد مقولات ينشرونها بين العامة تسري كأنها مختزلات يسهل التعامل معها ويسهل التأثير بها ومن خلالها على عقول الناس ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ ﴿فصلت: ٢٦﴾.
٣. قابلية العقل للهدى كقابليته للضلال. فهو مهياً لهذا وهذا. وما مثله إلا كالآنية يمكن أن تملأ بالعدل أو بالخل أو بالعكر.
٤. سمى القرآن هؤلاء المروجين لهذه المقولات ظالمين، لأنهم يكذبون ويظلمون الحقيقة.
٥. تفسير الأحداث إنما يتم وفق منظومة الفكر السائد ووفق الثقافة السائدة، من هنا رُوجوا حكاية «المسحور» حاشاه ﷺ.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ١٨ ﴿

الربط والمناسبة: منذ الآية ٤٥ وضمير خطابه ﷺ لم ينقطع. ففي الآية الأولى أي ٤٥ تكلم النص عن الحجاب بينهم وبينه. وفي الآية الثانية إدبارهم ونفورهم عنه، وفي الثالثة اتهامه بتعرضه للسحر. وفي هذه إشارة إلى كل ما ذكر الحكم عليهم بالضلال.

المعنى: الخطاب لسيد المخاطبين ﷺ على نسق الآيات السابقة.

كيف ضربوا لك الأمثال: كيف: السؤال عن الكيفية.

ضربوا لك الأمثال: كيف يشبهونك بما لا شبه بينك وبينه لا من قريب ولا من بعيد، فضلوا: بهذه التشبيهات.

فلا يستطيعون سبيلاً: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون سبيلاً يوصلهم إلى الهدى، ما داموا هم أقفلوا الدروب والسبل المؤدية، فكيف يجدون السبيل؟

من دروس الآية ٤٨

١. ضرب المثل إن كان في محله وعلى وجهه يقرب المعاني ويوضح القضايا. فإن كان ضرب الأمثال بعيداً أو مقلوباً ضيّع طريق الفهم.
٢. من أقفل طرق الفهم وسبل الهدى عن نفسه فلا يلومن إلا نفسه.

المقطع التاسع

الآيات (٤٩-٥٣)

عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

الربط والمناسبة: في الآيات السابقة طرح قضايا تتعلق بالرسول ﷺ وختمها بالحكم عليهم بالضلال إذ شبهوه بما هو بعيد عنه ﷺ. وفي هذه الآية تبدأ موجة جديدة من اعترافاتهم أو سيء اعتقاداتهم. وهذا هو موقفهم من الإيمان بالآخرة إذ هم يستبعدونه تماماً.

المعنى: وقالوا: سجلت الآية أقوالاً جديدة لهم ومواقف غير السابقة. فذكر هنا استبعادهم البعث بعد الموت. وإذا كنا عظاماً ورفناً: هل إذا كنا في حالة التحلل بعد الموت ووصلنا إلى العظام والرفات المتحللة والرميم. أينا لمبعوثون خلقاً جديداً: لاحظ الاستفهام بالهمزة التي تعقبها همزة أخرى. والمتكرر مرتين وفيه منتهى الاستبعاد من وجهة نظرهم. يقولون: هل إذا وصلنا هذه الحالة نُبعث خلقاً جديداً؟ والاستفهام كما مر يفيد الاستكثار والاستبعاد.

من دروس الآية ٤٩

١. ما أسوأ أن يُضل الإنسان نفسه، ويخترع من المنطق والشبهات أو ما يراه هو حججاً ليبعد نفسه عن الخير والهدى وصراط الحق.
٢. العقل أداة الوصول إلى الله وإلى دينه، فإذا وظّفه بعض الناس توظيفاً سيئاً فأضل نفسه، فإننا لا نكفر بقيمة العقل، وننكر مكانته في الهدى. ولكن ننكر سوء الاستعمال وسوء التوظيف والاستخدام، وننكر المناهج الفلسفية التي تستخدم في الإضلال كالماركسية ونحوها.

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۖ ﴿٥١﴾﴾

الربط والمناسبة: ذكر في الآية السابقة استبعادهم البعث بعد أن يكونوا عظاماً ورفاتاً، وفي هذه الآية يذهب بهم القرآن أبعد مما ذهبوا هم، فيقول لهم كونوا متحولين إلى غير التحول الطبيعي للبشر، فالعظام والرفات، هذا هو التحول الطبيعي. أما أنتم فلتكونوا شيئاً خارج التحولات الطبيعية للميت، بأن تكونوا حجارة أو حديداً أو أي شيء تستبعدون عودتكم منه إلى طبيعتكم، فسيعيدكم الله.

المعنى: يقول لهم القرآن، أي لهؤلاء الجاحدين البعث والقيامة والحساب: كونوا قطعاً من الحجارة أو كتلاً من الحديد أو ما شئتم من التصورات التي تستبعدون معها أن تعودوا إذا كنتموها فلتكونوها، مثل أن تحرقوا بالنار فلا يبقى منكم باقية، أو تأكلكم الوحوش مثلاً، والنص لم يذكر هذا، ولكننا نضربه مثلاً لما قد يستبعدونه.

فسيقولون من يعيدنا: لقد عادوا إلى الاستفهام من جديد. قائلين نعم إذا كنا هذا الذي تقولون، فمن الذي يعيدنا؟

قل الذي فطركم أول مرة: يجيب القرآن الكريم: أن الذي يعيدكم هو الذي فطركم أول مرة، فهل تتكرون خلقكم الأولي؟ وكيف تتكرونها وأنتم موجودون؟ فمن الذي خلقكم أول مرة؟ أليس الله؟ وقد أقررتم أنتم بأنفسكم في مرات عديدة وسجلها القرآن الكريم عليكم ولم تتكروا يوماً أن الذي خلقكم أول مرة هو الله. فما بالكم تستبعدون الخلقة الثانية أو البعث من جديد؟ ومن الأبعد في الاحتمال: الخلق الأول أم الإعادة الثانية؟ لا جرم أنه الخلق الأول وقد كنتموه فلم تستبعدون الإعادة وهي في حكم العقل وعرف الواقع أهون وأيسر وأسهل. وإن كان ليس على الله سهل وصعب وأصعب،

فكله يتم بكلمة (كُنْ)!

فسينغضون إليك رؤوسهم: فسيطرقون إليك برؤوسهم ويقولون متى هو؟ تأمل الهرب من القضية. فالموضوع هو القدرة على البعث والقيامة، وليس المهم متى؟ إنما المهم هل ثمة إعادة أم لا؟ وليس الأمر وقت هذه الإعادة. المهم هو: هل في المستطاع الإعادة أم لا؟ وليس السؤال عن متى؟ ويجيبهم القرآن على سؤالهم مع أن قصدهم منه التهرب من الإقرار والإدعان، فيقول: عسى أن يكون قريباً. وهو أقرب جواب وأروع جواب وهو الحق المطلق. فالزمن نسبي، وطوله وقصره كذلك. فلو قلنا الإعادة بعد عشرة آلاف سنة فكيف تعدونها قريبة أم بعيدة؟ فسيقولون بعيدة. وبأي مقياس عدتموها بعيدة؟ إن الميت معطل الإحساس بالزمن، ولذلك يقولون لبعثهم يوم القيامة: إن لبثتم إلا عشراً. إن لبثتم إلا يوماً.

لقد عاشوا في وهم واستمروا في وهم، وما زالت أوهامهم تعشش في عقولهم حتى بعد نشورهم، إلى أن يلقوا سوء مصيرهم!

من دروس الآيتين ٥٠-٥١

١. عجب هذا الإنسان كيف ينسى البدهيات، وهي خلقه أول مرة فيعجز عن قياس الخلق الثاني على الخلق الأول!
٢. القياس الفاسد ينأى بأصحابه عن الحق، إذ يقيس الإنسان قدرة الله على قدرته فيفضل ويبتعد عن الحق.
٣. الزمن نسبي، فالطول والقصر نسبيان والميت لا يحس بالزمن، فلماذا يشغل الناس أنفسهم بقضية متى البعث. إن فرصتك أيها الإنسان تنتهي في هذه الدنيا بالموت، ويبدأ تصحيح دفاتر امتحانك وأوراق أعمالك ويبدأ حسابك ويبدأ نعيمك أو عذابك، وهذا أقرب مما تتصور.
٤. مخاطبة الناس بما يفقهون وعلى قدر عقولهم وبمنطقهم، وبما يقرب لهم القضية، ولكل سؤال جوابه في هذا الدين بفضل الله.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥٤)

الربط والمناسبة: كانت الآيات السابقة تتحدث عن إعادتهم بقدرة الله أحياء بعد الفناء، فسألوا متى هو فأجيبوا عسى أن يكون قريباً، وفي هذه الآية يذكر متى يكون هذا.. يوم يدعوكم.

المعنى: يوم يدعوكم: يوم ظرف ليدعوكم.

يدعوكم: يناديكم عن طريق الملائكة الموكلين بذلك، وملك الملائكة الموكول له هذه المهمة.

فتستجيبون بحمده: فتستجيبون مع الحمد، أو المعنى، فتستجيبون بحمد الله، أو بفضلته وقدرته.

ويقول في تيسير القرآن الكريم المنان: «أي تتقادون لأمره، ولا تستعصون عليه، وهو المحمود على ما يفعله ويجزي به العباد» أ.هـ.

وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً: وتظنون: حيثما وردت (تظنون) فمعناها: تظنون، أعني المعروف المشهور من معناها، وليس معناها (توقنون) كما يظن بعض المفسرين في مواضع كثيرة من ورود (يظنون) في القرآن، فالظن جذر لغوي غير جذر اليقين، والظن مساحة ممتدة بين اليقين والجحد، على التخوم من هذه الجهة اليقين، وعلى التخوم الأخرى النفي والجحد والشك، وما بينهما من مساحة هائلة هو الظن.

وتظنون: يتردد في نفوسكم أنكم إنما لبثتم لزمن يسير ولستم تملكون على ذلك الدليل ولا القطع ولا اليقين. وأنى لكم وأنتم لا تحسون بالزمن؟ إن لبثتم إلا قليلاً: تتصورون أنكم ما مكثتم تحت أطباق الشرى إلا الزمن القليل، ولو علمتم حقيقة لبثكم لما عددتموه قليلاً لأنه في موازينكم كثير غير قليل، وهو في ميزان الله قليل، لكنكم إذ تصورتموه قليلاً كان ذاك التصور وفق معاييركم التي بها تحاكمون وتقيسون، فكان بهذا المعيار خطأ كبيراً وليس يسيراً.

من دروس الآية ٥٢

١. الزمن النسبي أي الخاضع لمعايير مختلفة وهو ما نحس به وما نقيسه.. فالزمن طويل نسبياً لمريض يعاني من آلام مبرحة. لكن النائم يظن نفسه نام ليوم أو لبعض يوم وقد يكون لبث مئة أو ثلاثمائة. فالإحساس بالشيء أساس الحكم، وحتى الإحساس قد يخدع.
٢. البشر يملكون اليوم الاستجابة وعدم الإجابة لكنهم غداً ينتهي تخييرهم فلا يملكون إلا الإجابة: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ لاسر، ٥٢.
٣. الظن في القرآن غير اليقين بالقطع، وأن أن تحسم هذه المسألة.
٤. عبّر قوله: وتظنون، المضارعة لتصوير الحدث لأهميته.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ
كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (٥٣)

الربط والمناسبة: جاء موضوع القيامة على النسق التالي: الوصايا

الأربعة والعشرون، وهي التي ابتدأت بالتوحيد واختتمت بالتوحيد، ومن هذا انتقل السياق إلى موقف الكافرين من القرآن وحامل القرآن والرسول المبلغ له ﷺ، ومنه انتقل إلى موقفهم من عقيدة البعث، فلما أنهاء في الآية السابقة عاد إلى الوصايا من جديد، وكأن ما مر بعد الوصايا كان استطراداً على حديث الوصايا، فعاد إلى السياق الرئيس من جديد.

أو يكون وجه الربط أن هؤلاء الكافرين الجاحدين لأهم قضايا الدين من التوحيد والقيامة، لا تواجههم إلا بالقول الحسن حتى لا تكون المواجهة بغير الحسنى مصداً لهم عن سبيل الله ومصدراً لابتعادهم فلا تجعلوا لهم حجة! من هنا جاءت الوصاة بالقول الحسن والكلمة الطيبة، فهي على كل الأحوال نسق مع السياق، أعني هذه الآية وسياقها.

ولاحظ النسق أيضاً في عبادي مع أسرى بعبده و«بعثنا عليكم عباداً لنا»، ونسق آخر أنه ذكر الشيطان قبل ست وعشرين آية وعاد الآن لذكره. **المعنى:** «وقل: أمر لسيد الخلق والرسول ﷺ أن يبلغ هذا القول لعباد الله الذين أضافهم الله إلى ضمير الجلالة: «لعبادي» وهي إضافة تشريف وخصوصية.

يقولوا التي هي أحسن: أي مطلقاً.

سواء في مواجهة مخالفين في الرأي أو موافقين، وفي جد أو هزل.. وفي احتدام الكلام أو في حال الانسجام. ينبغي ألا يقولوا إلا «التي هي أحسن» وليس الحسن من القول فحسب، وإنما الأحسن.

وللمرة الألف نقول: ألا ما أكمل وأجمل هذا الدين، ووالله إن كل كلمة في هذا الكتاب تشهد أنه كلام الله، ولا تغيب هذه الحقيقة الناصعة إلا عن كل مُصِرٍّ على العمى والانطماس لأنه كالخفاش لا يطيق نور الشمس الساطعة،

ولا الحقائق الواضحة الناصعة!

إن الشيطان ينزغ بينهم: هذا تعليل لما سبق، كأن سائلاً سأل: لماذا على العباد ألا يقولوا إلا الأحسن؟ فجاء الجواب: لأن الشيطان ينزغ بينهم. أي يحرّس بينهم، ويفري بالعداوة وتصعيد المواقف والتوتير والتأزيم. وهل تعلم أن «ينزغ» لم ترد بصيغة المضارع إلا هنا؟^(١)

إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً: وهذا الجزء تعليل للجزء السابق. فكأن كل جزء مبني على الآخر: قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن. لأن الشيطان ينزغ بينهم، والشيطان ينزغ بينهم لأن الشيطان كان للإنسان عدواً بيّن العداوة دائم العداوة لا يترك فرصة بل يستغل كل سانحة في التحريش والتحريض!

دروس الآية ٣هـ

١. الكلمة الطيبة توقف مسلسل العداوات والتوترات.
٢. رَبُّ كَلِمَةٍ جَرَتْ إِلَى صِرَاعٍ دَامٍ طَوِيلٍ وَمَرِيرٍ، ودفع ثمنها طابور طويل من الضحايا.
٣. مهمة الشيطان التحريش بين بني الإنسان وخاصة أهل الإيمان لأن الشيطان عدو لا يخفي عداوته.
٤. أين من يتخذ هذا العدو الظاهر العداوة عدواً له؟
٥. عبّر بالمضارع (ينزغ) لاستمرار عمل الشيطان مع بني الإنسان كلما غفلوا ودفعهم لقول ما يغضب ربهم لإيقاع العداوة بينهم.

(١) ورد في يوسف: (مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي (٠) وهي الأعراف وفصلت: (وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ (٠).

المقطع العاشر

الآيات (٥٤ - ٦٠)

إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنَّ يَشَاءُ يُعَذِّبَكُمْ
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾

الرابط والمناسبة: تفويض الأمر في شأن البشر إلى الله في نهاية الأمر، فهو سبحانه أعلم بهم من شاء رحمه منهم ومن شاء عذبه، ولكنه في كل ذلك لا يظلم مثقال ذرة. وأما أنت أيها الرسول فأنت مبلغ ولست وكيلاً على الخلق، فهو تعقيب على الأمر بقول الأحسن، لأن الشيطان ينزغ، وهو عدو، ومردّ الأمر في كل هذا إلى الله كما مر.

المعنى: ربيكم أعلم بكم: الخطاب عام لفريقي الحياة المؤمنين والكافرين. وهما اللذان تضمنتهما الآية السابقة: قائل الأحسن، ومن قيلت له الكلمة الحسنى أو الأحسن، حتى وإن كان يقابل المؤمن بالسوءى. والشيطان ينزغ بين الكافرين والكافرين، والمؤمنين والمؤمنين، والمؤمنين والكافرين. فالنص على هذا عام، بل هذا هو الاختيار، فالعام يشمل الخاص ويزيد، وما جمع ووعد وأوعى خير مما قصّر واقتصر!

أعلم بكم: عام أيضاً ومطلق، أعني أعلم بما تكن نفوسكم وأعلم بتكوينكم وعميق عاداتكم وطباعكم وتصرفاتكم وأقوالكم وإيمانكم أو ضعف إيمانكم أو عدم إيمانكم.. أعلم بكم مطلقاً.

إن يشاء يرحمكم: مرتبطة بسابقتها: «ريكم أعلم بكم» ولعلمه بكم يرحمكم إن شاء أو يعذبكم إن شاء.

وصحيح أن لفظ (الإنسان) في ظاهره مطلق لكن الله بين من يستحق رحمته ومن يستحق عذابه، وذلك في آيات كثيرة: «ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها...» ثم بين لمن كما في سورة الأعراف.

ولسنا من قريب أو من بعيد مع المعتزلة في قولهم «يجب على الله...» فهذا ما لا نقبل القول ولا قائله، ونثبت لله المشيئة المطلقة قطعاً.

وما أرسلناك عليهم وكيلاً: خطاب للنبي ﷺ، فبمجرد أن يذكر ضميره الشريف يعرف أنه المعني بلا ريب.

وكيلاً: متوكلاً بهم أو متوكلاً على شؤونهم، بمعنى: الرقيب أو الحسيب. وهل تعلم أن هذه الصيغة في خطابه ووكيلاً في حقه لم ترد في القرآن إلا هنا من بين ١٣ مرة «وكيلاً». وهل تعلم أن (وكيلاً) وردت في الإسراء ما لم ترد في سورة أخرى في القرآن أي بنسبة ٣٧٪، وأن هذه الكلمة لم ترد إلا في (٥) سور؟

من دروس الآية ٥٤

١. الله أعلم بخلقه وما في نفوسهم من خير وما فيها من شر.
٢. الله أعلم بمن يستحق الرحمة فيرحمه، ومن يستحق العذاب فيعذبه.
٣. لله المشيئة المطلقة، لكنه سبحانه ألزم نفسه دون أن يلزمه أحد، وحاشا لجلاله، ألا يعذب خلقه إلا بعد استحقاق، وأن رحمته تسبق غضبه وعقابه.
٤. ليس إلى الرسول علم هذا ولا إدخال من شاء في الرحمة أو من شاء في العذاب، وهو ليس مسيطراً، ولا حساب البشر عليه صلى الله عليه، وهذا لا علاقة له بعظيم قدره وجليل شأنه.
٥. هذه دعوة لبعض الدعاة ليعاملوا الناس برفق وليعلموا أنهم ليسوا بجلادين ليقيموا العقوبة على العباد «إن عليك إلا البلاغ».

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة افتتحت بـ «ريكم أعلم بكم». وفي هذه افتتحت بـ «ربك أعلم بمن...» ولاحظ خطاب الجمع ومضمون الآية جمع وخطاب الآية بالمفرد (وربك) ومضمون الآية مفرد علماً بأن «مَنْ» ينتهي بالجمع بالطبع. وفي الآيتين الإشارة إلى إرسال الرسل. فهما نسق. والثاني أعم من الأول.

المعنى: وربك: كاف الخطاب ضميره ﷺ، وهذا من رفعة شأنه وقدره عند ربه، فيضيفه إليه ﷺ.

أعلم: هل أفضل التفضيل يقصد بها قاعدتها من المقارنة والمفاضلة. أم هي ليست على الباب والقاعدة، بمعنى أنه الأعم مطلقاً، وهذا الثاني فيما أرى الأرجح، ولا مانع من إرادة الأول، فهو الأعم سبحانه على كل حال. بمن في السماوات والأرض: نص شامل عام مطلق. ومن في السماوات الملائكة الذين لا يحصيهم إلا الله، وبعض من رفع من البشر المرسلين كعيسى عليه السلام، ولم يصرح القرآن برفع غيره إلى السماء، أما إدريس فقال عنه: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ مريم: ٥٧، والمكان والمكانة لا يقتضي كونه في السماء.

أما حديث الإسراء والمعراج فهذا في الحديث، وأنا أتحدث عن ما أثبتته القرآن فيرجى الانتباه، لا الفصل. معاذ الله، وإنما التحديد والضبط فقط. والأرض: أي وبمن في الأرض، ولا يعلم من في الأرض بالطبع إلا الله. ولاحظ أن المقصود (من) لا (ما)، فهم العاقل من بني الإنسان ومن فيها من الملائكة الموكلين بمهمات.

ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض: انتقل من العموم إلى الخصوص، وهو تفضيل بعض الأنبياء على بعض، لعلم الله بالأفضلية والأحقية بالفضل والتفضيل. ثم انتقل من الخصوص إلى الأخص. وآتينَا داود زبوراً: لا كلمة في القرآن ليس وراءها سر ومغزى وقصد

وحكمة. فما سر اختيار داود في قلب هذه السورة، في وسطها بالضبط، وقد افتتحها بصاحب الإسراء ثم موسى ثم نوح؟ أعتقد والله أعلم أن داود ذروة علو بني إسرائيل الإيماني والسلطاني بحق، وفي أول السورة علوهم عن طريق الفساد والظلم وهيمنتهم على العالم بالشيطنة والشر والإرهاب والإجرام. ثم عاد لبني إسرائيل في آخر السورة، فهم في أولها ووسطها وآخرها فتأمل!

وذكر من أوجه تفضيل داود وفضل الله على داود لا صنعة الدروع ولا تسبيح الجبال معه والطير، ولا العلم، وإنما ذكر هنا الكتاب الذي أوتيته وهو الزبور، لينسجم مع سياق السورة التي في أولها: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ فتأمل أيضاً.

من دروس الآية ٥٥

١. العلو علوان: علو عن طريق منهج الله وعبادة الله، وعلو عن طريق الفساد، وقد مرّ بنو إسرائيل بالنمطين والعلوين والنوعين، علو العناية والتفضيل الإلهي ونموذجه داود، وعلو عن طريق الفساد ونموذجه إسرائيل.
٢. علم الله مطلق، وهو أعلم بمن يفضل ومن لا يفضل، ومن يختار ومن لا يختار، والمؤمن يؤمن بهذه الحقيقة الإيمانية البديهية.
٣. كل سورة نسق، وهنا ذكر إتياء داود الكتاب ليكون نسقاً مع إتياء موسى الكتاب.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾

الربط والمناسبة: الحديث عن التوحيد لا يغيب ولا ينقطع في شأيا كل حديث، وبعد أن بينت الآيتان السابقتان أن الله أعلم بالخلق وأعلم بمن في السموات ومن في الأرض، ومن علمه فضّل بعض النبيين على بعض لما يعلمه منهم. جاءت هذه الآية تبين أن الذين يُدعون من دون الله لا يملكون شيئاً ليؤدوه إلى من يدعونهم.

المعنى: قل: أمر لسيد الخلق ولكل من يصح منه الأمر من بعده أن يقول لكل من يعنيهم أمر هذا الخطاب.

ادعوا الذين زعمت: وهي ليست دعوة توافقه على أهوائهم وانحرافهم معاذ الله، وإنما هي دعوة لتعرية أصنامهم وبيان قزامتها. زعمت: أي ادعيتم أنهم شركاء. من دونه: من دون الله، وسوى الله.

فلا يملكون كشف الضر عنكم: جواب الطلب، والفاء واقعة في بدء هذا الجواب، ونفي الملك نفي لكشف الضر بالأولى. وكشف الضر: رفعه وإبعاده.

عنكم: أي يا من تدعون من دون الله هؤلاء الفارغين. ولا تحويلاً: لا يملكون لا صرف الضر ولا تحويله عنكم إلى جهة أخرى مثلاً.

من دروس الآية ٦

١. لا مدعو بحق إلا الله، وكل من يدعى سوى الله لا يستجيب، لأنه لا يملك ما يستجيب به لطالبه أو داعيه، ولو ملك ما أجاب لشحه.
٢. لا يملك هؤلاء المزعومون لا كشف الضر ولا تحويله.
٣. تبين الآية عجز الإنسان وضعفه مهما ظهر قوياً قادراً، وهذه السورة تكلمت عن الإنسان بكل صفاته وحالاته.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

الربط والمناسبة: كان في الآية السابقة يقول لمتخذي الأنداد: ادعوههم، وفي هذه يقول لهم: إن الذين تدعون من دون الله يحتاجون أن يدعوا الله فلم تدعون محتاجاً مثلكم؟

المعنى: أولئك: إشارة بلام البعد إلى الذين قيل لهم ادعوهم.

الذين يدعون: أولئك الذين تدعونهم هم يحتاجون الله لقضاء حوائجهم فإذا كانوا صالحين فإنهم يتنافسون على التقرب من الله. وقد يقال وكيف يكونون صالحين وهم يُدعون من دون الله؟ لن يكون هذا بالطبع إلا إذا كانوا لا يقرّون، أو لا يعلمون. وهل يقرّ المسيح عليه السلام أن يُدعى من دون الله؟ حاشا لمقامه الكريم.

وإن كان المدعو ملائكة فهم كذلك يتنافسون في عبادة الله والتقرب منه سبحانه، وهم لا يرضون عن دعوتهم، ويتبرأون ممن يفعلون ذلك، ولا يملكون شيئاً. أيهم أقرب: يبحثون عن الوسيلة التي تقربهم إلى الله، فكيف يُدعون هم من دون الله؟

ويرجون رحمته: وهم يرجون رحمة الله كسائر خلق الله.

ويخافون عذابه: وهم مشفقون من عذاب الله.

إن عذاب ربك كان محذوراً: وحق لهم أن يخافوا ويحذروا من عذاب الله، لأن عذاب الله مهول مخوف محذور منه.

من دروس الآية ٥٧

١. كل من في الكون عبيد لله محتاجون لفضله يدعونه لحاجاتهم، فكيف يُدعى خلق من قبل الخلق؟
٢. كل من في الكون يبتغون التقرب من الله ويتنافسون في مرضاته.
٣. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. هذه أول بدهيات لا اله إلا الله وأوليات العقيدة.

﴿وَأَن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيمَةٍ أَوْ مَعَذِبُوهَا
عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ﴿٥٨﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة ختمها السياق بالقول: إن عذاب ربك كان محذوراً، وفي هذه تصديق هذا القول أن كل قرية ستهلك أو تُعَذَّب عذاباً شديداً قبل القيامة مصداقاً لذلك الوعد، فاحذروا أيها الخلق عذاب هذا الإله العظيم سبحانه.

المعنى: وإن من قرية: ما من قرية، وقد يظن البعض أن (قرية) ليست عامة، وإنما مقيدة بقيد قرية حق عليها العذاب مثلاً، ولكن النص عام مطلق فليظل على حاله وكماله، فإنه ما من قرية إلا وستتعرض إما لأمراض أو لحروب أهلية أو لغزو خارجي أو جفاف أو أوبئة أو ثارات أهلية أو زلازل أو فيضانات أو حرائق أو براكين أو ما لا يحصى من الأخطار! هذا كله سوى احتمال عذاب الاستئصال الذي كان قبل مجيء رسالة نبي الرحمة.

إلا نحن مهلكوها: بعذاب الاستئصال كما كان في قوم نوح وعاد وthumbود.. إلخ.

قبل يوم القيامة: قبل نفخة الهلاك لجميع من على الأرض من الخلق التي تسبق نفخة القيام.

أو معذبوها عذاباً شديداً: ما سوى عذاب الاستئصال كما قال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ سُيُوعًا وَيَنزِلَنَ بَعْضُكَمَ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ الأنعام: ٦٥.

كان ذلك في الكتاب مسطوراً: كان ذلك الأمر والوعد في كتاب القضاء مسطوراً أي مكتوباً.

من دروس الآية ٥٨

١. الله رحيم بعباده ولطيف بهم فلم يعذبهم؟ إنه لا يعذبهم إلا باستحقاق، هذا أولاً، ويعذبهم ليرجعهم إلى حماه، كما قال: «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا...»
٢. فهم هذه الآية يحتاج إلى ضميمة أخرى من آيات أخرى تبين أن الله لا يهلك القرى إلا وأهلها ظالمون.
٣. صُور العذاب ما دون الاستئصال لا تُعدّ ولا تُحصى.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

الربط والمناسبة: يقول الله في الآية السابقة إنه سيعذب القرى. فما

علاقة هذا بقوله: وما منعنا؟

أرى أن إرسال الآيات ثم التكذيب بها أخطر أسباب العذاب، ولهذا فإن الله برسالة نبي الإنسانية أوقف إرسال الآيات المادية وجعل معجزة هذا الدين معنوية تقنع العقل لا مادية تخضع العقل، وذلك رحمة بالعباد.

المعنى: وما منعنا: يقول الله تعالى عن ذاته العلية سبحانه أنه ما منعه

عن إرسال الآيات، ولا يمنع الله مانع، ولا يحول دون نفاذ أمره حائل. لكنه رحمة بهم منع نزول الآيات المادية عنهم ليبقيهم ولا يستأصلهم.

أن نرسل بالآيات: أن نرسل مع النبي الخاتم آيات مادية كإخوانه من الأنبياء السابقين، والآيات هي العلامات الدالة، وهي هنا المعجزات والخوارق التي يسوقها الله على يد الأنبياء لتكون دليلهم لأقوامهم على حجية دعواهم وحقية رسالتهم.

إلا أن كذب بها الأولون: هذا الذي منعنا، أن الأولين مع أنا سقنا لهم الآيات المادية فلم تغير شيئاً في موقفهم من أنبيائهم ورسالة هؤلاء الأنبياء.

وآتينا ثمود الناقة مبصرة: خصّ من بين الآيات المادية آية صالح وهي الناقة، ولعلها أشهر آية، بعد آيات موسى في مواجهة فرعون. ومعنى مبصرة: أي آية واضحة يبصر ما وراءها من رآها.

فظلموا بها: أي فكذبوا بها ظلماً على تضمين معنى (ظلموا) ما قلنا من فعل آخر هو (كذبوا)، ولذلك عدت بالبلاء.

وما نرسل الآيات إلا تخويفاً: بدأ النص الكريم بـ «وما» وختم المقطع الأخير من الآية بنفس «وما»..

نرسل: نسوق ونبعث.

بالآيات: أي بالمعجزات المادية، أو خوارق التعذيب.

إلا تخويفاً: إلا لتخويف الأقوام وتذكيرهم بربهم وإعادتهم إلى حظيرة الإيمان.

من دروس الآية ٥٩

- ١ . معجزة هذا الدين كتابه: القرآن المبين.
- ٢ . المعجزة المعنوية أعظم وأبقى من المعجزات المادية.
- ٣ . منع الآيات المادية عن الناس رحمة بهم.
- ٤ . الارتقاء بالبشرية من إرسال آيات مادية إلى آيات معنوية، وإقناع العقل ارتقاء به بعد إخضاعه بالآيات المادية.
- ٥ . الخوف وسيلة لإعادة النفس الجاحدة إلى حظيرة الإيمان.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّزْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾

الربط والمناسبة: ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: «وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً» وختمت هذه بـ «ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً» فهما نسق من هذه الناحية، ومن ناحية أخرى فإن الآيات خوارق للمألوف وهذا ما كانت تتحدث عنه الآية السابقة في قوله تعالى «أن نرسل بالآيات» وقوله «الناقة مبصرة» «وما نرسل بالآيات» فقد أشار إلى الآيات ثلاث مرات، وفي هذه الآية ماذا نجد؟ أولاً: قول الله «إن ربك أحاط بالناس» وثانياً: قوله «الرؤيا التي أريناك» أي ما رأيته ليلة الإسراء وثالثاً: قوله تعالى: «والشجرة الملعونة في القرآن».

فهذه أيضاً ثلاث خوارق، فالآيتان من هذه الناحية أيضاً نسق. ونسق ثالث: أن نون العظمة في الآية السابقة وردت ٣ مرات: منعنا، وآتيناً، نرسل. وفي هذه كذلك ٣ مرات: قلنا، جعلنا، ونخوفهم.

المعنى: «وإذ قلنا لك»: وإذ: الواو، الأرجح أنها للاستئناف، والاستئناف الكلام الناشئ جواباً عن سؤال مقدر تولد من الكلام السابق، فكأن سائلاً سأل: هذا عن الأمم السابقة فما الشأن مع هذه الأمة المرحومة بالقرآن وبالنبي ﷺ؟ فكان هذا النص الكريم في هذه الآية.

وإذ: إذ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: واذكر إذ. قلنا: الفعل الماضي من القول متصل بنون العظمة الضمير العائد على ذي الجلال سبحانه، وقد كثر في سورة الإسراء. لك: كاف الخطاب لسيد المخاطبين تعود.

إن ربك أحاط بالناس: ما مرمى هذا القول؟ وهل الناس فيه على العموم أم عموم في الظاهر وخصوص في الواقع؟ والإحاطة دائمة شاملة، فهل

الكلام عن هذا العموم وعلى هذا الشمول، أم هي إحاطة خاصة بمعنى مخصوص؟ وحسّم القول ليس بالأمر اليسير، ثم هل لهذا القول تعلق بحدث الإسراء على اعتبار أن الرؤيا إنما هي الرؤية التي تمت في ليلة الإسراء ومن ضمنها ما رآه من الشجرة المذكورة هنا في الآية؟ وليس الحسّم سهلاً!

لكن ظاهر اللفظ: إن ربك أحاط بالناس، ظاهر المعنى أنه خطاب للنبي ﷺ أن يعلم ويُعلم بحقيقة مفادها أن الله أحاط بالناس كل الناس بكل أنواع الإحاطة: إحاطة العلم، وإحاطة الاقتدار، وإحاطة الإحصاء، وإحاطة الرزق، وإحاطة المتابعة، وإحاطة الأخذ متى شاء إن شاء، وإحاطة الرؤية، وإحاطة التربية، وما لا يتأهى من صور الإحاطة.

لكن كما سألت أولاً: هل هذا هو المراد توصيله ومغزى الرسالة التي يراد أن يؤديها الكلام، أم أن وراء هذا العموم مغزى مخصوص؟

وما جعلنا الرؤيا التي أريناك: في عديد من التفاسير أن الرؤيا هي بمعنى «الرؤيا» على ظاهر ما يفيد لفظ «الرؤيا» وهو ما يراه النائم في المنام، لكن ما الذي رآه رسول الله؟ والذي أرجحه أن الرؤيا هنا، وهنا فقط، في القرآن كله، فيما أرى، بمعنى «الرؤية» والمقصود ما شاهده النبي عياناً ليلة الإسراء. والبعض حاول التوفيق فقال أن ما رآه الرسول ليلة الإسراء كان قد رآه قبل ليلة الإسراء في الرؤيا.

إلا فتنة للناس: أي اختباراً للناس كما يفتن الذهب بفحصه على المحك وبإدخاله النار ليعلم زيفه من حقيقته، وبالامتحان يعلم من هو على يقين ممن هو في شك واضطراب.

والشجرة الملعونة في القرآن: هي قطعاً شجرة الزقوم.

وبما بُعد القول النكر الذي قاله بعض متعصبه الفرق المنحرفة: أنها

شجرة البيت السفيناني!

وهذا ليس مستبعداً فحسب بل يستحيل، فليس هناك عائلات مقدسة

وعائلات منجسة بالطبيعة والتاسل والتسلسل والتحدر! هذا ليس من ديننا

ولا في العقل ولا في علم الورثة والسلالات!

فكيف يكتب هذا من لا رؤية عنده ولا رؤية ولا صواب ولا دراية بلغة ولا بسياق ولا بلسان؟ ثم إن السورة مكية، لا تتكلم عن متاهات الخلافة والاستخلاف، وليس في دين الإسلام سلالات مستمرة إلى يوم القيامة تنحصر فيها الخلافة ولأمر حكيم جعل الله محمداً بلا ذرية من الذكور: «ما كان محمد أباً أحد من رجالكم».

والقرآن لا يحيل إلى مجهول إذ قال: «والشجرة الملعونة» إنما يحيل إلى معلوم ذهني، ولا معلوم في الذهن عن شجرة معلومة إلا شجرة الزقوم. وقد كرر القرآن ذكرها في أكثر من موطن ثم أحال إليها في هذا الموطن! ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً: وما وجه التخويف في كون البيت السفيناني في هذه الآية بزعمهم هو الشجرة الملعونة؟ أين هو هذا الترهيب والتخريف؟

ولكن الله يخوفنا من أمر مهول مخوف من شجرة تثبت في أصل الجحيم طلوعها كأنه رؤوس الشياطين، هذا الذي يخوف الله به عباده. ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَعْبَادُ فَأَتَقُونَ﴾ الزمر: ١٦.

فماذا كانت نتيجة التخويف؟ ويأتي الجواب: فما يزيدهم إلا: بأسلوب الحصر والقصر أن التخويف لا يزيدهم إلا طغياناً وتجاوزاً ذاهباً إلى أبعد حد، ولذلك وصف بأنه كان كبيراً.. كبيراً في حجم الضلال والطغيان، وكبيراً في التجاوز، وكبيراً في بعده عن السواء والاستقامة والعدل، وكبيراً في جزائه الرهيب في جهنم!

من دروس الآية ٦.

١. لا يجوز أن يُتخذ القرآن ميداناً لنصرة المذاهب السياسية بالباطل والتزوير والروايات المكذوبة، نقول هذا بناء على تلفيق رواية أن الشجرة الملعونة هي البيت السفيناني أبو سفيان ومعاوية وذريتهما، وهذا مناقض لروح الإسلام، أصلاً ورأساً.
٢. التمكن من اللغة شرط مهم لفهم القرآن، فلو لم نعلم أن الرؤيا قد تأتي

بمعنى الرؤية لكان تفسير الآية مشكلاً

٣. علم الله وقدرته تحيط بالناس فهو على أخذهم إذا يشاء قدير.
٤. التخويف قد لا يؤتي أكله نتيجة لاستهتار الناس وعنادهم، لا أن الذي يخوف به غير مخوف، معاذ الله.
٥. شجرة الزقوم من أشد ما يخوف الله به عباده.

المقطع الحادي عشر

الآيات (٦١ - ٦٥)

قصة آدم والشيطان

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

الربط والمناسبة: ابتدأت الآية السابقة بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وهذه كذلك، فهذا نسق أول.

ثم إن الآية السابقة بينت أن التخويف لا يزيد الإنسان إلا طغياناً. فما سر ذلك وما وراءه؟ فجاءت هذه الآية مفسرة لماذا كان ذلك. وهذا نسق ثان. أعني بهذا النسق أن الشيطان يصرف الناس عن عبادة الله ومنهجه! **المعنى:** وإذ قلنا: الواو في (وإذ): إما عطف قصة على قصة. أو أنها واو الاستئناف. و (إذ) ظرف لما مضى كما مضى قبل قليل، وهو متعلق بمحذوف مقدر تقديره: (واذكر إذ).

قلنا: نون العظمة كما قلنا في الآية السابقة تعود إلى المولى العظيم سبحانه.

للملائكة: لجميع الملائكة كما بينت آيات أخرى في سور أخرى. اسجدوا لآدم: هذا أكثر ما يتكرر في قصة آدم، وهو أدلّ مشهد على الكرامة، وسيأتي بعد أقل من عشر آيات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ إبراهيم. والسجود مفروغ منه أنه سجدوا تكريم طاعة لأمر الخالق الحكيم المعبود وحده سبحانه.

فسجدوا: الفاء تقييد التعقيب الذي يفيد التسارعة في تنفيذ الأمر. إلا إبليس: الاستثناء منقطع ان اعتبرنا الجنس فالملائكة جنس من نور وإبليس (جنس خسيس) من نار، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ الكهف: ٥٠ كما في السورة التالية للإسراء أي الكهف.

وإذا اعتبرنا الاستثناء من فعل السجود، فإباء السجود استثناء متصل. أي أنه أبى السجود الذي فعله الملائكة.. ولم يذكر هنا كلمة أبى كما في سورة أخرى، ولكنه ذكر اللازم الذي يدل على الإباء والرفض وهو الاستفهام الانكاري في قوله: ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وهو متضمن الإباء بكل

وضوح بالطبع. لقد نظر الشقيّ إلى العنصر والمادة التي يتكون منها المخلوق. وما نظر إلى المآلات والوظيفة، وأن الكرامة ليس لها علاقة بالعنصر. فَمَلِك الوجود سبحانه إذا أراد أن ينعم على أهون الموجودات رَقَاهُ وَكَرَّمَهُ فَأَلَامَر له. وليس لأحد من الخلق حق الاعتراض على الخالق الحكيم، إذ معنى الاعتراض أن المعارض أوفر حكمة وأعلم من الأمر الذي اعتراض على أمره وهذا عين المستحيل!

إن النظرة العنصرية من هنا بدأت وتبدأ: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ الأعراف: ١٢ لأن عنصري خير من عنصره. هذا منطلق ومبدأ كل عنصري في الأرض. وكما أكرر مراراً: يكفي العنصريين سوءاً أن إمامهم إبليس. ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ الإسراء: ٧١ كما قالت سورة الإسراء.

من دروس الآية ٦١

١. هذا الإنسان أكرم الموجودات والمخلوقات التي أوجدها الله، وقد جعله فوق رتبة الملائكة وحملته الأمانة التي عجزت عنها السموات والأرض والجبال.
٢. شاء الله أن يجعل أصل هذا الإنسان المكرم من الطين أو الماء المهيّن، لا تحقيراً، معاذ الله، ولكن لئلا يستكبر، إذ الاستكبار أخطر الأخطار التي تهدد هذا المكرم، لأنه يؤدي إلى سلوك الفجار وفي الآخرة إلى النار. فآكرم الموجودات أصله من أهون الموجودات.
٣. الكِبَر أول معصية عُصِي بها الله، وقرينه الحسد، وهما وجهان لقضية واحدة. فليُنْتَبِه منهما!
٤. شاء الله أن يكون لهذا الإنسان عدو هو إبليس، وهو عدو خطير ليشحذ الإنسان طاقاته.
٥. العنصرية أن تفتخر بعنصرك وأصلك، وأول من صنع هذا وسنّه سنة سيئة إبليس الخسيس.
٦. الإله العظيم إذا شاء التكريم لأي مخلوقاته كَرَّمَهُ كائناتاً من كان. ولا اعتراض.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

الربط: تواصل هذه الآية نقل ما قال إبليس في اعتراضه على أمر السجود لآدم، ففي السابقة بين الأصل الطيني لهذا المخلوق. وهنا يواصل بشرح دوافع حسده وأنه تفضيل المخلوق الجديد عليه وتكريمه دونه. وأنه سيستلمه بالكيد والمكر وسيء التدبير.

المعنى: قال: أي إبليس مواصلاً كلامه في الآية السابقة: أرايتك: إبليس يسأل الله عز وجل، والاستفهام هنا ليس مقصوداً منه حقيقة الاستفهام وإنما الإشارة إليه، أي إلى الإنسان والتهديد بما يضمنه نحوه. هذا: إشارة لا يقصد منها ظاهر المقصود من الإشارة وإنما التحقير والتقزيم والتصغير.

الذي: اسم موصول يتحدد بصلته.

كرّمت عليّ: صلة الموصول. وهي الحيشية التي أثارت حفيظة الحاسد الأول في الوجود إبليس. ومعنى كرّمت: فضّلت وقدمت، وجعلته في مقام التقدير والكرامة.

عليّ: أي فضّلته عليّ، وجعلته أعلى رتبة مني.

لئن أخرتن إلى يوم القيامة: أول ما يلفت النظر حذف الياء في الرسم القرآني من كلمة «أخرتن» وما من سبب نحوي بالطبع، ولعل القصد من حذفها، والرسم توقيف فيما أرى، السرعة أو اللهفة من إبليس على التأخير. وما يدري المنكود أن التأخير يعني له مزيداً من الانزلاق نحو الهاوية والحضيض وجهنم! واللام في «لئن»: هي اللام الموطئة للقسم داخلة على إن الشرطية.. والجواب «لأحتنكن» جواب لهما معاً.

إلى يوم القيامة: هو يطلب التأخير إلى المدى الأقصى للوجود، وهو إلى يوم القيامة، والله أجابه كما في سور أخرى ﴿إِنِّي يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ من: ٨١ فهل هو هو أي الوقت نفسه أم قبله بقليل أو كثير؟ لسنا نعلم والله يعلم.

لأحتكن: اللام الواقعة في جواب القسم والشرط، والاحتك كناية عن الملازمة. وأصله من الإمساك به من عند الحنك وهو الفك.
 ذريته إلا قليلاً: أبناء هذا المخلوق وسلالته إلا قليلاً ممن اعتصم بإيمانه ودينه.

من دروس الآية ٦٢

١. يعلن الشيطان عداوته وخططه، وهو متأكد أو واثق أن هذا الاعلان لا يغير من الواقع شيئاً. والأصل أن إعلان الخطط يوقظ المستهدفين. كما يعلن اليهود اليوم خططهم بشأن الأقصى وإزاحته ولا يتغير من الاعتراف بهم والتبادل الدبلوماسي معهم شيء. العدو نفسه والاعلان ذاته والنتائج المخيبة ذاتها.
٢. فوائد قوم عند قوم مصائب. وكرامة قوم عند قوم مثار لهويهم في الدرك الأسفل من الحسد والحقد والكيد.. والجحيم.
٣. اجتهد الباطل وأهله وتقاعس حملة الحق، فهذا الشيطان يعلن أنه سيلازم الذرية التي سينجبها هذا المخلوق الجديد ما بقي الزمان، ولئن كان أطول مدة دعوة من دعا ألف سنة إلا خمسين عاماً، فإن إبليس مستمر في دعوة الشر من بدء الخليقة إلى نهاية العالم، وهو درس لنا نحن المؤمنين من نحمل الحق.
٤. لقد صدق إبليس ظنه، وليس هذا غريباً، ألم يعلن اليهود قبل دولتهم أنه في مئة سنة سيقبضون إسرائيل الكبرى وصدق الأبالسة الجدد ظنهم أيضاً، فمن خطط حصد ومن جدّ وجد، ولو في مجال الشر والشيطنة.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ٦٣﴾

الربط والمناسبة: ذكرت الآية السابقة طلب إبليس ولم تذكر إجابته صراحة لكنها ذكرت ضمناً في هذه الآية في قوله: ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ وأجابه على الإكثار من الاتباع بأنه فليكن فجهنم بانتظاركم مهما كثرتكم!
المعنى: قال: أي المولى العظيم سبحانه جواباً على العدو المجرم لهذا الإنسان وهو إبليس. قال على سبيل التهديد لا الإذن والسماح.
اذهب: امض وانصرف لما خططت.

فمن تبعك منهم: الفاء للتفريع والتفصيل. وَمَنْ للشرط. وجوابه «فإن...» والفاء واقعة في بدء هذا الجواب.

تبعك: أي اتبع خطواتك على سبيل الاتباع المنهجي لا مجرد الخطأ. فإن هذا الخطأ في الاتباع لا يكاد يعرَى عنه إلا أقل القليل. فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً: لئن كان مكرهم كبيراً فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً أي وافياً ضافياً كافياً.

من دروس الآية ٦٣

١. إبليس يمكر بالبشر من ذرية آدم والله يمكر به بتجهيز سقر له ولأتباعه.
٢. ما أسوأ أن يمكر الإنسان بنفسه، فهذا الشيطان يمكر ببني الإنسان. ولكن جزاءً كبيراً من أعوانه هم من بني الإنسان من المفسدين في الأرض من بني إسرائيل وغيرهم يمكرون بالجنس البشري عن طريق الفساد عن طريق الجنس والأفلام والإعلام والمخدرات وتدمير إنسانية الإنسان لحساب الشيطان! فمتى يفيق البشر على أعدائهم الحقيقيين؟! متى يعرفون ما هو الإرهاب الحقيقي وما هو التدمير الشامل الحقيقي؟! لا يغرنك هذه العريضة الإبلسية في الأرض للشيطان وأتباعه من بني صهيون! إن جهنم تنتظرهم على أحر من الجمر.
٣. لله حكمة بالغة في وجود الشر والشيطان وفي هذه المعركة المحتدمة الحامية الوطيس الدائرة بين أتباع المرسلين وأتباع الشياطين!

﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ
وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ
وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٦٤)

الربط: يواصل النص الكريم في هذه الآية مد الحبل لهذا الشيطان فيما ظاهره إرخاء عنان وإخلاء ميدان وهو في الحقيقة تدمير بنيان. وهذا هو المكر الحقيقي.

المعنى: واستفزز: ورد الاستفزاز في سورة الإسراء ثلاث مرات هذه أولها، ولم ترد هذه المادة في سورة أخرى. والاستفزاز خطة إبليس مع بني الإنسان وهي خطة بني إسرائيل في فلسطين. إنها تضيق على الشعب لتخرجهم من أرضهم وتخرجهم عن طورهم! والجذر «فزز» يعني كما قال ابن فارس: فزّ: الفاء والزاء (كذا) أصيل (كذا) يدل على خفة وما قاربها. تقول: فزه واستفزه، إذا استخفه. قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ (الإسراء: ٧٦) أي يحملونك على أن تخف عنها. وأفزه الخوف وأفزعه بمعنى.. وقد استفز فلاناً جهله، ورجل فز خفيف. ويقولون: فزّ عن الشيء: عدل.. أه^(١).

من استطعت منهم: أي من تقدر على استفزازه فافعل. بصوتك: هذه هي الأدوات، التي يستغلها الشيطان. والمقصود بصوتك أي بوسوستك وإيحاءاتك الشيطانية، وصوت كل من يعاونك من شياطين الإنس من أصحاب النظريات الباطلة الفاسدة والأفكار الهدامة والمذاهب الضالة الشاردة عن الحق، وكل دعاة الشر. وأصوات المجون ونحوها، كل هذا داخل في قوله تعالى: بصوتك. وأجلب عليهم: الجلبة: الضجة والصوت، والمقصود لازمها من الإسراع. بخيلك ورجلك: كناية عن استخدام كل الوسائل وليس بالضرورة حرفية الكلمات.. أي واحشد كل أدواتك ووسائلك ومؤثراتك وجندك وقوتك.

(١) جـ ص ٤٤٠ معجم المقاييس.

وشاركهم في الأموال والأولاد: استحوذ على عقولهم وعلى أموالهم وعلى ذرائعهم، كناية عن منتهى السيطرة فلا يشاركك في هذه الأشياء في المعتاد أحد، فكيف يصل الشيطان إلى هذا؟

وَعَدَهُمْ: لعل هذا من أخطر أساليب ووسائل ومناهج الشيطان.. الوعد. وكلما تذكرت أحلام إقامة الدولة الفلسطينية كثمرة لاتفاقيات أوسلو. وفي كل سنة يقولون لهم السنة القادمة.. وهم يصدقون، أو يوهمون أنهم يصدقون. لتستمر المسرحية العبيية الهزلية التفاوضية التفريطية التضيعية. أقول كلما تذكرت هذا ذكرت الآية، ولكما قرأت الآية تذكرت هذا!

وما يعدهم الشيطان إلا غروراً: حصر وقصر أن وعود الشيطان ليست شيئاً إلا الوهم والغرور والخداع والكذب.

وهو قد اعترف بهذا كما سجلته سورة إبراهيم في خطابه في أتباعه في الآخرة عندما قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَآخَلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ إبراهيم: ٢٢.

من دروس الآية ٦٤

١. الشيطان لن يقصّر في حشد كل وسائله وأدواته وعناصر قوته وأسبابه وأساليب تأثيره، في محاولة لكسب معركته في كسب أتباعه وأنصاره من شياطين الإنس ومن الفؤاة والضالين.
٢. الشيطان يشارك الإنسان في الأموال عن طريق الكسب الحرام والإسراف والتبذير، وفي الأولاد إن كانوا فاسدين سيئين عاقين.
٣. أهم وسائل كسب الأتباع الوعود. وهل يروجون مخدراتهم الفكرية والمادية إلا بالوعود. فالفكر الشيوعي يعد بفردوس البروليتاريا، فكان الجحيم، والمخدرات يعدون متعاطيها براحة نفسية وسعادة فيقودونه إلى التحطيم، فالوعد باختصار أحد أخطر أسلحة ووسائل الشيطان.
٤. الوعد الحق الذي لا يخلف وعد الإله سبحانه، أما وعد الشيطان فهو الخلف بعينه، والعاقل من يتبع أمر صاحب الوعد الحق.

٥. الشيطان بالخداع والوسائل الخسيسة استحوذ على عقول الناس وقلوبهم وملك زمامهم، وبنو اسرائيل بذات الوسائل وصلوا كالشيطان إلى الاستحواذ على العالم، والله محيط بكل ذلك، وسيدمره بإذن الله،
وعما قريب!

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ٦٥

الربط والمناسبة: تكرر مثل هذا النص في القرآن مرات. وهنا كذلك، فالشيطان في الآية السابقة كان يتهدد ويتوعد. وفي الآية هنا تطمين للمؤمنين من ناحية، وإحباط للشياطين من ناحية أخرى، إن المعتصم بالله لن تتمكنوا منه، وإنما تمكنكم من الأجوف الفارغ غير المدرع بدرع الإيمان.

المعنى: «إن عبادي»: المقصود هنا بعبادي عبودية الاختيار وعبودية الاجتناء، فمن أول السورة ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء: ١ ثم ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ الإسراء: ٥ وقبل هذه الآية بثنتي عشرة آية جاء قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي﴾ الإسراء: ٥٢ وكل هذا نسق. فتعين أن ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ الإسراء: ٥ عبودية الاصطفاء لا عبودية القهر. وقد جاء مثل هذا النص في سورة الحجر ٤٢. وقد جاء نص سورة إبراهيم على لسانه هو: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ إبراهيم: ٢٢.

وفي النحل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ النحل: ٩٩-١٠٠. وفي سبأ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ سبأ: ٢١.

وسلطان بمعنى تأثير ونفوذ وقوة وإرادة وإملاء. وكفى بربك وكيلًا: أي استكف بالله وكيلًا يتولى أمورك، ولا تتجاوز إلى غيره فتتوكل عليه. لأنه لا يتوكل إلا على الله. وفي أول الإسراء في خطاب بني إسرائيل: ﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ الإسراء: ٢ هذا جوهر الدين وروحه. وقد ورد هذا المعنى مرات، ففي سورة النساء: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ النساء: ١٧١، والنص في الأحزاب كما في النساء (الأحزاب آية ٣ سورة ٢٢)، وفي المزمل ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ المزمل: ٩، وورد ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ﴾ المجادلة: ١٠ المؤمنون، المتوكلون. مرات كذلك، وورد ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ مرات كذلك، وورد ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.. ولاحظ تقدم الجبر دائما ليفيد القصر.. أي لا على سواه، وورد ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ مرات. ومجموع مرات ورود (وكل) ومشتقاتها ٦٨ مرة.. أما صيغة ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ الإسراء: ٦٥ فهذه الوحيدة في القرآن.

من دروس الآية ٦٥

١. إبليس عدو خطير. لكن المتوكل على الله والمؤمن به ليس له عليه تأثير.
٢. تكرر هذا المعنى في القرآن لأهميته أعني التحصن بالله لتمتع على مكائد الشيطان ومصائد الشيطان وتلبيس إبليس.
٣. اقتران نفي السلطان الذي للشيطان على أهل الإيمان بالتوكل، يوحى بأهمية التوكل في التحصن.
٤. العبودية شرف رفيع لا يناله إلا كل ذي استحقاق وكل ذي حظ عظيم.
٥. التوكل جوهر الدين وروحه ومختصره.

المقطع الثاني عشر

الآيات (٦٦ - ٧٠)

الفطرة تعرف ربّها

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾
 إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٦﴾

الربط والمناسبة: ختمت الآية السابقة بقوله ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ﴾ [الإسراء: ١٦] وافتتح هذه بـ ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي﴾ فهذا رابط ظاهر، أما النسق المعنوي فيمكن استبطاؤه على النحو التالي: في الآية السابقة تحدث النص عن حماية الله للمؤمنين من كيد الشيطان ومكره، وإنه لمكار. وفي هذه الآية وجه آخر من التعهد والحفظ وهو حفظ الناس إذا سارت بهم الفلك في البحار. فتجلت رحمة الله هنا وهنالكَ!

المعنى: ربكم: الرب الذي يربي ويتعهد بالتشئة. ومن مظاهر ربوبيته سبحانه ما سيرد في الاسم الموصول وصلته: ﴿الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ﴾: الذي يسوق ويدفع ويجري لكم السفن المحملة في البحر. ولولا أنه أودع هذه القوانين في الماء من طفو الأجسام ما كانت السفن، وبعضها الآن يحمل مليون طن سوى جسم السفينة. فكيف يحملها الماء ومسمار يغطس في الماء في ثانية؟! إنه التسخير الإلهي للبحار في خدمة هذا الإنسان. وقد وردت (يزجي) في النور لكنها في إزجاء السحاب: ﴿الَّذِي يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٢] وإزجاؤه سوقه ودفعه وتحريكه، بالمعنى نفسه.

لتبتغوا من فضله: تكرر «لتبتغوا» مقترناً بالبحر في أكثر من موضع وأقربها ما في النحل جارة الإسراء: ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النحل: ١٤]، وفي لقمان: ﴿الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [لقمان: ٣١]، وفي إبراهيم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

لتبتغوا من فضله: لتطلبوا من رزقه وخيره وبره. إنه كان بكم رحيمًا: إن الله كان بكم وبالعباد عمومًا رحيمًا، يرحمهم ويحفظهم ويمدهم ويرعاهم ويتعهدهم.

من دروس الآية ٦٦

١. رحمة الله تتجلى في كل شيء، وفي قوانين هذا الكون ومن ضمنها قوانين الطفو في البحار التي تشكل أكثر من ثلاثة أرباع الكرة الأرضية. وهي أهم وسائل مواصلات الأرض وعبرها تنقل أكثر من ثلاثة أرباع بضائع الأرض.
٢. البحار أعظم أسباب الرزق وما فيها من غذاء من أهم مصادر الغذاء، ومخلوقات البحار ملايين أضعاف مخلوقات البر، وهي ثروة مضيعة أو غير مستغلة في العالم العربي والإسلامي!
٣. «يزجي لكم» هذا اللفظ يوحي بأن يد الله وراء كل شيء، هو الذي يسوق السفن ويسوق الرياح... يده سبحانه تحرك كل شيء من حولنا... ولفظ (لكم) أي أنتم أيها البشر الجاحدون الغافلون عن رحمة الله ونعمه.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧)

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن ركوب البحر. وهذه الآية تتحدث عن بعض الأخطار التي يتعرض لها مسافر البحر. فمن يدعو راكب البحر إن داهمه الخطر؟ أليس هذا دليلاً على الله وعلى فطرة الله؟
المعنى: وإذا: ظرف لما يستقبل من الزمان ويفيد الشرط.
مسَّكم: فعل ماض هو فعل الشرط. والمس: اللمس أي الإصابة الخفيفة.
بمعنى بدايات الخطر.

الضر: الضرر أو خطر الضرر، من موج وعواصف أو عطل في المحركات أو تمزق أشعة أو تعطل بوصلة، أو مهاجمة ضواري البحر أو قطع جليد في بعض المناطق. أو ضباب كثيف. أو.. والأخطار لا تتحصر.
في البحر: أثناء سفركم في عرض البحر. ولا يدرك شعور هذا المسافر إلا من جرب ركوب البحر. وما أشبه الصحراء بالبحر والبحر بالصحراء.
هذا بحر أصفر وهذا بحر أزرق. هذا امتداد بلا معالم وهذا كذلك. هذا خطر الضياع فيه يعني الموت وهذا كذلك..

ضل من تدعون إلا إياه: ما أجمل هذا التعبير: «ضل»: ضل من عقولكم فما عدتم يتردد على ألسنتكم إلا الله. وضل أن يصل إليكم على فرض أنه سمعكم فكيف يحدد مكانكم، وكيف يصلكم والخطر ماحق محقق يلطم وجه سفينتكم؟.. وضل الصوت أن يصله أصلاً فكيف تصلكم معونته؟
إلا إياه: إلا الله سبحانه فإنه يعلم حالكم بمنتهى الدقة ويعلم موقفكم ويستطيع نجذتكم، وإنجاءكم، ويفعل.. فيخرجكم من ورطتكم.. وينقذكم من هلكتكم.

فلما نجاكم إلى البر أعرضتم: أثمرت الدعوات والاستغااثات، فسكنت الريح بعد ساعات، أو ما شاء الله من الأوقات، من العصف والقصف.. وكان البحر الذي كان هائجاً كجني سكن كطفل.. والسفينة التي كانت ككرة

يتقاذفها الموج هدأت واستقرت وسكنت.. وواصل الطاقم الرحلة إلى البر وعلا الوجوه بِشَرِّ بعد وجوم.. فلما بلغوا البر نسوا الموقف ونسوا الدعاء والضراعة والصراخ والاستغاثة والمغيث، وحل محل الإقبال واللهفة والإخلاص: الإعراض الناشئ عن الشعور بالأمن.

وكان الإنسان كفوراً: هذه الصيغة تفيد الرسوخ في الشيء. صيغة فَعُول تفيد التكثير وقوة الصفة أي شديد الكفر. و (كان) تفيد القَدَم والرسوخ وثبوت القدم في الصِّفة.

من دروس الآية ٦٧

١. في الشدائد يلجأ الإنسان إلى الله مخلصاً صادقاً لا يرجو إلا إياه.
٢. في اللحظات العصبية تسقط كل دعاوى الزيف والشرك، والنظريات وأعتى الكفار يضرع إلى الله في حالة الوفاة سواء هو أو عزيز عليه، حضر الموقف.
٣. الشعور بالأمن من أسباب الإعراض والغفلة، ولكن العاقل مَنْ داوم على استشعار الخطر، فلا أمن في هذه الدنيا يدوم. فأكثر البلاد أمناً قد تستيقظ على حرب أهلية لا تبقي ولا تذر.

﴿أَفَأَمِنْتُ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ (٦٨)

الربط والمناسبة: جاء في ختام الآية السابقة: ﴿فَلَمَّا تَخَضَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ (الإسراء: ٦٧) وذلك لاعتقادهم أن الخطر في البحر فقط، حيث الأمواج المغرقة، أما البر فييس ثابت مستقر! وفي هذه الآية يفند ظنهم ويصوب تصورهم، فالله قدير على أخذكم في البر أو في البحر.

المعنى: أفأمنتم: الهمة للاستفهام، والفاء حرف عطف، والمعطوف عليه محذوف يُقَدَّرُ أطمأنتم فأمنتم، أو نحو ذلك! وقد مر مثله في ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾ (الإسراء: ٤٠) حيث في الفعلين همزة استفهام وفاء عطف ثم همزة أصلية في الفعل: «أصفي»، «أمن». أمنتم: شعرتم بوهم الأمن.. وظننتموه أمناً.

أن يخسف بكم جانب البر: والخسف: هدم أو انهيار في الأرض كحدوث صدع أو شق أو انزياح.. ومثل هذا الصدع قد يتبع المرء الواقف عنده، وهذا ما حصل لقارون. ولاحظ كلمة «جانب البر» إما للإشارة إلى أنهم ما زالوا في طرف منه، أو أن الجانب كله كائناً ما كان قابلاً لأن يخسفه الله.

أو يرسل عليكم حاصباً: كالذي أرسله على قوم لوط، فترجمكم السماء بحجارة فتهلككم.. والحاصب والحصباء: الحجارة، والحصب: الرمي بها. وقد وردت «حاصباً» في القرآن ٤ مرات هذه أولاهـ^(١). ثم لا تجدوا لكم وكيلاً: وقد مرت «وكيلاً» فاصلة في الآيات ٦٥، ٥٤، ٢، وستمر فاصلة في الآية ٨٦ فهذه ٥ مرات. والوكيل هو المتوكل بشؤون العباد، والذي يتوكل عليه العباد في شؤونهم. أي أن الله إذا أراد أخذكم يا من نجاكم الله في البحر، ثم إذا أراد أخذكم في البر يفعل إن شاء، ولا أحد يتوكل عنكم فيحول بينكم وبين أن يأخذكم الله، لأنه لا يستطيع أحد، ولا يفكر في ذلك أحد أصلاً، فلماذا هذا الاطمئنان الخادع المتوهم؟

(١) ملاحظة على مرات ورود حاصباً أنها كلها مكية، ولم تتكرر مرتين في سورة، وأنها ذكرت مرة في قصة قوم لوط ومرة بالإشارة لهم: (فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا). وأن أول مرة وردت فيها حاصباً في السورة ١٧ آية ٦٨. وآخر مرة في الآية ١٧ من السورة ٦٧.

قال في التحرير: «تفريع على جملة (أعرضتم) ٦٧، وما بينهما اعتراض، وفرّع الاستفهام التوبيخي على إعراضهم عن الشكر وعودهم إلى الكفر. والخسف: انقلاب ظاهر الأرض في باطنها من الزلزال. ﴿أَقَامِنَ الَّذِينَ مَكْرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْفَىٰ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ النحل: ٤٥. وفي هذا تنبيه على أن السلامة في البر نعمة عظيمة تتسونها، فلو حدث لكم خسف لهلكتم هلاكاً لا نجاة لكم منه بخلاف هول البحر. ولكن لما كانت السلامة في البر غير مدرك قدرها قل أن تشعر النفوس بنعمتها وتشعر بخطر هول البحر، فينبغي التدريب على تذكر نعمة السلامة من الضر، ثم إن محل السلامة معرض إلى الأخطار.

والاستفهام بقوله: «أفأمنتم» إنكاري وتوبيخي. والجانب: هو الشق. وجعل البر جانباً لإرادة الشق الذي ينجيهم إليه، وهو الشاطئ الذي يرسون عليه، إشارة إلى إمكان حصول الخوف لهم بمجرد حلولهم بالبر بحيث يخسف بهم ذلك الشاطئ، أي أن البر والبحر في قدرة الله تعالى سيان، فعلى العاقل أن يسوي خوفه من الله في البر والبحر. وإضافة الجانب إلى البر إضافة بيانية. والباء في «يخسف بكم» لتعدي «يخسف» بمعنى المصاحبة. والحاصب: الرامي بالحصباء، وهي الحجارة. يقال: حصبه، وهو هنا صفة أي يرسل عليكم عارضاً حاصباً، تشبيهاً له بالذي يرمي الحصباء، أي مطر حجارة، أي بَرَد يشبه الحجارة»^(١) أ. هـ.

قال ابن عاشور مواصلاً كلامه في الآية: «وقيل: الحاصب هنا بمعنى ذي الحصباء، فصوغ اسم الفاعل له من باب فاعل الذي هو بمعنى النسب مثل لابن وتامر. والوكيل: الموكل إليه القيام بهمهم موكله، والمدافع عن حق موكله، أي لا تجدوا لأنفسكم من يجادلنا عنكم أو يطالبنا بما ألحقناه بكم من الخسف أو الإهلاك بالحاصب، أي لا تجدوا من قومكم وأوليائكم من يثار لكم كشأن من يلحقه ضر في قومه أن يدافع عنه ويطالب بدمه وأولياؤه

(١) يبدو أن المتبادر من معنى حاصب هو الحجارة مباشرة لا رامي الحجارة. أما قوله: بَرَد يشبه الحجارة. فلا أراه. وإنما الحجارة على الحقيقة كما أرسل مثل ذلك على قوم لوط فلم تكن بَرَدًا وإنما كانت حجارة - وكالذي أرسل على أصحاب الفيل الحجارة - وهي هنا غير ممتعة أن تتراد على الحقيقة بل تكررت حقيقة!

وعصابتة. وهذا المعنى مناسب لما يقع في البر من الحدثان» ١١ هـ.

من دروس الآية ٦٨

١. للبشر مقاييسهم وقد تكون خاطئة تماماً فهم يشعرون بالاطمئنان في البر أكثر من البحر والجو، علماً بأن حوادث البر أضعاف أضعاف حوادث كل من البحر أو الجو.. ومع هذا فإنهم يشعرون بالأمن في سفر البر أكثر من الجو والبحر.
٢. الأمن قد يكون ناشئاً عن خداع للنفس دون وعي.. فكثيراً ما يتوهم الإنسان الأمن في غير محل الأمن، ويقلق في غير محل القلق.
٣. كثيراً ما يعقد الإنسان مع ربه عقداً ثم ينقضه كما حصل مع من عاهدوا الله إن هو نجاهم من البحر وأمواجه ليكون لهم في التوبة والدين شأن! فلما نجاهم إذا هم يشركون وينسون ما كانوا عاهدوا وعاهدوا الله عليه!
٤. الأمن في مرضاة الله، فهؤلاء الذين أطاعوا الله واستقاموا على نهجه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٢٨، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ الأنعام: ٨٢ أما العاصي فعلى شفير الهاوية.

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ ﴿٦٩﴾

الربط والمناسبة: كان النص السابق قد بدأ بسؤال: أفأمنتم؟ وهذه الآية تبتدئ بذات السؤال: أم أمنتم؟ وهذا نسق أول.. وكان السياق يتكلم عن ركوبهم البحر وإحداق الخطر بهم ثم جوارهم إلى الله طلباً للنجاة، ثم أمنهم واطمئنأنهم بوصولهم البر بسلام، والآن يتكلم النص عن إعادتهم إلى البحر وأخذهم في هذه المرة. والإنسان والنسيان قرينان.. فمع الزمن قد ينسى وشوك غرقه الذي حصل له فيعود مرة أخرى فتكون النهاية وما في كل مرة تسلم الجرة!

المعنى: أم: حرف عطف، أي أفأمنتم أم أمنتم؟ أن يعيدكم فيه تارة أخرى: هل أمنتم أن يعيدكم الله إلى البحر مرة أخرى. فيرسل عليكم قاصفاً من الريح: فيعاودكم قصف الريح والريح العاصفة، فيغرقكم هذه المرة جزاء نقضكم وكفركم. ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً: ثم لا تجدوا لكم على الله بهذا الإغراق متابعاً يطالب بحقكم وثأركم ومن يستطيع؟ ولم ترد (تبيعاً) في القرآن إلا هنا.

من دروس الآية ٦٩

١. ما أسرع ما ينسى الإنسان! فكم من حادث سير نجا منه بعض الأشخاص، فلم يركبوا سيارة لمدة أيام ثم بالتدريج يعودون لما كانوا عليه، وبعد مرات يعودون إلى السرعة ذاتها التي تسببت في الحادث الأول. وبنفس المنطق ربما يعود من نجا من البحر مرة أولى أن يعود ثانية.. ولا يعود منها.
٢. الله لطيف بعباده، لكن نقض العهد مع الله خطير قد يعرض صاحبه لعقاب شديد وعذاب أليم وأخذ وشيك.
٣. يفعل الله ما يشاء ويقتص ممن يشاء ولا يحاسب الله على فعله أحد! فقد أهلك قوم صالح فمن سألته؟
٤. يفعل الله ما يشاء عن علم وعن حكمة وعدل سبحانه إنه هو الحكيم العليم.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠)

الربط والمناسبة: كان النص السابق وسابقه يتحدثان عن معاقبة بين
البر والبحر، أي ارتحال فيهما بالتأوب، وفي هذه الآية يبين أن من وجوه
تكريم الله لبني آدم أنه عز وجل حملهم في البر والبحر وجعل لهم حرية
التنقل واحدة من حقوق الفرد لا يجوز التلاعب بها أو التحكم بها أو التضييق
منها ما دام الله عز وجل كفلها وجعلها أحد أوجه الكرامة الإنسانية.

المعنى: ولقد كرّمنا بني آدم: الواو للاستئناف على الأولى. وتصح للعطف.
ولا تصح للحال هنا. واللام في (ولقد): اللام الموطئة للقسم. و«قد»: لتحقيق
وهي داخلة على الماضي فأفادت أشد التأكيد والتحقيق.

كرّمنا: بنون العظمة ليوحي بعظمة المكرم والمكرم والتكريم.
والتكريم لا يحتاج إلى شرح وبيان فهو من الكرم وفعل الكرم
والكرامة، وهو تكريم عام. ثم ذكر أمثلة مخصوصة له أو عليه بقوله:
﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ﴾ (الإسراء: ٧٠) أي سّرنا تنقلهم في البر والبحر. فإله
جعل في الأرض السبل كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ (النحل: ٩٠) و﴿وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥٩)، وجعل في البحر قوانين تجعل التنقل للبواخر بهذه
الحمولات ميسوراً. وجعل للبشر علامات يهتدون بها في ظلمات البر والبحر
فقال: ﴿وَعَلَّمْنَا وَابْنَجِمَ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦) ولولا كل هذه التسهيلات ما
كان التنقل في البر والبحر ممكناً. ثم تابع أوجه التكريم فقال: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ
مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: وهي غير قابلة للحصر والإحصاء أعني هذه الطيبات. فكم
من أنواع المطعومات والمشروبات والفواكه والعصائر والخضراوات؟ بكل هذه
الأرزاق غدت المعاش ليست ممكنة فحسب بل ممتعة هنيئة ميسرة، ودعك
من التفتيش الذي يتسببه البشر للبشر فيضيق البشر على البشر. دعك من
هذا. فهذا يُسأل عنه من فعله ومن سكت على فعله حتى استفحل! وصاحب
الحق يجب أن يحفظ حقه!

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً: كرّمنا في أول الآية، وفصلنا في آخر الآية. فهي كرامة موصولة وتفضيل دائم.. فالحيوانات كلها في خدمة هذا الإنسان إما للغذاء أو للنقل أو لخدمة الأرض حرثاً وزرعاً.. والنبات غذاء له.. وحتى الملائكة سجدت له طاعة لأمر الله.

من دروس الآية ٧.

١. هذا الإنسان أكرم الموجودات عند الله.
٢. يكفي الإنسان شرفاً أن الملائكة سجدت له، وأنه حمل أمانة عجزت عنها السماوات.
٣. من كرامة الإنسان حرية التنقل والسفر في البر والبحر، وهي أحد بنود حقوق الإنسان التي تبنتها الأمم المتحدة، ومراراً قلنا: حقوق الإنسان كقميص عثمان يرفعه الأمريكي والغربيون وقتما يشاءون.
٤. الإنسان مكرم وهو مفضل على كثير من المخلوقات.
٥. يكفي الإنسان تكريماً أن عبّر عز وجل بنون العظمة ليدل على عظيم المنّة: «كرّمنا»، «وحملناهم»، «ورزقناهم»، «وفضلناهم».

المقطع الثالث عشر

الآيات (٧١ - ٨١)

وَلَوْ لَا أَن تَبْتَئَاكَ

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ، بِمِيعَتِهِ
فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧٦)

الربط والمناسبة: ما أجمل موقع هذه الآية وإن بدت تحتاج إلى شيء من إعمال النظر في فهم موقعها. فقد تكلمت الآية السابقة عن تكريم بني آدم وتفضيلهم على كثير من المخلوقات.. فما الذي جعل هذا الإنسان ينزل عن موقع التكريم وسدة التفضيل إلى مهاوي الردى؟ إنهم قيادات السوء، بدءاً من زعيم الشر إبليس، وانتهاء بآخر قائد فاسد فاشل مفسد... مهلك!

فأرى أن الآية تفسر لماذا يتحول بعض الناس من تكريم الله لهم، وبدل أن يركزوا أنفسهم ليحافظوا على التكريم فإنهم انحدروا بها أي بالأنفس ودرسوها تابعين في ذلك أئمة هم بعد ذاتهم من أتباع الشيطان. فعاد النص إلى قبل عشر آيات: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ (٦٦: الإسراء).

المعنى: يوم ندعو: يوم ظرف لندعو، ونون العظمة التي كثرت في هذه السورة تعود إلى الله فهو الذي يفعل ما يريد، وأمره في الكون نافذ. ولعل «يوم» تكون ظرفاً لفعل محذوف مقدر تقديره: احذروا يوم ندعو كل أناس بإمامهم.

كل أناس بإمامهم: يُحذّر الله الناس من اليوم الذي يدعو فيه عز وجل كل أناس خلف إمامهم، فإما أن يقودهم إلى الجنة أو أن يؤمهم إلى النار كما قال مولانا عن فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْتَارِ﴾ القصص: ٤١، وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ﴾ مود: ٩٨، والآيات في موضوع الأتباع والمتبوعين وأئمة الضلال كثيرة جداً وكيف يتبرأون منهم، فهذا المعنى في البقرة وفي الأعراف وفي... واقرأ هذا النص من خواتيم الأحزاب: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أِطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحُوا سَبِيلًا﴾ (٧٧) رَبَّنَا عَائِهِمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٧٨) الأحزاب: ٦٧ - ٦٨. وفعلاً وحقاً إنه ﴿كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، والإمام في أصل اللغة: قال الفيروزآبادي في

القاموس المحيط: «أمه: قصده. والمنم: الدليل الهادي، والجمل يقدم الجمال، والائتمام بالإمام الرجل الجامع للخير» أه. بإيجاز شديد (١).

وقال في المعجم الوسيط: «من يأتّم به الناس من رئيس أو غيره، ومنه إمام الصلاة، والخليفة، وقائد الجند، والقرآن للمسلمين، وفي التنزيل العزيز: «وكل شيء أحصيناه في إمام مبين» أه. بإيجاز (٢).

ويصح أن يكون الإمام في الآية بمعنى الزعيم والقائد والمتبوع. ويصح أيضاً أن يكون معنى الإمام: الكتاب، والكتاب قائد لأنه يُتبع.

وقد قال في سورة الحجر تعقيباً على قصة لوط وأصحاب الأيكة: ﴿وَلَا تُهْمَا لِلْإِمَامِ مُبِينٍ﴾ الحجر: ٧٩.

وأرى أن الإمام هنا في آية الحجر بمعنى الطريق المسلك المتبع. فمن أوتي كتابه بيمينه: هذا الجزء من الآية بعد قوله ﴿كُلُّ أَنَاثٍ بِأَمِيمٍ﴾ ربما يوحي بأن معنى الإمام الكتاب، وليس يقطع به.. والفاء في «فمن» للتفريع والتفصيل، و«من»: اسم موصول فيه الشرط أو يفيد الشرط، وجوابه: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ وما بعدها.

فمن أوتي: أي فمن أعطي كتابه بيمينه، وهو رمز الفوز والفلاح. فأولئك يقرأون كتابهم: مع أن الجميع يقرأون كتابهم فلماذا خص من أوتي كتابه بيمينه؟ وقد قال في هذه السورة في فواتحها: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزَمَتْهُ طَائِفَةٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخِّجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) الإسراء: ١٣ - ١٤. أي يقرأون كتابهم مع السرور ويتلذذون بقرائه. أما الراسب فلا يحب أن يقرأ شهادته، وإذا أردناه أن يقرأها أرغمناه على القراءة إرغاماً، ولكن الفائز هو يرينا النتائج، وما المواد الدراسية التي كان فيها علامة كاملة!

ولا يظلمون فتياً: ومع أن الكل لا يُظلم فتياً فلماذا خص من أوتي كتابه بيمينه بهذا القول؟ ولله المثل الأعلى، فإن بعض الطلبة يحصلون الامتياز مع أن بعض الأساتذة يدققون جداً في التصحيح إلى درجة نقص بعض الدرجات

(١) القاموس المحيط ص ٩٩٤-٩٩٥.

(٢) المعجم الوسيط. ج ١ ص ٢٧.

على أقل شطب أو خطأ نحوي أو كتابي أو إملائي. أما هؤلاء فإن الله لا يظلم من درجاتهم شيئاً، وأما الراسبون فهم كذلك لا يُظلمون شيئاً.

من دروس الآية VI

١. كل أناس بإمامهم فهو يرفعهم أو يخفضهم، يقودهم إلى الفوز والظفر. أو الهزيمة والإفلاس.
٢. الإمام هو المتبع سواء كان بمعنى القائد والزعيم أو الكتاب والمنهج.
٣. الفائز يحب أن يُرى نتائجه لمن يحب ولمن يعرف ولا يعرف، ويجب أن يعيد قراءة شهادته ونتيجته ويتوقف ملياً عند نقاط تفوقه. أما البائس الآخر فلا يحب أن يسأله أحد عن نتيجته. فإن سئل فلا يحب الجواب. فإن أجاب فلا يحب قراءة الكتاب!
٤. لا ظلم في تصحيح دفاتر الأعمال، لا للفائزين ولا للراسبين.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۖ﴾ (٧٢)

الربط والمناسبة: في الآية السابقة ركز النص على الفائز، وفي هذا النص إكمال الحديث عن الفريق الفاشل الخاسر.

المعنى: ومن: الواو حرف عطف، عطفت على «فمن» في الآية السابقة، وفيها الشرط كسابقتهما، وجوابه ﴿فَهُوَ﴾ وما بعده. كان في هذه أعمى: قضى حياته في هذه الدنيا أعمى عن الحق، كناية عن الكفر. وليس المقصود، قطعاً، أنه أعمى على الحقيقة. فهذا قد رُفِعَ عنه الحرج في بعض الأحكام لا في العقائد بالطبع ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ النور: ٦١. إنما الحرج على من تعامى عن الحق. فهو في الآخرة أعمى: كما في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَكْثَرُ نَسِيًّا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنَسِّي ﴿١٢٦﴾ طه: ١٢٤ - ١٢٦. لقد عمي عن الحق، وهو عمى مجازي فليكن جزاؤه عمى حقيقياً يوم القيامة، وهل جزاء العمى إلا العمى؟

فواحدة من كلمتي أعمى (وهي الأولى في الإسراء) مجاز والثانية حقيقة.. أما «أعمى» في سورة طه في الموقعين فهي على الحقيقة. وأضل سبيلاً: كما ضل عن سبيل الهدى في الدنيا فسيضل عن سبيل الرضا والسعادة في الآخرة إلى سبيل الردى والشقاء.. وما أبعد المسافة بينهما!

من دروس الآية ٧٢

١. العمى عن الحق في الدنيا جزاؤه العمى حقيقة في الآخرة.
٢. والضلال عن سبيل الهدى في الدنيا جزاؤه الضلال عن سبيل الجنة في الآخرة.
٣. فالجزاء عليه من جنس العمل، والنسيان جزاؤه النسيان، والإحسان جزاؤه الإحسان.

﴿وَلِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣)

الربط والمناسبة: عاد النص من ساحة الآخرة إلى ساحة الدنيا. لأنهما فعلاً وحقاً مترابطتان.. فعمل الدنيا ثمرته في الآخرة. والآية مهمة جداً وموقعها مهم جداً، فمحمد ﷺ هو إمام المسلمين، وإن كان وصل الحد بأئمة الكفر أن يساوموا إمام الهدى لإحداث بعض تنازلات ولو شكلية فتأمل كم الأمور خطيرة. وأما الربط بالآخرة سوى ما ذكرنا، فإن الله يحذر رسوله ويقول: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٣) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الإسراء: ١٤٠ - **المعنى:** وإن كادوا: أي قاربوا وشارفوا، ليفتنونك: أي يزرعونك أو يحولونك، عن الذي أوحينا إليك: عن المنهج الذي أوحينا إليك.. لتفتري علينا غيره: لتغير الذي أوحينا إليك.

وكيف نفهم هذا النص، قبل أن نغادر هذه الجزئية من الآية؟ معاذ الله أن يتزحزح الرسول عن العقيدة أو العبادة.. أو كما قيل في بعض الروايات: تعبد إلها سنة ونعبد إلهك سنة. فمثل هذه المساومة لا يمكن أن تكون محل نظر أو تفكير أو ميل أو تهجس بها النفس أو الخاطر لحظة.

فاحتمال المساومة يجب أن ينتقل في الذهن إلى منطقة أخرى يمكن أن يقع فيها اللبس. كأن يساوموه في مسألة تبدو شكلية أو ظاهرية غير جوهرية، كما يتراءى، وذلك مثلاً باقتراح أن يجعل للكبراء يوماً وللعامّة أو السوق كما يسمونهم يوماً آخر. وربما يظن أن هذه المسألة مسألة إدارية أو تنظيمية أو شكلية، أو إجرائية، غير متعلقة بالمبدأ أو المنهج أو صميم الدعوة! ولكنها في نظر المدقق، وفي ميزان الله هي صميم المنهج. فلا مفاضلة طبقية في دين الله، وكبراء الأرض بميزان الأرض ليسوا كبراء - بالضرورة - في ميزان الله، والله لا ينظر في موازين الأرض وأهل الأرض. هذا الذي نعتقد أنه منطقة ربما يظن الحبيب المصطفى ﷺ أنها تقبل التفاوض والنظر

والبحث والمساومة من أعداء الدعوة. والتنازل من قائد الدعوة، على اعتبار أنها كما أسلفنا قضية غير جوهرية، فنزل الوحي حاسماً قاطعاً يمنع حتى هذه المسائل التي تبدو غير أصولية! ولكنها في حساب الله وميزان الله جد عظيمة. فصميم المنهج عدالة ومساواة. فإذا انصرفنا عن هذا إلى قبول ولو في هذه الجزئية فهو تنازل للجاهلية وتخل عن القضية.. هكذا اعتبرها ميزان الشرع.. أما أن النبي يُساوَم في العقيدة فهذا المحال بعينه. وأما أن يقبل ﷺ التنازل في العبادات فهذا من المستحيلات.. ولكنه وهو يبحث عن نصر دين الله بكل الوسائل والممكنات ربما يظن هذه المسألة من الشكليات كما سلفت الإشارات فلا نكرر الأقوال والعبارات!

وإذاً لاتخذوك خليلاً: إذاً: التووين في (إذاً) تووين عوض.. أي إذا قبلت ذلك. لاتخذوك: جواب الشرط.

أما «خليلاً»: فهي تعني الصاحب القريب الملازم الحبيب، وما هو بالحب الصافي والود النقي، ولكنه الرضا عن التنازل والقبول بما قبلت لأنك لو قبلت فإنما قبلت ما يحبونه فيحبونك. واتخذ تأخذ مفعولين، والكاف في محل نصب في مكان المفعول الأول، و «خليلاً» هي المفعول الثاني. وقد وردت كلمة «خليلاً» في القرآن ثلاث مرات هذه أوسطها، فقد جاءت في النساء والإسراء والفرقان.

من دروس الآية ٧٣

١. لا يمكن أن يقبل النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم المساومة في المبدأ أو في العقيدة أو العبادة، وإنما قد يقبل التنازل في مسألة تبدو ثانوية أو شكلية في مقابل ما يعده مكاسب للدعوة والدين بإسلام الزعماء، والعرب يتبعون زعماءهم.
٢. الميزان الحق هو ميزان الله، وليس مهماً ما نعهده نحن جوهرياً أو فرعياً، المهم كيف يعده الله. ألم يظن يونس عليه السلام أن الله لن يحاسبه، فوجد نفسه في بطن الحوت؟!

٣. مكر الكافرين خطير وشديد، وهم يصورون المسائل أنها غير جوهرية ولكنهم في النهاية سيعتبرونها تنازلاً جوهرياً وفي الإعلام سيصورونها كذلك، فلينتبه من هذا في كل التفاوضات!
٤. من يحبك إذا تنازلت لا يحبك إلا إذا زُلت عن دينك وزلت. وهو كذلك لا يحب دينك، ومن لا يحب ديني لا أحبه ولا يحبني ولا لقاء!
٥. الذي يتنازل مرة يتنازل مرات، فما بالك بمن يتنازل عن دينه أو شيء من ثوابته فهي الزلزلة في نفسه.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧١)

الربط والمناسبة: في الآية السابقة تحدث السياق عن مساومات تعرض لها سيد السادات ﷺ. وفي هذه الآية يبين رعاية الله له وتأييده وتثبيته إياه، وأنه لولا هذا التثبيت لربما دفعه الحرص على الدين إلى قبول بعض التنازلات ولكن الله تولاه بالرعاية والتثبيت.

المعنى: إذا كان العظيم سيد الرسل أولى العزم يقال له: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ﴾ فماذا يُقال لغيره؟

وإذا كان المكر كبيراً إلى درجة أن أوعى الخلق وأعظمهم حكمة وعلماً وتثبيتاً أوشك أن يقبل مبدأ التفاوض معهم، فما شأن من سواه؟ هذا يدل على حجم المكر والخديعة لا على تنازل من سيد الخلق ﷺ. وهذه الآية تأكيد وتأييد لما جاء في سابقتها.

ومعاذ الله أن يظن بالرسول أنه كان ليقبل المساومة لمصلحة إلا لمصلحة الدين، ولا فائدة إلا لفائدة الدين. وهذا فرق كبير ومبين بين من يتنازلون عن حقوق الأمة لصالح ذواتهم، وبين من يتنازل - فيما يبدو - ولكن لصالح الأمة، كما حصل في الأحزاب إذ عرض النبي ثلث ثمار المدينة على هوازن وترجع عن المدينة وحلف الأحزاب. فرفض أهل المدينة، وبين النبي ﷺ أنه إنما عرض لصالحهم، فلما رفضوا سحب النبي عرضه.

ولولا: حرف امتناع لوجود.. امتنع الركون القليل إلى الكافرين وعرضهم لوجود التثبيت من مولاه. ولاحظ أنه قَدِمَ ﴿وَلَوْلَا﴾ على الجواب ﴿لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَنُ﴾ فجاء الكلام على ترتيبه الطبيعي، لولا واسمها وجوابها. وفي قصة يوسف ﷺ قَدِمَ الجواب على لولا وفعلها أو شرطها، فقال عز وجل: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يوسف: ٢٤، ومعاذ الله أن يظن بأي من النبيين إلا الكمال! لكن أردت أن ألفت إلى تلوين المقال بحسب مقتضى الحال!

أن تثبتاك: أن مصدرية، أي ولولا تثبيتنا إياك.. والثبات والتثبيت: التقوية والتدعيم فلا يتزعزع ولا يتزعزع. ومن أجمل ما في الموضوع قوله تعالى في

سورة إبراهيم: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
 الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ إبراهيم: ٢٦. ولاحظ التعبير
 بنون العظمة التي تقترب بجلال النعم دائماً أو غالباً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
 وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر: ١.
 لقد كدت: لقد أوشكت أو قاربت، تركن إليهم: تميل إليهم، شيئاً قليلاً:
 يسيراً هيناً، وهذا غير مقبول حتى ولو بهذا المقدار.

من دروس الآية ٧٤

١. الركون إلى الذين ظلموا ولو قليلاً خطير.
٢. تثبيت الله للمؤمن من أعظم المنن والنعم.
٣. مساومات الظالمين والكافرين خطيرة حتى احتيج معها إلى تثبيت الله.
- فما شأن بقية المؤمنين أمام مساومات هؤلاء؟
٤. دائماً نسأل الله الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد.

﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا يَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥)

الربط والمناسبة: الارتباط بين الآية السابقة وهذه الآية أتم الارتباط، إنه ارتباط الجزاء بشرطه. فالآية هنا فيها جزاء الشرط أو جزاء الضعف لو حصل ضعف من رسول الله ﷺ وحاشاه من ذلك فركن إلى أصحاب المساومات..

المعنى: إذا: هل هي جواب لولا في الآية السابقة؟ أم هي جواب عن شرط مقدر نشأ من الكلام السابق كأنه قيل: لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، ولو حصل ذلك، إذا لأذقناك. أعتقد أن الأمرين ممكنان.

لأذقناك: جواب إذا، والإذاقة: كناية عن إلحاق العذاب، ولكن النص لم يذكر لفظ العذاب. ضعف الحياة: أي ضعف عذاب الحياة، وحذف للتلطف أولاً ولأنفهامه ثانياً. وضعف الممات: كذلك حذف لفظ العذاب من هنا. ثم لا تجد لك علينا نصيراً: من ينصرك منا إذا أردنا بك ذلك أو ألحقنا وأوقعنا بك ذلك؟ إنك لا تجد نصيراً ينصرك علينا.. وحاشاه أن يحتاج وحاشا لمولاه أن يحوجه إلى سواء. تعالى الله وصلى الله وسلّم على رسول الله.. لكنه الدرس والتعليم وأن لا أحد فوق القانون.

من دروس الآية ٧٥

١. الكل سواء أمام قانون السماء، ولا أحد فوق قانون الله وشرع الله.
٢. الخطاب للرسول تعليم لأمته، وترسيخ قاعدة المساءلة وأن لا أحد فوق المساءلة.
٣. كلما علت رتبة الشخص زاد حسابه، فتساء النبي نصّ القرآن أن من تأت منهن بفاحشة ﴿يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ الأحزاب: ٢٠، وهذا النص هنا يخص الرسول. وكان الفاروق يجمع أهله إذا أراد أن يسنّ قانوناً ويقول لهم: من جاني منكم مخالفاً ضاعفت له العذاب.
٤. لا ناصر إلا الله ولا ناصر من الله.
٥. من يعتصم بغير الله يذل، ومن يطلب النصير من غير الله يُهزم ويُندم.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

الربط والمناسبة: سبق قبل آيات ثلاث: ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾، وعجيب هؤلاء وأعجب كيف يسجل القرآن محاولاتهم، فبدأ بحديث الاستمالة، والآن يتحدث بحديث في اتجاه معاكس أنه حديث الوعيد والتهديد. وفق ما بات يعرف اليوم بسياسة العصا والجزرة - فإن لم يُجَدِّ الوعد فالوعيد.

المعنى: وإن كادوا: كاد: من أفعال المقاربة. يعني وشك ووقوع الشيء. ليستفزونك: الاستفزاز الإخراج عن المكان أو الإخراج من الحالة، فبالاستفزاز يمكن أن تخرج شخصاً عن حلمه وهدوئه. وبالاستفزاز والمضايقة يمكن أن تخرجه من أرضه وبيته وسكنه وبلده، وهذا ما كانت قريش تخطط له. فقد هَجَرُوا صحبه إلى الحبشة، وأرادوا منه المصير نفسه.

من الأرض: عام يراد به الخصوص، أي من مكانك في البلد الأمين. ومقامك فيها. ليخرجوك منها: هذا مقصد الاستفزاز وغايته، أن يخرج من مكة ليرتاحوا من الدعوة فيها وكسب الأنصار من قبله كل يوم. وإذا: هذه إذا المنونة الثالثة ضمن الآيات المتحدثة عن مساومات المشركين منذ ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ لغاية ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ والتتوين عوض عن جملة محذوفة.. أي إذا أخرجوك.

لا يلبثون: جواب الشرط الذي فعله عوضته النون أو ألف التتوين، واللبث: المكث والإقامة والبقاء في المكان. خلفك: أي وراءك، وخلفك بعد أن تخرج. إلا قليلاً: أي الإبقاء قليلاً أو زمناً قليلاً.

قال ابن كثير في سبب نزول الآية ومعناها: « نزلت في قريش لما همّوا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلّطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم،

وسبى ذراريهم ... «(١)».

من دروس الآية ٧٦

١. الاستفزاز للإخراج من المكان خطة قديمة جديدة.
٢. من أساليب أعدائنا المحتلين في فلسطين سحب الهويات، ورفع الضرائب على العقار حتى لا يستطيع المواطن سداد ما عليه فتأخذها حكومة الاحتلال أو عصابة الاحتلال.
٣. فرق بين هجرة النبي ﷺ والإخراج بالقوة، وللدلالة على أن قريشاً لم تكن تريد هجرته أنها طاردته، ولو أخرجته لما لبثت في مكة.. هذا كلام الله عز وجل.
٤. الاستفزاز من وسائل الشيطان وأتباعه لإخراج الناس من دينهم وأوطانهم.

(١) أعتقد أن المعنى باتجاه آخر. وهو العذاب الشامل العام. ثم إن قريشاً كانت تريد منع رسول الله من الهجرة، فأرى أنه لم ينطبق عليهم القانون. ولا أخذوا بالسنة التي ذكرتها الآية. وإنما بدر أمر آخر. أكرم الله به الرسول والمؤمنين بنصرهم على عدوهم.

(٢) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير لمجموعة من العلماء بإشراف صفى الرحمن المباركفوري. ص ٦٢٠ (مجلد واحد) ط الرياض: دار السلام ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا

وَلَا نَحْدِلْ سُنَّتِنَا عَمَّوِيًّا﴾^(١)

الربط والمناسبة: الربط أوضح ما يكون، فلا يحتاج إلى طول تأمل. فهناك قال إنهم لو أخرجوك فلن يلبثوا بعدك إلا زمناً قليلاً أو لبثاً قليلاً. وبين في هذه الآية أن الأمر سنة ماضية في الرسل من قبلك أن من يخرج الرسل يُخرج هو أو يُهلك.

المعنى: سُنَّة: قانون ماض منذ أول رسول إلى آخرهم أو خاتمهم أن من يخرج رسوله من قومه ووطنه وقريته لأبد أن يخرجهم الله. إخراج بإخراج. ونفي بنفي، والتهجير بالتهجير، والبادئ هو الظالم، والمعاقبة ليست ظلماً - معاذ الله - باختصار. هذا قانون الله وتاموسه المضطرد في الأقوام ورسولها. فلا يمكن أن يمر إخراج الرسل من ديارهم وأوطانهم بلا عقاب مماثل.

من قد أرسلنا قبلك من رسلنا: وهذا التعبير ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ لم يتكرر في القرآن، كما لم يتكرر لفظ: ﴿وَلَا نَحْدِلْ سُنَّتِنَا عَمَّوِيًّا﴾ في القرآن. مع أن لفظ «سنة» تكرر ١٣ مرة، ومجموع المادة في القرآن ما بين سنة، سنن، سننتا ١٦ مرة^(١).

سنة من: قانون الله في من قد أرسلنا قبلك من رسلنا: من أرسلناهم إلى أقوامهم بدعوة الله ودين الله من قبلك، وكل المرسلين قبله لأنه خاتمهم ولا نبي بعده. ولا تجد لسنتنا تحويلاً: هذه الآية تحتوي على الإشارة إلى قانونين أولهما: ما مر قبل هذا الختام، وهو قوله: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي أن هذا الأمر مطرد ماض في كل من سبقك لا يتخلف ولا يتخلف معك يا سيد الرسل، فلو أخرجتك قبيلتك وقريتك لأخرجتهم أو أهلكتهم، والنص محتمل، لأنه: ﴿وَلَا نَحْدِلْ سُنَّتِنَا عَمَّوِيًّا﴾. قانون الله لا تحويل له ولا تبديل.

والتحويل أقل من التبديل، بمعنى أنه منفي عنه أقل تعديل وأبعد تعديل،

(١) والسنة في القرآن أو السنة الاجتماعية موضوع كبير، مادته مجموعة تحتاج إلى قليل جهد. ولكن لا وقت حتى يأذن الله ولكن نكتفي ببحث يسير عن السنة الاجتماعية في سورة الإسراء. وحتى هذا نؤجله الآن لنلا بتضخم الكتاب. ونفكر في طبعة ثانية إذا لقي الكتاب قبولاً إن شاء الله.

فلا تحويلة في طريق السنن ولا طريق بديلة عن طريق السنن. فنفي التحويل متضمن نفسي التبدل بالأولى، فلماذا كان يجمعهما النص القرآني أحياناً؟ ليفيد مزيداً من التأكيد والتوضيح! وأضاف السنّة إلى نون العظمة نون الجمع «لسنتنا» لتضخيم السنة، فالمضاف إلى العظيم عظيم، والمنتسب إلى العظيم عظيم..

يقول سيد قطب - رحمه الله: « إن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب الحاسم ... وهذا الكون تصرفه سنن مطردة لا تتحول أمام اعتبار فردي» أ.هـ. قال ابن كثير: « أي هكذا عادتنا^(١) في الذين كفروا برسولنا وأذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لهم ولا لأحد به، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (الأنفال: ٢٣) ».

من دروس الآية ٧٧

١. من الموضوعات المهمة في القرآن موضوع السنن.
٢. بفهم السنن يستقيم فهم كثير من الأمور، وعدم فهمها قد يشوش صورة الدين والعقيدة.. فدراسة السنن من أوجب ما يكون.
٣. السنة الاجتماعية هي قوانين الله في المجتمعات، ومصدرها الأول القرآن الكريم ثم السنة ثم التاريخ ثم علم النفس وعلم النفس الاجتماعي ... إلخ.
٤. سنّة الله لا تحابي ولا تجامل ولا تتبدل ولا تتحول.. وهذا من أعظم مزاياها. وهذا هو العدل الإلهي المطلق.
٥. سنّة الله في الأقوام مع رسلهم أن القوم الذين يُخرجون رسولهم من قريته يُخرجهم الله، إما بعدو وغزو، وإما بقحط، وإما بعذابٍ من أنواع شتى، وإما بأمراض وأوبئة ... وإما ...

(١) لو قال قانوننا وناموسنا لكان أولى.

(٢) قلت: فارت بين ما قاله ابن كثير في تفسير الآية السابقة وهذه. فهناك قال: « لو أخرجوه لما لبثوا بعده ... فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم .. وهنا قال: « ولولا أنه رسول الرحمة لجاءهم من النقم ... إلخ. فتأمل! والمخرج من هذا التناقض أن نقول: سنّة الله لا تختلف. ولكن الرسول خرج بتخطيطه هو لإقامة دولته في المدينة وهم لم يكونوا راغبين.

(٣) المصباح المنير ص ٦٢٠.

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٧٨)

الربط والمناسبة: هذه الآية تحتاج في فهم وجه ارتباطها بما قبلها إلى شيء من التأمل.. وأرى وجه المناسبة كالتالي: تكلمت الآيتان السابقتان عن سنة الله في أن من يُخرج الرسل يُخرجه الله، وهذه الآية تقول له: لا تشغل بهم وبما يمكنون، بل اشغل نفسك بعبادة الله وإقامة الصلاة في أوقاتها وهو يتولى كل أمرك.. سبحانه.

المعنى: أقم الصلاة: تأمر الآية رسول الله ﷺ أن يقيم الصلاة. وإقامة الصلاة الإتيان بها بكمالها وتمامها وإقامة أركانها وروحها من الخشوع. لدلوك الشمس: أي صلاة الظهر وقت توسط الشمس كبد السماء.. إلى غسق الليل: وتشمل هذه الكلمة ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي إظلامه، تشمل ثلاث صلوات: العصر والمغرب والعشاء. فعند العشاء يكون غسق الليل أي إغطاشه، وكلمة «إلى» ممتدة في زمانها من التوسط في كبد السماء إلى ظلمة الليل، فهذه أربع صلوات، وخامستها صلاة الفجر.

وقرآن الفجر: وصلاة الفجر، ونُصبت هذه الصلاة مع أن النسق الجبر. أي وأخص صلاة الفجر أي أنها نصبت على الاختصاص، فصار لصلاة الفجر عدة خصوصيات:

١. هذا النسق الإعرابي المتميز عن النسق السابق.
٢. عبر عنها بالقرآن لطول التلاوة فيها فهي متميزة من هذه الناحية.
٣. إضافة القرآن إلى الفجر إضافة عظيم إلى عظيم.
٤. تكرار ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾.
٥. لم تتكرر كلمة «قرآن» في القرآن في آية مرتين إلا في هذه الآية فهذا وجه تميز آخر.
٦. وجه تميز آخر، أن القرآن جعل صلاة الفجر آخر الصلوات ذكراً لشرفها وخصوصيتها، فختم بها الحديث والصلوات كما ختم الأنبياء بمحمد

- عليه الصلوات والتسليم.
٧. لعل نسقها في هذا يشبه النسق التالي في سورة الواقعة: ﴿فَأَصْحَبُ
الْيَمِينَةِ مَا أَمْتَحَبُ الْيَمِينَةَ ۝٨ وَأَصْحَبُ الشِّمَةِ مَا أَمْتَحَبُ الشِّمَةَ ۝٩ وَالسَّيْفُونَ
السَّيْفُونَ ۝١٠﴾ الواقعة: ٨ - ١٠.
٨. إضافة ﴿مَشْهُودًا﴾ إلى قرآن الفجر أفادت أن صلاة الفجر لها
خصوصية أن الملائكة تشهدها، إما الوحيدة، وإما بكثافة أكثر، والله
أعلم.
٩. عدد كلمات الآية مقسومة مناصفة بين الصلوات والصلاة الفضلى
الفجر.

من دروس الآية ٧٨

١. ذكرت الآية أوقات الصلوات الخمس ولو بالإشارة.
٢. خصوصية صلاة الفجر مما يقطع بأنها هي الصلاة الوسطى أو كما
نرجح كل الصلوات هي الصلاة الوسطى.
٣. البلاغة الإيجاز. فأن يذكر القرآن الصلوات في بضع كلمات مع الثناء
العطري على صلاة الفجر فهذه قمة الإيجاز وقمة الإعجاز.
٤. أن تزداد حصص القرآن من صلاة الفجر دون الوصول إلى الإطالة
المستثقلة.
٥. صلاة الفجر تشهدها الملائكة، وما المانع أن الوجود كله «يأذن» لها؟ أي
يستمع لها خاشعاً كما كانت الجبال تردد مع داود تسبيحه!
٦. إقامة الصلوات غير أدائها الشكلي الذي بلا روح.
٧. الجمع بين الصلاة والقرآن وخاصة صلاة الفجر.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩)

الربط والمناسبة: وجه الرابط ظاهر، فقد أمر بالفرائض أولاً ثم بالتهجد والتفعل ثانياً في هذه الآية، وعطف الضمير في «به» على قرآن الفجر لاتصال المعنى وترابط النص.

المعنى: ومن الليل: أي وقم من الليل. فتهجد به: صلّ التهجد أي القيام بعد القسط اليسير من النوم، والضمير في «به» عائد على القرآن المذكور في الآية السابقة. نافلة لك: أي أن هذا القيام ليس فريضة كالصلوات السابقة. ولكنه نافلة تتقرب بها إلى مولاك. عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً: (عسى) هنا للتحقيق وفي نظيراتها: لأن ما يتصل بالله مقطوع به محقق.. عسى أن تُبعث يوم القيامة ومقامك مشهود محمود رفيع الشأن، تتطلع إليه الخلائق. يقول سيد قطب - رحمه الله: «إذا كان الرسول ﷺ يُؤمر بالصلاة والتهجد والقرآن ليعثه ربه المقام المأذون له به!! فما أحوج الآخرين إلى هذه الوسائل لينالوا مقامهم ودرجاتهم، فهذا هو الطريق وهذا هو زاد الطريق».

من دروس الآية ٧٩

١. التهجد سنة مؤكدة مطلوبة (إن لم تكن في مرحلة) واجبة في حقه ﷺ كما في المزمّل، وفي حق أمته التهجد سنة ترفع صاحبها وتثير قلبه وتحيي روحه، كما جاء في الحديث: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت ...» إلى آخر الحديث المشهور.
٢. مقام النبي في الآخرة مقام محمود ومشهود، يعلي الله شأنه على جميع خلقه، والشفاعة العظمى له، والمقام المحمود له، ولواء الحمد بيده وله، والمنازل الرفيعة له.. اللهم زدنا حياً له.
٣. قيام الليل شرف المؤمن وهي عبادة تُعين على الإخلاص؛ لأنها خلوة بين العبد وربّه.

﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ (٨٠)

الربط والمناسبة: الخطاب ما زال مستمراً مع النبي ﷺ، فقد أمر بإقامة الصلاة وطلب منه التهجّد، وكأن ما في الآية هنا جزء من ثمرات هذه العبادات فوق وبعد المقام المحمود الذي في الآية السابقة.. وهنا أن يجعل الله له في كل أمر: مُدخل صدق ومُخرج صدق. وقد مرت «قل» «وقل» في الإسراء قبلاً وبعداً.. فهي أيضاً نسق من هذا الوجه. وختمت السابقة ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ﴾ الإسراء: ٧٩، وافتتحت هذه بـ: ﴿وَقُلْ رَبِّ﴾

المعنى: وقل: الواو: إما عاطفة، عطفت أمراً على أمر، فكأنه قال: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ...﴾ وقُلْ رَبِّ ﴿الإسراء: ٧٩ - ٨٠﴾، وإما استئنافية، والاستئناف كما تكرر، ليس معناه انقطاعاً في وصل الكلام، لا، وإنما هو جواب عن سؤال نشأ من الكلام السابق، فكأنه قال: وبعد هذه العبادات فروضاً ونفلاً ماذا بقي؟ فكان الجواب: الدعاء بأن تكون مداخل الإنسان في هذه الحياة ومخارجه فيها كلها إخلاص وصدق وابتغاء مرضاة الله.

قل: فعل أمر المخاطب به سيد المخاطبين، ثم، على ما نقوله في كل مرة ثم من بعده لكل من يصح منه الخطاب.. فهذه ليست مسألة خاصة بالنبي شخصياً ﷺ، وإنما مسألة تتعلق بالعبادة التي هي نهج حياة كل مسلم. رب: أي قل: يا رب.. فهذا منادى، وحرف النداء محذوف لانفهامه دون ذكره. ولم تجر العادة أن ينادي الرب في القرآن بياء النداء.. اللهم إلا مرة أو نحوها، وعشرات المرات سواها دون ياء النداء. وكذا «ربنا».. لكن هنا لا استثناء.

ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ: كل أمر في الحياة له مداخل ومخارج مجازية أو حقيقية، وكل أمر فيه دخول إليه وخروج منه، بصورة مجازية أو حقيقة. فالمدخل بالضم عملية الدخول وبالفتح، ولم ترد، معناها مكان الدخول.. كمدخل الدار والحديقة، ومدخل القاعة.. إلخ. والمعنى أن يا رب اجعلني في كل أمر أدخل فيه اجعل دخولي فيه وإليه دخول صدق، أي إخلاص وتجرد

لك. والصدق أحد أعمدة الإخلاص في الدين، بل قد يعبر عنه أي الدين بالصدق، كما في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ﴾ الزمر: ٣٣، وحتى في الآخرة قال الله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القصص: ٥٥. والصديقون بعد الأنبياء في الرتبة، وكذا الصديق بعد نبينا في المنزلة في الجنة ثم الشهداء. وأخرجني مخرج صدق: يا رب اجعلني في كل أمر أفرغ منه أو أخرج منه، أفرغ أو أخرج كما دخلت أي من بوابة الصدق دخولاً ومن بوابة الصدق خروجاً.

واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً: أي واجعل لي يا رب من عندك قوة ناصرة، والسلطان في القرآن وردت بمعان عدة، منها الكتاب. ومنها الحكم والتشريع، والسلطان في اللغة بالمعنى المعروف: من له النفوذ. وأرى أن المعنى الذي يناسب السياق هنا هو الناصر. سلطاناً نصيراً: أي ناصراً ينصرني في كل شأن أو حجة تثبتني في كل موقف، أو مؤيداً منك يؤيدني في كل احتياج أو شدة، والله أعلم.

يقول سيد قطب - رحمه الله: «صاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد سلطانه إلا من الله، ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان الله. والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان والجاه فيصبحون جنداً فيفلحون، ولكنها لا تغلح إن كانت من جند السلطان وخدمه، فهي من أمر الله وهي أعلى من السلطان والجاه...» ﴿وَجَعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾.

من دروس الآية ٨.

١. الدعاء إلى الله في كل أمر وكل وقت.
٢. حاجتنا لا تنتهي، ونحن في كل هذه محاولات إلى الله فقراء إلى فضله.
٣. الصدق في هذا الدين عمود الدين وركنه الركين، بل قد يعبر عن الدين كله بهذه الكلمة.
٤. الصدق والإخلاص ينبعان من منبع واحد.
٥. في كل مدخل ومخرج وفي كل دخول وخروج نسأل الله دائماً أن يجعل

كل ذلك مقروناً بالصدق.

٦. النصير من الله نحتاجه في كل أمر صغير أو كبير.
٧. ﴿مِّنْ لَّدُنْكَ﴾ تصور القرب والاتصال بالله مباشرة واللجوء إلى حماه.
٨. أعظم ما في الدعاء أنه تعليم من الله لرسوله وللمؤمنين.. إن الله يعلمكم كيف وماذا تدعون.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١)

الربط والمناسبة: «وقل» معطوفة على «وقل» فهما - أي الآيتان -

نسق، ونسق آخر أن الدعاء ختم في الآية السابقة بطلب النصير من الله، فكأن آيتنا هذه تقول بعد تلك: ها قد جاءك النصير والنصير وجاء الحق واندحر الباطل..

المعنى: «وقل: الواو: عطف، عطفت ﴿ وَقُلْ جَاءَ ﴾ على ﴿ وَقُلْ رَبِّ ﴾ الإسراء: ٨٠..

قل: أمر بالقول لكل من يعنيه الأمر، نفسه هو، وللمؤمنين، وللكافرين، وللخلق أجمعين.. قل وبلغ ما طلب منك، والمأمور عام، وسيد المأمورين هو سيد الرسل أجمعين.. عليهم جميعاً الصلوات.

جاء الحق: وأين كان الحق حتى يجيء، فهو دائماً موجود، لكن كان الباطل معريداً؛ لغياب الدعوة والدعاة، فهذا قد جاء سيد الدعاة، ودعا إلى الله واستنصر بالله، فإذا فقد جاء المدد من الحق، والحق لفظ يحتمل معانٍ، فالحق من أسماء الله، والحق الصدق، والحق الشيء الثابت، والحق نقيض الباطل، والحق هذا الدين وكل ما جاء به، والحق أوسع مما قلنا.. ومجيئه كناية عن ظهوره وانتصاره.. ولاحظ أنه عبّر بالمجيء، الذي يفيد القرب، دلالة على أن الحق قريب من الفطرة، قريب من الواقع، قريب من الانتصار، قريب من العقل.. إلخ؛ لذا عبّر بالمجيء.. ومجيئه عبارة عن تحققه في الواقع وهيمنته بالحجة أولاً وسلطان البرهان، وسلطان القوة والسلطان ثانياً.

وزَهَقَ الباطل: أي هلك الباطل، وانتقض بنيانه بمجرد مجيء الحق، تماماً كما تنقش جيوش الظلام إذا سطعت الشمس، وجيش الباطل هو جيش الظلم والظلام، فبمجرد مجيء الحق يختفي وينطفئ، كما تبخرت وعود إبليس بنصرة قريش في بدر! والحق مُحَقُّ نظرياً قبل القوة، ولكنه يحق في الواقع بالقوة، فلا بد للحق من قوة حتى يحق؛ لأن الباطل أيضاً مدجج بالقوة، لكن الحق لا يبدأ باستخدام القوة.. إنما الباطل هو الذي يلجأ دائماً لا غالباً إلى العنف واستخدام القوة، بل القوة الفاشمة لا الناعمة! ومن هنا عقب

القرآن على غزوة بدر: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨) ﴿الأنفال: ٧﴾ ٨.

إن الباطل كان زهوقاً: إن من شأن الباطل أنه سريع الزهوق؛ «لأنه لا يحمل عناصر البقاء في ذاته إنما يستفيد عناصره من عوامل خارجية، فإذا تخلخت تلك العوامل تهاوى وانهار... وأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده لأنه من عند الله الذي جعل الحق من أسمائه وهو الحي الباقي الذي لا يزول».

قال ابن كثير: «تهديد ووعيد لكفار قريش»^(١)، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم فيه، ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء: ١٨)، وروى البخاري عن ابن مسعود، قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمئة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ سبأ: ٤٩^(٢).

من دروس الآية ٨١

١. الباطل زاهق بل زهوق وسريع الزوال سريع العطب، لكن حتى تصبح هذه الحقيقة محسوسة، لا بد من مجيء الحق وأصحاب الحق.
٢. اعتقاد أهل الحق بقوة الحق مسألة مهمة، فالحقيقة إن لم تجد من يعتقها، تظل حقاً كامناً كالبنور في الأرض.
٣. عبر سبحانه بـ ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾، أي أن له خاصية المجيء، إذاً هو يغيب قليلاً ولكنه لا يلبث أن يجيء.
٤. إذا جاء الحق يفرح أصحابه: لأنهم دائماً ينتظرون قدومه.

(١) هذا قانون عام وسنة إلهية كونية وناموس اجتماعي خالد باق. وفيه ضمناً تهديد لقريش بزهوق باطلهم.

(٢) المصباح المنير ص ٦٢٣. والحديث راجعه في فتح الباري ٨/٢٥٢.

المقطع الرابع عشر

الآيات (٨٢ - ٨٩)

القرآن والروح والشفاء

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ
الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢)

الربط والمناسبة: بعد أن بين في الآية السابقة نهاية الصراع بين الحق والباطل وهي ظهور الحق وزهوق الباطل، جاءت هذه الآية تكميلاً وغلطاً للموضوع، ليفتح السياق موضوعاً بعده، متصلاً بطبيعة الحال به فقال هنا معظماً شأن القرآن الذي تضمن كل هذه الحقائق أن فيه ما يكون شفاء للمؤمنين وشفاء للكافرين. فتأمل روعة الترابط ومنهجية القرآن البديعة العالية الرائعة.

المعنى: ونزل: الواو: للاستئناف على الأرجح، أو للعطف، موضوعاً على موضوع، كأنه قال: نقذف بالحق على الباطل وننزل من القرآن ما هو شفاء. والنون الأولى نون العظمة وحق لمولانا العظيم العظمة سبحانه. والإنزال يقتضي أعلى وأدنى. والأعلى الإله الحكيم الذي أنزل هذه الآيات وهذا القرآن. والأدنى العبد الذي يتلقى والعبد المأمور بالامتثال من مولاه ذي الجلال.

من القرآن: (من) بيانية، فكل القرآن شفاء. وليست تبعية فيما أرى. والقرآن أشهر أسماء هذا الكتاب. من (قرأ) لا من (قرن) فيما هو الأرجح. و (قرأ) بمعنى (تلا) لا بمعنى (جمع) كذلك.

ما هو شفاء: ما: موصولة، أي الذي هو شفاء. والشفاء: العلاج والدواء والبلسم الشافي من الأدوية والعلل.

وهناك أدوية لعلاج الأمراض المادية. وما هو أخطر من الأمراض الحسية في البدن: أمراض القلب والعقل والنفوس والروح والإرادة، وأمراض المجتمع، وتدخل نسيج المجتمعات وتضعف البنيان ووهن الأركان وتراجع الدور الحضاري للأمة، فهذا أخطر من الأمراض المادية. والقرآن هو شفاء لكل أنواع العلل الثانية. وما من مانع يمنع أن يكون شفاء حتى للأمراض من النوع الأول. لكننا لا نريد التوسع في هذا لئلا نخرج القرآن عن وظيفته

الأصلية الحقيقية. وإن تُرك الحبل على الغارب سيتوسع الناس في هذا ليصبح عندنا عيادات قرآنية بالرقى لوجع الرأس وأمراض الجهاز الهضمي وإلى ما لا نهاية، وتتعلل الأسباب التي أمرنا بالتعاطي معها مع الاعتقاد التام الجازم أن الشافي هو الله. فليعلم، وقيتم من النوعين من الأمراض. وكتب الله الشفاء لنا من الأسقام مادية ومعنوية، حسية ونفسية، فردية واجتماعية. ورحمة للمؤمنين: هذا الكتاب منهج حياة أمة، يقوم هذا المنهج على الرحمة، ونبه نبي الرحمة. وما الجراحة التي يلجأ إليها في أضيق الأوقات وأضيق الأحوال إلا من باب الرحمة، واستئصال العضو الفاسد والحبّة الفاسدة من صندوق الأمة حتى لا تنتقل عدوى الفساد إلى باقي الحبات. وهذا عين الرحمة! ألا فليعلم هذا. وأنه ليس الأصل في المنهج الجراحة. وإنما الأصل العلاج بالدواء ولا يلجأ إلا في آخر الشوط إلى العلاج بالكي.. كما تقول العرب: آخر العلاج الكي. ويا من تحملون الإسلام، وتتشرفون به، ألا فلتستحضروا أنكم في إثر نبيكم، وعلى خطى نبيكم ﷺ، وأنكم تواصلون المهمة من بعده. وكل الأمة في ذات المهمة أن نكون للعالمين رحمة. هكذا أرادنا الإله الرحيم الذي أنزل القرآن رحمة. والطبيب الذي كلما مر به مريض فتح بطنه هذا جزار وليس طبيباً. وعيادته مسلخ للحوم وليست مشفى. وإن بعضنا، وكلكم والعالم معكم يشاهد، هذا البعض كما قال المصطفى عليه الصلوات لبعض النفر من أصحابه (لا متاً ١٠٠): «إن منكم منفرين». فما حالنا نحن وقد بعدت بنا الشقة وزادت فينا البدعة وفشت الجهالة، وبيئة التخلف في الفهم.

اللهم أصلح الحال وأعنا على أحسن الفهم لأحسن الكلام يارب العالمين، واجعلنا على نهج نبينا شفاء لأمراض الناس لا شقاء للناس ولا عذاباً على الناس ولكن هدى ورحمة.

ورحمة للمؤمنين: هل هو رحمة للعالمين أم للمؤمنين؟ بل هو رحمة للعالمين. وكلام القرآن هو الحق المتين المبين. لكن بعض الناس يرفض الرحمة، فكيف يكون رحمة لمن يرفض الرحمة؟! ونعلم وتعلم أن بعض أصحاب الاحتياجات

الخاصة يرفض أن تمتد له يد العون. عن أنفة أحياناً ولنفي الشعور بالعجز أو رفض الإحساس بالشفقة. فلم لا تأخذها بعين أخرى ومن زاوية أخرى أنها من الأخوة والترابط والجسد الواحد والحنان والمحبة يا أيها الإنسان؟ فالنبي رحمة للعالمين والكتاب رحمة للعالمين ومصدر الرحمة الإله الرحيم الذي بعث نبي الرحمة وكتاب الرحمة وكتب على نفسه الرحمة وجعل رحمته محيطة بكل شيء فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا اله الا الله. فمن خرج من سرادق الرحمة، فلا يلومن إلا نفسه.

أما المؤمن فيسعد أنه في بحبوحة الرحمة وسعة العناية ويتشرف بأنه تحت عين الله ولطفه وعنايته المركزة بخلقه، وأنه أسعد الخلق بمقام العبودية الذي لا يأنف ولا يستتكف عنه إلا من كان إمامه إبليس. وأما من كان إمامه سيد الأنبياء وموكب الأنبياء فهو سعيد جد سعيد بهذه العبودية. وترنيمة التسبيح، وحذاء التحميد والتهليل أنيس رحلتهم وزاد مسيرتهم وغذاء أرواحهم، وشفاء نفوسهم، والسعادة ملء جوانحهم.

أيها المتدينون. أيها الدعاة أجمعون. إن لم يشعر العالم أنكم في سعادة فلن يستميله منهجكم. حذار أن تكونوا بمنهجكم الذي هو أس سعادتكم أشقى الناس! يا ضيعتنا إن كنا بمصدر السعادة أشقياء! أنكون كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول؟ أهذا المأمول من أمة هذا الكتاب؟ يجب أن يعلم العالم ويحس أنكم في سعادة يغبطكم عليها كل معشر الإنس! كما كان يقول بعض أسلافكم: (والله إنا لفي سعادة لو يعلمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف) وما نحتاج إلى مجالدة ولا مجادلة، ولكن حبنا الكبير أن يدخل الجمهور الكبير في منهج الله الواسع الكبير سبحانه! ليكونوا غداً في جناته التي تضيق أمامها وأمام سمعتها السموات والأرض! أفلا تدل هذه الجنات الواسعات على سعة الرحمات التي أغدقها علينا منزل الآيات؟ بلى والله.

أما العنف الذي يبديه المؤمنون نحو بعضهم، لفظياً أحياناً وعملياً أحياناً وحقداً في القلوب أحياناً، فما يدل إلا على علة واختلال في الفهم وضيق

في النظر. ووالله ما نتقرب إلى الله بشيء أوفر لنا عند الله وأكرم من الحب في الله!

ولا يزيد الظالمين إلا خساراً: لاحظ أنه في الحديث عن المؤمنين لم يستخدم صيغة الحصر والقصر للحبوطة والسعة. لكن هؤلاء الكافرين الذين يتحدث عنهم ختام الآية تركوا السعة وحسروا أنفسهم وحسروا أرواحهم في الضيق، ولذلك سيكون مصيرهم الضيق، فجاءت هذه الآية أو هذا الختام بالحصر والقصر عليهم، وفي الآخرة: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۚ﴾ (١٣) لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجَدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذِلَّةٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا ﴿١٦﴾ الفرقان: ١٢ - ١٦.

ولا يزيد: أي هذا القرآن لا يزيد هؤلاء.

الظالمين: وعبر عنهم بالظالمين دون وصف الكافرين ليدل على أن الكفر ظلم والشرك ظلم كما ذكرت آيات كثيرة، وأول مظلوم بالكفر صاحبه، وأول ظلم يوقعه إنما يوقعه على نفسه، فتأمل كم حماقته! فأول ظالم وأول مظلوم هو الكافر نفسه! ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ نزول القرآن المبين: ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾. أي لا شيء من الزيادة يزيدهم إياها القرآن إلا الخسارة وهذا عجيب. أي عجيب منهم والله، فالقرآن نور. فإذا كان على بعض ظلمة أو تغشية للأبصار فهذا البعض من صنف الخفاش. لا يطير إلا في الظلام لأن شعاع النور يعشي بصره. هذا القرآن عافية فإذا كان على بعض علة فهو «المعوق» أي المصاب بمرض في معدته. وهو «المقوود» أي المصاب بعلة في الفؤاد! فإياكم والظن السيء أن هذا الكتاب يزيد أقواماً خسارة! هل رأيتم إلى عدو شائئ لك ثم نجحت أنت وتفوقت، فإن نجاحك يكون لأهلك مصدر أعظم السعادة، ويكون لشائئك أعظم مصادر الشقاوة فلا ينام الليل من شعور الحسد.

أرأيت تكريم آدم كيف سر الملائكة فسجدت لأمر الله، ووقف الحسود الحقود اللدود متبياً على السجود وطاعة المعبود. فقرأنك النور والرحمة والهدى والخير والسلام والسعادة والوثام فمن كان عليه حسرات وآلاماً

وشقاوة فهو الملموم ولا تذهب بك الظنون أن ذاك ما كان أو يكون إلا لخلل في المضمون! معاذ الله. بل هو قانون السعادة والسيادة والريادة والزيادة، اللهم اجعلنا أهلاً لحمل قرآنك وبيان قرآنك والدعوة إلى قرآنك وإسعاد مجتمعاتنا والعالم بقرآنك. وأما الخسارة بهجره والصد عنه والكفر به فمطلقة تشمل كل أنواع الخسارة لأنه أي الكافر الخاسر أضمر للكتاب كل أنواع العداوة. فتأمل!

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت: ٤٢ أنه ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه. وليس هذا إلا لمن آمن به، وصدقته واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم لنفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وكفراً. والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فصلت: ٤٤، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ التوبة: ١٢٥ والآيات في ذلك كثيرة».

قال قتادة في معنى الآية: «إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين»^(١) أ. هـ.

(١) المصباح المنير ص ٦٢٢. وقول قتادة و (حفظه المؤمن وغير المؤمن لا يحفظه)، اعتقد أن في هذا قدراً من التجوز. فليس الحفظ بمرتبط بكونه شفاء. ولكن القرآن هو يحفظ حتى لم يحفظه! فتأمل.

من دروس الآية ٨٢

١. القرآن رحمة للعالمين لكن المستفيد الحقيقي من هذه الرحمة والداخل فيها هو من قبل الدخول في منهج الرحمة وهم المؤمنون. فهو رحمة للعالمين بالقابلية فيه أن يكون رحمة للعالمين، وبالطاقة الكامنة، أما الرحمة الكائنة فهي ما يتعرض له المؤمنون.
٢. والقرآن مصدر الهدى بالفعل، ولكن من يرفضه كيف يكون له هدى ولذلك في سورة البقرة عنه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ البقرة: ١٨٥ والقسم الأول من الآية في البقرة عام والثاني خاص بالمؤمنين.
٣. أن القرآن رحمة، هذا منطلق ينبغي استحضاره في قلوب الأمة دائماً ليكونوا الأطباء الأساة لعلل العالم. ويسعدنا أن يدخل الناس الجنة عن طريقنا.
٤. الحذر من أن نصور القرآن للناس، بسوء فهمنا، أنه شقاء وعنت. ومن رأى واقع المسلمين والافتتال الداخلي فيما بينهم لا يظن بقرآننا إلا ظن السلب والسوء. وما ذاك إلا منا وبسببنا.
٥. الأصل أن كلمة «شفاء» التي هي من سمات وصفات القرآن أنها علاج للأرواح، فلا نتوسع في مسألة الاستشفاء إلى درجة إلغاء قانون العلاج والطب والدواء.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ
وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية نسق مع جو السورة الذي تحدث عن الإنسان، فهي أكثر سورة تحدثت عن الإنسان. هذا أولاً. وثانياً: ختمت الآية السابقة بقوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ الإسراء ١٠. وبينت هذه الآية أنواعاً من ظلم الإنسان لنفسه. وهو أساس الظلم لغيره. وثالثاً: بينت الآية السابقة أن من الناس من لا يزيدهم القرآن إلا خساراً. وبينت هذه الآية منهم من إذا أنعم الله عليه ازداد اعراضاً. ورابعاً: ختمت تلك بكلمة «خساراً» وختمت هذه بكلمة «يؤوساً» وهما مترابطتان. وخامساً: الآية نسق مع جو السورة في افتتاح عدد من الآيات بإذا وهذه واحدة منها. وسادساً: الآية نسق من حيث نون العظمة في «أنعمنا».

المعنى: وإذا: ظرف لما يستقبل من الزمان.

أنعمنا على الإنسان: ونعم الله لا تنقطع ثانية، ولو انقطعت لانقطع عن الحياة وانقطعت عنه الحياة. لكن المقصود الإنعام المخصوص أو الإنعام المتميز والزائد عن المألوف، وإلا فإن أفقر الناس لو تأمل غارق في النعيم إلى الأذان، فالسمع والأبصار والأفئدة وربما العافية وربما السكينة... إلخ. وهذه لا يبيع الإنسان واحداً «أي النعم» منها بكل ثروات الأرض.

والمقصود بالإنسان مطلق الإنسان. ولا نوافق من قال بأنه الإنسان الكافر. أعرض: أدار ظهره، أو كما تقول العامة «عرض أكتافه» وهي كناية عن الانشغال بالنعمة ونسيان المنعم.

ونأى بجانبه: تأكيد للإعراض أو الذهاب بعيداً في الإعراض. فيبدأ الإعراض بالاستدارة وأما النأي فالابتعاد.

بجانبه: أي أخذ جانباً غير جانب القرب والمودة لمن أنعم عليه. وإذا مسه الشر: الآية جملتان انتهت الأولى بقوله ونأى بجانبه. وابتدأت الجملة الثانية، الأولى كانت من سبع كلمات والثانية من خمس كلمات. ولأحظ أن هذا الإنسان لا النعيم يجذبه ولا البلاء يجلبه، وإنما النعيم يبطره ويبعده،

والامتحان بالبلاء يبيّسه ويفسده. فما السبيل؟ ومعاذ الله أن يكون هذا عن نقص في الخلقة أو عيب في الفطرة، ولكنها البيئة والنفس والشيطان والثقافة والتربية والقيم السائدة. فلا تسيئوا الفهم والتفسير! ولا ننسب إلى الله إلا الكمال. فهذه السورة بدؤها التنزيه «سبحان» وختامها التنزيه. فحافظوا في كل لحظة على هذا التنزيه. والدليل على كمال الخلقة كمال بعض الخلق! ألا ترى إلى المصطفى الذي فاق البدر والشموس والملائكة؟ ألا ترى الصحابة نجوم الورى، ودرر الوجود وزينة البشر والحياة والتاريخ؟ أليسوا من هؤلاء البشر؟ فلماذا كملوا ونقص الآخرون، إذا كان العيب في الصنعة؟ ومعاذ الله بالطبع!

كان يؤوساً: كان هذا الإنسان بعد مس الشر له إن مرضاً، وإن خسارة في تجارة، وإن فشلاً في امتحان، وإن طرداً من وظيفة، وإن خصومة مع شركاء الحياة من زوج أو أهل أو ولد أو ظلم وقع عليه أو... إذا مسه شيء من هذا كان شديد اليأس والإحباط والاكتئاب والتشاؤم والنظرة السوداء، مبالغاً في القنوط واعتقاد أنها النهاية.

من دروس الآية ٨٣

١. الإنسان أعجوبة الوجود في الهبوط والصعود.
٢. إذا فسد الإنسان فلا النعيم يقره ولا البلاء يجلبه.
٣. سلبية الإنسان وسلبية سلوكه، معاذ الله أن تكون عن نقص في طبيعة التكوين، وإنما النقص من التلقي والتعليم «والتكوين» أي التنشئة لا النشأة.
٤. الأصل أن يقود النعيم إلى الشكر والبلاء إلى الصبر.
٥. كل ما في الحياة من ظروف وملابسات وعوارض وحوادث إنما هو تربية وترقية وتزكية لهذا الإنسان.
٦. ما أحوجنا إلى فهم الإنسان وصياغة مناهج تربية وتعليم قائمة على فهم الإنسان وفهم روح الدين، لصقل هذا الإنسان وصياغته وفق الفطرة ووفق تعاليم الدين.

﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكَلَتِهِ. فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾

الربط والمناسبة: بعد أن تكلمت الآية السابقة عن نوعيات من البشر وكلمتها الآية قبلها عن نوعيات من البشر أيضاً فيهم المؤمن المنتفع بالقرآن والكافر الذي كالصحراء لا ينتفع ولا ينبت خضراء.

جاءت هذه الآية كالقانون الناضم لكل تلك الأحوال وتلك العينات من البشر فقالت: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكَلَتِهِ﴾ والآية بعد ذلك نسق في بدئها بـ (قُلْ)، وختامها بـ «سبيلاً» على نهج عدد من الآيات في سورة الإسراء.

المعنى: قل: يا سيد المخاطبين

كل: كل إنسان، فالتتوين عوض عن محذوف. ولا حظ الجنس في قل وكل. يعمل: مضارع يفيد التصوير للفعل والاستمرار فيه أي يعمل الآن ويعمل في كل آن وفق منظومته القيمية والفكرية والإيمانية والنفسية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية!

على شاكلته: على نمطه وعلى صورته الداخلية، فما السلوك الخارجي إلا ترجمة لما انطبع في النفس من مفاهيم وعقائد. ومن هنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وكلمة شاكلته لم ترد في القرآن إلا هنا في هذا الموطن، وهذه الآية أيضاً جملتان، انتهت الأولى عند شاكلته وتبتدي الجملة الثانية بقوله:

فريكم أعلم: والرب الخالق سبحانه أعلم بمن خلق وأعلم بتركيبة نفوس خلقه وأعلم بمن ضل وأعلم بمن هو أهدى سبيلاً من بين الخلق.

من دروس الآية ٨٤

١. هذه الآية قاعدة مهمة في فهم طبائع البشر، فالسلوك الظاهر يدل على المخزون الباطن.
٢. الناس صناديق مغلقة فإذا فتح الصندوق عرف ما مخزونه، وفتح الصندوق إما بالكلام وإما بالعمل.
٣. تقول بعض التفاسير: إن هذه الآية أرجى أية في كتاب الله لأن شاكلة البشر التقصير وشاكلة الخالق العفو الكبير عن ذوي التقصير.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

الربط والمناسبة: تبدو الآية محتاجة إلى تأمل لاستخراج وجه اعتلاقها

بسبقها وسياقها. وإليك بعض المحاولات:

أولاً: ختمت الآية السابقة بقوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ الإسراء: ٨٤ وختمت هذه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وثانياً: كانت الآيات السابقة تتحدث عن الإنسان وأنماط الشخصيات الإنسانية. وأن كلاً من هذه العينات يعمل على شاكلته، فجاءت هذه الآية تتحدث عن أعظم مكون في كيان هذا الإنسان وهو الروح التي بها كان الإنسان إنساناً كما قال القائل: (فأنت بالروح لا بالجسم إنسان) ووجه ثالث، من التناسق في خطاب النبي من خلال قوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ﴾ فقد كثر في هذه السورة المباركة الكريمة خطاب النبي الكريم ﷺ. وكيف لا وهي السورة المبتدأ بـ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الإسراء: ٩١

المعنى: ويسألونك: الخطاب في كاف الخطاب لسيد المخاطبين ﷺ. ومن هم الذين يسألون؟ إن الذي يسأل هو الذي يملك المعلومات أو عنده فكرة عن الموضوع. وموضوع الروح من قضايا الغيب التي مصدرها الدين. فمن الذي يملك المعلومات الدينية؟ ومن الذي عنده الكتاب الذي يحتوي مثل هذه المسائل؟ أهم عرب الجاهلية؟ بالطبع لا. وإنما هم بالتأكيد اليهود. وحتى لو لم تكن نملك رواية ابن مسعود في الصحيح أنهم اليهود هم الذين سألوا، فإن التأمل والتأمل في الآية والواقع الاجتماعي الذي نزل فيه القرآن ليدرك أن السائلين مثل هذه المسائل الدقيقة التي تحتاج إلى خلفية معرفية وثقافية هم قطعاً بنو إسرائيل، يهود المدينة، وهم الذين كانوا يلقنون العرب بعض الأسئلة - فسواء سألها العرب أم سألها اليهود - مباشرة فإن مصدر السؤال هو اليهود. كالسؤال عن ذي القرنين. هذا يستحيل أن يكون مصدره العرب. فالذي كان يدير المعركة الثقافية والفكرية ضد الإسلام منذ بدء تنزله إلى ختام الوحي ثم إلى الآن هم هم.. اليهود.

ويسألونك عن الروح: وهل يملك السائل معلومات عن الروح حتى يسأل عن الروح؟ إنها أسئلة للمعاضلة والمعاجزة، وليست للمعرفة وإزالة الالتباس. ثم ماذا تريد أن تعرف عن الروح؟ أمهيتها مثلاً؟ أم وظيفتها؟ أم مصيرها؟ وهل تعذب الروح أم يعذب الجسد؟ وهل تموت الروح بمفارقة الجسد؟ وأين تذهب؟ وكيف تعود إلى الجسد في الآخرة؟ وهل تغادر البدن عند النوم؟ وهل الروح سواء بين جميع بني البشر؟ فكيف يكفر بعض ويؤمن بعض؟ وما معنى: فنفخنا فيها من روحنا؟ وما معنى روح القدس؟ وما معنى: ونفخت فيه من روحي؟ وأسئلة لا تنتهي، فماذا تريد من هذه القضايا جميعاً؟ وما مصدر المعلومات؟ وإذا كان الله تعالى لا يريدنا أن نعلم هذه المسألة أو أنه لا سبيل لنا إلى فهم الماهية التي للروح فمن أين يمكن سوى من عند الله أن نحصل على المعلومات؟ وماذا تستفيد إن عرفت أن الروح من خارج مادة الكون أو منها؟ وماذا تستفيد إن علمت أنها تعذب أو لا تعذب، إن كنت أصلاً تجحد الإله الخالق أو تجحد لقاءه في اليوم الآخر؟ ثم ألسنت أنت أيضاً تملك كتاباً سماوياً فلماذا لا تعتبر أنت عاجزاً إن عجزت عن إجابة السؤال؟ ولماذا يعتبر المسلمون ومعلمهم ﷺ عاجزين إن لم يجيبوا السؤال؟

أسئلة تتكاثر والقضية تبدو يسيرة فما يكون جواب الإله الحكيم في كتابه الكريم؟ إنه الجواب العملي الذي يحيل الأمر إلى مصدر العلم. ويوجهاً إلى الإيمان به وبالعامل في طاعته. وأن نعرف حجمنا وحدتنا أو حدودنا في المعرفة. يقول المولى الجليل سبحانه في جواب سؤالهم الممتحن لا السائل المتعلم المتعرف، يقول مفوضاً أمر الروح إليه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾: يكون عدم الجواب أحياناً هو الجواب.

أرأيت إلى إبراهيم عليه الصلوات والتسليم حين سأل ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ البقرة: ٢٦٠، فما رأى كيف ليعلم أن اللاكيف هو الكيف. وجواب سؤال فرعون لموسى عن القرون الأولى إذ قال وسجل القرآن: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ طه: ٩٥١ وكان الجواب: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ طه: ٥٢.

وعندما سأل الصحابة عن الأهله فأجابهم الوحي عن وظيفتها لا عن حقيقتها الفلكية، لأنه لم يكن متاحاً للسائل التراكم المعرفي الذي يمكن من معرفة كيف تنشأ الأهله فلكياً ثم كيف تغدو بديراً ثم تعود هلالاً فمحاقاً. فلو أجبناه لما أدرك ولما علم. هذا يحتاج في فهمه إلى تراكم معرفي عن الكون وحركة الأرض وحركة القمر ودورانها حول الشمس ودوران القمر حول الأرض، وهذا ما لم يكن متاحاً، فليجب الأصحاب إذاً عن الأهله وظيفياً: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ البقرة: ١٨٩. هذا منهج في العلم والتعلم فليعلم!! ﴿وَلَيْسَ إِلَهِ يَأْن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْإِلَهِ مَنِ انْتَقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ البقرة: ١٨٩، وليس من الحكمة إتيان باب العلم من نهاياته، كما لا يبنى السقف قبل الجدران.

أي في مسائل العلم ومناهج التعلم. ألا فليعلم.

قل الروح من أمر ربي. هذا هو الجواب، شأن الروح وماهيتها ومادتها ومآلها وكل ما يتصل بها هذا كله من أمر الله أي شأنه عائد إلى الله وهذا من اختصاص الله لا أحد سواه يعلم ما يتعلق بها كلياً أو جزئياً. وإذا كنا نجهل الكهرباء حتى الآن فكيف نعرف الروح؟ وما الضير أن تكون بعض المعلومات محجوبة مؤقتاً أو مؤبداً؟ هل كنا ندرك ونحن أطفال ما معنى التفجير الذري؟ وما الطرد المركزي؟ وما الفرق بين القنبلة الذرية والنيوترونية والهيدروجينية؟ فهذا ومثله محجوب مؤقتاً حتى تحصل قدراً من المعرفة يمكنك من البناء عليه لتفهم. وشيء من المعلومات محجوب طيلة الحياة، فنحن لا نرى الملائكة ولا نرى أشياء كثيرة لكن في لحظة الموت: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩) ﴿رُفِعَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ (٢٠) ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٢١) ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢) ﴿ق: ١٩ - ٢٢. فالآن هذا هو الجواب، وقد نعرفه غداً، وقد لا نعرفه أبداً. كل ذلك لا يتناقض مع إيماننا به وبوجوده وبأنه حق، فقد أعرف من بنى «تاج محل» وقد لا أعرف لكنني أعرف أنه آية معمارية رائعة (خالدة) فما التناقض في هذا؟ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً. إن الطفل لا يدرك جل ما حوله، ثم تبدأ

مداركه تتفتح على ما حوله شيئاً فشيئاً. وهناك أمور نغادر الدنيا ولا نتفتح أمام وعينا. لأن طاقتنا على استيعاب ما في الكون محدودة. ومدى حواسنا محدود وهي مصدر معلوماتنا الحسية المادية.

والكون أضخم من الإحاطة به، والغيب أضعاف أضعاف الكون المادي من ملائكة وجنة ونار. فكيف نحيط بهذا؟ من منا رأى بلده بالكامل؟ لا أقصد القطر. لا. وإنما أقصد ما هو أشد تواضعاً بكثير، أن تعرف مدينتك فقط! هذا ربما يكون فوق المتاح من حيث الوقت والإمكانات. فكيف تريد أن تقفز فوق كل هذا الواقع الذي تجهله إلى عالم الغيب لتعلمه دفعة واحدة؟ فلتكن أيها الإنسان أكثر تواضعاً. ومثلما أنك لن تخرق الأرض بكعبك وخطوك. فلن تخرق عالم الغيب بعقلك وفكرك. جميل أن تفكر. لكن فيما يمكن التفكير فيه وفيما تملك مبادئه، وإلا فإنه الضرب في التيه.

وما أوتيتم: ولا حظ بناء الفعل (أوتيتم) للمجهول. فمصدر العلم الله. فلماذا بني الفعل للمجهول؟ لأنه قد تكون بعض المعلومات أتت إليك عن طريق والديك أو معلمك أو نظرك في هذا الكون، فليكن المصدر ما يكون. لكن المرجع إلى الله، وإنما بني الفعل للمجهول مع علم المصدر للتركيز على الإيتاء وأنه تحصّل لديك شيئاً فشيئاً وبالتدرج، وتموت وأنت في التحصيل العلمي والمعرفي. وبناء الفعل للمجهول أغلب القصد منه التركيز على الفعل لا على الفاعل.

وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً: وما الذي يعلمه أعلم الناس؟ إنه قليل. وربما ظن علماء الفيزياء في القرن الخامس عشر أنهم يعلمون في الفيزياء كماً هائلاً ولو بعث أحدهم الآن حياً ورأى علم الفيزياء إلى أين وصل وتطور، وعلم الفيزياء الكمية (الكوانتوم) لعلم أنهم كانوا - على علمهم - في الصفوف الابتدائية. ولو بعث علماء القرن الحادي والعشرين في القرن الخامس والعشرين لعلّموا أنهم كانوا قبل مرحلة رياض الأطفال!

وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً. فطامنوا من كبرياتكم وزيدوا من قدر تواضعكم. فما أنتم وعلمكم وإدراككم وأدواتكم ووسائلكم ومخزونكم المعرفي

وما راكمتم من مباحث وعلوم إلا أقل من قطرة من بحر.

قال ابن كثير: «وروى البخاري في تفسير هذه الآية عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث وهو متوكئ على عسيب، إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه. فسأله عن الروح، فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقامت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا السياق يقتضي - فيما يظهر بادي الرأي، أن هذه الآية مدنية، وأنه نزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك^(١)، أو أنه نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سأله بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية^(٢)، فأنزل الله: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ فقالوا: تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة التي^(٣) أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً. قال: فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لقمان: ٢٧^(٤).

ويواصل ابن كثير: قال (أي عكرمة في رواية): ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به فهو كثير طيب، وهو في علم الله قليل^(٥).

وقال العوفي عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله. ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يحر إليهم شيئاً، فاتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ قال: جبريل.

(١) هذا القول أملاه المنطق الصوري الافتراضي. وإلا فإن احتماله الواقعي - فيما أرى - صفر. فما دام النص موجوداً فلم ينزل مرة ثانية؟ لذا ينبغي الذهاب إلى قول أكثر قوة واحتمال وروده أقوى.

(٢) ورسول الله الفطن لا يحتاج إلى مثل هذا التشبيه!

(٣) أرى أنه لا بد من زيادة «من أوتيتها»...

(٤) المصباح المنير ص ٦٢٤.

(٥) رائحة التفليق لا تخفى في هذه القصة. ومن أين نجم أن لقمان نزلت بعد الإسراء؟ والظاهر أنها ليست كذلك!

قالوا: عدونا. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الإسراء: ١٠١].
ثم نقل ابن كثير عن السهيلي الفرق بين الروح والنفس. فقال عنه: ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها. وقرر أنها لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق (الأحياء) وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً. ثم قال: فحاصل ما نقول: إن الروح هي أصل النفس ومادتها. والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه لا من كل وجه. وهذا معنى حسن. والله أعلم. قلت (أي ابن كثير): وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها، وصنفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلم في ذلك الحافظ ابن مندة في كتاب «الروح»^(١).

من دروس الآية ٨٥

١. في الكون حولنا أشياء نعلمها وأشياء سنعلمها وأشياء لا نعلمها وأشياء لن نعلمها.
٢. عدم العلم لا يقتضي عدم الإيمان، فلم يكن البشر قبل اكتشاف المجهر الإلكتروني يعلمون عن الفيروسات التي تسبب الكثير من الأمراض. لكن العلماء يعلمون أن لهذا المرض سبباً قد يقدرونه وقد لا يقدرونه.
٣. الروح سبب الحياة ولا يعلم حقيقتها إلا الله، مثل أشياء كثيرة أخرى. والإيمان يجعلك في انسجام مع الكون وفهم، أما الكفر فانطماس وانغلاق على الحواس.

(١) ذكره الطبري ونقله ابن كثير عنه. راجع الطبري ٥٤٢/١٧.

(٢) السهيلي: الروض الأنف ٦٢/٢.

(٣) المصباح المنير ص ٦٢٤.

(٤) قلت: والأصل عدم الخوض. والروح ليست النفس. وجعلها هي مجازة. ولاحظ الخلط بين المكي والمدني فمرة من سورة لقمان فنزلت آيات من سورة البقرة..

٤. ما أجمل أن يفكر الإنسان لكن في الميدان الذي للعقل فيه مجال وابداع، وكما أن الطيارة لا تحط على غير مدرجها والسيارة لا تسير إلا على الشارع المصمم لها، فالعقل كذلك.
٥. الاغترار بالعلم منشؤه قلة العلم وكلما زاد العلم زاد التواضع، وما أجمل كلمة الشافعي: كلما ازددت علماً، ازددت علماً.. بجهلي!
٦. إنه إما التواضع وإما طوفان الغرور والكبرياء الذي قد يؤدي إلى طامات، ومهلكات وكفر وهرطقات!

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُذْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾^(٨٢)

الربط والمناسبة: سبق الحديث عن القرآن في «قرآن الفجر» آية ٧٨

وفي ٨٢: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ﴾ ثم أعقب الحديث عن القرآن الذي هو روح كما قال القرآن عن القرآن: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾^(٨١) الشورى: ٥٠ أعقب الحديث عنه بالحديث عن الروح التي هي من أمر الله آية ٨٥. وعاد في هذه الآية إلى الحديث عن القرآن بتفنن في التعبير دون لفظ القرآن لكن ﴿بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

ووجه تناسق ثان: أن السياق كثر فيه مخاطبة الرسول ﷺ ففي الآية السابقة: ﴿وَسَلُّوْكَ عَنِ الرُّوحِ قُلْ﴾ الإسراء: ٨٥ وفي هذه ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾^(٨٢) و﴿ثُمَّ لَا يَجِدُ﴾.

ونسق ثالث: كثرة ضمير الجمع بنون العظمة وهي نسق مع السياق.

ووجه رابع. أن الآية السابقة ختمت بـ ﴿وَمَا أَوْتِىَهُمْنَ الْعِلْمُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٨٣) الإسراء: ٨٥ وهذا كله أي العلم الذي أوتيته الإنسان يمكن أن يرفعه الله.

المعنى: ولئن: الواو للاستئناف على ما هو أقرب في العقل والفهم. واللام: الموطئة للقسم. و «إن» شرطية. شئنا: فعل الشرط.

لنذهب بالذي أوحينا إليك: جواب القسم والشرط. ومعناه: إن أردنا أن نذهب بالذي أنزلناه عليك وأوحينا إليك من الوحي من يمنعا؟ لا أحد. إذا لو أردنا رفع هذا الوحي لرفعناه، وحجبه لحجبناه والذهاب به لأذهبناه. وما منعناه أحد.

ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً: لن تجد إن رفعناه عنك، لن تجد من يتوكل عنك في رده إليك، لأنه لا أحد يستطيع ذلك.

قال ابن كثير: «يذكر تعالى نعمه وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين

يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»^(١).

أقول: لم ترد ﴿لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إلا هذه المرة. وورد: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ الزخرف: ٤١، ولم ترد ﴿نَذْهَبَنَّ﴾ إلا في هذين الموضعين المكين في القرآن كله.

من دروس الآية ٨٦

١. الوحي لن يرفع وإنما جاءت الآية بهذا لتدل على طلاقة مشيئة الله. وتأكيد فضل الله على رسول الله ﷺ، وأنه سيعظم في مقام العبودية لن يعدوه.
٢. لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع الله.
٣. أن يظل الإنسان حذراً من تقصيره حتى لا يسلب النعم التي أنعم الله بها عليه.

(١) ابن كثير: المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير ص ٦٢٤. وقال بعد الذي نقلته عنه أعلاه، ولم أشأ إثباته في المتن فاذكره في الحاشية. قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: يطرق الناس ربح حمراء، يعني في آخر الزمان، من قبل الشام. فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية. ثم قرأ ابن مسعود: (وَلَنَنْشِئَنَّ لَكَ وَلَكَ بِأَلَدِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) أ هـ. قلت: وهذه الرواية رواها الطبري ٥٤٦/١٧. وأرى أن الاستشهاد بها في هذا الموضع لا محل له على الإطلاق. فهي رواية ليست في الصحيح حتى نعلمها وليس في محل الشاهد فتوردها. وكلام ربنا يراد منه لا أن القرآن سيرفع معاذ الله، وإنما بيان طلاقة المشيئة الإلهية. وتأكيد عبودية هذا النبي ﷺ. وأن الوحي ليس إلا بأمر الله واختياره ولا شأن للنبي ﷺ في ذلك.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ ٨٧

الربط والمناسبة: الآية متصلة بسابقتها تمام الاتصال فهي من حيث النحو والإعراب استثناء من السابق، متصلاً أو منقطعاً ليس إشكالاً.. فالاستثناء بأنواعه متصل بالسياق قبله كل اتصال.

فقد نفى السياق قبلاً أن يكون للرسول ﷺ أي وكيل إن أراد الله سحب الرسالة منه ورفع الوحي كله من الأرض وعنه ﷺ، اللهم إلا وكيلاً واحداً هو رحمة الله وفضله!

المعنى: إلا رحمة: أي لن تجد وكيلاً من دون الله إن نزع الرسالة عنك، إلا أن تتولاك رحمة الله. والله أرحم بك من أن ينزع الوحي عنك أو منك ولكن ليعلم الخلق أجمعين أن مشيئته طليقة، وأنت وسائر الخلائق عباد. وما أجمل اختيار لفظ «رحمة» هنا فهو في مكانه ومقامه وموقعه. فأصل النبوة رحمة والنبي رحمة واستمرار الوحي رحمة ولا تنزع منه لوجود الرحمة: رحمة الله. من ربك: هذه الرحمة الكائنة من الله، اختار لها لفظ «من ربك» أي الذين يربيك ويرفق بك ويلطف بك، وهو الذي أعدك للنبوة وأهلك لها وشرح صدرك وأعطاك الكوثر ورفع ذكرك و...

والآية كما تلحظون جملتان متكافئتان أربع كلمات الأولى وخمس الثانية. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

والفضل: الزيادة. فجاءت الجملة الثانية زائدة على الأولى وقد وردت كلمة (فضله) في القرآن ٢٩ مرة في ١٤ سورة. سبع سور قبل الإسراء وسبع سور من الإسراء حتى الموضع الأخير و ١٥ مرة قبل الإسراء و ١٤ مرة من الإسراء حتى النهاية. فهي في القلب من هذه الناحية وتلك.

إن فضله: إن عطاءه وزيادته.

كان عليك كبيراً: كان: للقدم لا للمضي بمعنى الماضي الذاهب.

عليك: لأنه نازل عليك من العلي الكبير سبحانه.

كبيراً: واسعاً كثيراً وكبيراً في كنهه وكيفه.

وعطاء الكبير كبير وفضل الكبير كبير .

من دروس الآية ٨٧

- ١ . لا راد لرحمة الله .
- ٢ . فضل الله كبير على رسول الله وعلى أمة رسول الله ﷺ .
- ٣ . هذا الدين أعظم فضل من الله على أمة الإسلام، فهو حياة الأمة وروحها وعزتها ومنعتها وقوتها وموحدها وحافظها .

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾

الربط والمناسبة: ورد ذكر القرآن في السياق قبل هذه الآية في الآية ٧٨ مرتين، وفي الآية ٨٢ فهذه ثلاث مرات وخمس قبل ذلك فتكون آيتا هي التاسعة التي تذكر القرآن في هذا السياق المبارك. والسابقة كانت تذكر أن القرآن شفاء والآية هذه تحسم موضوع إعجاز القرآن الذي يحسم موضوع ربانيته، وفي الآية التالية مباشرة ثناء على القرآن بأنه يصرف معانيه وينوع أمثاله ليظل مشوقاً ومدهشاً وتقبل عليه النفوس بمنتهى الشغف. ووجه نسق آخر أن الآيتين السابقتين افتحتا بـ «ولئن» وهذه كذلك.

المعنى: قل: الأمر لسيد الرسل ﷺ بأن يقول ويبلغ قول الله التالي لقل. لئن: قسم وشرط، والجواب «لا يأتون» لهما معاً. اجتمعت الإنسن والجن: اتفقوا واجتمعوا في صعيد من أولهم إلى آخرهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن: وهو فرض ما لا يكون، ودعك من الإمكان العقلي والإمكان الفعلي.. فهذا بمصطلحهم ليس محالاً عقلاً. ولكنه فعلاً وواقعاً محال. وما الذي يجمعهم على هذا الهدف؟ وأما المؤمنون فلا يقبلون أصلاً لأنهم موقنون ولا يفكرون في أن يكونوا معارضين للقرآن. على أن يأتوا بمثل هذا القرآن: (على) مرتبطة متعلقة بقوله تعالى «اجتمعت».

أن يأتوا: أن يقولوا، أو يؤلفوا، أو يكتبوا، أو ينشئوا.. أو ما شئت. بمثل هذا القرآن: بشبيه مماثل لهذا القرآن. لا يأتون بمثله: لن يستطيعوا، لا لأن صارفاً صرفهم كما قال أصحاب الصرفة قولاً لا ينصرف عند صرافي القول الصحيح.. وصيارفة المعاني المستقيمة، لا، بل لأنهم هم لا يستطيعون، لأن القرآن لا يجارى ولا يبارى ولا يمارى ولا يدانى ولا يقارب، وأوجه إعجازه ليس البيان فحسب، وإنما هو

معجز من كل الأوجه، أو من كل وجه. فأنى يؤتى له بمثل؟ وهل يأتي أحد - إلا الله - بمثل الشمس؟ ألا فلينته المدعون المتبجحون! ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً: ولو كان الإنس والجن متعاونين على هذا الأمر متكاتفين متظاهرين وهذا فرض محال آخر. فاجتماع الإنس والجن - واقعياً - محال. وأن يكون الاثنان متعاونين محال. وأن يأتوا بمثل القرآن المحال المطلق.

ويسأل عبد القاهر الجرجاني: ماذا أعجز العرب من القرآن؟ ويجيب: «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمهم، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيهم ومقاطعها، ومجاري ألفاظه ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة، وتبنيه وإعلام، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وبيان.. بهرهم أنهم تأملوه فلم يجدوا كلمة ينبو بها مكانها، أو لفظة ينكرها شأنها.. أو يرى غيرها أصح. بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، ونظاماً والتاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حكّ بياضه السماء موضع طمع.. حتى خرس الألسن أن تدعي وتقول، وخَلَدَت القروم، فلم تملك أن تقول...»^(١) أه. بإيجاز شديد.

ويقول عبد الكريم الخطيب: «إن سرّ الإعجاز مضمّر في كلمات القرآن.. كلمة كلمة.. وآية آية.. إنه أمر من أمر الله.. كالروح ترى آثارها، وتشاهد أفعالها، دون أن ينكشف للناس شيء منها.. ﴿وَسَيُكَلِّمُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلُوبُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]»^(٢)

من دروس الآية ٨٨

١. يظن جهلة الناس أن القرآن من صنف الكلام، وأنه ما دام كذلك، فهو ممكن المعارضة والمضاهاة. وهذا المحال بعينه. أوليست الشمس في ٨٠٪ من بنيتها هيدروجين وهيليوم وهما متاحان في الوجود، فلئن قدر

(١) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، ص ٢٢. ويرجع إليه للتفصيل.

(٢) إعجاز القرآن، لعبد الكريم الخطيب، ص ٨٨.

البشر أن يصنعوا شمساً فيمكن أن يفكروا في إنشاء مثل القرآن. وهذا وهذا محال.

٢. والتراب ملء الأرض، والله خلق من التراب بشراً بملكات وعقل ومشاعر وخيال، فليصنع البشر مثل ما صنع الله، فإن عجزوا فإنهم لا يستطيعون أن يضاھئوا القرآن.

٣. الله يخلق بالكلمة: كن، فإن استطاع البشر أن يقولوا للشيء كن فيكون الشيء فيمكن أن يفكروا في مماثلة القرآن.

٤. القرآن ليس معجزة بيانية فحسب، ولو كان معجزاً بيانياً فقط لاستحالت معارضته، فكيف وهو أوجه لا تنتهي من الإعجاز؟

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ
فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا كُفُورًا﴾ (٨٩)

الربط والمناسبة: تتحدث الآية السابقة عن القرآن وأنه معجزة الله لا تنازع ولا تشابه ولا تماثل. وتتحدث هذه الآية عن منهجية هذا القرآن وأسلوبه في ضرب الأمثال والتفنن في الخطاب وتلوين الكلام والتجديد في الأساليب، هذا وجه النسق مع السياق والسباق. ووجه ثان من النسق مع السياق والسباق واللاحق، أن «كفوراً» في وصف الإنسان مرت في الآية ٦٧ فاصلة آية. ومر في الآية ٢٧ ذات الوصف لكن بحق الشيطان، وسيمر في الآية ٩٩ ﴿فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا كُفُورًا﴾ فهذا وجه ثان من النسق.

المعنى: ولقد: الواو للاستئناف، وقلنا تكراراً إن الاستئناف هو جواب الكلام عن سؤال مقدر نشأ من الكلام السابق، كأن قائلًا قال: بعد أن حدثنا القرآن عن نفسه أنه معجز فما منهجه؟ فكان الجواب ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا﴾ واللام بعد واو الاستئناف للقسم أي والله لقد.. و«قد» للتحقيق، ويتجلى عملها على أكمل وجه إن جاء بعدها فعل ماض كما هنا: ولقد صرفنا..

صَرَفْنَا للناس: التصريف: التوزيع والتوجيه ومنه تصريف الرياح. ومنه أي من مادة صرف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ (الاحقاف: ٢٩) ومنه: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ (الفرقان: ١٩) أي أي أنواع التصريف، لا يستطيعونه. وقوله للناس إذ هم المقصودون بهذا التصريف وهم الذين يرغبونه.

في هذا القرآن: التصريف إنما هو في هذا القرآن والمتصرف هو منزل هذا القرآن: الله. وفيه أي في ثنياه وفي آياته وسوره.

من كل مثل: هل المقصود خصوصية المثل؟

أرى أنه عام في كل معنى طرحه القرآن طرحه متفنناً في عرضه. لا أنه يقصد الخصوصية في طرح الأمثال. وربما كانت غير سورة الإسراء أكثر تضمناً للأمثال من سورة الإسراء. وإنما لما كان المثل من أكثر ما يجلي المعاني ويوضحها كان التركيز على لفظ التصريف. تماماً كما يقول الله تعالى عن ذاته العلية: ﴿يَقُصُّ الْحَقُّ﴾ (الأنعام: ٥٧) هل المقصود الكلام حصراً

في أسلوب عرض الحق عن طريق القصص؟ بالطبع لا ولكن أيضاً لما كان أسلوب القصص من أكثر ما يفهم ويتابعه الناس عبّر بالقص. وقوله عن الرسل: ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ مَائِيتِي﴾ الأنعام: ١٢٠ هو أيضاً من هذا الوادي ومن هذا القبيل.

من كل مثل: أي من كل تجلية للمعنى كأنها المثل في وضوحها وجلالتها. ولا يضيرنا أن يقول إن المعنى هو ما اقتصر على ظاهر اللفظ «مثل». لم نتجاوزة؟ ولهذا الفريق الحق فيما يرون. أو من كل معنى عبر عنه بالمثل على الاحتمال الآخر.

فأبى أكثر الناس إلا كفوراً: أسلوب الحصر والقصر كثر في هذه السورة. وهذا منه في هذه الآية. والإباء الرفض، إلا وفق ما يوافق ملتهم ومذهبهم. وأهواء أنفسهم. من هنا كان موقف أغلبية الناس: الرفض والرد وعدم القبول. والكفور: الزيادة في الكفر. بعد هذا الإعجاز المتجلي الذي ليس في قدرة الإنس والجن وبعد هذا الأسلوب المتميز والتصريف الفريد للمعاني.. كان موقف أغلب الناس الكفور لا مجرد الكفر.

من دروس الآية ٨٩

١. القرآن معجز من كل وجه، ومن ضمن أهم أوجه إعجازه: الإعجاز البياني ومن ضمن أهم أوجه الإعجاز البياني: تصريف المعاني، وتنويع الأساليب، وضرب الأمثال والتفنن في هذا الأمر.
٢. وضوح المعجزة شيء، وثبوت الريانية كذلك، والتصديق والإيمان شيء مختلف. ذلك أن النفوس غير السوية لا يفيد معها الوضوح الحاسم والتجلي القاطع في الحجة والبرهان.
٣. بشهادة الله، فإن أكثر البشر كافرون بمنهج الله، غير مصدقين بكلام الله، مع عظمتهم وروعته وحقيقته وعدله، وتمام تحقيقه لكمال المصالح، ومع هذا فإنه كلما زادت الميزات انحرفت الاتجاهات.
٤. ضرورة دراسة منهجية القرآن وأساليبه، وهذا أمر سوى التفسير التقليدي المعتاد المعهود.

المقطع الخامس عشر

الآيات (٩٠ - ٩٦)

مقترحات الكافرين على الرسول

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾

الرابط والمناسبة: ختمت الآية السابقة بقوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ فهو تأكيد وتفصيل لما قيل قبل، هذا نسق أول وأظهر. ونسق ثان أن السياق كان في حديث مع المصطفى ﷺ وخطاب له في الآيات السابقة. فقوله عز وجل، على سبيل المثال، في الآية: ٨٥: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾. وفي الآية ٨٦: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، وهنا خطاب إلى خطابه ﷺ.

والكفر عناد منذ أول المعاندين إبليس وقد حدثنا عنه السورة. كما حدثنا عن الإنسان الكفور، وهنا صورة عملية لهذا العناد وتلك المكابرة. فهذا نسق آخر.

المعنى: وقالوا: أي الكفار عموماً، وكفار مكة على وجه الخصوص. وهم الذين كانوا يتولون كبر مقاومة الدعوة والداعية. لن نؤمن لك: لن: للتأييد. نؤمن: نصدق ونعتقد بأنك رسول الله، حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً: حتى تستتبطن لنا عين ماء من الأرض. فهل أوحى بهذا قلة الماء؟ أم هي محض المعاجزة؟ أليست الأرض مלאى بالينابيع؟ فبم يمتاز هذا الينبوع؟ وهل لو فجرت عين الماء ستصدقون ولا تقولون سحر مفترى؟ ومن الضامن ألا تقولوا؟ ولاحظ إشارات النص: ﴿لَنْ﴾ وما تدل عليه من التأييد، ﴿نُؤْمِنُ لَكَ﴾ وليس بك، وما تدل عليه من نفوس صعبة المراس، مستكبرة عاتية.. فيها كبر وتنفج، فهم يشترطون.. وتأمل صيغة الحصر والقصر المبتدأة بالنفي.. وما تفيده. ولاحظ كلمة ﴿تَفْجُرُ﴾ ودلالاتها القوية. وكلمة ﴿لَنَا﴾ وما فيها من حظوظ أنفسهم وتضخم الأنا عندهم.

من دروس الآية ٩.

١. شدة عناد الكافرين وشدة الاعتداد عندهم.
٢. تضخم الأنا عند هؤلاء أيضاً فهم يملون شروطهم ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا﴾.

- وهم - في تصورهم - اليد العليا في القضايا كلها .
- ٣ . العقول المادية تشترط معجزات مادية، والعقول التي تعقل تكفيها المعنويات .
- ٤ . عجيب الإنسان في إضلال نفسه وإلقائها في التهلكة .

﴿أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾

الربط والمناسبة: شروط الكافرين التي يملونها ما زالت تترى. فهناك شرط أن يفجر ينبوعاً.. وهنا شرط من نفس الوادي: أن يفجر الأنهار تفجيراً خلال جنته أو بستانه، ولشدة الارتباط عطفهما بحرف «أو» الذي هو للتخيير. **المعنى:** «أو تكون: (أو) للتخيير كما هو معلوم، وهي تقيّد أو أرادوها أن تقيّد أنهم متساهلون مسايرون، فإما الينبوع وإما الأنهار، فاختار أنت أيسرهما عليك، إنا لم نلزمك بشيء واحد، وإلا كانت معاجزة، أما الآن فقد برئنا من هذه التهمة، فنحن ميسرون، ونصبت تكون بـ «أن» مقدرة بعد «أو». لك جنة: أي يكون لك بستان، من نخيل وعنب: هذه هي الفاكهة المشهورة في تلك البيئة، وهي التي تقبل التخزين لوقت طويل وقيمتها الغذائية عالية، سواء أدركوا هذا أم لم يدركوه، فهي أثنى ما يزرع في بيئتهم.

فتفجر: نصبت تفجر بـ «أن» مقدرة بعد «الفاء».. ولاحظ أن ﴿فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ﴾ جاءت مشددة والآية السابقة جاءت دون تشديد لأن الينبوع يكفي فيه تَفْجَر دون تُفَجَّر. الأنهار: لا نهراً واحداً وإنما جملة من الأنهار، هذا وهم يوهمون أنهم يسياسون ويسايرون. خلالها: أي فيها، وتكون موزعة حتى تصل مياهها إلى كل قطعة من الجنة، ولا أدري ما يستفيدون من أنهار مملوكة لشخص لا يحبونه ولا يتبعونه ولا يؤمنون به! تفجيراً: تأكيد لتفجر، فالمفعول المطلق يقوي الفعل قبله.

من دروس الآية ٩١

١. المناورة من الكافرين من خلال إبداء المرونة متمثلة في «أو» مع التشدد في ذات الوقت، إذ انتقلوا من الينبوع إلى الأنهار.
٢. لا يتصور الكافرون بمقاييسهم المادية أن زعيماً لا يمتلك مقدرات مالية وثروة وبساتين وأرصدة، فهم تعودوا أن شيوخ الزعامة وزعامة الشيوخ

هذه مواصفاتها .

٣ . التفكير المرتبط ببيئته هو ابن لها ونتاج لها فأنت ترى انعكاس البيئة في كل كلمة من كلامهم .

٤ . لو كان القرآن - كما يزعمون - نتاج البيئة العربية فأين أثرها وأين انعكاسها؟

﴿ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا
أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾

الربط والمناسبة: مازالت معاجزات الكافرين مستمرة وهي كسابقتها معطوفة بـ «أو» المفيدة للتخيير.

المعنى: أو للتخيير كما مر في النص الأخير أو الآية السابقة. تُسقط السماء: لاحظ الانتقال من الخيار الأيسر إلى الأصعب إلى الأشد.. فهنا يطلبون منه إسقاط السماء قطعاً، وهل يدرون هم ما السماء؟ وما معنى إسقاطها؟ وأي رعب سيثيره هذا في الأرض؟ ونصبت تسقط بـ «أن» مقدرة. أو تأتي بالله: في الآية السابقة خيار وخيار متفرع عنه، وفي سابقتها خيار واحد، أما في آيتنا ولاحققتها فخياران معاً في آية واحدة، وهل في مكنة أحد أن يأتي بالله؟ وما معنى الإتيان بالله؟ وهل تعرفون من هو الله وما قدر الله حتى تطلبوا عباد الله بهذا الطلب؟ وصدق الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الأنعام: ٩١.

والملائكة قبيلًا: ويريدون مع الله، أو سوى الله أن تأتي الملائكة مواجهة مجتمعين. وهذا أشق مما سبق!

من دروس الآية ٩٢

١. وما قدر الكافرون الله حق قدره، ولو فعلوا لما طلبوا من عبد مخلوق أن يأتي بالله.
٢. إنه الاستكبار مرة أخرى يتجلى في معاجزاتهم المستمرة، الواضح منها روح الاستهزاء والسخرية فيما ظاهره التخيير والتوسعة، وهنا المفارقة فهم يطرحون بدائل ويصعدون في التصعيب.. فكل بديل أشق مما قبله.

﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ
وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٣﴾

الربط والمناسبة: (أو) هذه والتالية في الآية نفسها هما رقم ٤

وه في مرات تردد «أو» في معاجزات هؤلاء الكافرين. ولاحظ ورود كلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ انسجاماً مع جو السورة ونسقها، ولاحظ ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ و«الإسراء» مقدمة الرقي في السماء.

المعنى: أو يكون لك: الفعل يكون بعد «أو» التخيرية منصوب بـ «أن» مقدره، وهي نسق مع ﴿أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ﴾ الإسراء: ٩١، ولاحظ أنهم قدموا الجنة على البيت، ولم تأت هذه تصعيداً في سلسلة المعاجزات والمعاظلات، بل جاءت أخف: لتكون البداية أخف، وبداية النهاية بأخف ما يمكن.

بيت من زخرف: قيل إن معنى زخرف: ذهب، واعتقد أنه بمعنى الشيء المزين المزخرف، ذهباً أو غير ذهب، ومنه ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الأنعام: ١١٢ فلم حصر الزخرف بالذهب؟ وجاءت «بيت» منكرة لمزيد من التيسير فيما يبدو أي على أي مساحة كانت.

أو ترقى في السماء: أو للتخيير، وترقى: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مقدره أيضاً ومنع حركة الفتح من ظهورها التعذر. ولن نؤمن لرقيك: هذه «لن» الثانية في معاجزاتهم.. أي أننا لن نصدق بهذا الرقي أو أن نؤمن له.. حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه: النفي وحتى من أدوات الحصر والقصر: لن نؤمن حتى، وتصلح «حتى» نهاية وبداية، فهي نهاية لعدم إيمانهم، وهي بداية لذات إيمانهم. علينا: ونون العظمة هذه وتالياتها «نقرأه» فهذه ٦ مرات ضمن ٤ آيات.. «نؤمن» وردت مرتين، و «علينا» وردت مرتين، ومرت «لنا» في الآية ٩٠. نقرأه: أي نقرأ فيه مباشرة: لأن القرآن كتاب يقرأ، لكنهم يريدون كتاباً لا شفوياً، وإنما مكتوب جاهز من السماء بقطع النظر عن المضمون، فهم لا

ينظرون إلى المضمون.

قل سبحان ربي: قل تنزه الله، وتعالى ربي عما تقولون. هل كنت إلا بشراً رسولاً: بأسلوب الحصر والقصر الذي استخدموه. هل أنا إلا بشر أرسله الله؟ فأنتى لي مثل هذه القدرة وهي لا تكون إلا لله عز وجل. فهم لا يدركون ما النبي ولا ما الملائكة ولا ما الله، ومن هذا الجهل ينطلقون.

وهل تعلم أن «سبحان» في هذا الموطن هي الوحيدة بألف طويلة والباقي بألف صغيرة ترسم فوق «ياء» أو «نبرة» بين الحاء والنون؟ وهي المرة الوحيدة التي فيها هذا المعنى أنه ﷺ بشر رسول مرتبطاً بكلمة سبحان. فتأمل!

من دروس الآية ٩٣

١. العقل أداة الإنسان للإدراك والهدى، وكما يشقى به الإنسان إذا اتخذته أداة لإضلال نفسه وغيره بالمنطق المقلوب.
٢. كلما كثرت المعاجزات وضع الإنسان في سبيل نفسه العقوبات المانعة عن الهدى، فهم يقولون ها قد طرحنا عليه ستة بدائل أو خمسة ولا مجيب!
٣. مقام العبودية مقام سوى مقام الألوهية، ولكن الكفار لا يعلمون هذه البدهية.
٤. الكون مليء بالآيات وما يزال الكفار يطالبون بمزيد من الآيات.
٥. من لم تتفعه الآيات الموجودة، لن ينفعه أن نزيد على الموجود بعض المقترح من الآيات.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ
إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٩٤﴾

الربط والمناسبة: بعد أن استعرض القرآن في الآيات الأربع الماضية معاجزات الكافرين وتطلباتهم والآيات المقترحة من قبلهم، عقب على ذلك بآية نازمة تبين السبب الرئيس لكفر هؤلاء وكفر من سبقوهم وهو الاعتراض على بشرية الرسل.. وهي عين كرامة الجنس البشري لو كانوا يعقلون.

المعنى: وما: الواو للاستئناف، ما: نافية سيعقبها «إلا» لتكون للحصر والقصر. منع الناس أن يؤمنوا: ما حال بين الناس والهدى ومنعهم من الدخول في الإيمان.. إلا أن قالوا: إلا قولهم - فأن مصدرية. أبعث الله بشراً رسولاً: هل أرسل الله رسولاً من البشر؟

من دروس الآية ٩٤

١. يبتغي البشر قضايا ومناهج تفكير يضلون بها أنفسهم.
٢. يسأل الناس أسئلة متكلفة تسهم في تيههم الفكري.
٣. السؤال مفتاح العلم وقد يكون بوابة التيه.
٤. كون الرسول من البشر كرامة للنوع الإنساني ولكنه كان مثار اعتراض، ولو كان الرسول من الملائكة لقال الناس أنفسهم: كيف نفتدي برسول لم تتركب فيه احتياجاتنا وضعفنا وليس من خلقتنا؟ فعلى الحاليين المشكل قائم.
٥. ما يعترضه الكفار على الرسول وهو كونه بشراً يبرزه الرسل تحقيقاً للحق وإقراراً به واعتزازاً.

﴿قَدْ لَوَّكَاتٍ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ
مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٩٥)

الربط والمناسبة: بيّنت الآية السابقة، أن أخطر علل الكافرين في عدم الإيمان بالرسول: بشريتهم، وفي هذه الآية، تبين الآية قاعدة عامة أن الرسول من جنس المرسل إليهم.

المعنى: قل: خطاب لسيد المخاطبين. لو كان في الأرض ملائكة: لو كان سكان الأرض وقاطنوها من الملائكة لكان رسلكم منهم. أما وأنهم بشر فإن رسلكم من البشر. يمشون مطمئنين: أي بلا مشكلات كما هو واقع في واقع البشر وحياتهم، فلو كان الملائكة على الأرض ولا خصومات ولا نزاعات كالتي تقض مضاجع البشر وتسلب أمنهم. لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً: لو كان ذلك كذلك لكانت نزلنا على ملائكة الأرض ملائكة من السماء تكون رسلاً لله تبليغهم مراد الله منهم في كوكبهم الأرضي وحياتهم الأرضية، فلا بد أن يكون لله من عباده مطالب، وأوامر ونواهي.. وقد يسأل سائل: ها إن الملائكة نزلت على رسل الله من البشر فكيف هذا؟ بمعنى أن مبلغ الوحي من الملائكة، فكيف حصل مع أنكم قلتم إن الرسول من جنس المرسل إليهم؟ والجواب: أن رسول السماء إلى الأرض لابد أن يكون من السماء، أما رسول أهل الأرض إلى الأرض فمن الأرض. فالحلقة الأولى للوحي يحملها أمين من السماء، لأنه لا بشر يقوون على هذه المهمة، ولا هم عند الله يحملون أمانته إلى الأرض، ثم يختار الله واحداً من البشر بعد أن بلغته الدعوة من السماء فيقوم هو بالبلاغ إلى قومه أو الناس.

من دروس الآية ٩٥

١. لابد من رسالة لله، فالله لا يخلق الخلق ويتركهم بلا تعليمات.
٢. الرسول من جنس المرسل إليهم، هذه حقيقة.
٣. الاعتراض أشد لو كان الرسول من غير جنس المرسل إليهم.
٤. وإذا كان الرسول يشترط ألا يكون من جنس المرسل إليهم ليؤمن هؤلاء، فكيف آمن خيار الناس، وإنما الذي كفر شرارهم؟

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩٦)

الربط والمناسبة: في ختام هذه الجولة من مجادلات الكافرين والرد عليهم يختتم السياق الجولة بهذه الخاتمة الحاسمة.. بشهادة الله، والآية نسق في خطاب الرسول بـ (قُلْ) كالسابقة.

المعنى: قل: خطاب لسيد الخلق، كفى بالله: يكفي الله. شهيداً: شاهداً على قضيتي معكم. بيني وبينكم: في النزاع القائم بيني وبينكم، وتكفي شهادة الله، وكما قال الله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَتَىٰ شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (الأنعام: ١٩).

إنه كان بعباده خبيراً بصيراً: تعليل لما سبق وتذييل يبرر الاكتفاء بشهادة الله أنه خير بعباده يعلم دقائق أمورهم، بصيراً يبصر كل شؤونهم.

من دروس الآية ٩٦

١. نهاية كل جدال لا تجدي فيه الحجة، الاكتفاء بشهادة الله.
٢. الله نعم الشاهد لأنه العليم الخبير البصير.

المقطع السادس عشر

الآيات (٩٧ - ١٠٠)

وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ
وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكماً وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ (٩٧)

الربط والمناسبة: انتهت الآية السابقة بمفاصلة بالاكْتفاء بشهادة الله بين النبي والمعتضين على نبوته لكونه بشراً... وهنا استئناف طرح الموضوع بأن من يهديه الله فهو المهتدي ومن يضلّه فلن يهديه أحد... وفي الآخرة يلقي جزاءه وهي مفاصلة أخرى.

المعنى: ومن: الواو للاستئناف على الأرجح، وتصحح للعطف... عطف موضوع على موضوع، فكأنه قال كفى بالله شهيداً وهادياً. من: اسم موصول فيه شرط. يهد: الله: يهد: فعل الشرط مجزوم بحذف الياء من آخره والمفعول به ضمير محذوف كأنه قال يهد..

فهو المهتد: الفاء واقعة في جواب الشرط، وصيغة فهو المهتد أي كأنه قال لا مهتدي سواه، فهي تفيد الحصر والقصر. ومصدر الهدى هو الله لا ريب، فمن كان الله هاديه فهو المهتدي، ومن تخلى الله عنه لتكبره مثلاً أو عناده، فلن تجد من يهديه من بعد الله... ومن يضل: اسم الشرط وفعله المجزوم. فلن تجد لهم أولياء: جواب الشرط وهو في محل جزم، والفاء واقعة في جواب الشرط، ولن حرف نفي ونصب. تجد: منصوب بـلن. لهم: أي لهؤلاء الذين تخلى الله عن هدايتهم لرفضهم الهدى.

أولياء: نصرة ينصرونهم ويهدونهم من دون الله. من دونه: أي من دون الله الهادي والنصير. ونحشُرهم يوم القيامة على وجوههم: لما كان مقلوب الوجهة والفكرة والفتنة سيحشر يوم القيامة مقلوب الهيئة، فهو يحشر على وجهه مكباً، وبعد الكبرياء ذلة وهوان... ولما لم يهتد في الدنيا محل الهدى، فلن يهتدي إلى جنة الله. عمياً وبكماً وصمماً: في الآخرة يتقدم الإبصار على السمع، لأن الهول ما تراه لا ما تسمعه أو بالأدق أكثر هولاً مما تسمعه.

أما في الدنيا فالسمع دائماً مقدم وقد مر في الإسراء: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء: ٣٦، والبكم: الخرس، والصمم: الطرش
والصمم: عدم السمع.

مأواهم جهنم: مستقرهم وسكناتهم ومصيرهم إلى جهنم. كلما خبت:
كلما ضعفت نارها، وهي لا تكاد تضعف؛ لأن التزويد مستمر موصول. زدناهم
سعيراً: يزيدهم الله عذاباً ويزيد نارهم اشتعالاً.. ونسأل الله السلامة.

من دروس الآية ٩٧

١. من انقلب على الفطرة في الدنيا ينقلب حاله في الآخرة، فبدل أن
يُحشَر كالخلق الأسوياء يمشي على قدميه يسحب في النار على وجهه..
انقلاب بانقلاب!
٢. مصدر الهدى واحد هو الله الواحد.
٣. من هداه الله فهو المهتدي ومن أضله فهو الضال.
٤. نار جهنم لا تكاد تخبو نارها ولا يضعف أوارها؛ لأن الإمداد مستمر بل
في ازدياد.
٥. السمع في القرآن مقدم على البصر في الدنيا، أما في الآخرة فالبصر
مقدم؛ لأن الهول مرئي وكان الغيب كله في الدنيا سمعياً.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (١٨)

الرابط والمناسبة: تقرير ما كانت الآية السابقة تتحدث عنه من عذاب

الكافرين، وبيان سبب دخولهم هذا العذاب، وقد تكرر قولهم: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (الإسراء: ٩)، فالآية نسق مع السياق.

المعنى: ذلك: اسم إشارة للبعد لوجود اللام التي تقيد هذا البعد.. أما «ذا» فهي اسم إشارة للقريب، واللام للبعد، والكاف للخطاب.. فكأنها ثلاث كلمات.. هذه الثلاثة حروف. وإلى ماذا تشير هذه الكلمة؟ إنها تشير إلى ما سبق في الآية السابقة من عذابهم وكيف يحشرون على وجوههم وكيف تزداد عليهم النيران بأطراد.

جزاؤهم: عقابهم أو مقابل عملهم، فالجزاء فيه معنى المقابلة. بأنهم: بسبب أنهم، فالباء للتعليل. كفروا بآياتنا: لم يؤمنوا بالآيات وأنكروها وجحدوها وقاوموها.. وأول ما ينصرف الذهن في معنى الآيات إلى آيات القرآن والثاني إلى معجزات هذا القرآن، لأن المعجزات المادية توقفت كما قالت السورة هذه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩). والمعنى الثالث للآيات هو الآيات الكونية، وما أودع الله عز وجل في كونه من الآيات المحسوسة من شمس وقمر ورياح وأمطار وجبال وبحار ونجوم وأشجار وأزهار وأثمار وأطياف ومجرات هائلة في أعدادها أو سرعة انتقالها، والكافرون كفروا بكل هذا وكذبوا بكل هذا.

وقالوا: واو العطف عطفت «قالوا» على «كفروا».. فهم جمعوا بين الكفر العملي والكفر القولي. إذا: الهمزة الأولى للاستفهام، و«إذا»: ظرف لما يستقبل من الزمان وهي هنا تقيد معنى الشرط. كنا عظاماً: أي إذا متنا وتحللنا حتى أصبحنا عظاماً متأكلة ناخرة متناثرة. ورفاتاً: رميمات، وبقايا من الإنسان. إنا: الهمزة الأولى للاستفهام، والاستفهام و«إنا» بعده واقع في جواب إذا. لمبعوثون: اللام هي اللام المزلحقة الواقعة في خبر «إن»، ومبعوثون: سننھض

من قبورنا ونقوم من حالة التراب التي صرنا إليها، هل هذا ممكن ومعقول؟ خلقاً جديداً: أي غير الخلق الذي كنا عليه قبل الموت، أو خلقاً بعد الخلق الأول سواء.

وصدق الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ يس: ٧٨ ويأتي الجواب هناك: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يس: ٧٩ وأما الجواب هنا فيأتي في الآية التالية..

من دروس الآية ٩٨

١. يخترع الإنسان النظريات الإلحادية ليبرر فجوره وانفلاته.
٢. من أخطر ما ينكره الإنسان من أركان الإيمان: البعث؛ لأن الحياة بلا جزاء فوضى، وبلا حساب خراب وتدمير، كطالب يوهم نفسه أنه لا امتحان ولا نتائج فلماذا يدرس؟
٣. يستغرب الإنسان إعادته، فهلاً استغرب وجوده أول مرة؟
٤. جهنم هي جزاء من ينكر الآخرة، فكما أفسد الدنيا بعقيدته الكفرية، فلتفسد عليه آخرته بسبب هذا الكفر.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿١١﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية هي الرد على اعتراضهم وسؤالهم في الآية السابقة ﴿أَوَلَمْ لِمَعُودُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿الإسراء: ٩٨﴾، وأما التناسق مع السياق فقد مرت ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ قبل عشر آيات.

المعنى: أولم يروا: الهمزة للاستفهام، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، ولم حرف نفي وجزم. يروا: فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون كما هو معلوم.. والسؤال للإنكار، وكأنه قال: أأغضوا ولم يروا؟! أو كأنه قال: أأغضوا ولم يروا؟! ونحو ذلك.. والرؤية قد تكون بصرية وقد تكون بصيرية، بمعنى أنهم يرون بعقولهم المستتبعة المستبطة إذا سخروها وشغلوها في التعرف على الحق، أما إذا عطلوها فلن يروا ولن يفقهوا.

أن الله الذي خلق السماوات والأرض: لفهم السياق إلى قدرة الله من خلال خلقه للسماوات والأرض، فهل يعجز من خلق هذا الكون المليء بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة أن يخلق مثل هذا المخلوق الإنساني المحدود الترابي الضعيف؟ وهو منطوق مقنع لمن أراد أن يقتنع، والذي لا يريد لا يقتنع إلا إذا ذاق مس النار، عند ذاك تتفق فتااعاته! حيث ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِنْهَاةً تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿الأنعام: ١٥٨﴾. قادر على أن يخلق مثلهم: ألم يستببطوا هذه الحقيقة البديهية البسيطة!

وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه: وقد جعل الله لهؤلاء الخلق أجلاً لحياتهم، وأجلاً لماتهم، وأجلاً لبعثهم، وهذا الأجل لا شك فيه ولا جدال فيه، بمعنى أنه لا مساومة فيه، فإذا جاء أجلهم بمعانيه كلها فلا يتقدم أحد ساعة ولا يتأخر، كائنًا من كان. فأبى الظالمون إلا كفوراً: مرّ في الآية ٨٩: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾، وهي مبالغة في الكفر.. وبجمع الآيتين يخرج أن أكثر الناس هم ظالمون، وقد قال الله عن الإنسان: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا﴾ ﴿الإسراء: ٦٧﴾، وقال عنه في ختام الأحزاب: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿الأحزاب: ٧٢﴾

فهي تشرح بعضها وتؤكد بعضها.

فأبى: الإباء: الرفض، ورفضهم مع وضوح الدلائل وقطعها هو عناد ومكابرة وأشد قبحاً. الظالمون: الظالم المتعدي حقه إلى حق الغير، وهؤلاء ظلموا أنفسهم أولاً وظلموا الحق والحقيقة ثانياً وظلموا الناس ثالثاً.. وهم ظالمون مطلقاً. إلا كفوراً: حصر وقصر.. فقد أفادت مبالغتهم مرتين، مرة بصيغة كفوراً، ومرة بصيغة الحصر: فأبى الظالمون إلا كفوراً.

من دروس الآية ٩٩

١. كم يغفل الإنسان عن الآيات.. كما قالت سورة يوسف في خواتيمها:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

يوسف: ١٠٥.

٢. الكفر موقف عنيد وقرار مسبق بمعنى أنه مهما توضحت الدلائل فلن

يتغير موقف صاحب هذا الموقف، أما رأيت الذي حاج إبراهيم: ﴿فَبُهِتَ

الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ٢٥٨.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾

الربط والمناسبة: نبتدئ بالمناسبة لسياق السورة، فالسورة أكثر سورة حديثاً عن الإنسان، وقد ورد في الآية ٦٧: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾. وفي الآية ٨٢: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بَعْدَ إِعْمَانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾... وغيرها بالطبع، فهذا نسق أول مع الجو العام للسورة، وأما التماسق مع السياق المباشر: فقد ختمت الآية السابقة بقوله عز وجل: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ الإسراء: ٩٩، وذلك إثر الحديث عن كفرهم بالبعث، وفي هذه الآية يبين أن الإنسان لو ملك خزائن الله لما أنفق لأنه قتور، والكفر والتقتير جذرهما واحد: فهذا كافر يجحد البراهين والآيات، وهذا مقتر يجحد ما أوتي من ثروات، والكافر لم يستثمر ثروة عقله في الإيمان، والقتور لم يستثمر ثروته أعني ثروة ماله في دخول الجنة.

ونسق ثالث: أنه كثر في جو سورة الإسراء بدء الآيات بـ «قُلْ»، وسيعقب هذه الآية حتى آخر السورة ٣ مرات «قُلْ»، ومرة «قال»، ومرة «وقلنا». ونسق رابع مع القرآن كله: أن كلمة خزائن وردت في القرآن ٧ مرات، ثلاث مرات قبل هذه الآية، وثلاث مرات بعدها، وهذه في الوسط تماماً.. وهل تعلم أن كلمة «رحمة» التي وردت ٥ مرات في الإسراء قبلها ٢٧ مرة وبعدها ٢٧ مرة، والمجموع ٧٩ مرة؟

المعنى: أمر بالقول للنبي ﷺ، ولكل من يصح منه هذا الأمر من بعده عليه الصلوات والتسليم. لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي: هذا افتراض لا يمكن وقوعه، ولكنه تقريب للصورة لذهن الإنسان، فلو ملك البشر جمعاً أو فرداً خزائن رحمة الله، ما أنفق منها، ولو أنفق لأنفق القليل. إذا لأمسككم خشية الإنفاق: جواب لو.. أي إذا لوقع منكم الإمساك عن الإنفاق لخشيتهكم أن تنفد الخزائن، وهذه جبلة في الإنسان أودعها الله فيه ليحفظ ماله وحتى لا يقع منه التبذير. وكان الإنسان قتوراً: وكانت هذه جبلة في الإنسان أنه قتور

أي شديد التقدير، أي الإمساك والشح.. كما قال عز وجل في مواطن أخرى: ﴿وَأَحْضَرْتُ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ النساء: ١٢٨ أي وجبلت على البخل والإمساك، وقال: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر: ٩.. جَبَلَكَ على حب المال وطلب منك النجاح في الامتحان بإنفاق هذا المال في سبيل الله وعلى العيال. فهل ينجح الناس في اجتياز امتحان المال؟ وكان: أي صفة راسخة عميقة عتيقة قديمة قارة فيه. الإنسان: كل إنسان فهذه طبائع وجبلات عميقة. فتوراً: شديد التقدير.

من دروس الآية .. ١

١. لشدة تقدير الإنسان وشدة بخله فإنه لو ملك خزائن رحمة الله، لأمسك عن الإنفاق خشية الإفلاس.
٢. طبع الله البشر على طبائع لمصلحتهم من ناحية، وليمتحنهم من ناحية، فالتقدير حتى لا يقع في التبذير، والتوازن مطلوب.
٣. امتحان المال امتحان صعب قل من ينجح فيه.
٤. ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.

المقطع السابع عشر

الآيات (١.١ - ١.٤)

جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَنَسِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ﴿١٠١﴾

الربط والمناسبة: نبتدئ بالمناسبة للسياق العام. فقد افتتحت السورة بذكر موسى، وها نحن ندخل في نهاية السورة. ومن عادة القرآن أن يعود لموضوعات البدايات في النهايات.

فقد جاء في الآية ٢ ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وهنا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَنَسِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

وأما الربط بالسياق المباشر: فقد بينت الآية السابقة تقدير الإنسان حتى لو تخيلنا أنه ملك خزائن رحمة الله. وأما الله تعالى فقد أعطى موسى لا آية واحدة، وهي كافية لإقامة الحجة على فرعون. وهو عبد حقير لا يستحق التقدير، ومع هذا فإن الله زود رسولاً من أكرم رسله. رسولاً ذا قدر كبير، بتسع آيات لإقامة الحجة وقطع العذر عن عبد من أعتى العباد وأحقهم بقطع الدابر ولو من غير إنذار.

هذه صورة عن رحمة الله وكيف يعامل الله العباد حتى العاتي منهم عن عبادة رب العباد، وذلك كان موقف العباد لو ملكوا خزائن رحمة رب العباد. فتأمل التناسق في كلام هذا الكتاب المعجز في هذه السورة المعجزة.

المعنى: ولقد: الواو: الأرجح أنها للاستئناف، ويجوز العطف، أن تعطف قصة على قصة أو موضوعاً على موضوع. ولا تكون للحال بحال من الأحوال. واللام الموطئة للقسم، و «قد» كما مر للتحقيق والتوكيد خاصة إذا دخلت على ماض كما هنا.

آتينا: أعطينا وزودنا.

موسى: أحد أعظم الأنبياء بإطلاق وأحد أعظم أنبياء بني إسرائيل، وهو الكريم الكريم. ومن قرأ شخصيته في التوراة، عرف أنه قد تم التلاعب بها وكتابة نصوصها بأيدي غير مؤمنة أصلاً، أو منحرفة جداً في إيمانها. وقد ذكر موسى في القرآن في أكثر من ثلاثين سورة، وضعف ما ذكر الخليل عليه

السلام - تقريباً - .

تسع آيات: مجموع ما أوتيته موسى من آيات في مواجهة فرعون فحسب، لا مجموع ما جرى على يديه من آيات، فتظليل الغمام مثلاً وتفجير العيون من الحجر، وإحياء الميت بضربه بجزء من البقرة، وإنزال المن والسلوى، وإحياء من صعقوا من بني إسرائيل، وفلق البحر، كل هذا خارج عن التسع آيات. والدليل على كل حال تمام الآية: «فقال له فرعون».

بينات: ظاهرات واضحات باهرات مبينات.

فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم: أول ما يلفت النظر رسم فاسأل، فقد جاءت مختصرة الألفين كأنه كان كذلك لأن السؤال لم يقع ولن يقع. إنما هو من باب الجواب للمشكك من عرب وغيرهم.

والأمر فاسأل موجه إلى من أنزل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم. وما به من حاجة أن يسأل فيكفيه قرآن ربه الحق المطلق المصفى. ثم يلفت النظر رسم كلمة إسرائيل فقد جاءت بألف صغيرة في وسط الكلمة وهمزة منفصلة، هذا الرسم لو كان اجتهداً ما خطر ببال أحد. إنما هو - والله أعلم - توقيف من الله. أما لماذا فيمكن أن نحاول أن نفهم ونبرر، وقد نوفق وقد لا نوفق. هذا شيء وأن الرسم اجتهد فهذا أمر آخر لا نراه على كل حال! إذ جاءهم: أي إذ جاءهم موسى عليه السلام ليحررهم وينقذهم فتصدى له فرعون. فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً: فقال فرعون معرقلاً دعوة موسى مشوهاً معطلاً لها بالإشاعات والشبهات منتقياً الكلمات «إني لأظنك» لم يقطع، وهو فيما أرى، دهاء من فرعون، فقد ترك مساحة للمناورة.

ولذلك لم يقل الأقوام لرسلمهم غير «وإنا لنظنك من الكاذبين» الأعراف وغيرها.

فالرسل لم يجرب عليهم أحد الكذب، فلو جزموا لوضعوا أنفسهم في موقف حرج.

وهنا كذلك. فالمسحور بزعمهم، يخلط، وموسى يتكلم بالدرر. فليقل

إذا: «إني لأظنك» والتفسير بالسحر، وأن الشخص مسحور. ثقافة تدل على مستوى ثقافي ليس بالعالى، ولكنه سائد. ومن أسف مجتمعنا عاد إلى هذه التفسيرات. والأدهى أن يسموا فهمهم هم للنص أن يسموه النص! فهذه إشاعة فرعون يحاول بها أن يشوش عقول الجمهور حتى لا يؤمنوا بموسى. أفنصنع صنيعهم؟! مالكم؟

من دروس الآية ١.١

١. عدد التسع آيات التي زود بها موسى في مواجهة فرعون يشي بعتوه وعناده ولجاجته وسيطرته.
٢. التسع آيات هذه ليست من بينها آيات موسى لبني إسرائيل فتلك لتثبيت قوم مؤمنين -نظرياً-.
٣. سؤال بني إسرائيل تكرر في القرآن ولم يحدث في الواقع وما بنا من حاجة لسؤالهم، فعندنا النبع السلسل السلسيل الصافي. فلم نسألهم؟ إنما هو للتحدي والتوثق فقط ولإقامة الحجة عليهم وعلى غيرهم. وإلا فإن الله قال: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ الكهف.
٤. الإشاعات تسمم الأجواء من حول الدعاة. وفرعون سيد من السادات. وعات من العتاة الذين مارسوا هذه الصفات.
٥. السحر تفسير ما لا يفهمه مُطلق هذه الكلمة. فمريض لم يعرفوا علته: مسحور، وعدم نجاح لم يفهموا سببه: الولد مسحور! وهكذا. وهذه ثقافة ينبغي أن تتغير ويحل محلها التفسير السنني.
٦. حلم الله ورحمته ولطفه بعباده وهو الصبور الرشيد سبحانه، فأهل فرعون كل هذا الوقت، وأراه كل هذه الآيات، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر!

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمْرُؤٌ مَشْجُورٌ ﴾ (١٠٢)

الربط والمناسبة: في الآية السابقة اعتراض فرعون على دعوة موسى. وفي هذه الآية رد موسى على فرعون. وهناك قال فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمْرُؤٌ مَشْجُورٌ﴾ وهنا سيأتي في رد موسى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمْرُؤٌ مَشْجُورٌ﴾. وفي الآية السابقة «ولقد» وفي هذه «لقد» فهذه أوجه من النسق. **المعنى:** قال: أي موسى عليه السلام في الرد على فرعون الذي اتهم موسى بأنه مسحور.

لقد: اللام للقسم وقد للتحقيق.

علمت: بمعنى أن موسى يقول لفرعون إنك توقن في دخيلة نفسك وقرارة وجدانك وصميم فؤادك وعقلك ولكنك تكابر، توقن أنه ما جاء بهذه الآيات التي أشارت إليها الآية السابقة، وهي التسع آيات. ما أنزل هؤلاء: أي الآيات. وأشار إليها باسم الإشارة الذي يستخدم للعاقل «هؤلاء» تعظيماً لشأنها. وأنت توقن أنها من عند الله.

إلا رب السماوات والأرض: فليس في مقدور بشر الإتيان بهذه الآيات فهي يقيناً من عند الله رب السماوات والأرض، وليس من عند مدعي ألوهية مثلك!

بصائر: تهدي العقول والأرواح والقلوب والبصائر. والبصائر للأرواح والعقول كالشمس للمحسوسات.

وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا: وإني ليترجح عندي يا فرعون، وفق ناموس الله وسننه، أنك هالك شأنك شأن كل طاغية متجبر متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. ولم لم يقل اني موقن، لأن في تعبير موسى تفويض لأمر الله. ولو أعلمه الله لقال، ويبدو أنه كان متروكاً لأمر الله، ولم يخبر الله بمصيره بعد.

مَثْبُورًا: من الثبور وهو بمعنى الهلاك، وقد ورد: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا

وَجِدْأَوْادَعُواثُبُورًاكَثِيرًا﴿﴾ الفرقان: ١٤ وهي شبيهة الإسراء والثبور مذكور هنا وهناك.

ولا نفسر﴿﴾لَأَظُنُّكَ﴿﴾ بمعنى اليقين، فليظل لكل كلمة معناها ولكل جذر خصوصيته.

من دروس الآية ١.٢

١. في قول موسى﴿﴾لَقَدْ عَلِمْتَ﴿﴾ إشارة إلى علمه بسيكولوجية فرعون وأنه يعلم في قراراته الحق ولكنه لا يذعن بل يكابره ويعانده.
٢. العناد أسوأ طبائع البشر وهو من أسباب كفرهم وهلاكهم.
٣. آيات الله خوارق لا يستطيعها البشر، والقرآن كذلك لكنه خارقة باقية وتلك فانية.
٤. الرد بأسلوب مكافئ، والجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ١٠٣ ﴾

الربط والمناسبة: هذه نتيجة مغالبة فرعون للحق أن الحق غلبه وصرعه. وقد وردت مادة فزز في الآية ٦٣، ٧٦ وهذه الآية فحسب.

المعنى: فأراد: أي فرعون. أن يستفزهم: أن يهيجهم بالمضايقة فيخرجوا، أي أنه أراد أن يخرجهم، وهم يفعلون الشيء نفسه اليوم مع شعبنا في فلسطين، فهم يهدمون بيوتهم ويرفعون الضرائب عليهم، ويحرقون زروعهم ويقتلعون زيتونهم الذي منه وفيه معاشهم، ويستولون على مياههم، ويضايقونهم بما يسمونه «المحاسيم» أي نقاط التفتيش على الطرق التي يموت عندها أناس ويولد أطفال وقد تموت أمهات، وهم لا يرمش لهم جفن. إنها إسرائيل فوق القانون نتيجة علوها الكبير الذي نسأل الله أن يكون آخر المطاف وبعده يبدأ النزول والانحدار والاندحار والانهيار والانخساف.

فأغرقناه ومن معه جميعاً: فأغرقنا فرعون ومن معه من جنود وحاشية ووزراء ومسؤولين، أغرقنا كل هذا جميعاً. إن فرداً قد استطاع أن يحطم شعباً وأمة. والتاريخ يعيد نفسه والتجربة تتكرر ولا من يتعلم. فهل من مذكر؟

من دروس الآية ١٠٣

١. سياسة المجرمين الطاغين استفزاز من يعادونه بتضييق المعاش ومصادرة أسباب الحياة ليغادروا البلاد التي درجوا فيها.
٢. عندما بلغ طغيان فرعون غايته كانت المقادير له بالمرصاد فأهلكه الله.
٣. فرد منحرف مأفون قد يؤدي بشعبه وأمته.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾

الرابط والمناسبة: هذه الآية تبين ماذا حصل لبني إسرائيل بعد إهلاك فرعون وجنوده.

المعنى: وقُلْنَا: ضمير العظمة يتكلم به ذو الجلال والعظمة لجلال الأمر. من بعده: من بعد فرعون وأخذه وإهلاكه.

لبني إسرائيل: الذين يقودهم موسى الكليم الكريم والسياق ينسبهم إلى يعقوب فهم إليه ينتسبون. إذ نواتهم من أبناء الأسباط أما الموجود الآن فهم أخلاط من البشر، وجل ما يسمى إسرائيل من يهود الخزر. وهم أتراك لم يكونوا يهوداً بل متهودون، ويهود أوروبا ويهود الحبشة ويهود روسيا. ومنهم من ليس يهودياً، ولكنه يظهر التهود لارتفاع أسهم اليهود في العالم. أما قال الشاعر المصري زمن حكم الفاطميين مصر وقد كان يحكم مصر فعلياً اليهود قال:

يا أهل مصر تهوّدوا قد تهوّد الفلك

وليست مقبولة منه ولا من غيره ولكن الكلمة تصور هيمنة اليهود على مقاليد مصر وكأنك في عهد مبارك أو أسوأ، إن كان ثمة ما هو أسوأ. اسكنوا الأرض: ليست أرض مصر قطعاً فهم خرجوا منها ولم يعودوا إليها، وإنما الأرض هنا مطلق الأرض، بدلالة، ما بقي من الآية وهو: فإذا جاء وعد الآخرة: أي مرة الإفساد الثانية لا الآخرة بمعنى القيامة، وإن كانت تصح ولا نرجحها.

جئنا بكم لفيفاً: والواقع يصدق ما ذهبنا إليه، أن بني إسرائيل الآن في وقت مرة الإفساد الثانية وحلول أوان العقاب عليها، جمعوا أنفسهم من كل جنسيات الأرض ولغاتها وألوانها، من الهند وروسيا وأفريقيا والجهات كلها، فكل اللغات وكل القوميات وكل الديانات، حتى، وكل الألوان. ولفيفاً تحتمل كل هذه الاحتمالات.

من دروس الآية ١.٤

١. لعل ما من سورة احتشدت فيها المعجزات كما احتشدت في آيات سورة الإسراء.
٢. هذا وقت عقاب بني إسرائيل على افسادتهم الثانية، واجتماعهم في فلسطين يصعب مقاومتهم ويسهلها في وقت واحد، وهم مدحورون على كل حال.
٣. الأرض في الآية هنا هي الأرض مطلقاً لا الأرض المعهودة، والله أعلم.
٤. قوله تعالى: «جئنا بكم» يدل على أن الذي يحرك الأحداث الله سبحانه وتعالى.
٥. الأخطا المتكونة منها إسرائيل عنصر قوة، من حيث عديد السكان، ولكنها عنصر ضعف من حيث هي قنبلة ديموغرافية موقوتة يمكن أن تنفجر في كل وقت وفي أي لحظة.

المقطع الثامن عشر

الآيات (١.٥ - ١.٩)

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥﴾

الربط والمناسبة: نتحدث عن المناسبة للسياق العام أولاً، فالسورة أفاضت في الحديث عن القرآن منذ الآية التاسعة، فقد ابتدأت من هناك هذا الحديث المبارك عن القرآن، وها هي تختتم السورة بالحديث عن القرآن أيضاً.. وأما المناسبة مع السياق المباشر فقد كانت الآية ١٠٤ تتحدث عن إنزال الكتاب على موسى ﷺ، فناسب أن يختتم ويعقب بإنزال الكتاب الأعظم والخاتم على الرسول الأكرم الخاتم ﷺ. ومناسبة ثالثة: أن القرآن الكريم ذكرته السورة المباركة هذه عقب الحديث عن الإفساد الثانية، وها هو السياق يعود إلى الحديث عن الإفساد الثانية تأكيداً وتذكيراً حتى لا ننسى، فناسب أن يعقب عليها بذكر القرآن. ومناسبة رابعة: أن الآية السابقة مباشرة ذكرت «وعد الآخرة»، وآيتنا بينت أنه الحق، فهو وعد حق في كتاب نزل بالحق.. فتأمل!

المعنى: وبالحق أنزلناه: أي هذا الكتاب متلبس بالحق بتعبير ساداتنا، مرتبط به، بل هو هو، فالقرآن حق نزل من عند الحق ونزل بالحق، ليقر الحق، ولينصر الحق وليظهر الحق نزل على رسول الحق. وبالحق نزل: لا تكرار في القرآن فلماذا أعاد وبالحق نزل؟ إما لاختلاف جهة النزول، بمعنى أن النزول الأول شيء والثاني شيء. كأن يكون كما يقول سادتنا كذلك، التنزل الأول من اللوح المحفوظ، سواء أكان إلى السماء الدنيا، أو إلى قلب الرسول، عليه أركى الصلوات وأتم التسليم، فالقصد أنه لم يختلط بباطل، وحاشاه، منذ نزل إلى بلوغه إلى هذا النبي الكريم ﷺ وإلى أن بلغ إلى أمته فكتبته وحفظته وهو محفوظ لم يفارق دائرة الحق، ولله الحمد. أما الكتب السابقة فبالحق نزلت، ولما وكلت إلى الناس فقد عبثوا بها ومن يقرأ التوراة اليوم يعلم أي يد كتبها!

وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً: هذا هو المقطع الثاني في الآية، وهو متوازن مع الأول، مكمل له. فبعد الحديث عن القرآن في المقطع الأول، تحدث

عن الرسول الذي أنزل عليه القرآن في المقطع الثاني. وأما التبشير فمهمة القرآن كما ذكر القرآن في أول حديثه عن القرآن ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ١ والتبشير مهمة الرسول ﷺ كما في هذه الآية، لأنه هو النموذج العملي لتعليمات القرآن. وأما النذير والمُنذر فقد قال عن نفسه ﷺ إنه النذير وهو كذلك، والقرآن كذلك نذير.

من دروس الآية ١٥

١. هذا القرآن حق نزل من عند الحق بالحق على رسول الحق ليحقق في الأرض الحق.
٢. من أعظم أسرار قوة القرآن أنه الحق وما سواه باطل، وقد شاء الله في سننه في هذا الكون وكما بينت سورة الإسراء أن الباطل بمجرد حضور الحق ينطفئ ويذوب.. كما تختفي الخفافيش إذا طلعت الشمس.
٣. مهمة الرسول التبشير كما هي خصيصة القرآن، والإنذار كما هو القرآن كذلك: ﴿فَمَا لِنُذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ﴾ الكهف: ٢.
٤. لا يُعادي القرآن ولا يُحارب منذ الأزل إلى الآن وإلى قيام الساعة إلا لأنه الحق، وإلا فإن الأرض ملأى بالباطل، وهو متروك، لا يحاربه أحد من ملل الباطل المقتدرة.

﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾

الربط والمناسبة: لئن كانت الآية السابقة عبرت عن القرآن بالضمير

«أنزلناه» فهذه الآية عبرت بالاسم الأشهر الصريح: القرآن. فقالت: ﴿وَقُرْءَانَا﴾. ولئن تكلمت السابقة عن ارتباط القرآن بالحق وتلبسه به من أول لحظات تنزله إلى بلوغه حامل الرسالة، ومنه إلى الناس، فإن هذه الآية تتكلم عن كيفية هذا النزول أو الإنزال، وهو قوله عز وجل: ﴿فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾. ونسق ثالث أن إنزال القرآن ابتدأت به الآية السابقة واختتمت به آيتنا هذه. ونسق رابع: أنه عبر في السابقة عن نزوله جملة أو بعد اكتماله وهذه عن بدء إنزاله، فتأمل الأنساق!

المعنى: وقرأنا^(١): الواو الأظهر أنها للاستئناف وتصح عاطفة موضوعاً على موضوع: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ الإسراء: ١٠٥ ﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ﴾ الإسراء: ١٠٦. ونصبت كلمة قرأناً بالفعل فرقناه. فرقناه: نزلناه مفرقاً منجماً على مدى ربع قرن إلا سنتين.. فلما اكتمل نزوله فكأنه نزل دفعة واحدة. وإنما كان هذا التجميع للمحظ عظيم وحكم حكيمة عالية، أن تتشربه القلوب على مهل. لقرأه على الناس على مكث: السلام للتعليل، وضمير الفاعل في نقرأه بطبيعة الحال عائد إلى رسول الله ﷺ والهاء ضمير يعود على القرآن كما هو واضح. ولاحظ «على الناس» و «على مكث». على الناس: أي مسامعهم وعلى عقولهم وأرواحهم وقلوبهم، والمقصود الأول الناس المؤمنين أو العموم، والآخرين بالتبع والتالي. على مكث: على تمهل وتأن، ونقول فلان مكث أي طويل البال كما يقال، أو بالفصيح متلبث متمل مترث متمهل غير مستعجل، ولا يصدر عن رأي فطير بل عن رأي خمير ناضج. ونزلناه تنزيلاً: فعل تفيد التفرقة^(٢) أما أنزلناه فتفيد النزول جملة، فكأنه في الآية السابقة أشار إليه مكتملاً، وفي هذه أشار إليه في تنزله متدرجاً..

(١) وردت قرأناً عشر مرات: أولها في يوسف، وهي السورة المرتبطة بالإسراء. وهذه الثالثة. وآخرها في الجن آية الافتتاح.

(٢) ومنه: فَرَّقَ، مَرَّقَ، وَرَقَ، قَطَعَ، قَسَطَ، قَسَمَ، فَتَّتَ، شَتَّتَ ... إلخ.

من دروس الآية ٦.١

١. يتميز القرآن عن سائر الكتب السماوية السابقة بأنه نزل منجماً.
٢. نزول القرآن منجماً أو مفزقاً له حكم عظيمة، وذلك أن تتشريحه القلوب بالتدرج، وتتفهمه شيئاً فشيئاً وتطبقه مرحلة بعد مرحلة.
٣. المرحلية وردت في ثلاث كلمات في هذه الآية لتعزيز المعنى وتقويه وتؤكد: فرقناه، على مكث، ونزلناه تنزيلاً.
٤. الكتب السابقة موجزة بالنسبة للقرآن فكان من المناسب أن تنزل دفعة واحدة أو جملة، والقرآن أطول كتب السماء فكان من المناسب أن ينزل نجوماً ورجوماً لشياطين الإنس والجن كلما جدت الحاجة.
٥. الكتب السابقة لفترة محدودة من الزمان، والقرآن كتاب الزمان سيستمر دستوراً ومنهجاً حتى آخر الزمان، فلا بد أن تتشريحه نفوس الحملة الأوائل ليكونوا الأعمدة الراسخة التي تحمل الإسلام إلى الناس، فكان التدرج في النزول.
٦. أمية النبي وأمتة أحد أسباب ورود القرآن مفزقاً، ليسهل عليه وعليهم التعلم والجمع والتدوين.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾

الربط والمناسبة: الحديث عن القرآن مازال مستمراً، هناك قال عز

وجل في الآية السابقة ﴿لِنَقْرَأُ﴾ الإسراء: ١٠٦ وهنا قال عز وجل: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وهذه الآية وآيتا الختام بعدها مفتحة كلها بقل في سورة كان ظاهراً فيها هذا الافتتاح بقل، فهذا نسق آخر.

المعنى: قل: الأمر لسيد العباد المأمورين بتبليغ القول. آمنوا به: يا كل الناس عرباً وعجماً، والخطاب شامل. أو لا تؤمنوا: الظاهر من النص: التخيير، لكنه مشرب بتهديد لمن أساء الاختيار بعدم الإيمان. إن الذين أوتوا العلم من قبله، أي: من الأمتين السابقتين رجال صادقون يعترفون بالحق. وإن كانوا قلة قليلة، والناس بالكيف لا بالكم. فشاهدان من بين مئة ألف مواطن في قضية يحسمانها، فلست بحاجة إلى شهادة كل بني إسرائيل، فهؤلاء معلوم أنهم قوم بُهت، كما قال سيدهم عبد الله بن سلام عليه السلام، عندما أعلن إسلامه فتفضوا يدهم منه بعد أن قالوا عنه سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا، فلما علموا بإسلامه قالوا: كاذبنا وابن كاذبنا وجاهلنا وابن جاهلنا، فقال ما قال في نعتهم ووصفهم. فالقرآن يستشهد بهم ولو لم يشهد إلا القليل منهم فهم القلة الصادقون. أما البقية فهم الكاذبون أو الكاتمون المسايرون للتيار لأنهم أي الشاهدون هم من يمثلون الحق في القضية.

إذا يتلى عليهم: إذا يقرأ عليهم القرآن، وبنى الفعل للمجهول ليدل على أن مجرد سماع القرآن من قبلهم يثير فيهم ما ذكره القرآن بعد، من خشوع وسجود.. بقطع النظر عن من يتلو ويقرأ، منهم أو من غيرهم، تلاوة مجودة أم عادية، بصوت حسن ندي، أم بصوت عادي: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. فقد تخشع لصوت جميل فيختلط الأمر، هل هو من المعنى أم من الجمال الصوتي.. أما هنا فقال ﴿إِذَا يُتْلَىٰ﴾ فالمهم التلاوة لا من تلا، والمتلو لا التالي. يخرون للأذقان سجداً: كناية عن شدة التأثير وسرعة الاستجابة.

وعجيب تعبير «للأذقان»: أي كأنهم من شدة خفضهم لرؤوسهم من شدة التأثر والخضوع والخشوع لامست لحاهم أرض سجودهم. سَجَدًا: ساجدين: واختار سَجَدًا لا مراعاة الفاصلة فحسب، وإنما المعنى قبل مراعاة الفاصلة، فكلمة سَجَدًا أشد تعبيراً عن المعنى بما فيها من الشَّدة. ولا تنس أن «سَجَدًا» وردت قبلها في النحل جارتها.

من دروس الآية ١.٧

١. هذا القرآن حق مطلق، والحمد لله، فسواء آمن الناس به أو لم يؤمنوا لا يخدش هذا في حقيقته وحقيقته ولكنه يخدش مصداقية من لم يؤمن به.
٢. الذين أوتوا العلم من قبل القرآن، والمقصود أهل الكتاب، والمقصود بالأخص من آمن منهم، أو من شهد للقرآن، حتى وإن لم يؤمن، فنصارى نجران منهم من آمن، ومنهم من لم يؤمن، لكنه رفض الملائكة الواردة في سورة المائدة فهذا الرفض هو بحد ذاته اعتراف بأن القرآن حق لأنك لو علمت صدق ما أنت عليه لوقفت للمباهلة، فإذا لم تفعل فقد شهدت له، فكلا الفريقين شهد: أحدهما بطريقة مباشرة، والآخر بطريقة غير مباشرة، أحدهما بلسانه، والآخر بلسان حاله.
٣. الإيمان والإذعان وخشوع القلب وحركة الجوارح بالسجود قمة انسجام الإنسان مع ذاته، إذ آمن قلبه وعقله، وأقرت فطرته، وسجدت جوارحه، فما أروع هذه الصورة من التناسق والانسجام والصدق مع الله ثم مع الذات.
٤. أهمية الشهادة وعظيم خطرهما، وعظيم إثم كتمانها أو المغالطة فيها.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (١٠٨)

الربط والمناسبة: لا حاجة إلى البحث عن الرابط والناظم والناسق بين الآية السابقة وهذه، فهذا هو قول من شهد من أهل الكتاب لهذا القرآن بلسانهم بعد أن شهدوا بسجودهم وإذعانهم. أما النسق مع جو السورة فهذه كلمة «سبحان» في آخر السورة، تتعاقب مع التي في أولها. فسبحان من هذا كلامه.

وهذا لفظ «وعد» الذي مر في الآية (١٠٤) قبل قليل، والذي مر قبله بمئة آية تقريباً في قوله ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ (الإسراء: ٥٠). وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ (الإسراء: ٧٠). فالآية نسق مع ما سبق ونسق مع جو السورة ككل.

المعنى: ويقولون: أي أهل الكتاب، وأعتقد أن في الآية مفاجأة أستشعرها وأنا أكتب هذه الكلمات، فأهل الكتاب المستشهد بهم يستشهد بهم في قضية أن القرآن كلام الله. فلماذا اختار القرآن من أقوالهم ما يشير إلى الوعد؟ أعتقد أن في الآية سوى الشهادة الماضية الغابرة بحقية القرآن نبوءة مستقبلية. أن يرى أهل الكتاب، الذين يقولون هذا القول، تحقق وعد الله ونصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل، فعندما يرون تحقق هذا الوعد، تتجدد شهادة أخرى، ويعلمون يقيناً أن القرآن كلام الله، ولو لم يكن كلام الله فكيف كانوا سيرون تحقق الوعد، وتأويل الكلام الإلهي بتحقيقه في واقع الأرض بالترتيب والنسق الذي ذكره الله: ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الإسراء: ٧)، وهذا يعني أن المعركة سيكون عنفوانها وضرامها من حول المسجد، ثم ﴿وَلِيَسْتَوُوا مَاعَلَوْا تَنْبِيْرًا﴾ (الإسراء: ٧). فعندما يرون هذا بأعينهم ﴿يَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ سَجَدُوا﴾ (١٠٧) ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (١٠٨).

الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨.. لقد تحقق وعد الله.

سبحان ربنا: تنزه ربنا عن كل نقص وحاشاه، وتنزه كلامه عن كل خُلف أو تناقض مع الواقع وحاشاه أيضاً. إن كان وعد ربنا لمفعولاً: إما أن «إن» بمعنى ما أي ما كان وعد ربنا إلا مفعولاً، أو أن «إن» بمعنى إن المخفضة من

إنّ.. أي إنه كان وعد ربنا مفعولاً ولعل هذا أرجح بدلالة اللام في «لمفعولاً».. وعد ربنا: مطلق الوعد الإلهي، ولكن جو السياق لابد أن يوضع في الاعتبار حين التفسير، ولما كان جو السياق في كل ما مر من وعد، يتعلق ببني إسرائيل، ووعد وقوع الإفساد، ووعد العقاب المترتب على هذا الإفساد، كان لابد من تفسير النص في ضوء السياق، فالوعد مطلق نعم، ويدخل في حيزه دخولاً أولاً ما يجعل النص نسقاً مع السياق وهو وعد الآخرة بإنهاء دولة بني إسرائيل من أرض محمد ﷺ، أرض الإسراء وأرض المعراج وأرض القداسة والبركة ومهبط الوحي ومدارج الأنبياء ومجاور الخليل.. لمفعولاً: متحققاً ناجزاً لا يتأخر ولا يخلف، ونصبت لأنها خبر كان، واللام في أول الكلام إن قلنا إنها المزلقة على اعتبار أن «إنّ» هي من المخففة فالمزلقة للتأكيد.

من دروس الآية ١.٨

١. هذه شهادة أخرى لأهل الكتاب سوى الشهادة في وقت تنزل القرآن، هذه شهادة في ظلال تحقق القرآن، وتحقيق صدق وعوده، وتأويل هذه الوعود بمعنى أيلولتها في أرض الواقع.
٢. ضرورة الثقة بوعد الله، واليقين بالله، وهذا مفرق الإيمان عن الكفر، فإذا كان المؤمن متلججاً فماذا يعني إيمانه؟ وأي رصيد يملكه هذا الإيمان؟

﴿وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾

الربط والمناسبة: مازال النص الكريم يصف حالة أهل الكتاب في

الاعتراف بحقية القرآن وحقية وعد الله. وقد ذكر في الآية قبل السابقة ﴿وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ سَجْدًا﴾ الإسراء: ١٠٧، وأعاد هنا ﴿وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ ووسط بين «يخرون» و «يخرون» بقولهم: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ الإسراء: ١٠٨ وسطه لأهميته فيما أرى.

المعنى: الخور: الهوي والنزول سريعاً إلى الأرض. كقوله عز وجل: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدًا﴾ طه: ٧٠، ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ الأعراف: ١٢٠. ولعل الفريقين: السحرة، وأهل الكتاب، بموقفهما يمثلان أسرع تحول (ربما) شهادته الأرض، من الكفر القبيح إلى الإيمان الصريح، ومن الموقف المادي المتردي إلى الموقف الإيماني المتحدي. ولاحظ أنه جمع الجميع كلمة «سجداً»، أعني السحرة وشهود اليهود. فسبحان من أنزل هذا الكلام، وليت اللغة تسعف لتنتقل الانفعال والشعور، لا عن عجز في اللغة، معاذ الله، ولكن عن عجز في التمكن من اللغة عند من يكتب هذه الكلمات!

وقوله كالسابق «للأذقان» تأكيد على شدة الخشوع والخضوع وكأن الأذقان تلامس الأرض لا الجباه فقط! ييكون: جملة حالية تصف شدة انفعالهم بمشاعر لم يستطيعوا التحكم فيها، فانفلتت عبراتهم، وانهمرت دموعهم، كما كان يصنع رسول الله ﷺ والأصحاب من بعده ومن حوله. ولاحظ أن الآية خمس كلمات فيها ثلاثة أفعال مضارعة: «ويخرون»، «ييكون»، «ويزيدهم».. لمزيد تصوير حالتهم ووضعنا في جوهم وانفعالهم وكأننا لا نقرأ عنهم ونسمع الكلمات النورانية الربانية تصف حالهم، فحسب، ولكن نرى بعيون بصائرنا وقلوبنا حالهم وانفعالهم ومشاعرهم.. وما هي إلا بضع كلمات، لكنها أغنى ما تكون بالدلالات!

ويزيدهم خشوعاً: ما الفاعل للفعل يزيدهم؟ وهذا الفعل ليس مبنياً للمجهول، بل هو مبني للمعلوم، فما هو هذا المعلوم؟ أهو الله؟ هذا المتبادر،

أهو القرآن ويزيدهم تحققة في الواقع خشوعاً؟ هذا هو الظاهر، أهو الموقف كله برمته؟ هذا جمع للقولين، وهو الأولى ويكون هو المتبادر والظاهر.

من دروس الآية ١٠٩

١. البكاء من تجلي الحق يدل على صفاء نفس ورقة قلب ورهافة حس ونُبل شعور.

٢. أن يبكي المؤمن هذا متوقع، لكن أن يبكي غير المؤمن في لحظة انفعاله وانتقاله من الكفر إلى الإيمان، ربما يبدو غير متوقع، ولكنه عين المتوقع، فهذه لحظة ميلاد تفتتح بالبكاء، كما افتتحت لحظة الميلاد الأولى بالبكاء!

٣. هذا القرآن ستشهد له الوقائع والأحداث والأيام والأكوان وصدق منزل القرآن: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت: ٥٣.

المقطع التاسع عشر الختامي

الآيات (١١٠ - ١١١)

وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكِ وَلَا تَخَافُ مِنْهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١١٠﴾

الربط والمناسبة: ألا ما أروع هذه الآية وتالياتها لتكون ختاماً لهذه السورة الجليلة المباركة العظيمة المليئة الزاخرة الحاشدة. المستشرفة مستقبل الأمة والعالم. وأن تردك آيتا الختام إلى مقام العبودية في أروع تجلياته: الصلاة. فيتعانق بدء السورة من جديد مع ختامها، حيث تحدث في البدء عن الإسراء «بعبد» ليرتقي بهذا الإسراء ثم من بعده المعراج إلى معارج القرب الذي لم يتح لأحد، وهذه الصلاة في هذه الآية معراج المؤمن يرتقي بها إلى جنات القرب ومنازل المقربين، إذ يحقق بها أروع تجليات العبودية كما قلت قبل قليل.

ثم التوسط «وابتغ بين ذلك سبيلاً» لينسجم مع ما مر في بدايات السورة من التوسط في موضوع الإنفاق، فالتوسط روح هذا الدين وروح هذا المنهج وروح هذه الأمة وجو هذه السورة، وكم كلفنا الغلو، سواء كان منا أم من غيرنا. فكلاهما «دفعنا» ضريبة غالية.

فيأتي هذا الختام يشير إلى التوسط حتى في الصوت في الصلاة والعبادة، بين الرفع والخفض والمخافة.

ثم ما أجمل هذا الختام وهو من أقوى الأسلحة وأمضى العدة للمؤمن في مواجهة الأعداء من أمثال هؤلاء المفسدين، أعني سلاح الدعاء، والاستعانة والاستغاثة.

﴿إِذَا تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ﴾ ﴿الأنفال: ٩﴾

وموقعنا هذه بدرنا الثانية إن شاء الله، كما كانت لنا بدرنا الأولى، وافتتحت بالاستغاثة، وختام هذه السورة المتحدة عن بدر الجديدة وبدر سيطلع في سماء الأمة، جميل أن يتضمن هذا الختام الإشارة إلى سلاح الدعاء والاستغاثة.

وجميل كذلك أن نعلم عقيدة التوحيد في ختام السورة فهي أقوى

الأقوى من أسلحتنا، فلا قوة إلا لله وبالله ولا عزة إلا بالله ومن الله ولا نصر إلا من عند الله. والتوحيد أعظم التعبئة وأعظم التحشيد! وجميل أن يكون بداية السورة «سبحان» وختامها «الحمد لله» والتسبيح والحمد قرينان لا ينفصلان.

وأما كلمة ختام الختام فالتكبير، ولئن كان العدو يرهبه شيء أي شيء، فلا يرهبه شيء قدر سلاح التكبير، فما أروع أن تختتم سورة المنازلة الكبرى، ومعركة الأمة العظمى ضد العدو الأخطر وشرطان هذه الدنيا، ما أروع أن تختتم بالتكبير: «وكبره تكبيراً». والآن بعد هذا الریط القصير نعود إلى التفسير. ونواصل المسير بإذن القدير النصير.

المعنى: قل: يا خير من يقال له قل.

قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن: أعظم اسمين من أسماء مولانا هما: الله والرحمن، ولم يتسمّ بهما أحد، ولم يتصف أحد.

فأياً دعوت من هذين: الله، أو الرحمن، سبحانه، فإنما تدعو من يستجيب، وإنما تدعو بأعظم الأسماء الجامع لكل الصفات.

أياً ما تدعو: أياً يكن دعاؤك بهذا الاسم الكريم أو بهذا. فله الأسماء الحسنی^(١): فالأسماء الحسنی كلها له وأحسن الأحسن هذان الاسمان ولذا اختارهما مولانا ليقول ادعوني بأيهما.

ولا تجهر بصلاتك: لا ترفع صوتك بالصلاة فوق المتوسط المطلوب المسمع لنفسك إن كنت وحيداً، أو لمن معك إن كنت في جماعة وأنت إمامها. ولا تخافت بها: ولا تخفض صوتك بالصلاة بحيث لا تسمع نفسك إن كانت الصلاة جهرية أو من معك.

ولاحظ اختيار لفظ بصلاتك، دون حرف الجر في صلاتك، لشدة الإلصاق في الباء. وحتى لا يفهم أنه قد ترفع صوتك في الصلاة بأي شيء خارج عن الصلاة.

وابتغ بين ذلك سبيلاً: وتوسط في ذلك بين الجهر والمخافتة، وقد مرت

(١) وردت كلمة الحسنی ١٧ مرة وما في الإسراء هو رقم (٨) أي أنها في القلب شأن السورة. أما «الأسماء الحسنی» فوردت (٤) مرات وما هنا هو الثانية أي أنها في القلب أيضاً. فتأمل.

سبيلاً قبل ذلك في السورة مرات، وهنا ختامها، أي طريقاً وسطاً بين طريقي الجهر الزائد أو المخافة الشديدة.

قال ابن عاشور: «لا شك أن لنزول هذه الآية سبباً خاصاً^(١) إذ لا موجب لذكر هذا التخيير بين دعاء الله تعالى باسمه العلم وبين دعائه بصفة الرحمن خاصة دون ذكر غير تلك الصفة من صفات الله مثل: الرحيم أو العزيز وغيرهما من الصفات الحسنى. ثم لا بد بعد ذلك من طلب المناسبة لوقوعها في هذا الموضع من السورة. وبعد أن يذكر سبب النزول يقول ابن عاشور: «وأما موقعها هنا فيتعين أن يكون سبب نزولها حدث حين نزول الآية التي قبلها»^(٢).

والكلام رد وتعليم بأن تعدد الأسماء لا يقتضي تعدد المسمى. وشتان بين ذلك وبين دعاء المشركين آلهة مختلفة الأسماء والمسميات، والتوحيد والإشراك يتعلقان بالذوات لا بالأسماء.

و «أي» اسم استفهام في الأصل، فإذا اقترنت بها (ما) الزائدة أفادت الشرط كما تقيده كيف إذا اقترنت بها (ما) الزائدة نحوياً، ولذلك جزم الفعل بها وهو «تدعوا» شرطاً وجئ لها بجواب مقترن بالفاء، وهو «فله الأسماء الحسنى».

والتحقيق أن «فله الأسماء الحسنى» علة الجواب، والتقدير: أي اسم من أسمائه تعالى تدعون فلا حرج في دعائه بعدة أسماء إذ له الأسماء الحسنى والمسمى الواحد^(٣).

وتابع ابن عاشور: ومعنى «ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم، أي اذكروا في دعائكم هذا أو هذا، فالمسمى واحد. وعلى هذا التفسير قد وقع تجوز في فعل «ادعوا» مستعملاً في معنى اذكروا أو سموا

(١) ذكر ابن عاشور عن الطبري سبب نزول عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: يا رحمن يا رحيم فاحتج المشركون.. إلخ. وفي الكشف عن ابن عباس غير هذا أنه كان يدعو يا الله يا رحمن فاحتج أبو جهل فنزلت. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى أسباب النزول للواحدي وللطبري والكشاف وابن عاشور والدر المنثور... إلخ. وإنما ذكرته للعلم فقط لا لشدة الاعتداد!

(٢) أرى والله أعلم أن في هذا تكلفاً - فالقرآن لا يرتب على أسباب النزول، وإنما يرتب على المنهجية لكل سورة ونسق السورة ووحدتها الموضوعية.

(٣) ابن عاشور: التحرير، ج ١٤، ص ١٨٥ - ص ١٨٦.

في دعائكم.

ويجوز أن يكون الدعاء مستعملاً في معنى سموا، وهو حينئذ يتعدى إلى مفعولين، والتقدير: سموا ربكم الله أو سموه الرحمن، وحذف المفعول به الأول من الفعلين وأبقى الثاني لدلالة المقام^(١) هـ.

قلت: كلام ابن عاشور يشير إلى احتمالات، لكن المعنى الظاهر أهم من تشتيت الانتباه بكثرة الاحتمالات، وظاهر معنى النص: الدعاء. ادعوا الله في حاجاتكم باسمه العظيم الأعظم الجامع لكل الصفات: الله، أو ادعوه باسمه الثاني في الذكر وفي القرآن وفي الشهرة في دعاء الناس.

فحتى في البسملة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وفي أول آيات الفاتحة بعد البسملة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، فبأي هذين الاسمين دعوتكم استجيب لكم، ومناسبة ختم السورة بالدعاء أنها سورة المواجهة بين الأمة وعدوها الأعداء والأخطار عداوة، وهذه المواجهة ككل مواجهات الأمة تستثيت فيها الأمة بالله وتلجأ إلى سلاح الدعاء.

«ولا تجه بصلاتك»

قال ابن عاشور: «لا شك أن لهذه الجملة اتصالاً بجملة «قل ادعوا» يؤيدها تقدم في وجه اتصال قوله: «قل ادعوا» بالآيات التي قبله، فقد كان ذلك بسبب جهر النبي في دعائه باسم الرحمن^(٣).

والصلاة تحتل الدعاء، وتحتل العبادة المعروفة. وقد فسرهما السلف هنا بالمعنيين، ومعلوم أن من فسر الصلاة بالعبادة المعروفة فإنما أراد قراءتها خاصة لأنها التي توصف بالجهر والمخافتة.

وعلى كلا الاحتمالين فقد جهر النبي بذكر الرحمن. (وأعاد ابن عاشور ما ذكره في سبب النزول من استغراب المشركين وقولهم وما الرحمن يدعو محمد إلهين.. إلخ).

ثم قال: فأمر الله رسوله أن لا يجهر بقراءة صلاته في الصلاة

(١) التحرير لابن عاشور، ج ١، ص ١٨٦.

(٢) ربط المعنى بسبب النزول وكأنهما شيء واحد. لست أراه. فسبب النزول قد يصح أو لا يصح. بينما النص القرآني قطعي.

الجهرية^(١). ولعل سفهاء المشركين توهموا من صدع النبي بالقراءة أو بالدعاء أنه يريد بذلك التحكك بهم التطاول عليهم، فاغتاظوا، فأمره الله بألا يجهر هذا الجهر تجنباً لما من شأنه أن يثير حفاظهم ويزيد تصلبهم في كفرهم في حين أن المقصود تليين قلوبهم. والمقصود من الكلام النهي عن شدة الجهر^(٢) وأما قوله: «ولا تخافت»، فالمقصود منه الاحتراس لكيلا يجعل دعاء سرّاً أو صلاته كلها سرّاً فلا يبلغ أسمع المتهئين للاهتداء به: لأن المقصود من النهي عن الجهر تجنب جهر يُتوهم منه الكفار تحككاً أو تطاولاً كما قلنا. والجهر: قوة صوت الناطق بالكلام.

والمخافتة مفاعلة: من خَفَتَ بكلامه، إذا أسرَّ به. وصيغة المفاعلة مستعملة في معنى الشدة، أي لا تُسرّها.

وقوله: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى المذكور، أي الجهر والمخافتة المعلومين من فعلي ﴿تجهر... وتخافت﴾ أي اطلب سبيلاً بين الأمرين ليحصل المقصود من إسماع الناس القرآن وينتفي توهم قصد التطاول عليهم^(٣).

من دروس الآية .١١

١. الله والرحمن أعظم أسماء المولى سبحانه.
٢. بأي الاسمين الجليلين دعوت الله فإنما تدعوه بأعظم أسمائه.
٣. الأسماء الحسنى كلها لله، وكلها سواء في استجابته لك، إذا دعوته بأبيها.
٤. الدعاء عبادة والدعاء سلاح والدعاء صلة بالله وتقوى واستمداد منه سبحانه.
٥. التوسط سمة هذا الدين وسمة أمته.
٦. إذا كان التوسط في الصوت في الصلاة مطلوباً فكيف في خارجها؟

(١) متمسك ابن عاشور بسبب النزول وإن كان لا يرقى إلى الصحيح. ويعين تفسير الآية به. وهو ما لا نوافقه عليه، وإنما هو توجيه عام بلا سبب نزول.

(٢) التحرير، ج ١٤، ص ١٨٦ - ص ١٨٧.

(٣) التحرير والتنوير، ج ١٤، ص ١٨٧.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرٌ تَكْبِيرًا﴾

الربط والمناسبة: ألا ما أجمل وما أروع وما أبهى وما أجمع وما أزهى وما أكمل هذا الختام الجامع الرائع.

ألا ما أجمل اصطفاف هذه الأرقام ١١١ وكأنها جند في جيش فتح بيت المقدس وتحرير أقصاها ومسراها وثرها. ألا ما أجمل صدى صوت «الحمد لله» يتردد في جنبات المسجد الأقصى في الصلاة بعد تحريره.

ألا ما أجمل أن يقر في كل الأرض كلمة التوحيد وتتدحر كلمة الشرك والكفر التي كان يريد نشرها هؤلاء المفسدون، حين شربوا الخمر في ساحات الأقصى ليس فقط عند احتلاله، عندما اختل ميزان وجود العرب واعتل حالهم حتى استقوى عليهم أرذل الخلق وأجبن الخلق وأخس الخلق.

ألا ما أروع التكبير قبل النصر للتعبة، وبعد النصر للعيد الكبير، الذي من شعائره التكبير.. الله أكبر.. الله أكبر.

ألا تسمع هدير الملايين بالتكبير؟ ألا ترى الحشود كموج البحر، ضاقت بها الساحات وغص بها الفضاء، وشق عنان السماء الصوت الهادر: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. كبيراً.

المعنى: وقل: عطف على قل.

الحمد لله: الشاء بالمجد والعظمة والعزة والكبرياء والجلال لمولانا ذي الجلال والعظمة والكبرياء والقوة: الحمد لله. الحمد لله الذي يستحق الحمد، الحمد لله على نصر الله، والحمد لله على هذا القرآن الذي نهج لنا طريق النصر. الحمد لله أن تفرد مولانا بالوحدانية فما كان معه إله ولا ند ولا شريك.

الذي لم يتخذ ولداً: الحمد لله على استغنائه عن الولد والصاحبة، والحمد لله على الكمال، وعدم الافتقار وعدم الاحتياج. الحمد لله على غناه عن كل أحد، وافتقار كل أحد إلى غناه! والحمد لله أن مولانا هذا شأنه.

وما الحاجة إلى الولد؟ وكيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة. ولو كانت له صاحبة لكان عنوان النقص وحاشاه، فالبشر المحاويج يحتاجون صاحبة لاستمرار الحياة أولاً ولما رب أخرى، فما حاجة الله لهذا وهو الحي القوي الغني المستغني؟ ونحتاج الولد ليرث ما جمعنا، والله الوارث فلم يحتاج الولد؟ ولم يكن له شريك في الملك: ليس له شريك في هذا الوجود، إذ خلق مولانا ما خلق، فلم يخلق أحد معه شيئاً، ولو كان فليقل من خلق، وليذهب بخلقه، تعالى الله عن هذا، ولا شريك له في إدارة هذا الملكوت الهائل.

ولم يكن له ولي من الدن: إذا كان الولي يتخذ ليتقوى به المخلوق من ضعف ويعز من ذلة، فإن الله لا يحتاج إلى الولي لأنه العزيز المطلق القوي المطلق الغني المطلق، فمن الولي الذي سأحتاجه ليرفع من قوتي أو عزتي؟ تعالى الله!

أما المؤمنون فهم أولياء الله ليتقوا به من ضعف، وليعتزوا به من ذلة وقلة، وليستصروا به أمام عدو حشد العالم كله في مواجهتنا فاحتجنا إلى أن نكون أولياء الله من ذلنا نحن وضعفنا لنعالج ذلك بالولاية له والاستمداد منه والتقوى به.

وكبره تكبيراً: وكبر الله أيها الرسول، ويا كل من اتخذ هذا الرسول إماماً ورائداً وقائداً وعزاً وعزوة وأسوة ونبياً وحبیباً وزعيماً ورسولاً.. كبر هذا الإله العظيم تكبيراً.

فقل في صلاتك: الله أكبر، وقل حين ضعفك: الله أكبر، وقل عندما ترى قوة عدوك: الله أكبر، وقل في احتفالك بنصرك ويوم الفتح الأكبر (بعد الفتح الأكبر) قل: الله أكبر. فالله أكبر الله أكبر الله أكبر^(١).

«وقل الحمد لله...»

قال ابن عاشور: «لما كان النهي عن الجهر بالدعاء أو قراءة الصلاة سداً للذريعة. ذريعة زيادة تصميمهم على الكفر أعقب ذلك بأمره بإعلان التوحيد

(١) قرأت وقت كتابة هذه الكلمات ما نشرته صحفنا عن النائب الفلسطيني في الكنيست أحمد الطيبي أن بحوزته شريطاً مصوراً عن وجود وحدة كلاب إسرائيلية يدربها المستوطنون لمهاجمة أي فلسطيني يصرخ بقول: «الله أكبر» اه باختصار.

لقطع دابر توههم من توههموا أن الرحمن اسم لمسمى غير مسمى اسم الله، أمر النبي ﷺ بأن يقول ما يقلع ذلك كله وأن يعظمه بأنواع من التعظيم»^(١). وقال ابن عاشور بعد الربط في معنى الآية: «وجملة «الحمد لله» تقتضي تخصيصه تعالى بالحمد، أي قصر جنس الحمد عليه تعالى لأنه أعظم مستحق لأن يحمد. فالتخصيص ادعائي بادعاء أن دواعي حمد غير الله تعالى في جانب دواعي حمد الله بمنزلة العدم.

«من الذل» من بمعنى لام التعليل، والذل: العجز والافتقار، وهو ضد العز، أي ليس له ناصر من أجل الذل. والمراد: نفي الناصر له على وجه مؤكد، فإن الحاجة إلى الناصر لا تكون إلا من العجز عن الانتصار للنفس، ويجوز تضمين الولي معنى المانع، فتكون «من» لتعدية الاسم المضمن معناه.

ومعنى «كبّره»: اعتقد أنه كبير، أي عظيم، العظم المعنوي الشامل لوجوب الوجود والغنى المطلق، وصفات الكمال كلها الكاملة المتعلقة، لأن الاتصاف بذلك كله كمال، والاتصاف بأضداد ذلك نقص وصغار معنوي.

وإجراء هذه الصلات الثلاث على اسم الجلالة الذي هو متعلق الحمد لأن في هذه الصلات إيماء إلى وجه تخصيصه بالحمد. والإتيان بالمفعول المطلق بعد «كبّره» للتوكيد، ولما في التثوين من التعظيم، ولأن من هذه صفاته هو الذي يقدر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسداؤها»^(٢).

من دروس الآية ١١١

١. الحمد لله في البدء والختام، فكل عمل يفتتح بالحمد وافتتح القرآن بالحمد وتفتتح الصلاة بالحمد، وتختتم المجالس بالحمد، وهذه السورة وعدة سور أخرى اختتمت بالحمد، ويوم القيامة يختتم فصل القضاء بالحمد، فالحمد لله أولاً وآخراً: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الزمر: ٧٥ ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَ

(١) قلت: هذا الربط وهذه المناسبة مبنية على احتمال سبب النزول الذي ذكره وهو موضع نظر. وقد لا يسلم من طعن ولا يسلم. والأصل بناء المناسبة على ترابط السياق لا على ما يساق على أنه أسباب نزول!

(٢) التحرير والتوير، ج ١٤، ص ١٨٧ - ص ١٨٨.

- دَعَوْهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾
٢. الولد علامة فقر، والله غني مطلق فما به حاجة إلى الولد.
 ٣. الولد يحتاج إلى صاحبة، والله غني عن هذا وهذا والذين ادعوا الولد لله أحق الخلق طراً.
 ٤. لا شريك لله لا في الخلق ولا في التدبير ولا في أمر من الأمور. والشرك جنون والشرك مخدرات وأفيون، والشرك بدعة الظالمين وضلالة المتحجرين، ليكونوا هم آلهة على الخلق بدل الله الخالق. والتوحيد تحرير والشرك استعباد وقهر وإذلال وبئس المصير.
 ٥. الولي يتخذ للنصرة والتقوية، والله غني عن كل هذا وإنما نحن نحتاج أن نتخذه ولياً.
 ٦. التكبير شعار معركة التحرير وختام سورة التحرير والنصر الكبير لأمة الإسراء على أمة إسرائيل.
 ٧. هذا أروع ختام لهذه السورة المعجبة المعجزة.

والحمد لله على القرآن والإسلام

وعلى الإسراء والنصر القادم إن شاء الله في أرض الإسراء.

المراجع

١. إبراهيم، محمود، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.
٢. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٣. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
٤. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٥. أبو حيان، محمد الأندلسي، البحر المحيط، دار الفكر، ١٤٢٠هـ.
٦. أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.
٧. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
٨. ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف.
٩. أنيس، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ط٦، ١٩٩٤م.
١٠. بركو، عبد بن محمد، المسجد الأقصى المبارك والهيكل المزعوم، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.
١١. البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، دار إحياء التراث، ط١، ١٤٢٠هـ.
١٢. البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
١٣. البيهقي، أبو بكر، أحكام القرآن للشافعي، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٤١٤هـ.

١٤. حوى، سعيد، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٤هـ.
٢٠٠٣م.
١٥. الرازي، أبو عبد الله فخر الدين، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، دار إحياء التراث، ط٣، ١٤٢٠هـ.
١٦. الرومي، جلال الدين، مثنوي، ترجمة: د. إبراهيم الدسوقي شتا، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٧. الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير الوسيط، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ.
١٨. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت / ط٣ - ١٤٠٧هـ.
١٩. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، في مجلد واحد، ط١ بيروت: دار ابن حزم ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٠. السهيلي، عبد الرحمن، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، دار الكتب الإسلامية، ١٩٦٧م.
٢١. سويد، ياسين، حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، دار الملتقى للطباعة والنشر، ١٩٩٧، بيروت، لبنان.
٢٢. السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور، دار الفكر.
٢٣. شعث، أحمد كامل، القدس الجريح محور الصراع الأبدي، مكتبة مدبولي، ط١، ص ١٩٩٦م.
٢٤. الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، بلا طبعة، ١٩٩٧م.
٢٥. شلش، خليل، القدس والمسجد الأقصى في الفكر الإسرائيلي المعاصر، دار المأمون، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
٢٦. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢٧. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دار ابن كثير، ط ١، ١٤١٤هـ.
٢٨. الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة، ط ١، ١٤١٧هـ.
٢٩. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ٢، ١٩٧٢م.
٣٠. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٣١. طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١.
٣٢. عبد الرحمن، عائشة (بنت الشاطئ)، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، ط ٣.
٣٣. السلي، كامل جميل، القدس في التاريخ، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٣٤. السلي، كامل، مكانة القدس في تاريخ العرب والمسلمين، سلسلة التثقيف الشبابي تصدرها وزارة في المملكة الأردنية الهاشمية، ١٩٨٨م.
٣٥. عز الدين، فاروق محمد، القدس تاريخاً وجغرافياً، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١م.
٣٦. عزيمة، محمد عبد الخالق، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، مطبعة السعادة، القاهرة، ط ١، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
٣٧. العقاد، عباس محمود، عبقرية محمد ﷺ، المكتبة العصرية، بيروت.
٣٨. الكيا الهراسي، أبو الحسن الطبري، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.
٣٩. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٤٠. القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ.

٤١. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط٤٢٥. ٢٤٥هـ - ٢٠٠٤م.
٤٢. الماوردي، علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي. تفسير الماوردي = النكت والعيون، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٣. المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٦٥هـ.
٤٤. المقرئ، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٢٢م.
٤٥. نجم، رائف يوسف وآخرون، كنوز القدس، ط١، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٤٦. الندوي، أبو الحسن، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. دار القلم ودار الأنصار، ط١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
٤٧. النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٤٨. يوسف، فرج الله، اغتصاب فلسطين وآثارها، مجلة الفيصل. العدد ٣٣٦، شعبان ١٤٢٧هـ/ سبتمبر ٢٠٠٦م.
٤٩. القدس تاريخ مختطف وآثار مزورة، من منشورات اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمان، ط١، ٢٠٠٩م.
٥٠. المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير لمجموعة من العلماء بإشراف صفي الرحمن المباركفوري، ص ٦٢٠، ط الرياض، دار السلام، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٩	تقديم
١٥	شبكة علاقات سورة الإسراء
١٧	أولاً: علاقات سورة الإسراء بباقي السور المسبّحات
٢٠	السور المسبّحات
٢١	١. الإسراء والحديد
٢٥	٢. الإسراء والحشر
٢٨	٣. الإسراء والصف
٣٠	٤. الإسراء والجمعة
٣٣	٥. الإسراء والتغابن
٣٥	٦. الإسراء والأعلى
٣٧	ثانياً: علاقات سورة الإسراء ببعض السور القرآنية
٣٩	١. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة البقرة
٤٣	٢. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النساء
٤٨	٣. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الأنعام
٥٠	٤. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة يوسف
٥٣	٥. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النحل
٥٦	٦. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الكهف
٦٠	٧. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الفرقان
٦٥	٨. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النمل

الصفحة	الموضوع
٦٩	٩. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الأحزاب
١٢	١٠. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة فاطر
١٣	١١. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الفتح
٧٥	١٢. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة النجم
١٧	١٣. العلاقة بين سورة الإسراء وسورة الإنسان
٧٩	مقدمات عامة عن السورة
٨١	التوحيد كما تعرضه سورة الإسراء
٨٩	حديث سورة الإسراء عن القرآن الكريم
٩٦	اليوم الآخر في سورة الإسراء
١٠٣	قصة موسى وفرعون في سورة الإسراء
١٠٧	قصة آدم في سورة الإسراء
١١٢	الأرض المقدسة في القرآن الكريم وسورة الإسراء
١٢٢	التوجيهات الأخلاقية في سورة الإسراء
١٢٦	حديث سورة الإسراء عن الإنسان
١٣٤	كلمة (الأرض) في سورة الإسراء
١٣٨	تفردات سورة الإسراء
١٣٩	مقاطع سورة الإسراء
١٤١	المقطع الأول: آية الافتتاح
١٥٣	المقطع الثاني: الآيات (٢ - ٨) بنو إسرائيل تشعرون وعلاؤهم ونهاية
١٩٩	المقطع الثالث: الآيات (٩ - ١٧) القرآن.. والإنسان
٢٣٣	المقطع الرابع: الآيات (١٨ - ٢١) كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ

الصفحة	الموضوع
٢٤٥	المقطع الخامس: الآيات (٢٢ - ٢٨) وَقَضَىٰ رَبُّكَ
٢٦٥	المقطع السادس: الآيات (٢٩ - ٣٨) دستور الأخلاق
٢٩٩	المقطع السابع: الآيات (٣٩ - ٤٤) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ
٣١٣	المقطع الثامن: الآيات (٤٥-٤٨) القرآن والمحجوبون
٣٢٥	المقطع التاسع: الآيات (٤٩-٥٣) عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً
٣٣٥	المقطع العاشر: الآيات (٥٤ - ٦٠) إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ
٣٥١	المقطع الحادي عشر: الآيات (٦١ - ٦٥) قصة آدم والشيطان
٣٦٣	المقطع الثاني عشر: الآيات (٦٦ - ٧٠) الفطرة تعرف ربها
٣٧٥	المقطع الثالث عشر: الآيات (٧١ - ٨١) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ
٣٩٩	المقطع الرابع عشر: الآيات (٨٢ - ٨٩) القرآن والروح والشفاء
٤٢٧	المقطع الخامس عشر: الآيات (٩٠ - ٩٦) مقترحات الكافرين على الرسول
٤٣٩	المقطع السادس عشر: الآيات (٩٧ - ١٠٠) وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً
٤٤٩	المقطع السابع عشر: الآيات (١٠١ - ١٠٤) جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً
٤٥٩	المقطع الثامن عشر: الآيات (١٠٥ - ١٠٩) وَيَالْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ
٤٧١	المقطع التاسع عشر الختامي: الآيات (١١٠ - ١١١) وَكَبَّرَهُ تَكْبِيراً
٤٨٢	المراجع